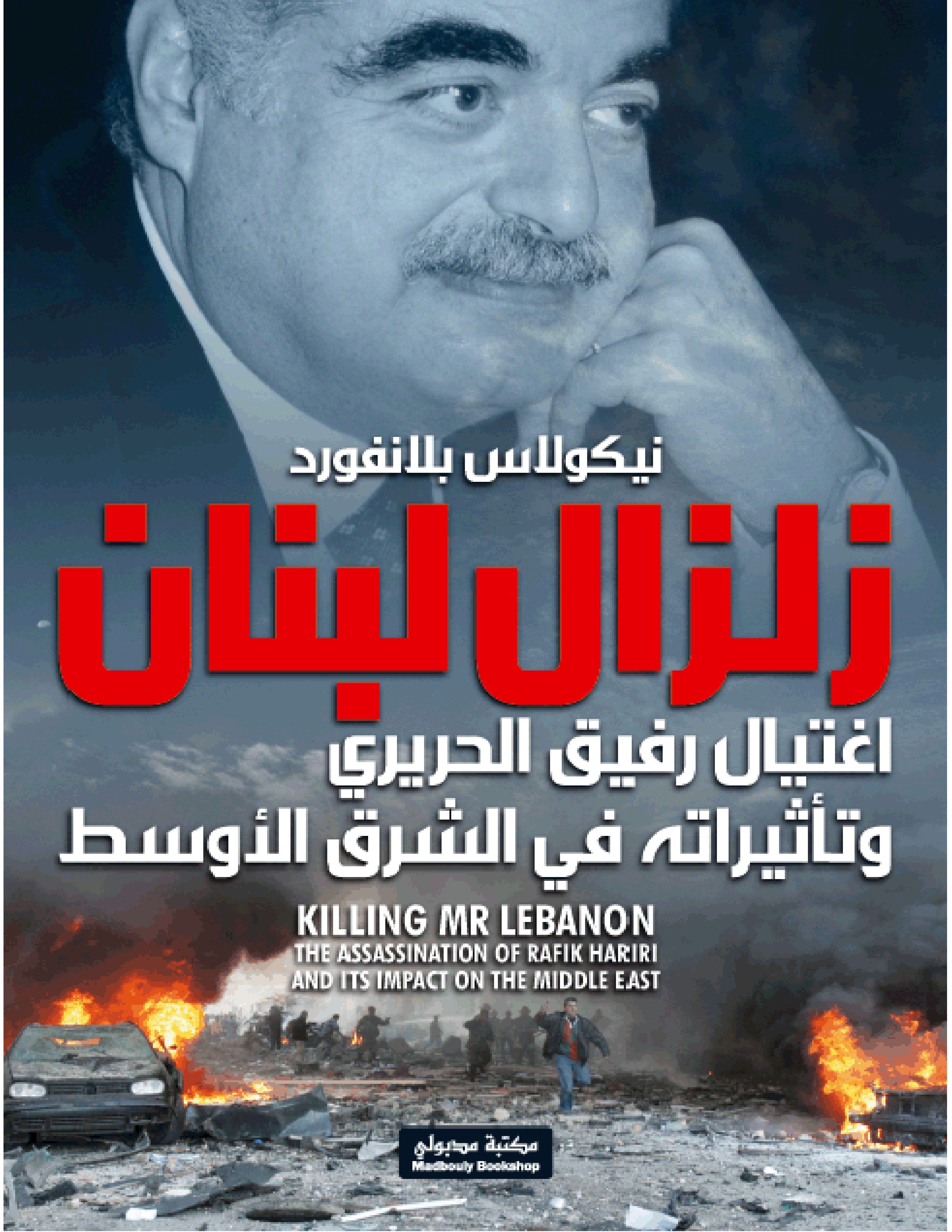
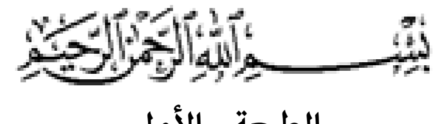


نيكولاس بلانفورد
زلزال لبنان
اغتيال رفيق الحريري
وتأثيراته في الشرق الأوسط
KILLING MR LEBANON
THE ASSASSINATION OF RAFIK HARIRI
AND ITS IMPACT ON THE MIDDLE EAST
مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

زلزال لبنان
اغتيال رفيق الحريري وتأثيره في الشرق الأوسط

تأليف:
نيكولاس بلانفورد

مكتبة مدبولي
Madbouli Bookshop



الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ISBN: 978-614-421-979-9

مكتبة مدبولي

Madbouli Bookshop

6 ميدان طلعت حرب - القاهرة

هاتف: 5756421 - فاكس: 5752854

البريد الالكتروني: info@madboulybooks.com

مقدمة

كنت أعمل في المنزل عندما دوّى الانفجار الذي قتل رفيق الحريري، على بُعد كيلومترين من فندق سان جورج، محدثاً اهتزازاً عنيفاً للنوافذ، محطّماً زجاج بعضها غير الثابتة. فاتّصلتُ بقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في جنوب لبنان، وهي مصدر معلوماتي، مفترضاً أن طائرةً تابعةً لسلاح الجوّ الإسرائيلي تسبّبت بما يشبه قصف الرعد هذا بعد خرقها جدار الصوت على علوٍّ منخفض فوق بيروت، وهو عرض عضلات غالباً ما عنى اضطراباً على امتداد حدود لبنان الجنوبية مع إسرائيل. ولكن المصادر قالت إن كل شيء هادئ في الجنوب، عِلماً أنها كانت تلقّت معلومات من زملائها في بيروت بوجود دخان متصاعد من منطقة الفنادق القائمة في الجهة البحرية من وسط المدينة التجاري.

وبعد دقائق، كنت ألوّح ببطاقتي الصحافية اللبنانية وأشقّ طريقي عبر طوقٍ أمنيٍّ ضربه الجنود محاولين إغلاق موقع الانفجار. وكنت قد مررت بالقرب من فندق سان جورج، وبصحبة زوجتي وولدَيّ، قبل ساعةٍ من الانفجار، وهي رحلةٌ روتينية بالسيارة نقوم بها صباح الاثنين قاصدين منطقة الحمرا التجارية في النصف الغربي من المدينة. ولكن الأشلاء والاضطراب العام في الشارع المقابل لفندق سان جورج لم يكن يمتّ إلى الروتين بشيء. وبعكس العديدين في الغرب قد يكون اسم بيروت ما يزال يستحضر صوراً عن العنف الذي وصفه الفيلسوف الإنكليزي ثوماس هوبز. فقد كانت بيروت مقرّي الرئيسي لأكثر من عقدٍ من الزمن. وكانت الحرب الأهلية التي دامت 16 عاماً قد انتهت عام 1990، أي قبل أربع سنواتٍ من انتقالي إلى لبنان. وبالرغم من استمرار إراقة الدماء طوال التسعينيات في هضاب ووديان الجنوب الصخرية حيث حارب مقاتلو حزب الله قوات الاحتلال الإسرائيلية، كانت بيروت مدينةً تنعم بالسلام. وإن مشاهدة رجال الإطفاء يتفحّصون بلطفٍ الجثث الهامدة، المسودَّة والمطاطية في هيكل سيارةٍ ينبعث منه الدخان، مع محاولة عدم التعثّر بقطعٍ ثخينة من الإسفلت وكتل التراب المتناثرة على الطريق وهم يطرفون أعينهم للتخلّص من الدموع التي تسبّب بها الدخان اللاذع، لم تذكّرني ببيروت بل ببغداد أو بأحد الأيام الأكثر دموية في جنوب لبنان في التسعينيات من القرن الماضي.

وكان هناك شخصان فقط يمكن تبرير تعرّضهما لاغتيالٍ بمتفجّرةٍ بهذه الضخامة، لذا فكّرت بوليد جنبلاط، زعيم السلالة الدرزية الأكثر بروزاً

وهو منتقدٌ جريء للهيمنة السورية الطويلة الأمد على لبنان، أو السيّد حسن نصر الله، أمين عام حزب الله. ولكن نصر الله نادراً ما كان يغادر معقله الحصين في الضواحي الجنوبية من بيروت، وكانت منطقة الفنادق في بيروت موقعاً غير محتمل للإجهاز على زعيم حزب الله.

محمد عزاقير هو من نقل إليَّ الخبر، وهو مصوّر فوتوغرافي متمرّس لوكالة أنباء رويترز. وبوجهٍ ملؤه الحزن والألم قال "نالوا من الحريري".

الحريري؟ مات؟ مستحيل؟

عندما وصلت إلى لبنان، كان الحريري رئيساً للوزراء منذ عامَين، وكان حضوره الذي هو أوسع من الحياة يهيمن على البلد. كان برنامجه الوطني لإعادة البناء قيد التنفيذ، وكانت سوليدير، وهي الشركة الخاصة لإعادة بناء وسط المدينة التجاري، قد بدأت للتوّ ناسفةً بالديناميت الأنقاض التي خلّفتها الحرب في وسط المدينة القديم. كان نشاطه وحماسته جليَّين. وعندما افتتح مبنى الوصول والمغادرة الجديد في مطار بيروت الدولي في العام 1998، والذي يُعتبر سمةً لمنجزاته، كنت من ضمن مجموعةٍ من المراسلين الذين تعقّبوا الحريري مسرعين عندما كان يجول في أرجاء القاعات والممرّات البرّاقة الفارغة، وكان الموكب المرافق له يبذل جهداً كبيراً لمجاراة خطواته السريعة. فقد كان يتوقف من حينٍ لآخر لتفحّص حزام نقل حقائب السفر، أو قصّ شريط، أو الابتسام للمصوّرين الفوتوغرافيين ومن ثم مواصلة السير. وكان بالإمكان الشعور بأنه وضع علامةً ذهنية على أحد منجزاته المُدرَجة على قائمة "الأمور التي يتمّ التخطيط لإنجازها".

وفي المقابلات، كان يعطي الحريري إجابات مشابهة ومكرّرة باستمرار عن مسائل سياسية كالعلاقة بين لبنان وسوريا، أو حرب المقاومة في جنوب لبنان. ولكن ما إن يتمّ الانتقال بالحديث إلى إعادة البناء حتى تشعّ عيناه. وفي إحدى مقابلاتي مع الحريري عام 1996، سألته عن كيفية رؤيته للبنان على مشارف القرن الجديد. فهذا النوع من الأسئلة هو ما كان يستهوي الحريري.

"سيتمّ إنجاز البنية التحتية للبلد"، قال ببسمة عريضة مقتنعة. "أرى الكثير من الصناعات الخفيفة في المناطق الحرّة. أرى الطرقات والفنادق منجَزة وأحواض رسوّ السفن عاملة. أرى بيروت جوهرةً مضاءة في الليل".

ولكن الوقائع السياسية المظلمة في لبنان كانت تحول دون تحقيق ما يتخيّله من أمور. ومنذ العام 2000 فصاعداً، قُيِّد الحريري بصراعٍ مريرٍ

ومحفوفٍ بالمخاطر حول التحكّم بشؤون لبنان، وقد أثار هذا الأمر خصمَيه اللدودَين إميل لحود، وهو الرئيس اللبناني وقائد الجيش السابق، والنظام السوري بقيادة الرئيس بشار الأسد.

واحتدمت المعركة حول لبنان مع بداية حرب إدارة بوش على الإرهاب واجتياح العراق عام 2003. وبازدياد الضغوط على سوريا، اتّبع بشار في علاقاته مع اللبنانيين قاعدة الرئيس بوش القائلة "إما تكون معنا أو تكون ضدّنا". ومُتخَماً (مزوّداً) بحملة التشهير المؤذية التي قام بها اللبنانيون الموالون لسوريا، بات النظام في دمشق ينظر إلى الحريري أكثر فأكثر على أنه تهديد سنّيٌّ مقتدر يتآمر مع الأميركيين والفرنسيين ضد سوريا. ولكن الحريري كان ينشد التسوية وتهدئة الخواطر، ولم يسعَ إلاّ إلى جعل العلاقات بين بيروت ودمشق أكثر إنصافاً للفريقَين، وذلك بعيداً عن هيمنة أجهزة المخابرات السورية واللبنانية. وعقد اتفاقاً مع حزب الله حول أسلحته وكان يرغب في استخدام صِلاته الدولية لتخفيف الضغط عن دمشق. وأراد الحريري ببساطة الاتفاق مع سياسيين مماثلين له في دمشق لا مع لواءٍ في مركز قيادة المخابرات العسكرية السورية في بلدة عنجر اللبنانية. وأراد الحريري أن يكون صديق سوريا، ولكن السوريين ظنّوا أنه عدوٌّ لهم.

وكانت سلسلة الأحداث المثيرة مأساةً شكسبيرية في الواقع بسبب إساءة الفهم.

وعندما ناقشت مع آي. بي. توريس فكرة وضع كتابٍ عن اغتيال الحريري وأثره على لبنان وعلى المنطقة، كانت ما تزال القوات السورية على الأرض اللبنانية، وكان ما يزال هناك أكثر من شهرٍ لإجراء الانتخابات البرلمانية في لبنان. ورغبت في رواية الأحداث في الكتاب كما جرت لأنها تُضفي درجةً عالية من الإقناع، وذلك بالرغم من تجذّرها في تعقيدات السياسات المشرقية بسبب ما تحتوي من مواضيع عامّة عن الجشع والنفوذ والخوف والتنافس والرّيبة والقتل، إضافةً إلى أسس الظرف الإنساني الذي يتجاوز المنطقة واللغة والثقافة.

وأجريتُ مقابلاتٍ متعلّقة بالكتاب مع أكثر من 70 شخصاً، وكان العديدون منهم على علاقةٍ وثيقة بالحريري على الصعيد المهني أو الشخصي على حدٍّ سواء. وما بات جليّاً في مرحلةٍ مُبكِرة من بحثي هو ما كان للحريري من أثرٍ بارز على أولئك الذين عرفوه. وقد بكى العديد ممّن أجريت معهم مقابلات لدى استعادتهم ذكرياتٍ مرتبطة بالحريري؛ فلم

يتمالك أحدهم نفسه عن البكاء في أحد المقاهي ونشَجَ بهدوءٍ لدقائق عدّة؛ كما فقد وزيرٌ في الحكومة القدرة على الكلام لشدّة انفعاله وطلب إيقاف المقابلة مؤقّتاً. حتى إن أعداء الحريري الثابتين على مواقفهم كانوا يُدخلون إلى سياق انتقاداتهم المتعلّقة بسياساته الاقتصادية والسياسية جُمَلاً اعتراضية تمتدحه مؤكّدين أنهم أُعجبوا به على الدوام على المستوى الشخصي.

أودّ التعبير عن امتناني النابع من القلب لكل أولئك الذين منحوا جزءاً من وقتهم لإجراء مقابلاتٍ معهم تتعلّق بهذا الكتاب، سواءٌ كانت مسجَّلة أم غير معَدَّة للنشر، وأُجريت المقابلات مع البعض منهم في جلساتٍ عدّة. وتظهر تواريخ المقابلات في الحواشي. ولم أُضف تواريخ المقابلات إلى المصادر الواجب إغفالها لتجنّب تحديد هويّتها.

وبالإضافة إلى ذلك، أودّ توجيه الشكر لشهير إدريس من تلفزيون المستقبل التي كانت مفيدة ومساعدة بشكلٍ هائل لتسهيل إجراء المقابلات؛ وأنا مدينٌ أيضاً لأمل مُدلَّلي لأنها ساعدت على تنظيم المقابلات الرئيسية مع عائلة الحريري ومجموع مساعديه. شكرٌ كبير لجوشوا لانديس، أستاذ التاريخ في جامعة أوكلاهوما ومُنشئ موقع syriacomment.com ، وسكوت ماكلود، مراسل الـ تايم في الشرق الأوسط، وهما صديقان فاضلان انكبّا على المخطوط فصلاً فصلاً وزوّدوني بنصائح وتعليقاتٍ وتصحيحاتٍ بتصميمٍ حكيمة وموثوقة. شكرٌ خاص أيضاً لأبيغايل فيلدينغ - سميث، محرّري في آي. بي. توريس، وقد أسهم سداد رأيه في كبح جماح تجاوزات مخيّلتي التي تفتقر إلى الترويض، وساعد على صياغة ما نأمل في أن يكون كتاباً مقروءاً وإخبارياً ممتعاً.

شكرٌ واعتذار لولدَيّ، ياسمين وألكسندر، اللذين لم يريا والدهما إلا قليلاً في الأشهر الثمانية التي تطلّبها وضع هذا الكتاب. وأودّ شكر زوجتي ريم بصفةٍ خاصة. فبدون دعمها الثابت وصبرها ولطفها، لما كان إنجاز هذا الكتاب ممكناً. فلها أهدي هذا الكتاب.

نيكولس بلانفورد

بيروت

الفصل الأول : العدّ التنازلي

الاثنين، 14 شباط/فبراير 2005. الساعة 7:10 صباحاً

كان يشعر عدنان البابا بالقلق (1) . فطيلة 28 عاماً، كان السكرتير الخاص لرفيق الحريري، معالجاً تفاصيل جدول الأعمال المُضني للسياسي البليونير بدءاً بتنظيم رحلات ما وراء البحار وانتهاءً بربطة العنق التي عليه ارتداؤها كل يوم. وقضى البابا مع الحريري وقتاً أطول ممّا قضاه مع عائلته، فعرف مِزاجاته، وأذواقه، وعاداته، وخصاله، بشكلٍ حميم. ولكنه نظر بعين القلق إلى تبدّل رئيسه وصديقه. ففي غضون أسبوعٍ واحدٍ فقط، اكتسب شعر الحريري الأسود والثخين وشاربه لوناً فضّياً على نسقٍ واحد، وكانا يتحوّلان إلى اللون الرمادي بانتظام، وهو مؤشّرٌ بارز إلى ما كان يتعرّض له الحريري من ضغوط، كما كان يظنّ البابا.

لم يكن الحريري قد نام جيّداً وكان مستيقظاًَ عندما قرع البابا بلطفٍ باب غرفة نومه في الطابق السابع من قصره في منطقة قريطم في بيروت والذي كان منزل الحريري ومقرّ قيادته في آن. ومع ذلك، فقد كانت معنويّاته مرتفعة، واتصل هاتفيّاً بهاني حمّود، وهو مستشارٌ وثيق الصلة به، للانضمام إليه.

كانت زوجة الحريري، نازك، في باريس، لذا تناول طعام الفطور بمفرده، وهو كناية عن وجبةٍ خفيفة من اللبنة وزيت الزيتون والقليل من الخبز المحمَّص والخيار والبندورة الطازجة. فقد كان يحاول تخفيض وزنه مجدَّداً، وكان أطبّاؤه يُلحّون عليه على الدوام للانتباه إلى ضغط دمه المرتفع.

ومقلّباً البذلات في إحدى الخزائن، اختار البابا للحريري بذلة زرقاء داكنة، وقميصاً أبيض، وربطة عنقٍ مقلَّمة باللون الأزرق والأبيض، ليرتديها. وكان الحريري جالساً في الردهة المُلحَقة بغرفة النوم يحتسي قهوة الإسبريسُّو العادية المضاعَفة، مُلقياً نظرةً عاجلة على الصحف. لاحظ أن عمليات الاعتقال المرتبطة بفضيحة زيت الزيتون كانت بارزةً في معظم الصفحات الأولى. وكان قد اعتُقل بعض العاملين في الجمعيّات الخيرية التابعة للحريري يوم السبت واتُهموا برشوة ناخبين محتمَلين بصفائح من زيت الزيتون قبل أربعة أشهر من الانتخابات البرلمانية. وكانت جمعيّته الخيرية توزّع كل عامٍ حصصاً غذائية تحتوي على صفائح من زيت الزيتون للعائلات المعوزة كهديةٍ خلال الصوم في شهر رمضان المبارَك. وفي العام 2004، حلّ رمضان

في موسم حصاد الزيتون، لذا فقد احتوت الحصص على ملاحظاتٍ تَعِد بتوزيع الزيت ما إن يتمّ إعداده ووضعه في صفائح. واعتبر الحريري الاعتقالات سخيفة، وهي محاولة واضحة وخرقاء من السلطات للتهويل عليه أكثر فأكثر. حتى إن الشيخ محمد قبّاني، وهو مفتي الطائفة السنّية في لبنان، أدان الاعتقالات.

ولكن الحادث عكس الضغط المتصاعد الذي كان يتعرّض له من أخصامه السياسيين في الحكومة ووسط حلفاء سوريا اللبنانيين. وفي الأسبوع السابق، بلغت عدائية المعسكر الموالي للحكومة حيال المعارضة مستوياتٍ جديدة، ولا سيّما حيال الحريري وحليفه الوثيق وليد جنبلاط، زعيم السلالة الدرزية الأكثر بروزاً في لبنان. وكانت حدّة التهجّمات العلنية المُرفَقة بتهديداتٍ متكرّرةٍ بالموت وبتحذيراتٍ من المجتمع الدولي تُحدث حالةً حقيقية من عدم الارتياح. وكان الحريري يحاول ضاحكاً طمأنة الأصدقاء القلقين على سلامته وعائلته ومجموع مساعديه، من المخاطر المُحدِقة به، ولكن الضغوط التي واجهها في الأشهر السابقة نجمت عنها أضرارٌ جسدية. فصاحب الجسم الممتلئ والصدر المنشرح، كالعادة، أصبح غارقاً في التفكير أكثر فأكثر وبدأت ملامحه تشير إلى أنه بلغ عامه الستين. وكما أشار البابا، فقد بات شعره فضيّ اللون بين عشيّة وضحاها تقريباً.

الساعة 7:30 صباحاً

كان الفريق الأمني التابع للحريري قد بدأ المسح الروتيني اليومي بحثاً عن القنابل عندما وصل عامر شحادة إلى قصر قريطم ليلتحق بالعمل. وكان شحادة رجلاً قويّاً، قصيراً وبديناً، وفي العقد الخامس من العمر، مع شارب مقلَّم وشعرٍ قصيرٍ أشيب، وكان قد عمل لصالح الحريري منذ العام 1983 عندما كان يوفّر الأمن للمقرّ الرئيسي لمؤسسة الحريري في بيروت. وكان يحيى العرب المعروف عموماً بأبي طارق يرأس الفريق الأمني المؤلَّف من 100 شخص. وأبو طارق حارسٌ شخصي للحريري منذ أواخر السبعينيات من القرن الماضي، وكان شخصيةً مألوفةً للعديد من اللبنانيين إذ كان يظلّل رئيسه على الدوام غير مبتسم، وعيناه مخبّأتان وراء نظّاراتٍ داكنة اللون. وكان فريقه مسؤولاً عن حماية أفرادٍ عدّة من عائلة الحريري، إضافةً إلى ضمان أمن أماكن إقامته في لبنان - منزل قريطم في بيروت، المنزل في منتجع فقرا الجبلي، الشاليه على شاطئ الناعمة جنوب بيروت. ولمعظم حرّاسه الشخصيين سنواتٌ من الخبرة، وكانوا كلّهم مدرَّبين بشكلٍ احترافي من قِبَل الشرطة البريطانية والفرنسية والأردنية. وكان بعض أفراد

الفريق الذين هم في الخدمة الفعلية قد أنهوا في ذلك اليوم دورةً دراسية تذكيرية في اللياقة والتدرّب على الأسلحة في الشاليه في الناعمة.

وأُعلم شحادة أنه سيقود سيارة المقدّمة عندما يغادر موكب الحريري قريطم في وقتٍ لاحقٍ من الصباح. وكالعادة، لن يعلم شحادة بوجهة السير إلا عندما يكون الموكب على وشك المغادرة. ولكنه كان يعلم أن ذلك اليوم هو الأول في دورةٍ لثلاثة أيام في البرلمان لمناقشة القانون الانتخابي الذي ستجري الانتخابات البرلمانية وفقاً له في أيار/مايو، ومع رغبة الرئيس في حضور الدورة.

قصر الحريري حصنٌ في الواقع. فهو محاط بالجدران الحجرية التي ترتفع ثلاثة أمتار، وتحيط بالمبنى، أسلاكٌ شائكةٌ مكوَّرة وشاشاتٌ للمراقبة تمنع الفضوليين، بمساعدة صفٍّ كثيفٍ من أشجار الصنوبر، من إلقاء نظرةٍ إلى الداخل. وكانت آلات التصوير الأمنية والأنوار الكاشفة تراقب كافة الطرقات المؤدّية إلى المقرّ على مدار ساعات اليوم الـ 24. وكان الحرّاس الشخصيون يجوبون الشارع ذهاباً وإياباً، وببطء، برفقة كلابٍ بوليسية، باحثين عن متفجّراتٍ مخبَّأة. وهذه مهمّةٌ يؤدّيها الفريق ثلاث مراتٍ في اليوم على الأقل، متفحّصاً مداخل المبنى والشوارع المحيطة به عن بُعد حوالى 200 متر تقريباً.

وكان يتمّ تفتيش سيارة الحريري الشخصية أيضاً، وهي من طراز بأداةٍ مسحها ويتمّ والخارج الداخل من ،اللون سوداء 600 - S مرسيدس وفقاً معَدَّةً المصفّحة المرسيدس وكانت .الكيميائية المتفجرات عن للكشف والألياف بالفولاذ المصفَّح جسمها إن إذ ،بي6/بي7 الأقصى الحماية لمستوى كاربونايت البولي من بطبقةٍ المغلَّفة ونوافذها ،عالية تكنولوجيا تعتمد التي بندقيةٍ نيران مقاومة على قادرةٌ ،(للحرارة ومقاوم عالٍ عزل ذات مادة) بخزّان أيضاً مجهَّزةً وكانت .يدوية رمّاناتٍ وانفجارات للدروع خارقة حربية بسرعةٍ الفرار من السيارة تمكّن مسطَّحة وبإطاراتٍ ذاتيّاً التسرّب يمنع وقود من سياراتٍ الشخصيون الحرّاس ويقود .مثقوبة كانت وإن حتى كمين من الحماية عربات من كلٌّ وتحتوي .مصفّحة غير 500 - S مرسيدس طراز التي الإلكترونية الإشارات لمقاومة ميغابايت أربعة بقوّة أجهزةً المواكِبة الثلاث في والأقوى الأحدث هي الأجهزة وهذه ،قنابل لتفجير استخدامها يمكن .السوق

الساعة 8:45 صباحاً

تأخّرت كارول فرح 15 دقيقة عن موعد عملها في فندق سان

جورج القائم على الواجهة البحرية من منطقة ميناء الحصن في بيروت. وألقت اللوم على الحفلة التي حضرتها في الليلة السابقة والتي دامت حتى ساعةٍ متأخّرة. ودخلت كارول، وهي امرأةٌ نحيلة في أواخر الثلاثينيات من العمر مع شعرٍ أشقر مقلَّم، مكتبها في الطابق الأول من البناء الملحَق بالسان جورج، وهو مبنى من 10 طوابق ذات واجهةٍ حجرية على الجانب الآخر من الطريق الناشط القائم على الواجهة البحرية من أطلال الفندق. وكان فندق سان جورج يوماً الفندق الأكثر شهرةً في بيروت، إن لم يكن في الشرق الأوسط، وكان منتجَعاً بحرياً أسطورياً للدبلوماسيين والصحافيين والجواسيس والمنظمات الإجرامية المنوَّعة التي داورت وناورت أبّان السنوات الذهبية في لبنان في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. ولكن الحرب التي امتدّت بين عامَي 1975 و1990 كانت قد حوّلت الفندق إلى هيكلٍ أحدث فيه الرصاص ندوباً، واستخدمه الجنود السوريون مأوىً لهم في معظم سنوات العقد الأخير من القرن الماضي. ولم يكن قد رُمِّم المبنى المربّع ذو السطح المنبسط حتى ذلك الوقت بعد، والمؤلَّف من خمس طوابق وجدرانٍ زهرية اللون شاحبة ومن شُرَفٍ مُعْتَرَشَة بيضاء، ولكن برك السباحة الملاصقة والمطعم الخارجي لنادي اليخوت التابع للسان جورج استأنفا الدور الذي لعباه في مرحلة ما قبل الحرب كنادي اليخوت الأساسي للبيروتيين القادرين على التمييز بين الأشياء.

وكانت كارول تنظّم حفلة عشاءٍ بمناسبة يوم السان فالانتاين (عيد الحب) لـ150 شخصاً ذلك المساء، وتزامنت هذه المناسبة أيضاً مع افتتاح المطعم للمرّة الأولى خلال أشهر الشتاء، وقد زُوِّد بالزجاج حديثاً وأُنشئت بمحاذاته بركةٌ للسباحة.

الساعة 9:15 قبل الظهر

استقلّ الحريري المصعد من مسكنه الخاص في الطابق السابع إلى مكتبه في الطابق الخامس. وكانت مجموعةٌ من 10 إلى 15 شخصاً هم في معظمهم مستشارون وزملاء سياسيون ينتظرون في الردهة كما في كل صباح، ومن بينهم فادي فواز، وهو مساعدٌ للحريري وثيق الصلة به، وكان قد شارك بجدّية في عملية إعادة البناء في مرحلة ما بعد الحرب وذلك في التسعينيات.

"كان في مزاجٍ ممتاز"، يتذكّر فواز. "كان يبتسم ويتحدّث عن نظامه الغذائي الأخير، ويسأل من الذي يودّ تناول وجبة الغداء معه في ذلك اليوم".

وناقشوا التعديلات الأخيرة المرتبطة بقانون الانتخاب، وتطرّق إلى فضيحة زيت الزيتون بشكلٍ هزلي.

"تقوم بأعمالٍ جيدة في هذا البلد فيأخذونك إلى المحكمة"، قال لفواز بابتسامة. "لا يملكون شيئاً ضدّي الآن سوى المشاكسة بزيت الزيتون".

وصل باسل فليحان إلى قريطم في العاشرة صباحاً. وكان فليحان، وهو وزير اقتصادٍ سابق في حكومة الحريري وركنٌ من أركان المجتمع البروتستانتي الصغير في لبنان، قد عاد إلى بيروت من جنيف في الليلة السابقة حيث كانت تُقيم عائلته نتيجةً لارتفاع حدّة التوتّر السياسي في لبنان. وقد حثّته زوجته يَسما على البقاء في سويسرا، ولكنه أراد حضور الدورة البرلمانية. وأخبر يَسما بأنه سيعود إلى جنيف في غضون أسبوعَين. وفي سنّ الـ 41 عاماً فقط، كان فليحان شخصيةً مثقّفةً ومحترَمة في لبنان، ومثالاً للمحترف اللبناني التكنوقراطي الذي يحب الحريري إحاطة نفسه به.

وجاب الحريري الرواق ذهاباً وإياباً بخطواتٍ واسعة ويداه في جيوبه، محادثاً فليحان قبل الجلوس وتناول فنجان قهوة.

"عدنان"، نادى الحريري سكرتيره. "هل لدينا شيء يوم الجمعة؟"

فأخبره عدنان البابا بأن لديه بعض المواعيد يومَي الجمعة والسبت.

"عيد مولد هند يوم الجمعة"، قال الحريري، مشيراً إلى ابنته الوحيدة التي كانت تلازم والدتها في باريس. "إلغِ كل مواعيدي وقُل للربّان أن يُعِدّ الطائرة للسفر إلى باريس يوم الجمعة لقضاء نهاية الأسبوع".

ونظر الحريري إلى ساعته. كانت تشير إلى أن الوقت تخطّى العاشرة والنصف صباحاً. فطلب من عدنان البابا إعلام المفرزة الأمنية المختارة بإعداد سيارته للذهاب إلى البرلمان. ولم يكن من المتوقَّع بدء الدورة البرلمانية حتى الظهر، ولكن الحريري رغب في الوصول باكراً. فالتفت إلى فليحان وقال مبتسماً: "هيّا باسل، لنذهب إلى البرلمان ونحصل على بعض التسلية".

الساعة 10:35 صباحاً

كانت المفرزة الأمنية والكلاب البوليسية ما تزال تنتظر في الشارع. فهي ستبقى هناك تراقب المنطقة بعناية حتى مغادرة الحريري وموكبه. وكان عامر شحادة وراء عجلة القيادة لسيارة المرسيدس التي تتقدّم الموكب عندما خرج الحريري من المدخل الأعلى للمنزل برفقة باسل فليحان. ودخل الرجلان سيارة المرسيدس المصفّحة وجلس الحريري في مقعد القيادة كالعادة. وكان يقود بنفسه على الدوام مستمتعاً بشعور الحرّية. وخرج البابا من

المنزل على عجَل وسلّم الحريري نظّارة القراءة التي كان قد تركها على الطاولة في مكتبه.

"سأعود في الواحدة"، قال الحريري للبابا. وكان قد دعا بعض السياسيين في بيروت إلى الغداء.

"مع السلامة"، أجاب البابا. واندفع الموكب بوقار عبر البوّابة الأمامية وسرّع حركته على امتداد الشوارع الضيّقة نحو الشرق في اتجاه منطقة وسط المدينة.

الساعة 10:45 صباحاً

غطاس خوري طبيبٌ جرّاح، ممتلئ الجسم ويضع نظّارة، وكان عضواً في البرلمان عن دائرة بيروت الانتخابية في كتلة الحريري السياسية. قاد خوري سيارة زوجته الزرقاء الصغيرة من طراز أودي إلى البرلمان. واختار هذه السيارة غير المتميّزة عمداً لأنها كانت أقل لفتاً للأنظار من سيارته المرسيدس الصالون السوداء الاعتيادية. وعلى غرار العديدين من حلفاء الحريري السياسيين، كان يتلقّى وزوجته تهديداتٍ بالموت طيلة أشهر. واعتبر خوري أن شعور الحريري بالثقة كان في غير محلّه. وبالرغم من كل شيء، فقد حذّر تيري رود لارسن، وهو موفدٌ أعلى للأمم المتحدة، الحريري قبل أربعة أيام من أن الوضع سيّئ وعليه الاحتراس. وكان باسل فليحان قد أبلغ من التقى بهم أيضاً لدى وصوله إلى بيروت من جنيف قبل يوم بأنه سمع ببعض التهديدات الجديدة الموجَّهة ضد الحريري وحلفائه.

الساعة 11:00 صباحاً

أبلغ أبو طارق، الحارس الشخصي الأعلى، الحريري بأن نجيب فريجي، المتحدث باسم الأمم المتحدة في بيروت، وبعض الصحافيين موجودون في مقهى النجمة المواجه للبرلمان في الجانب الآخر من ساحة النجمة المرصوفة بالحجارة. فقال الحريري لأبي طارق بأنه سينضمّ إليهم في وقتٍ قريب. وكان جالساً في الغرفة الرئيسية للبرلمان مع مروان حمادة، وزير سابق وعضو برلمان درزي ذي علاقة وثيقة بوليد جنبلاط وعدة زملاء آخرين. وكان حمادة ما زال يسير مستعيناً بعصا بسبب الإصابات التي كان قد تعرّض لها نتيجةً لمحاولة اغتيالٍ بواسطة سيّارة مفخَّخة قبل أربعة أشهر. وهيمن القانون الانتخابي على المحادثة. وكان القانون غير مختلف تقريباً عن انتخابات العام 2000 السابقة، باستثناء تعديلٍ مقترَح يقسّم بيروت إلى ثلاث دوائر انتخابية، وهي خطوةٌ اعتبرها الحريري وحلفاؤه محاولةً لإضعاف تمثيله في العاصمة.

ومنذ تنحّي الحريري عن منصب رئاسة الوزراء في تشرين الأول/أكتوبر من العام 2004، عمل على بناء شبكةٍ من التحالفات السياسية على امتداد الوطن قبل الانتخابات البرلمانية. فتودّد إلى المعارضة بقيادة المسيحيين والدروز، والتي عُرفت بتجمّع البريستول، ولكنه كان يقاوم حتى ذلك الحين الانحياز الكامل إليها مخافة خسارة دعم مجموع الناخبين السنّة إن هو تقرّب كثيراً من الأخصام اللبنانيين لسوريا والأكثر جرأةً في التعبير عن مواقفهم. وعلاوةً على ذلك، كان الحريري رجل تسوية وكان ما زال منفتحاً على إمكانية التقارب بالرغم من أن علاقاته مع دمشق كانت أسوأ من أي وقت مضى. وبالفعل، كانت هناك ثلاثة مساعٍ منفصلة للتوسط بهدف تحقيق مصالحةٍ بين الحريري والرئيس السوري بشار الأسد.

وكان من المرجَّح أن يعاني المشهد السياسي اللبناني من تحوّلٍ دراماتيكي في الانتخابات حتى وإن لم يكن التقارب ممكناً. وكانت المعلومات التي تلقّاها الحريري تُنبئ بالفوز الساحق للمعارضة في كافة مراكز الاقتراع أيّاً تكن التعديلات التي ستدخلها الحكومة على القانون الانتخابي لتلائم المرشحين الموالين. وإذا انقلبت الأكثرية الموالية لسوريا في البرلمان كما كان متوقَّعاً، لن يكون أمام سوريا سوى بلوغ تسويةٍ جديدة مؤقّتة مع اللبنانيين تفرض عليها جعل العلاقات الثنائية قائمة على أسسٍ أكثر إنصافاً.

لندع الحكومة تضع القانون الذي تريد، قال الحريري لزملائه، فإننا سنفوز في كافة الأحوال.

الساعة 12:00 ظهراً

عندما كان فادي خوري، مالك السان جورج، يدنو من الفندق، سأله سائقه يوسف مزهر: "إلى اليسار أو اليمين؟" فاليسار يوصله إلى المكتب في البناء المُلحَق بالسان جورج، واليمين يوصله إلى نادي الشاطئ قرب الفندق.

كان يوماً جميلاً في هذا الوقت من العام، وأشعة الشمس برّاقة، والسماء مصطبغةٌ بالأزرق الداكن، والطقس معتدل. كان بإمكان المكتب الانتظار بينما يتناول فنجان قهوة ويشاهد العمّال يضعون اللمسات الأخيرة على المطعم المرمَّم حديثاً، وكان مشروعه المفضَّل خلال أشهر الشتاء.

"إلى اليمين"، قال خوري.

الساعة 12:15 بعد الظهر

يقع مقهى "اتوال" على بعد خمس دقائق سيراً على الأقدام من مقرّ قيادة الأمم المتحدة الحديث المؤلَّف من ثمانية طوابق، وذي الواجهات

الحجرية والزجاجية. وكان نجيب فريجي، وهو تونسيٌّ أنيق المظهر يدخّن السيكار ويرئس مكتب المعلومات التابع للأمم المتحدة، قد تدبّر أمر لقاء بعض الصحافيين المرموقين في لبنان ليوجز لهم نتائج لقاءٍ في دمشق جرى الخميس السابق بين تيري رود لارسن والرئيس بشار الأسد. وكانت الأمم المتحدة قد كلّفت لارسن مهمّة الإشراف على تطبيق قرار مجلس الأمن رقم 1559. وتضمّن القرار الذي رعته الولايات المتحدة وفرنسا مطالب بإجراء انتخاباتٍ رئاسية لبنانية حرّة وعادلة، وانسحاب الجنود السوريين من لبنان، وتجريد منظمة حزب الله الشيعية من السلاح. وقد تبنّاه مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة في أوائل أيلول/سبتمبر، وقبل 24 ساعة من موافقة البرلمان اللبناني بشكلٍ آلي على تمديد ولاية إميل لحود ثلاث سنوات، وهو الرئيس اللبناني والخصم السياسي اللدود للحريري. وكان القرار 1559 مثيراً للجدل إلى حدٍّ كبير في لبنان، وقد أصرّ منتقدوه على أنه بمثابة تدخّلٍ غير مُجاز في الشؤون اللبنانية.

وكان أربعة صحافيين بارزين جالسين حول الطاولة مع فريجي، ومن بينهم علي حمادة من صحيفة النهار اللبنانية، وهو شقيق مروان حمادة، ووليد شقير من صحيفة الحياة . وبينما كانوا يتحادثون، دخل أبو طارق، الحارس الشخصي للحريري، المقهى وأخبر فريجي بأن الحريري سيكون معهم بعد دقائق قليلة. وكان فريجي والحريري يستغلان فرصة اللقاء من حينٍ لآخر لتبادل الآراء والمعلومات. واعتبر فريجي أن الفرصة ستكون مناسبةً لطلب معلوماتٍ من الحريري حول مسائل مُلحّة.

الساعة 12:25 بعد الظهر

خرج د. غطاس خوري من مبنى البرلمان مع الحريري إلى ساحة النجمة حيث توقّفا لمدّةٍ وجيزة لمناقشة إمكانية ترتيب لقاءٍ مع تجمّع البريستول للحصول على دعمه حول الاعتقالات المرتبطة بقضية زيت الزيتون. فوافق الحريري وسأل عن المكان الذي يُفترَض إجراء اللقاء فيه.

"ماذا عن مكتب تيّار المستقبل؟" اقترح خوري، مشيراً إلى المقرّ الرئيسي للحركة السياسية التي أنشأها الحريري.

وتجهّم وجه الحريري. فقد كان يُعِدّ العدّة لإعلان تحالفه مع المعارضة رسميّاً، ولكن التوقيت لم يكن مناسباً بعد لاستضافة لقاءٍ في مقرّه السياسي الرئيسي. ألا يوجد هناك مكانٌ أكثر محايَدةً يمكنهم الالتقاء فيه؟ أصرّ خوري على مكتب تيّار المستقبل، وقال الحريري إنهما سيناقشان المسألة ثانيةً في وقتٍ لاحق. وغادر خوري إلى مستشفى الجامعة الأميركية

حيث كان مريضٌ مصابٌ بقرحةٍ في المعدة ينتظر اهتمامه ورعايته.

الساعة 12:30 بعد الظهر

هي المرة الأولى التي تواجد فيها سامر رضا في جوار السان جورج منذ شهر، وهو مشرفٌ نحيلٌ في قسم التوزيع في الوسيط ، وهي صحيفةٌ أسبوعية مجانية تتضمّن إعلاناتٍ مبوَّبة، شعره داكن اللون ويبلغ من العمر 25 عاماً. وكان رضا يدلّ متدرّباً على طريق التوزيع في المنطقة. فتوقّفا أمام عدّة متاجر على امتداد شارع فينيسيا قبالة فندق فينيسيا الشاهق وفي (HSBC (مصرف بفرع مروراً ضيّق دربٍ إلى الانعطاف قبل اتجاه .جورج سان وفندق البحرية الواجهة على القائم الطريق

الساعة 12:35 بعد الظهر

عبر الحريري ساحة النجمة نحو مقهى "اتوال" حيث كان عليه التوقف للحظاتٍ لمحادثة مجموعةٍ من النساء كنّ تمارسنَ ضغوطاً لتحقيق تمثيلٍ نسائيٍّ أكبر في البرلمان. وعندما دخل المقهى، انتقل مراسلان صحافيّان كانا يجلسان مع فريجي إلى طاولةٍ أخرى آملَين في انضمام الحريري إليهما.

فالتفت وليد شقير، المراسل الصحافي لـ الحياة، إلى الحريري وأشار إلى فريجي وقال بمرح: "إذا جلست معه، فهذا يعني أنك مع القرار 1559. ولكنك إذا جلست معهما - مشيراً إلى الصحافيين اللبنانيين الجالسين إلى الطاولة الأخرى - تكون مع الطائف"، وهو الاتفاق العائد للعام 1989 الذي ساعد على إنهاء الحرب الأهلية اللبنانية ومهّد الطريق للهيمنة السورية على لبنان.

فابتسم الحريري واتّجه نحو طاولةٍ ثالثة تقع بين تلك الطاولتَين وجلس، ومن ثمّ انضمّ فريجي والصحافيون الأربعة إليه. واستمتع الحريري برفقة المراسلين الصحافيين. فعندما كان رئيساً للوزراء، كان بالإمكان العثور عليه في الأمسيات قاضياً وقتاً أكبر في مراجعة محتويات صحيفته المستقبل بتأنٍّ، مقارنةً مع ما كان يقضيه من وقتٍ في التركيز على شؤون الدولة.

وناقشوا الانتخابات القادمة وحالات التوتّر التي يشهدها البلد. وأخبرهم الحريري بأنه سيُخرج عدداً من أعضاء البرلمان الموالين لسوريا من كتلته البرلمانية، وقد كان مضطرّاً لضمّهم إلى كتلته عام 2000 وقد دعاهم "الطاعنون في الظهر". كانت خطوةً جريئة، وكرّر لفريجي عدّة مرّاتٍ كيف غدت العلاقات بين الحريري والسوريين نكِدة.

"كل ما أحتاج إليه هو سبعة أعضاء من البرلمان يمكن الاتّكال عليهم وسينضمّ الباقون إلينا"، قال الحريري.

وقال لفريجي إنه يريد التحدّث معه على انفراد. وخرج الرجلان وجلسا إلى طاولةٍ فارغة.

وطلب فريجي من الحريري بعض المعلومات حول حادثٍ دبلوماسي مُحرِج حصل على هامش لقاء لارسن ببشار الأسد قبل أربعة أيامٍ من تدخّل اللواء رستم غزالة، رئيس جهاز الأمن والاستطلاع العسكري السوري في لبنان وممثّل دمشق الأكثر قوةً في لبنان. واستمع الحريري إلى رواية فريجي حول ما حصل وقال: "إنسَ أمر غزالة. لا تُعِره أي أهمية. لا تذهب للقائه. هو عديم النّفع".

وانتقل فريجي من ثمّ إلى موضوع حزب الله الذي كان مُلزَماً بتفكيك جناحه العسكري وفقاً للقرار 1559. ونصح الحريري فريجي بوجوب قيام الأمم المتحدة بالتعاطي مباشَرةً مع المجموعة الشيعية. وبالرغم من أن قسماً كبيراً من الغرب يعتبرون حزب الله منظمةً إرهابية، فقد كان لاعباً سياسياً هامّاً في لبنان ويُفترَض معاملته بعناية.

"تأكّد من إخبار الأميركيين بذلك قبل ذهابك؛ وإلا فإنهم سيقلقون"، قال الحريري. "ولكن عليك التحدّث إلى حزب الله بالتحديد".

وعاد الرجلان إلى المقهى وانضمّ إليهما باسل فليحان وسمير الجسر، وهو عضوٌ سنّي في البرلمان عن مدينة طرابلس في الشمال وحليفٌ للحريري.

وأجرى الحريري اتصالاً هاتفياً وجيزاً طالباً لقاء أحد المستشارين قبل الغداء، ومن ثمّ أعلم الفريق الأمني بأنه جاهزٌ للمغادرة.

الساعة 12:48 بعد الظهر

كان الموكب ينتظر على أحد جانبَي الطريق قرب مبنى البرلمان. وأعلم أبو طارق شرطي المواكبة ومساعده طلال ناصر حول الطريق التي يجب سلوكها للعودة إلى قريطم. فقد كان أمامهم ثلاثة خيارات. الأول هو الأطول ويتّجه جنوباً خارج ساحة النجمة تابعاً الطريق العام في اتجاه المطار قبل الالتفاف حول النصف الغربي من المدينة وصولاً إلى قصر قريطم. وتوصل الطريق الثانية الموكب إلى الغرب تماماً إلى مكانٍ قريبٍ من الثكنات العسكرية المرمَّمة التي تعود للعهد العثماني، والتي باتت تضمّ مكاتب رئيس الوزراء، ومن ثمّ مروراً ببرج المرّ المهجور المؤلّف من 32 طابقاً، والذي كان موقعاً مُشرفاً مفضَّلاً للقنّاصة إبّان الحرب. وبعد ذلك، يتّجه الموكب إلى منطقة الحمرا التجارية الناشطة قبل بلوغ قريطم. وامتدّت الطريق الثالثة بمحاذاة الشاطئ شمال ساحة النجمة، ومروراً بمرفأ اليخوت

الجديد وفندق سان جورج على امتداد الطريق القائم على الواجهة البحرية. فاختاروا طريق الشاطئ. وكان أطول قليلاً من الطريق المؤدّي إلى قريطم مروراً بالحمرا، ولكن الرئيس كان يريد الوصول إلى قريطم في الساعة الواحدة بعد الظهر، وهذا الطريق أسرع في هذا الوقت من اليوم.

وغادر الموكب تدريجيّاً المكان الذي كان يركن فيه إلى جانب الشارع وتوقف بالقرب من المقهى في الساحة المرصوفة بالحجارة.

الساعة 12:53 بعد الظهر

انتهت المحادثة في مقهى "اتوال" وخرج الحريري برفقة باسل فليحان واتجها نحو الموكب المنتظِر. فدخل فليحان سيارة المرسيدس وجلس في مقعد الركاب الأمامي بينما كان الحريري يلوّح لفريجي والمراسلين الصحافيين مبتسماً.

ولفت فريجي نظر حمادة إلى السيارة السوداء الشبيهة بعربة نقل الموتى، والتي كانت تنتظر في مؤخّرة موكب الحريري المؤلَّف من ست سيارات.

"هذه ليست عربة لنقل الموتى"، قال حمادة. "هذه إحدى سيارات الإسعاف الأكثر تطوّراً في العالم".

وفي مؤخرة سيارة الإسعاف، وهي شفروليه (Chevrolet (،معدَّلة
كان يجلس رشيد حمود وهو اختصاصي بالجهاز التنفّسي في مستشفى
الجامعة الأميركية في ،بيروت وعمل مسعفاً منذ العام 1993 في فريق
أنه عِلماً ،الأمامية المقصورة عن يفصله خشبياً حاجزاً وكان .الطبّي الحريري
يمكنه رؤية السائق محمد عويني عبر فتحةٍ ضيّقة، والمسعف الطبّي ،الثاني
مازن ذهبي، الذي كان قد بدأ العمل مع الفريق قبل ثلاثة أشهر. وكان
موقع سيارة الإسعاف في مؤخّرة الموكب على الدوام، وعليها البقاء على بعد
30 متراً من الموكب متى سمحت حركة المرور بذلك. وإذا وقع الموكب في
كمين، من الأساسي بقاء سيارة الإسعاف في منأى عن التعرّض للضرر.
وكانت سيارة من طراز تويوتا لاند كروزر (Toyota Land
Cruiser) تتقدّم الموكب ويجلس فيها أربعة شرطيين من قوى الأمن
الداخلي، وتتبعها سيارة مرسيدس يقودها عامر شحادة برفقة حارسَين
شخصيَّين هما محمد ضيا في المقعد الأمامي وحسن عجوز في المقعد
الخلفي. وكانت سيارة الحريري المصفّحة الثالثة تتبعها سيارتا مرسيدس
إضافيّتان تحمل كلٌّ منهما ثلاثة حراس شخصيين. وكان أبو طارق يجلس في
المقعد الأمامي في السيارة الرابعة التي تتولّى مهمّة حماية الجانب الأيمن

الطريق من اليسرى الجهة الخامسة المرسيدس سيارة وتلزم .الحريري لسيارة الثلاثة الشخصيون الحراس ويحمل .الحريري لسيارة الأيسر الجانب لحماية كوتش إند هيكلر طراز من رشاشة مسدساتٍ الأمامية المقاعد في الجالسون مقابض مع الوزن وخفيفة صغيرة أسلحةٌ وهي ،(Heckler & Koch) الرجال ويحمل .البذلة سترة تحت منفصل بشكلٍ إخفاؤها يمكن للطيّ قابلة الموكب حماية سيارات من الخلفية المقاعد في الجالسون الآخرون الثلاثة مسدساً شخصي حارسٍ كل ويحمل .قوة أكثر (M16) 16 - إم بنادق من يكون وقد ،بالكتف يعلّق قِرابٍ في ميليمتر 9 عيار من أوتوماتيكياً استخدامها على ويتمرّنون ،(Glock) غلوك أو (Beretta) بيريتا طراز أفراد كافة ويحمل .الناعمة الرماية ميدان في أسبوعيّاً الأقل على مرّتَين والثلاثة مذخَّراً أحدها يكون سلاح لكل للذخيرة مخازن أربعة الأمني الفريق .احتياطية الأخرى

لم يكن هناك أي تحادث داخلي عبر الموجات اللاسلكية القصيرة عندما تحرّك الموكب. وتمّ التقيّد بصرامة بعدم التحدّث عبر الأجهزة اللاسلكية عِلماً أن أجهزة مقاومة الإشارات الإلكترونية القوية الموجودة في .حال بأية صعباً الاتصال تجعل الثلاثة S - 500 المرسيدس سيارات صناديق

وبدوران الموكب حول برج الساعة في وسط الساحة وسلوك الشارع مروراً بالسفارة الإيطالية في اتجاه الواجهة البحرية، لاحظ المراقب الاتجاه وقام باتصال من هاتف نقّال. هو الاتصال الأول من أربعة اتصالات سيقوم المراقب بإجرائها في الثواني القليلة التالية (2) . وكان كل متلقّي الاتصالات في الجوار يغطّون الطرق المحتمَلة التي قد يسلكها الحريري في اتجاه قريطم. وخط الهاتف النقّال الخاص بالمراقب، والذي دُفع رسمه مُسبقاً، كان أحد الخطوط الثمانية التي تمّ التزوّد بها منذ أكثر من شهر، ومنذ ذلك الحين لم يُجروا اتصالاتٍ إلا ببعضهم البعض. وعندما تنتهي هذه الاتصالات، لن تُستخدَم الخطوط ثانيةً.

في السان جورج، ألقى فادي خوري نظرةً سريعةً على ساعته. كانت الواحدة بعد الظهر تقريباً. وكان قد أمضى وقتاً طويلاً بما يكفي مستمتعاً بأشعّة الشمس في المطعم. فاتصل بسائقه يوسف وبكارول فرحات لمرافقته إلى المكتب في الجانب الآخر من الطريق الناشطة. وكانت كارول قد أنهت التحضيرات لحفلة العشاء. فالتقطت حقيبتها وبعض الملفات للعمل عليها في المكتب. وسبق لماريا ديب، شقيقة زوجها وصديقتها الحميمة، أن ذهبت إلى المكتب قبلها.

وممسكاً برزمةٍ من الصحف بإحكام، نزل سامر رضا مع المتدرّب الدرج على الطريق العام والمؤدّي إلى نادي الشاطئ داخل السان جورج. وكان يحمل بيده نسخةً لأحد أفراد هيئة الموظفين، ومن ثمّ استدار عائداً عبر الدرج.

وأحد الأشخاص الأربعة الذين تلقوا اتصالاً من المراقب في ساحة (كانتر ميتسوبيشي طراز من مُقفَلة بيضاء نقلٍ عربة سائق كان النجمة منتظراً جورج سان فندق بجانب بقي قد كان Mitsubishi Canter) السيارات وكانت ،العام الطريق على شديد ببطءٍ الفان وتحرّك .الاتصال منتقلاً جانباً اليمنى يده مادّاً السائق كان فيما بسرعة تنطلق والشاحنات المحتويات تغطّي رمادية ملاءةٌ وكانت .الساعة في كيلومتر 8 بسرعة بالفان الصغير المدخل متجاوزاً ومرّ .بالكامل المحمَّلة العربة من الخلفي الجزء في أمتارٍ بعد وتوقّف ،جورج للسان التابع الشاطئ نادي إلى المؤدّي المسقوف .السيارات من صفٍّ بجانب ثانٍ خطٍّ في منه قليلةٍ

وعندما بدأ فادي خوري وكارول فرحات صعود السلّم من نادي الشاطئ إلى الطريق العام القائم فوقه، رنّ هاتف خوري النقّال. فطلب من كارول انتظاره بينما يُجيب على الاتصال، ولكن كارول قدّرت أنه سيتحدّث طيلة دقائق عدّة وكانت ترزح تحت ثقل حقيبتها وملفاتٍ عديدة ثقيلة الوزن.

"سأراك في المكتب"، قالت.

فأومأ خوري رأسه موافقاً وأعاد تركيز انتباهه على الاتصال الهاتفي.

رأى حسن عجوز، وهو الحارس الشخصي الجالس في المقعد الخلفي مسافةٍ على تدريجياً تتحرّك سيارةً الأولى 500 - S المرسيدس سيارة من جالساً يكون عندما مسؤولياته إحدى ومن .المقترب الموكب من جداً قريبةٍ عجوز فدفع .الموكب عن بعيدةً الأخرى السيارات إبقاء الخلفي المقعد في .الطريق عن للابتعاد السيارة لسائق بعدائيةٍ ولوّح النافذة خارج بذراعه سيارته ويُبعد الفرامل على يضغط وهو بشتائم التلفّظ على السائق فأقدم .الموكب طريق عن

الساعة 12:55 بعد الظهر

مشت كارول فرحات على الطريق ولاحظت إلى يمينها عربة نقلٍ مقفَلة مزدانةً بأضواءٍ ملوَّنة ذات ملامح تجارية. والغريب في الأمر أن السائق اختار التوقف في صفٍّ ثانٍ بجانب السيارة الوحيدة المتوقّفة بالقرب من الفندق، ونتأت العربة بلا داعٍ داخل الشارع الناشط. فقد أربكها

وجودها باختصار إذ إنها لم تكن تنتظر أي تسليماتٍ أخرى لحفل العشاء.

فعبرت الطريق الناشط مسرعةً نحو البناء المُلحَق على الجانب الآخر. وفيما كانت تعبر الحافّة الرملية قبل دخول البناء، فاتها رؤية صفٍّ من سيارات المرسيدس السوداء اللمّاعة والفخمة إلى يسارها تنطلق بأقصى سرعة في اتجاه فندق سان جورج.

ولكن زوجاً آخر من العينَين رأى الموكب، هما زوجا عيون سائق عربة النقل المقفَلة البيضاء من طراز ميتسوبيشي الذي لا بدّ أنه كان يحدّق عمداً بالمرآة المثبَّتة على رفرف السيارة الأيسر لحظة وقوفه بجانب فندق سان جورج منذ أقل من دقيقتَين. وكان بإمكان السائق رؤية السيارة الرمادية من طراز تويوتا لاند كروزر التي كان يستقلّها رجال الشرطة وهي تزداد حجماً في مرآة الرفرف لدى اندفاعها مسرعةً نحو الطريق المحاذي لمرفأ اليخوت التابع للسان جورج مروراً بعربة النقل، وتليها مباشَرةً سيارة المرسيدس التي يقودها عامر شحادة وبفارقٍ زمني لا يتخطى جزءاً من الثانية. والسيارة التالية التي مرّت بالعربة كانت السيارة الثالثة في الموكب، صانعوها يتفاخر التي 600 - S طراز من المصفّحة الحريري سيارة وهي ،بمحاذاته مرورها ولدى .يدوية رمّاناتٍ انفجارات تحمّل على قادرةٌ بأنها بسيطة جسدية حركة وهي ،لاسلكي مفتاحٍ على مرئية غير يدٌ ضغطت اللبناني التاريخ مسار تبديل وشك على كانت.

يصعب على المرء تقديم كتاب يعنيه شخصياً، أو يتناول جوانب عديدة من حياته ومسيرته اليومية، فكيف هي الحال، إذا كان الكتاب يهتم بتسليط الأضواء على حدث دراماتيكي ضخم، محوره زعيم سياسي بحجم الرئيس الشهيد رفيق الحريري الذي لم يكن بمثابة الأب العطوف بالنسبة لي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ إنسانية، وإنما كان مثلي الأعلى في مدرسة الحياة وصمّام الأمان لجوانب أساسية من حياة اللبنانيين، وأحد رموز الثقة الكبار، الذين جددوا الرهان على الدولة ومؤسّساتها.

إن تسمية هذا الكتاب بالزلزال، وهو الذي يضم سلسلة مقالات مؤثرة، تقارب خفايا وأبعاد جريمة الاغتيال وسائر جرائم الاغتيال والتفجير التي استهدفت قيادات سياسية وفكرية من لبنان، وتتطابق عملياً مع واقع التداعيات الخطيرة التي بدلت مجرى حياتي الخاصة، وأصابت مؤثراتها السلبية معظم اللبنانيين في الصميم، وما تزال ترددتها وانعكاساتها تعصف بالوطن من كل اتجاه.

من هنا إن مؤلف هذا الكتاب الصديق الدكتور فوزي زيدان، يأبى إلا أن يكون في خضم المواجهة، مهما بلغت مرارة الأحداث وأوجاعها، غير آبه بالتهديدات المتأتية من جهات عدة وهمه الوحيد، تنوير الرأي العام، وقطع الطريق على محاولات طمس الحقيقة وتجهيل القتلة المجرمين، وأيقاظ مشاعر اللبنانيين تجاه ما يحاك لوطنهم من دسائس ومؤامرات وتحريك جذوة الانتفاضة الاستقلالية التي أخرجت نظام الوصاية المشؤوم، وحرّرت اللبنانيين من ظلم التسلط والهيمنة، الذي أحكم خناقه على الوطن طيلة ثلاثة عقود متتالية.

إن هذا الكتاب بمحتويات مواضيعه الهادفة، إنما يجسّد عن حق عربون وفاء، من المؤلف، إلى كل شهداء الحرية والاستقلال، وإلى الرئيس الشهيد رفيق الحريري تحديداً، الذي ستبقى ذكراه، بإذن الله، حيّة في وجدان اللبنانيين، ومثالاً يُحتذى لكل العرب الأحرار الذين يتطلعون لعزة أمتهم وتقدّمها.

سعد رفيق الحريري

الفصل الثاني: مسوّي النزاعات

"كانت هذه المنطقة ذات مرّة ملأى بالبساتين"، قال إبراهيم عنتر، جالساً تحت عريشة كرمة ظلّلت فناء منزله في صيدا من شمس الصيف الحادّة (1) . "فقط أشجارٌ وقليلٌ من المنازل الصغيرة حيث يعيش فيها المزارعون وعائلاتهم. كنا نزرع كل شيء، أشجار البرتقال والحامض والليمون الحامض والكرمة والمندرين والكلمنتين. كانت الحياة أفضل بكثير آنذاك".

وينفش عنتر شعر حفيدته البالغة من العمر ثلاث سنوات مسترجعاً ذكرياته. هو رجلٌ ضخم البطن في العقد السادس من العمر يرتدي قميصاً داخلياً أبيض وسروالاً أزرق للتمرين.

"تريد أن تعرف أين وُلد الرئيس حريري؟" يسأل مستخدماً التعبير العربي، "ريّس"، لوصف رئيس الحكومة السابق. "أنظر". ويشير إلى مكانٍ على بعد 50 متراً في الجانب الآخر من بستانه الصغير المزروع بأشجار فاكهة. "هناك كان يقوم بيت الحريري. كنا العائلتَين الوحيدتَين في هذا المحيط".

منذ زمنٍ بعيد، زال المبنى الحجري ذات السطح المستوي والمؤلّف من طابقين حيث أمضى رفيق الحريري طفولته، كما زالت كل البساتين وأسلوب الحياة الزراعية السابقة في صيدا. واليوم، هناك مركز هاتف حيث كان يقوم منزل الحريري ذات مرّة، وهو مبنى خفيضٌ وقبيح ذو واجهة من البلاط الأزرق وبرجٍ مهيب من الإسمنت يعلوه هوائيٌّ وصحون لالتقاط الإرسال الفضائي. وتغصّ الشوارع المحيطة بحركة المرور وتقوم على جوانبها مبانٍ رتيبة متعدّدة الطوابق تشغلها مصارف وشركاتٌ تجارية. وتبيع المتاجر الأرضية أثاثاً رخيصاً أو سِلَعاً منزلية بلاستيكية كمماسح الأرض والسطول والمراوح والمكانس، والتي تتناثر على الرصيف. وتتجاور صفوف المجمّعات السكنية غير المُلهِمة بطريقةٍ غير مُريحة كقناني لعبة البولينغ، فيما الشرفات مظلَّلةٌ في جميع الأوقات بستائر خضراء وبيضاء أم مزيّنةٌ بملابس مغسولة منشورة بترهّلٍ في الهواء الرطب.

وتكاد تكون التلال البعيدة المُشرفة على المدينة الساحلية غير مرئيةٍ عبر ضباب منتصف الصيف الرقيق الذي يتسبّب به الغبار وأدخنة العادمات.

ومنزل عنتر هو أحد المساكن القليلة في المزارع التي كانت قبل 60 عاماً منتشرة ذات مرّة في حزام البساتين الكثيفة الخضراء التي كانت

تحيط بمدينة صيدا القديمة القريبة من المرفأ. ومنزله محميٌّ من التمدّد المديني بأشجار الأوكالبتوس الشامخة وبموقف سياراتٍ فارغ تحيط به نباتات الأحراج الثخينة. وينتشر أريج الورود والغاردينيا والياسمين في أرجاء الباحة، ومن الممكن تقريباً تخيّل كيف كانت تبدو المنطقة قبل أكثر من نصف قرن.

"هذه الأجَمة المكسوّة بالياسمين كانت مُلكاً لآل الحريري"، قال عنتر قاطفاً زهرةً بيضاء صغيرة وشامّاً إياها بإعجاب. "غرستها هنا مجدَّداً عندما هُدم منزلهم القديم".

كان لبنان على مسافة أيامٍ من الذكرى الأولى لاستقلاله عندما وُلد رفيق الحريري في 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1944، وهو البكر بين ثلاثة أولاد. وكانت عائلة الحريري - رفيق، شقيقته بهيّة، شقيقه شفيق ووالداهم - التي نشأت في بيئةٍ من الضيق والفقر تتشاطر غرفتَين صغيرتَين في الطابق العُلوي من منزلها المستأجَر بينما كان الطابق الأرضي يأوي أبقاراً ودجاجاً. وكان والده، بهاء الدين، مزارعاً لبستانَين من البرتقال يملك أحدهما فيما استأجر الآخر. وكان يكسب مالاً يكفي فقط لتوفير أسباب العيش لعائلته وتسديد الديون المترتّبة عليه لمؤجِّرٍ غير ودّي، ولكنها كانت حياةً غير مستقرّة وعُرضةً لمفاجآت الطبيعة. فبعد أحد مواسم الحصاد السيّئة بصفةٍ خاصة، أُجبر بهاء الدين على التخلّي عن العقار المستأجَر وكسب دخلٍ إضافي من خلال العمل في بساتين أخرى. وبعد سنواتٍ عدّة، كان بإمكان الحريري شراء كل هذه البساتين وتسليمها لوالده كهدية.

كان الحريري فتىً اجتماعيّاً وسريعاً في كسب الأصدقاء. وكانت بساتين البرتقال المحيطة بمنزله الفناء الخلفي حيث كان يلعب مع أصدقائه، مهرولين على الدروب المغطاة بالغبار والتي ترسم خطوطاً متقاطعة داخل البساتين. وإبّان الأيام الحارّة في أواخر فصل الصيف التي تفتر فيها الهمّة، كان يتّجه مع أصدقائه إلى إقليم التفاح في الجبال الواقعة شرق صيدا حيث كان يخيّم ويجني المال من قطف الفاكهة.

وتفوّق في مدرسة الملك فيصل الأول في صيدا، وكان أحد الفائزين الثلاثة بمنحةٍ دراسية من جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية لاستكمال دروسه الثانوية.

واستحوذت السياسة على الحريري في سنٍّ مُبكرة. وعندما بلغ سنّه الثالثة عشرة، فُتِن الحريري، وعلى غرار العديدين من معاصريه المسلمين في الخمسينيات من القرن الماضي، بالحماسة الثورية للقومية العربية، وكانت

قوّةً جديدةً تبشّر بحق تقرير المصير والوحدة، جارفةً الملَكيّات المتهاوية في الشرق الأوسط ومتخلّصةً ممّا تبقّى من تأثير القوى الاستعمارية الأوروبية.

وكانت صيدا في الخمسينيات سريعة التأثر بشكلٍ خاص بنفير الحرب الذي أطلقته القومية العربية، وذلك بسبب علاقتها التقليدية الخاصة بفلسطين وتعاطفها مع حوالى 110,000 لاجئ فلسطيني كانوا قد فرّوا من منازلهم إبّان حرب العام 1948 العربية - الإسرائيلية لدى تأسيس الدولة اليهودية. وكان قد استوطن حوالى 5,000 لاجئ فلسطيني في مخيّمٍ مؤقّت يبعد ثلاثة كيلومترات جنوب صيدا بين أشجار البرتقال وبساتين الموز في منطقةٍ تُدعى عين الحلوة. وكان قد انتقل مئاتٌ من اللاجئين الآخرين الأكثر حظاً للإقامة مع أصدقاء وأقارب لهم في المدينة.

وبدأ وصول اللاجئين الفلسطينيين وتنامي التأييد للقومية العربية، ولا سيّما وسط مسلمي لبنان، بإضعاف الميثاق الوطني، وهو النظام الطائفي الدقيق لتقاسم السلطة الذي حُكم لبنان من خلاله منذ استقلاله عام 1943.

وكان الميثاق الوطني تسويةً مؤقّتة غير مكتوبة توصّل إليها موارنة لبنان مع القيادة السنّية قبل وقتٍ قصير من الاستقلال عن فرنسا. وقام بشكلٍ أساسي بتوزيع مناصب رئيسية في الدولة على طوائف مختلفة وعلى أساسٍ نسبي استناداً إلى الإحصاء السكاني العائد للعام 1932. ووفقاً لهذا الإحصاء الذي لم يتمّ تجديده رسميّاً حتى اليوم، فإن 51 في المئة من السكان مسيحيون و49 في المئة مسلمون، ويشكّل الموارنة المذهب الأكبر عدداً مع نسبة 29 في المئة يليهم السنّة والشيعة مع نسبة 22 في المئة و20 في المئة على التوالي. وبناءً على ذلك، أُسندت الرئاسة القوية ومناصب أمنية أساسية إلى الموارنة، فيما أُسندت رئاسة الحكومة إلى السنّة ورئاسة مجلس النواب إلى الشيعة.

وكان الميثاق الوطني نظاماً هشّاً من الضوابط والتوازنات، وقد هدّأ مخاوف المسيحيين من تهميشهم في محيطٍ يغلب عليه الطابع الإسلامي، وأعاد التأكيد على الوجه العربي لمسلمي لبنان والنأي عن التدخلات الغربية. وتمثّل الخلل في النموذج السياسي الفريد بافتقاره إلى آليةٍ تمكّنه من التكيّف مع التبدّلات الديموغرافية المتطوّرة. والتصدير الأعظم للبنان هو شعبه. فهذه الأمّة الصغيرة تستنزف سكّانها منذ القرن التاسع عشر، ولا سيّما الموارنة الذين كانوا يطلبون حياةً أفضل في الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وأفريقيا. وأدّت الهجرة المسيحية وارتفاع معدّل الولادة لدى المسلمين

إلى تآكل التفوّق الديموغرافي الذي كان ينعم به الموارنة. ونتيجةً لذلك، لا يمكن إغفال واقع أن الإحصاء السكاني العائد للعام 1932 هو الأقدم عهداً بين الإحصاءات التي أجرتها الدولة. وخشي الموارنة من تجريدهم من امتيازاتهم إذا تمّ التثبّت من انخفاض النسبة التي يشكّلونها من مُجمَل السكان مقارنةً مع السنّة والشيعة.

وخلال السنوات الأولى من الاستقلال، كان الميثاق الوطني متماسكاً. ولكن هذا الترتيب بدأ بالتأثّر في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي تحت عبء حالات اللاإنصاف المتأصّلة التي تفاقمت بسبب التطوّرات الإقليمية الضاغطة.

وفي أواسط الخمسينيات من القرن الماضي، وجد لبنان نفسه ينجرف أكثر فأكثر إلى الفَلك الغربي في ردة فعلٍ لما اعتبره العديد من المسيحيين اللبنانيين تهديداً تشكّله راديكالية الجمهوريات العربية المنبثقة في مصر وسوريا. ومن جهةٍ ثانية، استمدّ المسلمون اللبنانيون إلهامهم من مثال جمال عبد الناصر، وهو عقيدٌ في الجيش المصري استولى على السلطة عام 1952 واعتمد خطاباً سياسياً شعبياً مناهضاً للغرب والاستعمار.

وبلغت أزمة لبنان الذروة عام 1958 عندما توحّدت سوريا ومصر لتشكيل الجمهورية العربية المتحدة (UAR)، فأثار هذا الأمر مسلمي لبنان الذين فضّلوا الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة. واندلعت معارك في الشوارع في مدينة طرابلس الشمالية والمناطق المسلمة في بيروت، فاتخذ القوميون العرب المسلمون بصفةٍ خاصة موقفاً مناهضاً من الأحزاب المسيحية.

وكان لوجود لاجئين فلسطينيين اكتسبوا الطابع الراديكالي بسبب ما تعرّضوا له عام 1948 تأثيرٌ كبير في سنّة صيدا الشبّان الذين كان العديد منهم منتسبين متحمّسين إلى الأحزاب السياسية المتعدّدة التي ولّدتها القومية العربية.

"كنا جيل العام 1958"، يتذكّر عدنان زيباوي، وهو صديقٌ للحريري منذ سنّ الطفولة وما زال يُقيم في صيدا (2) . "كنا 12 أو 13 فقط، ولكن كان من المستحيل عدم الانخراط في الأجواء".

وكان الحريري وزيباوي عضوَين في حركة القوميين العرب (ANM) التي أسّسها جورج حبش، وكان آنذاك طالباً فلسطينياً في الجامعة الأميركية في بيروت واكتسب في ما بعد سمعةً حسنة وسيّئة عندما بات قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. واستوعب المراهقان السياسة مناقشَين

التطورات الأخيرة في نادي الجهاد، وكان مكاناً للقاء أعضاء حركة القوميين العرب. وخرجا إلى الشوارع علانيةً لتعليم اللغة العربية للخبّازين وصيادي السمك الأمّيين، ولكنهما سرعان ما كانا يحوّلان كل درسٍ في اللغة إلى تعليمٍ سياسي، ناشرَين عقيدة الوحدة العربية.

"كانت السياسة في قلبه ودمه في مرحلةٍ مُبكرة من سنّ المراهقة. وكان يؤمن حتى يوم وفاته بالقضية العربية وقضية فلسطين"، يقول سمير بساط، وهو صحافي ومعاصر للحريري من صيدا (3) . "كان يبلغ درجةً عالية من الإثارة إلى حدّ قيام أصدقائه بحمله على أكتافهم هاتفاً بشعارات الدعم لفلسطين".

ولكن مع تقدّم الحريري في السنّ أكثر فأكثر، كان مُجبَراً على تخفيف نشاطه السياسي ليتمكّن من التركيز على دروسه المدرسية. ونظراً لخلفيّته الفقيرة، كانت السياسة من الكماليات بالنسبة إليه التي يمكنه الحصول عليها. وتتذكّر العائلة والأصدقاء أن الحريري كان في سنٍّ صغيرة مدفوعاً بالطموح والتصميم على الهرب من طفولته التي اكتسبت طابع الفقر والعوَز.

"كان تفكيره واضحاً جداً"، يتذكّر فؤاد السنيورة الذي كان رفيق الدراسة للحريري في مدرسة الملك فيصل الأولى، وزميلاً له في حركة القوميين العرب (4) . "كان يمتلك شخصيةً قويةً جداً. كان جريئاً في كلامه وعازماً إلى حدٍّ كبير".

وحثّ والدا الحريري ابنهما على متابعة دراساته، غارسَين في ذهن المراهق أهمية التعلّم كوسيلةً لتوسيع أفق تصوّراته المستقبلية. فقد كان درساً بدا أن الحريري تأثّر فيه تأثّراً عميقاً وحمله بعد سنوات على إنشاء مؤسسة الحريري التي كافأت الطلاب اللبنانيين من خلال تقديم منحٍ دراسيةٍ لهم لتحصيل العلم في الجامعات ما وراء البحار. وجاء في تقريرٍ يعود للعام 1958 أن الحريري كان أحد الطلاب الثلاثة في صفّه المؤلَّف من 33 طالباً الذين وُصف أداؤهم الأكاديمي في هذا العام بأنه "جيّد جداً". وتخرّج من مدرسة المقاصد بعد أربع سنوات.

وغادر الحريري صيدا وتسجّل في جامعة بيروت العربية حيث درس المحاسبة. هنا، وقع في غرام نيدا بستاني، وكانت طالبةً عراقية، وتزوّج بها وهو ما زال في الجامعة.

"صُدِم عندما أدرك أنه كان عليه البدء بجني بعض المال ولا سيّما بعد أن باتت زوجته حاملاً"، يتذكّر عدنان زيباوي (5) .

وبرع الحريري في دراساته الجامعية إلى جانب قيامه بأعمال تصحيح البروفات الطباعية في مجلّة الصياد التي كانت تنشرها صحيفة الأنوار اليومية مع مجلّة الحرّية . ولكن الصحافة لم تكن تدرّ إلا القليل من المال، لذا تخلّى الحريري عن دراساته الجامعية عام 1964، وترك عائلته في بيروت على غرار العديد من اللبنانيين الآخرين وانتقل إلى المملكة العربية السعودية أملاً في كسب رزق ثابت في مملكة الخليج.

كانت سنواتٍ عِجافاً للحريري وعائلته في بيروت التي كان يزورها كل ستة أشهر. فعلّم الرياضيات في جدّة وعمل محاسباً قبل الولوج بعقود ("سيكونست" الخاصة شركته تأسيس ثمّ ومن صغيرة فرعية بناء تعهدات غيابه مدد ضحية بنيدا الحريري زواج وكان .1969 عام (CICONEST فلسطينية وهي ،عودة نازك تزوّج ،1976 العام وفي ،النهاية في الطويلة لبنانية التقاها في المملكة العربية السعودية.

والثروات المتواضعة التي حقّقتها سيكونست وشركة أخرى كان فيها الحريري شريكاً، وهي المؤسسة السعودية للطرقات والمباني "سرب" (SERB)، تأثّرت سلباً وإلى حدٍّ كبير بالازدهار النفطي عام 1973 الذي كان بمثابة منجم ثراءٍ من المال للملكة العربية السعودية. وباتت المملكة الصحراوية إحدى الاقتصاديات الأسرع نمّواً في العالم، وقد استُخدمت الأرباح النفطية لتمويل سلسلةٍ من برامج التطوير التي رُصدت لها بلايين الدولارات. ومن جهةٍ ثانية، وبالرغم من الازدهار العمراني، فقد تدهورت هوامش الربح في شركات الحريري بسبب الارتفاع السريع لتكاليف المواد الخام كالإسمنت والصُلب التي ارتفعت أسعارها بمعدّل ثلاثة وأربعة أضعاف.

"كانت ظروفاً قاسيةً جداً"، يتذكّر فريد مكاري، وهو مهندسٌ لبناني استخدمه الحريري عام 1974 (6) . "لم نكن نكسب في الواقع أي مال لأننا كنا قد وقّعنا عقودنا قبل ارتفاع أسعار المواد الخام ارتفاعاً شديداً".

وإن العزم على التغلّب على العقبات المالية في المملكة العربية السعودية كان يعني أن الحريري لم يكن يرى عائلته التي تكبر في لبنان إلا نادراً. فقد كان أبناؤه بهاء، سعد وحسام يُقيمون في صيدا في شقّةٍ مؤلَّفةٍ من غرفتَي نوم مع جدّيهم وعمّةٍ وعمّ.

"اعتدنا تسخين الماء على موقد الفحم. كان ذلك قبل أن ينال والدي ما يتمنّى [مالياً]"، يتذكّر سعد الحريري، الابن الثاني لرفيق (7) . "كان الأمر سارّاً في الواقع لأننا لم نكن نملك ما نقلق في شأنه".

بدأ حظ الحريري بالتبدّل منذ العام 1976 عندما ضمّ جهوده إلى

جهود ناصر رشيد، وكان رجل أعمالٍ ناجح في مجال البناء وعلى علاقةٍ وثيقة بالعائلة السعودية المالكة، وذلك لبناء ثلاثة مجمّعاتٍ فخمة في الرياض لحرم الملك خالد بن عبد العزيز. وسمحت الأرباح الناجمة عن ذلك المشروع للحريري بتسديد كل ديونه وشراء أول طائرة نفّاثة خاصة به.

وفي نهاية العام 1976، طلب الملك خالد من رشيد بناء فندق المسرّة في مدينة الطائف التي هي بمثابة منتجعٍ للمقيمين فيها. وأخبر العاهل السعودي رشيد بأنه يخطط لقضاء فصل الصيف في الطائف وأنه يريد افتتاح الفندق رسميّاً مع افتتاح القمة الإسلامية أعمالها، وذلك قبل عودته إلى الرياض.

وناقش رشيد المشروع مع الحريري الذي أدرك أنه إذا كان بإمكان المهلة الزمنية القصوى البالغة تسعة أشهر الإيفاء بالمطلوب فهو سيحظى باستحسان العائلة المالِكة، فيُفتَح أمامه أفقٌ لامحدود من الفرص. وفاتح الحريري شركة بناءٍ فرنسية تعاني من مشاكل مالية تُدعى أوجيه (Oger)، واقترح عليها تنفيذ المشروع البالغة قيمته 100 مليون دولار. ووافقت الشركة الأم لأوجيه على الصفقة معتبرةً إياها الفرصة الأخيرة لشركتها التابعة.

"كنا نعمل 24 ساعةً في اليوم، شاحنين المواد جوّاً أيّاً تكن النفقات"، قال فريد مكاري الذي كان مدير المشروع (8) . "الحريري كان يعلم كيفية انتهاز الفرص".

وكان بناء الفندق الذي انتهى في أقل من أسبوع من انقضاء المهلة الزمنية القصوى نقطة تحوّلٍ في حياة الحريري. وتعبيراً عن امتنانه، قام الملك خالد في خطوةٍ نادرة بمنح الحريري شرف الحصول على الجنسية السعودية، وأوكل إليه مزيداً من مشاريع البناء. وفي العام 1978، أسّس الحريري وأوجيه شركة سعودي أوجيه (Saudi Oger) لتنفيذ المشاريع المُربحة الجديدة. وفي العام التالي، اشترى الحريري كامل حصة شركائه الفرنسيين، دامجاً أوجيه وسعودي أوجيه ليشكّل أوجيه الدولية (Oger International) التي جمع من خلالها ثروةً ضخمة في فترةٍ زمنيةٍ قصيرة وبشكلٍ مُذهل.

"كان وقت حظوظه"، يتذكّر فؤاد السنيورة (9) . "كان في المحطة عندما وصل القطار. لو تأخّر دقيقةً واحدة لكان بالإمكان أن يكون كل شيءٍ مختلفاً".

وبحلول العام 1982، أي بعد خمس سنوات من عقد فندق الطائف، برز الحريري كأحد الأشخاص الأكثر ثراءً في العالم، بليونيراً على

رأس إمبراطورية أعمال تمتدّ من المصارف وشركات البناء إلى الصناعات الخفيفة والنشر. ولكن التطوّرات التي شهدها لبنان في أواخر ربيع العام 1982 حثّت الحريري على التركيز مجدَّداً على شؤون وطنه، فاتّقدت طموحاته السياسية الخامدة محوّلةً إياه في أقل من عقدٍ من الزمن من شخصٍ مغمورٍ في بلده إلى منقذٍ معروفٍ للبنان.

وبينما كان الحريري يبني ثروته في المملكة العربية السعودية في النصف الثاني من السبعينيات، كان لبنان ينهار عام 1982 تحت وطأة نزاعٍ مريرٍ ودموي كلّفه آلاف الأرواح، ودمّر البنية التحتية للبلد وجزّأه إلى كانتونات تسيطر عليها الميليشيات.

وكان الوجود الفلسطيني، ولا سيّما آلاف مقاتلي منظّمة التحرير الفلسطينية المسلّحين، الحافز لاندلاع الحرب في نيسان/أبريل 1975. وكان السكان الفلسطينيون قد ازداد عددهم إلى 400,000 شخص عام 1975 وذلك نتيجةً للهجرة والنموّ الطبيعي. وكان المسلمون اللبنانيون متعاطفين مع الفلسطينيين السنّة بصفةٍ خاصة نظراً لنموّ نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية كقوةٍ ضاغطة لتمثيلٍ أكبر وإصلاحاتٍ سياسية. وكان الموارنة يخشون طبيعيّاً من أن يؤدّي استيعاب مئات الآلاف من الفلسطينيين إلى إفساد التوازن الطائفي الدقيق في لبنان لصالح المسلمين. والانقسامات الطائفية في لبنان التي لم يكن بالإمكان إزالتها والتي تفاقمت تحت وطأة ظروفٍ اجتماعية - اقتصادية سيّئة أدخلت البلد في حربٍ في نيسان/أبريل من العام 1975 وحتى تشرين الأول/أكتوبر 1976، وأثارت الحركة الوطنية المؤلَّفة من الجماعات اليسارية بقيادة الزعيم الدرزي كمال جنبلاط وحلفائها في منظمة التحرير الفلسطينية ضد حزب الكتائب برئاسة بيار الجميّل وميليشيات مسيحية أخرى.

وبلغت ضراوة النزاع أوجها في سلسلةٍ من المجازر الوحشية في أواخر العام 1975 وعام 1976 إبّان عمليةٍ دموية لتقسيم البلد إلى كانتونات أسهمت في تعزيز الصدوع الطائفية التي طالت البلد بأكمله. وبحلول آذار/مارس 1976، كانت الميليشيات المسيحية تتراجع أمام الحركة الوطنية. فقد تراجعت نحو الشرق من مواقعها الحصينة في وسط بيروت وكان أعداؤها اليساريون يتقدّمون نحو الشمال إلى داخل المناطق المسيحية في جبل لبنان.

وفي سوريا المجاورة، كانت التطوّرات في لبنان مدار تمحيصٍ وتدقيقٍ وثيقَين من قِبَل حافظ الأسد، الرئيس الحكيم والصبور، ولكن القاسي، والبالغ

من العمر 45 عاماً. كان الأسد قد انتزع السلطة من منافسيه في حزب البعث الحاكم عام 1970، وحقّق منذ ذلك الحين استقراراً ملحوظاً في سوريا بعد ثلاثة عقودٍ من الثورات السياسية والانقلابات المتكرّرة. وأدرك الأسد أن الاضطراب في لبنان هو بمثابة تهديدٍ وفرصة في آن. وكان قلقله الرئيسي ترغيب إسرائيل بالتدخّل لصالح المسيحيين الذين كانوا على وشك الانهزام. وتقع دمشق على بُعد 30 كيلومتراً فقط من الحدود اللبنانية، وكان الأسد محترساً على الدوام من قيام إسرائيل بشنّ هجومٍ على عاصمته عبر لبنان. ومن جهةٍ ثانية، فقد وجد في الأمر فرصةً لممارسة النفوذ السوري على لبنان الذي سيكون ذا قيمةٍ عملية لإحباط المخططات الإسرائيلية ومكافأةً أيديولوجية لإعادة الدولة اللبنانية الضالّة إلى أحضان الوطن السوري.

وبالرغم من أن دولة سوريا في حدودها الحالية كانت نتاجاً لقوى الانتداب الأوروبية كما كان حال دولة لبنان الكبير، لم يقبل الحكّام السوريون أبداً مفهوم لبنانٍ مستقل. فقد ادّعوا أن ما أصبح الجمهورية اللبنانية لم يكن في الواقع سوى جزءٍ صغير من بلاد الشام، وهو الاسم التقليدي الممنوح للمنطقة الثقافية والجغرافية المتآلفة التي تحدّها جبال طوروس شمالاً، ونهر الفرات شرقاً، والصحراء العربية جنوباً، والبحر المتوسط غرباً. وقالوا مجادلين إن دولة لبنان الكبير كانت شذوذاً نتيجةً للخصوصية المارونية والتساهل الفرنسي الذي لم يكن مقبولاً حتى من العديد من مواطنيه في بادئ الأمر. وازداد الرأي السوري ذلك تصلّباً عندما تسلّم حزب البعث - الذي يعتنق قوميةً عربية علمانية اجتماعية - السلطة عام 1963.

وحاول الأسد إيجاد حلٍّ للأزمة في لبنان بوسائل دبلوماسية، حاضّاً كمال جنبلاط على تخفيف حملته العسكرية ضد المسيحيين. ومشتمّاً رائحة النصر، كان جنبلاط عاقد العزم على سحق المسيحيين من خلال إخضاعهم لفرض تغييراتٍ سياسية شاملة.

تدخّلت سوريا عسكرياً بعد الحصول على موافقة الولايات المتحدة والرئيس اللبناني سليمان فرنجية، وإذعان إسرائيل مع خلفيةٍ حاسدة وحاقدة بعد إصرارها على التزام دمشق ببعض "الخطوط الحمراء" - لا جنود جنوب صيدا، لا استخدام للطائرات في لبنان، ولا نشر لبطاريّات صواريخ مضادة للطائرات. ودخل الجنود السوريون لبنان في ليل 31 أيار/مايو من العام 1976، وسيطرت بسرعة على الحركة الوطنية وحلفائها الفلسطينيين. ولكن هذا الأمر كلّف الأسد خسارة رصيدٍ سياسي في العالم العربي. فقد

ادّعى المنتقدون بأن الهجوم الكاسح الذي شنّه الأسد ضد منظمة التحرير الفلسطينية كان يُقصَد منه استرضاء الموارنة الميّالين إلى الغرب.

وبحلول شهر تشرين الأول/أكتوبر، كان اليساريون اللبنانيون ومنظمة التحرير الفلسطينية قد هُزِموا، وشُرِّع الوجود العسكري السوري من قِبَل جامعة الدول العربية في إطار قوات الردع العربية (ADF) التي تألّفت من 30,000 جندي لمساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها على البلد. وبالرغم من أنه كان من المفترَض أن تكون قوات الردع العربية إجراءً مؤقّتاً، فقد تطلّب الأمر 29 عاماً لرحيل الجنود السوريين عن الأرض اللبنانية.

وعاد إلى لبنان ما يشبه الحياة الطبيعية في الأشهر التالية، وفي كانون الثاني/يناير 1977، أعادت المصارف فتح أبوابها للمرة الأولى بعد 10 أشهر، وعاد الدبلوماسيون الأجانب، وتدفّقت المعونات لإعادة البناء، وأعلنت الحكومة تأسيس مجلس الإنماء والإعمار لإصلاح وتطوير البنية التحتية التي تضرّرت أثناء الحرب. ولكن عودة الاستقرار كانت تشوبها أعمال عنفٍ من حينٍ لآخر، بما في ذلك سيارات مفخَّخة ومحاولات اغتيال. وفي نيسان/أبريل 1977، اغتيل كمال جنبلاط بالقرب من منزلـه الذي ورثه عن أجداده في جبال الشوف. وكان لموته أثرٌ فعّال لقيام المعارضة المناهضة لسوريا مؤخَّراً، وقد حُمِّلت دمشق إلى حدٍّ كبير مسؤولية اغتياله.

وبازدياد ثروة الحريري في أواخر السبعينيات، بدأ يلعب دوراً في الشأن العام اللبناني، عِلماً أن هذا الدور بقي إنسانيّاً في طبيعته لا سياسيّاً. وبعد كسب مليونه الأول من الريالات السعودية (حوالى 300,000 دولار أميركي)، أعاد بناء مدرسته القديمة في صيدا، وأنشأ المعهد الإسلامي للثقافة والتعليم العالي عام 1979، وهي مؤسسة لا تبتغي الربح قدّمت قروضاً لطلاب الجامعات اللبنانية لتسديد تكاليف التعليم. والمعهد الذي أُطلق عليه اسم مؤسسة الحريري بعد خمس سنوات أصبح أساس مساعي الحريري الخيّرة الواسعة، مساعداً على تعليم أكثر من 35,000 طالب في الجامعات اللبنانية والأجنبية طوال العقدَين التاليَين. وفي العام نفسه، شرع الحريري ببناء مجمّعٍ تربويٍّ ومهنيٍّ طموح بقيمة 150 مليون دولار وعلى مساحة مليونَي متر مربّع بالقرب من كفرفالوس، وهي قرية صغيرة في التلال القائمة شرق صيدا. وضمّ مشروع كفرفالوس مستشفى تعليمي وجامعة ومدارس. واختير الموقع عَمداً بسبب وقوعه بين صيدا السنّية، والجنوب الشيعي، ومنطقة جزّين المسيحية إلى الشرق، وجبال الشوف الدرزية إلى الشمال.

وأُريد للمشروع أن يكون مكاناً لصهر الديانات اللبنانية حيث يمكن للطلاب من مختلف أنحاء البلد التعلّم والتفاعل مع بعضهم البعض في بيئةٍ غير طائفية.

"شعر بمسؤوليةٍ اجتماعية لأنه وُلِد في بيئةٍ فقيرة"، يقول عدنان زيباوي، صديق الحريري منذ سنّ الطفولة (10) . "قصد مدارس الفقراء وخبِر أهمية التعليم الجيّد. لذلك بدأ بإعطاء منحٍ دراسية وبناء مشروع كفرفالوس".

وبالرغم من اهتمام الحريري بالسياسة اللبنانية المعقَّدة والعنيفة، بقيت مشاركته محدودةً بمناقشة أفكارٍ عامّة حتى نهاية الحرب واستخدام اتصالاته المباشَرة بالمسلمين والمسيحيين للتمكّن من إطلاق سراح الرهائن المختطَفين من قِبَل الميليشيات المتخاصمة. وكان ظهور الحريري في لبنان محطّ الكثير من الجدل. من كان رجل الأعمال السنّي الصيداوي الثري هذا، والذي جمع ثروةً بشكلٍ خرافي، وتمتّع بعلاقاتٍ وثيقة مع العائلة السعودية المالكة، وماذا أراد؟ في العام 1982، أثار الحريري اهتمام بشير الجميّل، وكان شابّاً قاسياً يتمتّع بكاريزما قيادية، وقد شق طريقه إلى السلطة على جثث أخصامه ليرأس القوات اللبنانية جامعاً عدداً من الميليشيات المسيحية. وفي كانون الثاني/يناير 1982، أرسل الجميّل ضابطَين مساعدَين إلى باريس لجمع مزيدٍ من المعلومات عن الحريري.

"تناولنا طعام العشاء مع الحريري ومن ثمّ أعادنا بسيارته إلى الفندق حيث تكلّمنا طوال الليل حتى الرابعة صباحاً، مُخبراً إيانا عن أصله ونشأته وكيف جمع ماله، وحقّق أرباحه، وأقام علاقاتٍ مع السعوديين، كل شيء"، يتذكّر ميشال سماحة أحد موفدَي الجميّل (11) .

وفي ربيع العام 1982، كان يستجمع لبنان قواه لِما بدا أنه اجتياحٌ إسرائيلي حتمي على نطاقٍ واسع قام بتنظيمه أرييل شارون، وكان آنذاك جنرالاً عنيداً متهوّراً ولكن لامعاً من حينٍ لآخر في الجيش الإسرائيلي، والذي يُجِلّه العديد من الإسرائيليين بوصفه بطلاً وطنيّاً. ووضع شارون خطةً جريئة لاجتياح لبنان، وتحطيم منظمة التحرير الفلسطينية، وإخراج الجيش السوري بالقوة، وتسليم الرئاسة لبشير الجميّل. وفي مقابل الرئاسة، يوقّع الجميّل معاهدة سلامٍ مع إسرائيل ضامناً بذلك حدودها الشمالية. فقد كان مخطّطاً وقحاً فيه عيبٌ مُهلك: اعتمد النجاح بالكامل على الجميّل. ولم يكن لشارون خطّةٌ بديلة في حالة وفاة الجميّل أو الارتداد على حلفائه الإسرائيليين.

وبعد أشهرٍ من التوتّر المطّرد، أطلقت إسرائيل عملية الاجتياح في 6 حزيران/يونيو من العام 1982 منتهزةً مقتل دبلوماسيٍّ إسرائيلي بطلقاتٍ نارية في لندن لتبرير هجومها. وبتفوّق الإسرائيليين عدداً وعدّةً، فرّت معظم وحدات منظمة التحرير الفلسطينية المتواجدة في عمق الجنوب إلى الشمال ببساطة. وفي 13 حزيران/يونيو، اتصلت القوات الإسرائيلية برجال ميليشيا الجميّل في القصر الجمهوري في بعبدا على التلال المشرفة على بيروت. وبمحاصرة بيروت بالكامل، بدأ الحصار على الجزء الغربي من المدينة حيث تحصّنت منظمة التحرير الفلسطينية.

وتعرّضت صيدا لأضرارٍ جمّة خلال الاجتياح. فقد مات حوالى 1,500 من سكان المدينة البالغ عددهم 180,000 نسمة، ودُمِّر 4,000 منزل تقريباً في منطقة صيدا، وبلغت مجمَل الخسائر 300 مليون دولار على الأقل. وتدمّر أثناء القتال المشروع الإنمائي الذي شرع به الحريري في كفرفالوس، وذلك بعد عامٍ واحد من افتتاح الجامعة ومستشفى التعليم والمدرسة. ولم يكن الجيش الإسرائيلي مستعدّاً لتلبية المتطلّبات الإنسانية للمدينة، ولم يكن من المحتمَل قيام الحكومة اللبنانية بتقديم أي مساعدة أقلّه حتى يتمّ رفع الحصار عن بيروت. ورأى الحريري أنه بالإمكان استخدام موارده المالية واللوجستية للمساعدة على تخفيف وطأة الحرب على الظروف الإنسانية المريعة في بيروت الغربية المحاصَرة وفي صيدا حيث كان أولاده يعيشون مع عمّتهم في المنزل الجديد لعائلة الحريري الذي أصبح آنذاك ملجأً للصيداويين المتشرّدين.

"اعتدنا أن يكون هناك حوالى 1,500 شخص مقيمين معنا"، يتذكّر سعد الحريري (12) . "كان الأمر مثيراً بطريقةٍ ما. كنا صغاراً ولم نكن نشعر بالخوف الذي كان يشعر به الآخرون. كان هناك على الدوام أولادٌ يركضون حول المنزل. ولم نشعر بالفزع إلا عندما قدِم الإسرائيليون لتفتيش منزلنا".

وخلال ذلك الصيف الحارّ والطويل، أجرى الحريري اتصالاتٍ هاتفية متكرّرة مع المسؤولين عارضاً عليهم معونات عينية ومالية، أو مساعدة دبلوماسية سعودية بهدف إقناع الإسرائيليين بالسماح بإدخال المؤن من ماءٍ وطعام للمدنيين المحاصرين.

واشترى 700 طن من الأغذية والبطانيات ودبّر سفينةًً لحمل المؤن من ليماسول في قبرص إلى صيدا. ولكن الإسرائيليين رفضوا السماح للسفينة بالرسوّ في مرفأ صيدا. وبدون خوف، اتصل الحريري بغسان تويني،

سفير لبنان إلى الأمم المتحدة، وطلب المساعدة.

هل بإمكان تويني إقناع الأمين العام للأمم المتحدة بالسماح بتسليم الشحنات أو رفع علم الأمم المتحدة على السفينة؟ قال تويني إنه سيحاول. ووافق الأمين العام كورت فالدهايم على اقتراح تويني. فزُوِّدت السفينة بعلم الأمم المتحدة وأبحرت ذلك اليوم من قبرص إلى صيدا. هذه المرة، منح الإسرائيليون الإذن لها بالرسوّ في المرفأ وتفريغ حمولتها.

وفي أواسط آب/أغسطس، بلغ حصار بيروت نهايته بإجلاء منظمة التحرير الفلسطينية تحت حماية قوةٍ متعدّدة الجنسيات تابعة لثلاث دول. وبنقل منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، بدأت المرحلة الثانية من مخطّط أرييل شارون الشامل بالظهور للعيان مع انتخاب حليفه الماروني بشير الجميّل رئيسا لبنانيّاً جديداً.

ومن جهته، اعتقد الحريري أن انتخاب الجميّل تحت حماية البنادق الإسرائيلية لن يؤدّي إلا إلى استدامة العنف. وبمبادرةٍ شخصية منه، بدأ بتفحّص إمكانية تمديد ولاية الرئيس الياس سركيس وتأليف حكومة وحدةٍ وطنية.

ويتذكّر جوني عبدو، رئيس جهاز المخابرات العسكرية اللبنانية عام 1982، الاستماع إلى تسجيلٍ لحديثٍ هاتفي حاول الحريري خلاله إقناع صائب سلام، وهو رئيس وزراء سابق وزعيم عائلة سنّية متنفّذة في بيروت، بالامتناع عن تأييد بلوغ الجميّل سدّة الرئاسة.

"كان لديَّ انطباعٌ بأنه قد يكون خصماً عنيداً ضد بشير الجميّل، وذلك باستخدام التأثير السعودي للضغط على صائب سلام وأعضاء سنّيين آخرين في البرلمان. وأدركت لاحقاً أنه كان انطباعاً خاطئاً بعد استماعي إلى عدة اتصالاتٍ هاتفية أخرى، وفكّرت بأنه قد يكون أحد القادة السنّيين الأكثر أهمية"، قال (13) .

وانتُخب الجميّل بالطريقة الصحيحة رئيساً في 23 آب/أغسطس، وبرحيل منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، بدا لبنان على شفير حقبةٍ جديدة من الاستقرار. ولكن ما إن بدا أن الحظ يحالف إسرائيل حتى ظهر العيب في مخطط شارون العظيم. ففي 14 أيلول/سبتمبر، قُتل الجميّل بانفجار قنبلةٍ زرعها وفجّرها ناشطٌ موالٍ لسوريا. وبدا أن الأسد الذي تآكل موقعه الاستراتيجي في لبنان مع الاجتياح الإسرائيلي عثر على عقِب أخيل إلى (موطن الضّعف) لدى إسرائيل واستغلّه. وفي تلك اللحظة بالذات، انهارت طموحات شارون في لبنان. ولم ينجم أي ربحٍ عن المقامرة، وبدأت إسرائيل

انسحابها الطويل والمؤلم من لبنان، وقد تطلّب الأمر 18 عاماً إضافيّاً لإكمال الانسحاب.

بعد وفاة الجميّل، انتقل الجنود الإسرائيليون إلى بيروت الغربية برفقة حلفائهم في الميليشيا المحلّية. وبإصدار الأوامر لهم بدخول مخيّمَي صبرا وشاتيلا للفلسطينيين، شرع رجال الميليشيا يدفعهم الانتقام لمقتل قائدهم بحملة قتلٍ دامت ثلاثة أيام ذهب ضحيّتها أكثر من 1,000 مقيمٍ فلسطيني ولبناني.

وصدمت المجزرة العالم وحملت القوات المتعدّدة الجنسيات التي غادرت قبل أسبوعَين، وذلك بعد خروج آخر مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، على العودة. وانتُخب أمين الجميّل، شقيق بشير الأكبر، رئيساً في 23 تشرين الأول/أكتوبر، وصوّب لبنان مرّةً أخرى على المستقبل بعد صدمة الأسبوعين الماضيين.

وعرض الحريري خدماته على الرئيس، وأحضر عشرات الجرّافات والشاحنات واستخدم مئات العمّال لتنظيف شوارع وسط بيروت ممّا خلّفته حرب سبع سنواتٍ من حطام.

ويتذكّر إيلي سالم، وزير الخارجية في الحكومة الجديدة التي شُكّلت في تشرين الأول/أكتوبر عام 1982، وصول الحريري إلى القصر الرئاسي في بعبدا وإنزال نموذجٍ مصغَّر عن وسط العاصمة بيروت من مؤخّرة شاحنة (14) .

"ما هذا؟" سأل سالم.

"هو تصميمي لوسط المدينة"، أجاب الحريري. وإن تعلّق الحريري بنموذجه عن وسط بيروت أربك أصدقاءه وزملاءه في السنوات التالية، وكان يعرضه في منازله في فرنسا والمملكة العربية السعودية، وحتى في طائرته الخاصة.

ويتذكّر سالم الحريري قائلاً إنه "رجلٌ غريبٌ جداً".

"كان شديد الثقة بنفسه. كان لبنان ويبقى سلسلةً من المشاكل، ورفيق من أولئك الرجال الذين يريدون التدخّل في كل مشكلة وإبداء وجهة نظره لحلّها"، قال.

وفي 28 كانون الأول/ديسمبر، بدأ المفاوضون اللبنانيون والإسرائيليون بمناقشة اتفاقٍ يسمح بانسحاب الجنود الإسرائيليين. وأراد الإسرائيليون صفقةً تكون أقلّها اتفاقية سلامٍ لتبرير الاجتياح المُكلِف وغير الشعبي على الصعيد المحلّي. ولكن الحكومة اللبنانية تعرّضت للضغط من قِبَل سوريا التي

استعادت نشاطها وقوّتها ومن حلفائها في لبنان، وقد رفضوا مبدأ القيام بأي ترتيباتٍ تكافئ إسرائيل.

"كنا نتعرّض لضغطٍ أميركي شديد لتوقيع الاتفاق"، يقول الجميّل (15) . وأراد الرئيس السيّئ الطالع، وبشكلٍ يائس، استمرار الأميركيين بالاهتمام بلبنان لأنه كان يعلم بأن البلد كان ضعيفاً جداً لمواجهة السوريين والإسرائيليين بمفرده. ولكن إسرائيل وسوريا استاءتا من التأثير الأميركي في لبنان، معتقدتَين أنه يقوّض مصالحهما الخاصة المنفصلة.

وكان الوقت ينقضي على سياسة إدارة ريغن حيال لبنان. ففي 18 نيسان/أبريل 1983، دمّرت شاحنة مفخَّخة مبنى السفارة الأميركية في بيروت قاتلةً 63 شخصاً، وكان تحذيراً واضحاً بأنه لم يعُد مرحَّباً بالولايات المتحدة في لبنان. وعلى غرار الإسرائيليين، كان الأميركيون أيضاً بحاجةٍ إلى اتفاق.

وفي أوائل أيار/مايو، وافقت الحكومة الإسرائيلية على ترتيباتٍ برعاية الولايات المتحدة ووُقِّع عليها في 17 من الشهر عينه. ولكن الإسرائيليين أضافوا في اللحظة الأخيرة رسالةً جانبية قضت على الاتفاق في مهده. وجاء في الرسالة الجانبية أن إسرائيل لن تسحب جنودها إلا بعد انسحاب الجيش السوري من لبنان. وحمل هذا الأمر الأسد على رفض تطبيق الاتفاق. فإذا رفض الأسد سحب قوّاته، عندها يبقى الإسرائيليون وتؤدّي أشهرٌ من المفاوضات المُتعِبة والمُحبِطة إلى إخفاقٍ تام.

فحشدت سوريا حلفاءها اللبنانيين ضد اتفاق 17 أيار/مايو، واندلع خلال فصل الصيف قتالٌ عنيف في الشوف الشمالي بين الميليشيات المسيحية والدرزية. وعيّن العاهل السعودي، الملك فهد، الحريري مبعوثاً رسميّاً له، وهي دلالةٌ على العلاقة الوثيقة التي تطوّرت بين الرجلَين منذ أن أصبح الحريري المتعهد الأول للبناء لدى العائلة المالكة. وبتسلّمه هذا المنصب الجديد، بدأ دور الحريري في لبنان بالتحوّل من البناء إلى التوسّط بين الأحزاب المتقاتلة. فرعى وقفاً لإطلاق النار حول مطار بيروت الدولي بعد أن أجبر القصف المدفعي بين الميليشيات المتقاتلة في الجبال المُشرفة على إقفال مدارج الطائرات وتعريض جنود البحرية الأميركية المنتشرين هناك للخطر. ووفقاً لإيلي سالم، كان الحافز الرئيسي للحريري لإبقاء المطار مفتوحاً هو تمكّنه من السفر بين بيروت والرياض بطائرته الخاصة للتشاور مع الملك فهد وحمل أفكارٍ جديدة إلى لبنان. وفي نهاية آب/أغسطس، بدأت إسرائيل بالاستعداد لسحب قوّاتها من الشوف في اتجاه الجنوب إلى صيدا. وهدّد الانسحاب الإسرائيلي بإحداث فراغٍ أمني في الشوف تملأه الميليشيا الدرزية

التابعة لوليد جنبلاط، ابن ووريث كمال جنبلاط المقتول، والقوات اللبنانية المسيحية. ورتّب الحريري لقاءً في باريس بين الرئيس الجميّل وجنبلاط، ولكنه كان عاجزاً عن التوسّط لبلوغ اتفاقٍ بين الخصمَين. وفي 1 تشرين الأول/أكتوبر، بدأ ما دُعِي بحرب الجبل جدّيّاً، وجرت بين دروز جنبلاط، من جهة، والقوات اللبنانية ووحداتٍ من الجيش اللبناني، من جهةٍ أخرى، في أحد الفصول الأكثر دمويةً من فصول الحرب.

واعتقاداً منه بأن الأميركيين كانوا يفقدون اهتمامهم بلبنان، تحوّل الجميّل إلى السعوديين مناشداً الملك فهد المساعدة على إيجاد حلٍّ لحالة الفوضى. ومتحدّياً بشجاعة قصفاً مدفعيّاً كثيفاً في محيط المطار، عاد الحريري بواسطة المروحية من قبرص إلى بيروت في أوائل أيلول/سبتمبر برفقة الأمير بندر بن سلطان، وهو ابن أخٍ مفضَّل للملك فهد وكان في مقدّمة حملةٍ سعودية جديدة لبلوغ السلام.

وأدّى أسبوعان من التنقّلات المكوكية والمفاوضات المكثَّفة بين بيروت ودمشق إلى وقفٍ لإطلاق النار في الشوف ووعدٍ بعقد مؤتمرٍ للمصالحة الوطنية برعايةٍ سعودية. حتى إن تحديد مكان المؤتمر كان عُرضةً للجدل والنقاش، وقد تطلّب من الحريري وقتاً طويلاً بعد مغادرة بندر إلى واشنطن للاضطلاع بشؤون السفارة السعودية. وتمّ تبديل مكان المؤتمر الذي كان مقرَّراً عقده في المملكة العربية السعودية في الأصل ليُعقَد في مطار بيروت الدولي. ولكن جنبلاط رفض المطار قائلاً إنه لن يكون آمناً "ولن يكون مرتاحاً مع كل تلك الطائرات القادمة والمغادرة". واقترح الجميّل القصر الرئاسي، ونصح رشيد كرامي، وهو رئيس وزراء سابق من طرابلس في الشمال، بقارب. وتمكّن الحريري من تحقيق إجماعٍ حول فندق إنتركونتيننتال في جنيف كمكانٍ لعقد المؤتمر، وتولّى مهمّة ترتيب كافة الشؤون اللوجستية بما في ذلك السفر والمسكن. وبدأ المؤتمر أعماله في 31 تشرين الأول/أكتوبر وسط أجواءٍ من التوتّر وعدم الثقة. وبالرغم من أن السعوديين كانوا ممثَّلين رسميّاً بوزير دولة، لم يكن لدى أيٍّ من الحاضرين شكٌّ بأن الحريري كان الصوت الحقيقي للملك فهد. فقد أثبت أنه مفاوضٌ لا يكلّ، "متنقّلاً من غرفةٍ إلى أخرى على مدار الساعات الـ 24 من اليوم، محاولاً إقناع مختلف الشركاء في الوطن باتخاذ موقفٍ تصالحي"، يقول الجميّل (16)
.

وانتهت خمسة أيامٍ من المفاوضات بتقديم الجميّل تعهّداً بإيجاد صيغةٍ جديدة لانسحابٍ إسرائيلي في مقابل اعتراف مناوئيه اللبنانيين برئاسته.

وكان ريغن معارضاً لتسديد ضربةٍ قاضية لـ "النجاح" السياسي الوحيد في لبنان الذي يمكن لإدارته الإشارة إليه. ولكن قدرة واشنطن على التأثير في الأحداث في لبنان كانت تنحسر باستمرار. فقد دُمِّرت ثكنات جنود المارينز الأميركيين في مطار بيروت الدولي في تشرين الأول/أكتوبر بواسطة انفجارٍ انتحاري لشاحنة مفخَّخة ذهب ضحيّته 241 جندياً أميركياً. وبعد ذلك، انهار الجيش اللبناني في بيروت الغربية في 6 شباط/فبراير بعد فرار الجنود للانضمام إلى شركائهم في الدين في ميليشيا حركة أمل الشيعية بقيادة نبيه برّي والميليشيا الدرزية بقيادة جنبلاط التي انتشرت في النصف الغربي من المدينة، عازلةً جنود البحرية الأميركيين القابعين في خنادق حول المطار. وبعد ساعات، قرّر ريغن سحب جنود المارينز تفادياً لهزيمةٍ كاملة في لبنان. وبعد أحد عشر يوماً، غادر آخر الجنود الأميركيين لبنان واضعين حدّاً لما دعاه غاسبار وينبرغر، وزير الدفاع الأميركي "مهمّة بائسة بشكلٍ بارز".

بالنسبة إلى حافظ الأسد، كان انهيار سياسة واشنطن حيال لبنان لحظة انتصارٍ بعد مِحَن العامَين السابقَين. فقد عزلته اتفاقية السلام الإسرائيلية - المصرية عام 1979 وأضعفته إقليميّاً بينما كان يواجه ضغطاً محلّيّاً متصاعداً من منظمة الإخوان المسلمين المتمرّدة التي كانت تشنّ حملة هجماتٍ بالقنابل واغتيالات ضد النظام البعثي. فسحق تمرّد الإخوان المسلمين في أوائل العام 1982، ومن ثمّ كان عليه النضال لمواجهة الاجتياح الإسرائيلي بعد أربعة أشهر. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 1983، وعندما كان الكفاح ضد الأميركيين في أوجه، انهار الأسد بسبب إرهاقٍ عصبي ممّا حفّز شقيقه الأصغر، رفعت، على قيادة محاولة انقلابية، معتقداً أن الأسد بات عاجزاً بسبب نوبةٍ قلبية. وتطلّب الأمر سعي الأسد حتى نيسان/أبريل للتخلّص من التحدّي الذي كان يشكّله رفعت، وذلك فيما كان يستمتع بالفوز بالمعركة ضد الأميركيين في لبنان ورحيلهم المُخزي من لبنان، وبمشاهدة أعدائه الإسرائيليين يغرقون أكثر فأكثر في مستنقع جنوب لبنان بينما كانت المقاومة الشيعية تسدّد إليهم ضرباتٍ أكثر فتكاً. أما وقد بات يعمل من موقع قوة، رفض الأسد مبادرة سلامٍ سعودية دعت إلى إلغاء اتفاق 17 أيار/مايو وانسحاب القوات الإسرائيلية والسورية (لم يجد أي موجبٍ لضرورة سحب قواته)، وأجبر الجميّل على لقائه في دمشق في عملية إخضاعٍ علنية لا مفرّ منها. انحنى الجميّل أمام الأمر المحتوم. وفي 29 شباط/فبراير، سافر إلى دمشق ووعد بإلغاء اتفاق 17 أيار/مايو في مقابل دعمٍ سوري لرئاسته.

وضمّ الحريري جهوده إلى جهود إيلي سالم، وزير الخارجية، لصياغة وثيقةٍ تُلغي اتفاق 17 أيار/مايو بما يُرضي سوريا.

"كان علينا إلغاء الاتفاق لأننا لم نكن قادرين على القيام بأي شيءٍ دون إذن سوريا في ذلك الوقت، وإلا ترتّبت علينا نتائج سيّئة جداً على الأرض"، يقول سالم (17) .

وقام الحريري بجولاتٍ مكوكية بين بيروت ودمشق، متشاوراً مع عبد الحليم خدّام، وهو سنّيٌّ صلب من مدينة بانياس الساحلية الصغيرة وصديق الأسد في سنّ الطفولة، وكان مسؤولاً عن ملف لبنان. وبعد 11 عاماً في منصب وزير الخارجية، كان خدّام قد رُقّي للتوّ إلى منصب نائب الرئيس. وفي غضون أيام، اقتنع السوريون ووقّع الجميّل وثيقة الإلغاء.

وأراد الحريري، الذي سُرّ بنتيجة تحكيمه في النزاع، حمل الوثيقة إلى دمشق دون إبطاء لعرضها على الأسد، وفقاً لإيلي سالم (18) . فاتّصل بالسفير الأميركي في بيروت وطلب منه استعارة حوّامةٍ للسفر إلى دمشق. ومتفاجئاً بالطلب، أجاب السفير بأن الأمر مستحيل. فقد كان عليه الاتصال بوزارة الخارجية التي تقوم بدورها بالاتصال بالبنتاغون، ويقوم هذا الأخير بالاتصال بالأسطول السادس في البحر المتوسط. وغير هائب، عرض الحريري شراء ثلاث حوّامات عسكرية أميركية فوراً ونقلها إلى مطار بيروت الدولي مع تحمّل تكاليف طواقمها. حدّق السفير بالحريري غير مصدّق قائلاً: "أنت مجموعة رجال في رجل واحد".

وساعد الحريري على تنظيم مؤتمر مصالحة ثانٍ في لوزان في 12 آذار/مارس، أي بعد سبعة أيامٍ من قيام الحكومة اللبنانية بإلغاء اتفاق 17 أيار/مايو. ولكن مؤتمر لوزان كان حدثاً عصيباً وغير سارّ، ولم ينتهِ بعد 12 يوماً من التشاحن إلى أي اتفاق.

وفي مساء أحد الأيام قُبَيل انتهاء المؤتمر، غادر الحريري الغرفة حيث كان ممثّلو الأطراف يتناقشون وعاد إلى جناحه. وانضمّ إليه سركيس نعّوم، وهو صحافي لبناني كان يغطّي المؤتمر لصحيفته، النهار . وبدخولهما الجناح، خلع الحريري سترته، وجلس، وبدأ بالبكاء. فسأل نعّوم المُحرَج عن السبب. ولكن عوضاًَ عن الإجابة، استمرّ الحريري بالبكاء ومن ثمّ بدأ بالتكلّم مع نفسه.

"ماذا يفعل هؤلاء الناس؟" قال ناشجاً وهازّاً رأسه ببطء. "ألا يُدركون أنهم يدمّرون البلد؟ ماذا دهى هؤلاء الناس؟"

"بات هناك أمران واضحان بالنسبة إليَّ آنذاك"، يتذكّر نعّوم (19) .

"أولهما أن اللبنانيين لم يكونوا مستعدّين لبلوغ تسويةٍ لإنهاء الحرب. والأمر الثاني هو أنني أدركت أن الحريري لم يكن يقوم بهذا الأمر لاكتساب مكانةٍ مرموقة أو للحصول على منصب. كان صافي النية بغير تصنّع في رغبته بإنهاء الحرب".

وبالرغم من الفشل في لوزان، كان الحريري سريعاً في إثبات نفسه عنصراً ضروريّاً للوساطات في زمن الحرب. فقد كان ينال الاحترام والانتباه بحكم علاقته بالملك فهد، إضافةً إلى ثروته.

"كان للحريري قدرةٌ حقيقية"، يتذكّر إيلي سالم (20) . "عندما كان الحريري يتكلّم، فإن الملك فهد هو الذي كان يتكلّم. كان يعرض على بساط البحث أفكاراً قويةً جداً ويقول إن الملك فهد يريد ذلك. وما يريده الملك فهد هو ما يُخبره به الحريري. فالملك فهد لم يكن بالطبع مهتمّاً بالتفاصيل. وأي شخصٍ آخر قد لا ينجح في مساعيه، ولكن الحريري كان حافزاً في السياسة اللبنانية. فصادق الجميع من خلالي، الجميّل وبرّي وجنبلاط. كان على علاقةٍ وثيقة بالسوريين، وكان يلعب على الدوام دور الموفِّق للوصول إلى تسوية".

واستنتج الحريري من انهيار مؤتمر لوزان أن الحرب قد لا تنتهي ولا يمكن إجراء إصلاحاتٍ دستورية ذات مغزى ما لم يتمّ إقناع الميليشيات الثلاث الرئيسية - القوات اللبنانية بقيادة إيلي حبيقة، وحركة أمل بقيادة نبيه برّي، والحزب التقدّمي الاشتراكي بقيادة وليد جنبلاط - بإيقاف القتال ونزع أسلحتها. فكان يُلحّ بشكلٍ متواصل على الأصدقاء والزملاء بمشاركته أفكارهم، موزّعاً الأوراق والأقلام خلال جلسات المباحثة ليتمكّنوا من تسجيل أفكارهم واقتراحاتهم.

"كان رجلاً لا يقبل الهزيمة أبداً"، يتذكّر فؤاد السنيورة، صديق الطفولة الذي كان يدير منذ العام 1982 شؤون مجموعة مصارف البحر المتوسط التابعة للحريري (21) . "إن لم ينجح بطريقةٍ ما يقوم بالالتفاف على الموضوع محاولاً تطوير طرقٍ ووسائل أخرى لإعادة شرح وجهة نظره. كان يحاول على الدوام إيجاد طريقة لمعالجة المشكلة. إنها كانت في الواقع ميزةً هامّةً جداً في شخصيّته. وهكذا كان يتعاطى مع مشاكل لبنان".

وكان لسوريا حليفان مخلصان هما وليد جنبلاط ونبيه برّي، ولكن الحريري أمضى أشهراً يُقنع بالملاطفة إيلي حبيقة المرتاب لقبول التحالف مع دمشق، مدبّراً أمر تبادل الرسائل بين قائد الميليشيا وعبد الحليم خدّام، ومستضيفاً لقاءاتٍ سرّية في جزيرة كريت وفي منزله في باريس، وملطّفاً

أجواء المفاوضات بملايين الدولارات. ووافق حبيقة في النهاية على التقرّب من دمشق ممّا أدّى إلى سلسلةٍ من المفاوضات "الثلاثية الأطراف" مع برّي وجنبلاط كان يُفترَض بها إنهاء الحرب.

"بالطبع، تابع الحريري هذه الترتيبات عن كثب"، يقول مروان حمادة الذي كان ممثّل جنبلاط في المحادثات (22) . "وُضع معظم نص الاتفاق في منزله، وبخط يده في غالب الأحيان. كان يحاول تسوية الأمور على الدوام".

ووُقِّع الاتفاق الثلاثي في 28 كانون الأول/ديسمبر ولكنه دام أقل من ثلاثة أسابيع. فقد عارضته بشدّة الطبقة السياسية التقليدية التي استاءت من التجاوزات الفجائية للميليشيا. وشعر عددٌ كبيرٌ من عناصر القوات اللبنانية بحزنٍ عميق حيال ما اعتبروه خيانة حبيقة لرفاقه بسبب انضمامه إلى السوريين، فأقصوه عن القيادة في انقلابٍ دموي، مُطيحين بالاتفاق الثلاثي ومُقوّضين أشهراً من المفاوضات المكثَّفة.

وكان انهيار الاتفاق الثلاثي خيبةً مريرةً أخرى بالنسبة إلى الحريري، ولكنه اعتاد الأمر بعد ثلاث سنواتٍ من الانخراط الوثيق في البيئة السياسية المشوَّهة وغير المتسامحة.

ويتذكّر عبد الله بو حبيب، سفير لبنان إلى الولايات المتحدة آنذاك، لقاء الحريري في نيويورك في أوائل العام 1983 والاستماع بحماسةٍ إلى رجل الأعمال الناجح يصف نشاطات إعادة الإعمار التي يقوم بها في لبنان. وعندما تناول الحديث الشؤون السياسية، بدا الحريري قليل الكلام، ولكنه "بات متمكّناً من السياسة اللبنانية" عام 1985.

"السياسة في لبنان هي كالإدمان. ما إن تتعاطاها حتى لا تعود قادراً على التخلّي عنها"، يقول بو حبيب (23) .

ومع ذلك، فإن العديد من محادثيه في لبنان لم يتمكّنوا من فهم سبب مثابرة رجلٍ ثريٍّ ومقتدرٍ كالحريري في مهمّةٍ غير محمودة وخطرة لصنع السلام في لبنان. كان سؤالاً طرحه يوماً جوني عبدو على الحريري. وكان عبدو سفير لبنان إلى سويسرا، ومن ثمّ إلى فرنسا، بعد تقاعده كرئيسٍ للمخابرات العسكرية عام 1983.

"تكلّمت ذات مرة مع الحريري مستخدماً العربية الفظّة للقول إن لبنان هو أشبه ببِركةٍ قذرة مملوءة بالبراز، مستفهماً منه عن إصراره على السباحة فيها فيما هو غير مضطرّ لذلك"، يتذكّر عبدو (24) .

وأجاب الحريري سائلاً عبدو عن عدد السنوات التي خدم فيها

لبنان في السلك العسكري، ومن ثمّ في السلك الدبلوماسي.

"عشر أو إحدى عشرة سنة. لماذا؟" قال عبدو.

"ما هي أحلامك الآن؟ كسب 10 ملايين دولار ربما؟" سأل الحريري.

"بالتأكيد، لِمَ لا".

"حسناً، أملك قيمة ما تحلم به مضاعفاً 100 مرة، لذا لِمَ لا يُفترَض بي الآن العمل على تحقيق حلمي بمساعدة لبنان كما سبق لك وفعلت؟"

"وافقت على المنطق الذي اعتمده ولكنني قلت له إن السياسة اللبنانية قد تكون خطِرة جداً"، يقول عبدو.

ويؤكّد الأصدقاء والزملاء أن الحافز الأساسي للحريري للتدخّل في حرب لبنان نابعٌ من ذكرياته المرتبطة بطفولته المتواضعة وسط بساتين البرتقال في صيدا، ومن إيديولوجية القومية العربية التي تشرّبها في سنوات المراهقة. كما أنه التزم جدّيّاً بواجباته الدينية كمسلم والتي كانت حافزاً إضافيّاً للمساعدة على إيجاد حلٍّ لمشاكل لبنان. ويتذكّر مروان حمادة الحريري مُخبراً إياه بأنه، وبعد جمع مليونه الأول من الدولارات، نظر إلى نفسه في المرآة وقال "رفيق أنت مليونير الآن. أنت مليونير، ولكنك ما زلت رفيق الحريري" (25) .

"ما يميّز الحريري عن كل أصحاب الملايين اللبنانيين الآخرين... هو أنه لم ينسَ أبداً أصوله المتواضعة، واعتاد التحدّث ببعضٍ من الحنين إلى الأوقات الماضية التي قضاها في الجبال حاملاً صناديق التفاح لقاء خمس ليراتٍ لبنانية في اليوم"، يقول مروان حمادة. فقد كان "الإيمان الديني، والقومية العربية، والشعور بأنه يدين للشعب ببعضٍ من ماله" حافزاً له.

وبالفعل، كان المال أحد مقتنيات الحريري الأكثر فائدةً لدى القيام بمساعٍ لحلّ النزاعات. وكان قليلٌ من الحقائب المحشوّة بالدولارات الأميركية أكثر إقناعاً في بعض الأحيان وتؤدّي إلى نتائج أسرع من الحوار الصَبور. وبالنسبة إلى الحريري، كان المال أداةً في المفاوضات، ويمكن تشبيه الوضع بالسمكري الذي يستخدم المفتاح الإنكليزي لوقف التسرّب أو بالنحّات الذي يستخدم الإزميل لإعطاء شكلٍ لكتلةٍ من الخشب.

"كان راشياً أكثر منه فاسداً"، يقول أحد معارفه منذ الثمانينيات من القرن الماضي (26) .

وكان الحريري يوزّع أمواله بسخاء على مشاريعه الخيرية، وكان

يشتهر بكرمه الشخصي بالرغم من أن الآخرين يقولون إنه كان "جوّاداً". وشارحاً ذات مرة الغاية من سخائه لأحد السياسيين اللبنانيين (27) ، سأل الحريري عمّا سيربح إذا كان يملك 100 مليون دولار وأعطى 50 مليون دولار لعائلته وخصّص الـ 50 مليون دولار أخرى لمساعدة الناس. الكثير من الأصدقاء، أجاب السياسي. تماماً، قال الحريري. وكان الحريري يكسب الكثير من الأصدقاء المقتدرين - رؤساء، ملوك، سياسيين، زعماء ميليشيات، رجال دول، ودبلوماسيين من العالم العربي إلى أوروبا والشرق الأقصى والولايات المتحدة. وفي باريس، كان قد صادق رئيس البلدية المتمتّع بكاريزما قيادية، جاك شيراك، وقد أثبت له فائدته من خلال شراء محاصيل شركاتٍ فرنسية في حالةٍ سيّئة أو مساعدتها على الحصول على عقودٍ مُربِحة في المملكة العربية السعودية.

وفي دمشق، كان يُقيم الحريري روابط وثيقة مع بعض أفراد النظام. وقد حاول التودّد إلى الأسد عارضاً بناء قصرٍ فاخرٍ لـه على طريق المطار، ولكن الرئيس السوري الذي لم يتأثّر بالعرض المغري حوّل هدية الحريري إلى فندق. وطوّر الحريري علاقة عملٍ جيّدة مع عبد الحليم خدّام وحكمت الشهابي، رئيس أركان الجيش السوري، توطّدت كما زُعِم من خلال مساهماتٍ مالية كبيرة. وعلى غرار الحريري، فقد كان محاوراه السوريّان الرئيسيّان سنّيّين ومن أبرز أركان النظام الذي يهيمن عليه العلويون.

"كان أقرب إلى خدّام منه إلى الشهابي لأن الشهابي كان رجلاً عسكرياً ومن المستحيل قيام علاقة بالدفء نفسه"،يقول نهاد المشنوق، وكان مستشاراً مقرَّباً من الحريري في التسعينيات (28) . "استُعين بالشهابي لتسليم رسالة دمشق القاسية، وكان خدّام يسلّم الرسالة العادية الأكثر لطفاً".

واعتمد السعوديون تقليدياً على الوسطاء "لشراء" السياسيين والصحافيين اللبنانيين - "الطريقة السعودية" للقيام بالأعمال، كما قال مسؤولٌ لبناني. ولكن سرعان ما أصبح الحريري القناة الحصرية للأموال السعودية في لبنان، ممّا زاد من قيمته كمفاوضٍ جدّي. واستخدم الحريري المال المدفوع نقداً والهدايا لبناء شبكةٍ من المُخبرين، فأصبح "جهاز مخابرات من رجلٍ واحد" يملك معلوماتٍ عن كل شخص، وفقاً للجميّل (29) . وكان يحصل أمناء سرّ الشخصيات المقتدرة على سياراتٍ جديدة أو مجوهراتٍ كهدايا تضمن للحريري أذناً متعاطفة عندما يتّصل هاتفيّاً للتحدّث إلى موظّفيهم.

وكانت ثروته ومكانته كذلك بمثابة دعمٍ لشبكةٍ واسعة من اللوجستيّات التي ساعدت على تسهيل وساطته.

"أنشأ بنية أساسية من الرجال المقتدرين، وعلماء السياسة والاقتصاد، وهكذا دواليك، لتقديم النصح له ووضع أبحاثٍ عن الحالة الراهنة"، يقول الجميّل (30) . "كان من الضروري أن يكون هناك شخصٌ قادرٌ على التكلّم مع الجميع، مسيحيين، مسلمين، اليسار واليمين".

ويتذكّر إيلي سالم اتصال الحريري به، عندما كان في السفارة اللبنانية في باريس، ليقول له إنه يحمل له رسالةً هامّة من الملك فهد (31) . فهل يودّ سالم التوجّه إلى موناكو حيث يمكث الحريري في يخته؟ قال سالم إنه يودّ ذلك ولكن عليه العودة إلى بيروت في اليوم التالي. لا مشكلة، قال الحريري، فستكون هناك سيارة في انتظاره خارج السفارة في غضون عشر دقائق. وصلت السيارة في الموعد المحدَّد وتمّ إيصال سالم إلى المطار. وتمّت مرافقته إلى طائرة الحريري التي أقلّته إلى نيس. ولدى وصوله إلى جنوب فرنسا، انتقل بواسطة حوّامة بيضاء إلى موناكو. وعندما وصل إلى موناكو، كانت سيارة رولس - رويس بيضاء وشخصان من هيئة موظفي الحريري بثيابٍ بيضاء في انتظاره على مدرج الطائرات لاصطحابه. وقادوا إيلي سالم المرتبك إلى اليخت حيث كان الحريري ينتظر أيضاً بثيابٍ بيضاء للترحيب به.

"كيف يمكن لأي شخصٍ صيداوي امتلاك هذا الجهاز؟" سأل سالم الحريري.

"هذا ليس جهازاً صيداويّاً. هو جهاز الحريري"، أجاب. "إن لم يتمّ بهذه الطريقة، فهو لن يعمل أبداً".

وخلال رئاسة الحريري الحكومة في التسعينيات، اتّهمه منتقدوه بأنه قام بتمويل الميليشيات المتخاصمة عمداً لإطالة أمد الحرب وتدمير بيروت ليتمكّن من الاستفادة من إعادة الإعمار في مرحلة ما بعد الحرب. وبدون شك، فقد استفادت شخصياتٌ سياسية عديدة، بمن فيها إيلي حبيقة قائد القوات اللبنانية، من السخاء المالي للحريري، عِلماً أن الحريري أصرّ على أن المال الذي وزّعه لم يكن مخصَّصاً لإدامة الحرب بل لإنهائها. وبالرغم من كونه الموفد السعودي للملك فهد، فإن الطريقة الوحيدة للجلوس على الطاولة في خضمّ التموّجات الكبيرة كانت اصطحاب حقيبةٍ كبيرةٍ جداً من المال معه.

"تريد العمل في هذا البلد، عليك تحمّل التكلفة، وإلا فإنك لا تستطيع الدخول"، يقول عبد الله بو حبيب سفير لبنان إلى واشنطن آنذاك (32) . "عليك الدفع لبرّي وجنبلاط، والقوات اللبنانية وكل شخص. لا يمكن

للحريري القدوم إلى لبنان دون الدفع للجميع".

والأموال التي خصّصها السعوديون كان يدوّنها الحريري في دفتر أستاذ وبالتفصيل. "لن يفتحه الملك فهد، ولكن عليَّ الاحتفاظ بالدفتر للمحافظة على ثقته. والدفتر دقيق"، أخبر صديقاً له (33) . "لذلك أحبّهم وهم يحبّونني". فقد كانت علاقةً قائمة على "وضوحٍ تام وولاءٍ واحترام" للعائلة السعودية المالكة.

لم يتمّ توزيع كل الأموال السعودية كرشواتٍ للسياسيين وقادة الميليشيات. فقد وهب الملك فهد ملايين الدولارات للجمعيات الخيرية وساعد على دعم الليرة اللبنانية المعتلّة من خلال تحويل مبالغ ضخمة على صورة سيولةٍ نقدية إلى البنك المركزي. وفي شباط/فبراير 1985، تدبّر الحريري مبلغ 500 مليون دولار من المال السعودي لضخّه في الخزينة اللبنانية بعد انخفاض قيمة الليرة في مقابل الدولار بنسبة 16 في المئة في يومٍ واحد، وذلك بسبب تأثّرها بحربٍ دامت 10 سنوات.

ووفقاً لجوني عبدو، كان يحوّل الحريري مبلغ 500,000 دولار شهريّاً للجيش اللبناني للمساعدة على دفع مرتّبات الجنود بهدف الحؤول دون فرارهم منه والانضمام إلى الميليشيات (34) . ويقول فؤاد السنيورة إن الحريري كان يشتري المدارس في الثمانينيات لإبقائها مفتوحة، ويدفع مرتّبات أساتذة الجامعات ورسوم التعليم لطلاب في الجامعة الأميركية في بيروت، وكلّية بيروت الجامعية (التي تُدعى الآن الجامعة اللبنانية الأميركية) (35) .

ومن جهةٍ ثانية، وفي أواسط الثمانينيات، كان من الواضح لأولئك المقرّبين من الحريري أنه كان يعتبر رئاسة الحكومة اهتمامه الأول. فقد كان سنّيّاً ثريّاً يدعمه الملك فهد المقتدر، وكان يُقيم صِلاتٍ واسعة النطاق على امتداد الانقسام الطائفي في لبنان، وصداقاتٍ في سوريا والغرب، وكان غير ملطَّخٍ بأي انتسابٍ إلى إحدى الميليشيات. وكان الحريري يعتبر نفسه مرشَّحاً مثاليّاً لرئاسة الحكومة. والدافع نفسه الذي كان قد جعله يحافظ على استمراريّته خلال السنوات الصعبة في المملكة العربية السعودية دعم أيضاً طموحاته السياسية التي جعلته قابلاً للعمل على بلوغ تسويات، وذلك وفقاً للعديدين الذين عملوا معه.

"كان طموحاً جداً ويعلم أنه لا يستطيع أن يصبح رئيساً للوزراء بدون السوريين"، يقول الجميّل (36) . "كان عامل الطموح أساسياً بالنسبة إلى رفيق الحريري وقد حمله على تحقيق العديد من التسويات على حساب المصلحة الوطنية".

ويتذكّر عبد الله بو حبيب، السفير اللبناني إلى واشنطن، تناول طعام العشاء مع الحريري في جنوب فرنسا في آب/أغسطس 1987، وقد كشف رجل الأعمال الناجح خلال هذه المناسبة عن حيلةٍ واثقة لإنهاء الحرب بضربة قاضية (37) . وقال الحريري إن الأمر كان يتطلّب عرض 30 مليون دولار على أمين الجميّل للاستقالة من الرئاسة لصالح جوني عبدو، السفير اللبناني آنذاك إلى سويسرا. ولو تمّ ذلك لعُيِّن الحريري رئيساً للوزراء في عهد عبدو.

وعبّر بو حبيب عن ارتيابه بهذا الموضوع وأعرب عن شكّه بموافقة الجميّل على الاقتراح. ولكن الحريري قال إنه قادرٌ على حلّ الميليشيات بواسطة 500 مليون دولار أخرى، وإرضاء السوريين، والاحتفاظ بالرئاسة للموارنة. وأضاف الحريري أنه كان ليصطحب الملك فهد، عاهل المملكة العربية السعودية، إلى دمشق لإقناع السوريين لو وافق الجميّل على المخطّط.

ويقول الجميّل إنه سمع باقتراح الحريري ولكنه تجاهله، ولم يُقَل أي شيءٍ آخر بعد ذلك. ومن جهةٍ ثانية، يُصرّ عبدو على أن العرض لم يكن جدّيّاً وأن الشائعة كانت مثالاً عن عدم نضج الحريري سياسياً.

"كرّر لي القصة نفسها في بازل - سويسرا"، يتذكّر عبدو (38) . "كانت دعابة. فقد كان مبتدئاً في السياسة في ذلك الوقت. واعتاد الناس دعوته بـ ' دفتر الشيكات ' ."

وبعد أربع سنوات، عاد الحوار ليلازم ذاكرة الحريري عندما أشار إليه عبد الله بو حبيب في مذكّراته (39) . ووفقاً لبو حبيب، رفض الملك فهد كما زُعِم التكلّم مع الحريري طيلة ثلاثة أشهرٍ بعد نشر الكتاب، وقد شعر بالإهانة من الانطباعة الشخصية للحريري بأنه كان رهن إشارة موفده اللبناني وعلى اتمّ الاستعداد للنزول عند طلبه (40) .

وفي غضون ذلك، كانت تعيد سوريا إثبات فاعليّتها في بيروت. وفي شباط/فبراير 1987، دخل حوالى 7,000 جندي سوري المدينة للمرة الأولى منذ الاجتياح الإسرائيلي قبل خمسة أعوام. وقمع السوريون القتال القائم بين الميليشيات المتقاتلة، وساد النصف الغربي من العاصمة ما يشبه الهدوء.

ودعا اللواء غازي كنعان، رئيس جهاز الأمن والاستطلاع العسكري السوري، الذي لعب في ما بعد دوراً أساسياً لتطوير العلاقات المستقبلية بين الحريري وسوريا، إلى إعادة فتح السفارات وعودة المغتربين الذين فرّ معظمهم مع بداية حملة الخطف التي قام بها المقاتلون الشيعة. "انتهت

محنتكم"، قال في رسالةٍ إذاعية للمقيمين في بيروت، واعداً بأن يكون وجود الجنود السوريين المُرسي للاستقرار غير محدود. حتى إن كنعان كان يعدو ببطءٍ يوميّاً على امتداد الطريق القائم على الواجهة البحرية دون مرافقة حرّاسه الشخصيين ليُثبت كم أن بيروت أصبحت آمنةً في ظل السلام السوري.

وكنعان علويٌّ صلبٌ ذو دهاء من معقل المنتمين إلى هذه الطائفة في جبال سوريا الغربية الساحلية، وكان شخصاً لامعاً وصاعداً في القوات المسلّحة السورية. وكان قائد وحدةٍ من الجيش في مرتفعات الجولان في الحرب العربية - الإسرائيلية عام 1973. ورُقّي إلى رتبة عقيد وكان على رأس جهاز المخابرات العسكرية في مدينة حمص السورية. وعندما اندلعت ثورة الإخوان المسلمين في أوائل العام 1982، هدّأ حالات التوتر الحادّة في حمص من خلال عقد اتفاقٍ مع المقاتلين السنّة. وبخلاف ذلك، سُحق المتمرّدون في المدينة المجاورة حماه بقسوةٍ مفرطة من قِبَل لواءٍ من الجيش السوري، وقُتل في هذه المواجهة 20,000 شخص، ودُمِّرت مناطق واسعة من المدينة وسُوِّيت بالأرض. وعُيِّن كنعان رئيساً للمخابرات العسكرية في لبنان بعد أشهرٍ من الاجتياح الإسرائيلي.

ومن جهةٍ ثانية، فشلت عملية إحكام سوريا قبضتها على لبنان في إنهاء الحرب سيّما وأن المفاوضات المتقطّعة كانت تنتهي على الدوام إلى طريقٍ مسدود وحدّةٍ في الكلام.

وفي حزيران/يونيو 1987، تمكّن الحريري من إقناع إيلي سالم وأمين الجميّل الممانع من الانضمام إليه في جلسةٍ على متن طائرته الخاصة وهي تشقّ طريقها عالياً فوق البحر المتوسط عبر العواصف الرعدية، ودامت الجلسة حتى الصباح التالي وناقشوا خلالها بعض المقترحات التي تقدّم بها الملك فهد. وضمّت الوثيقة المعروفة بورقة عمل الحريري، والتي انبثقت عن اللقاء، اتفاقاتٍ على نقاطٍ أساسية مدار نزاع كهوية لبنان العربية، والتمثيل المتساوي في البرلمان بين المسيحيين والمسلمين، وإلغاء الطائفية على مراحل، وحلّ الميليشيات وإنهاء الحرب، وذلك "بمساعدة الشقيقة سوريا لتحقيق كل هذه الأهداف". وبالرغم من أن الاتفاق الذي أُبرم على متن طائرة الحريري بعد محاولاتٍ متكرّرة حاز على تأييدٍ فاترٍ من الأسد، فهو لم يُترجَم أعمالاً على الأرض.

وفي أيلول/سبتمبر 1989، شارفت ولاية أمين الجميّل على الانتهاء وسط إخفاقٍ سياسي كامل في اختيار خلفٍ مناسب. وقبل دقائق من انتهاء

ولايته في منتصف ليل 22 أيلول/سبتمبر، عيّن الجميّل العماد ميشال عون، قائد الجيش اللبناني، على رأس حكومةٍ عسكرية مؤقّتة مؤلّفة من ستة رجالٍ في انتظار إجراء انتخاباتٍ رئاسية. ورفضت الحكومة اللبنانية برئاسة سليم الحص في بيروت الغربية القرار المنحرف للجميّل. ورفض العديد من كبار ضباط الجيش تأييد عون بمن فيهم العماد إميل لحود، رئيس العمليات في وزارة الدفاع. وانقسمت المدينة إلى نصفٍ غربي تهيمن عليه سوريا، وإلى جَيبٍ (قسم) مسيحي متمحور حول القصر الرئاسي في بعبدا حيث أقام عون مقرّه الرئيسي.

كان عون ظاهرةً فريدة خلال الحرب. وكانت وطنيّته التي لا تتزعزع وسمعته "النظيفة" على لسان العديد من اللبنانيين الذين باتوا مشمئزّين من وحشية الميليشيات واستهتارها، وسئموا الطبقة السياسية المحتضرة. وعون رجلٌ شعبي منحه أتباعه تأييداً متّقداً وعميقاً، ولكنه كان يفتقر إلى البراغماتية (الواقعية) الضرورية والخداع لتلبية طموحه بإضعاف نفوذ الميليشيات وإخراج الجنود السوريين من لبنان. فأثار المشاعر ضد القوات اللبنانية في أوائل العام 1989، مستأصلاً الميليشيا من أجزاء من بيروت الشرقية، ومقفلاً مرفأها غير القانوني. وفرض من ثمّ حصاراً على المرافئ الدرزية والشيعية غير القانونية في بيروت الغربية. ومنزعجين من شجاعة عون، بدأ السوريون بقصف جيبه في بيروت الشرقية في محاولةٍ للحطّ من عزيمته وتصميمه. وبدلاً من ذلك، ردّ عون بإطلاق "حرب التحرير" في آذار/مارس، وكانت محاولةً متهوّرة لإخراج الجيش السوري من لبنان تبادل خلالها الطرفان نيران المدفعية، والتحما على امتداد أطراف الجيب طيلة سبعة أشهرٍ ممّا أدّى إلى مقتل 1,000 شخص.

وترافق القتال بين قوات عون والسوريين مع مساعٍ دبلوماسية عربية متجدّدة لإنهاء الحرب. وكانت العلاقات بين دمشق ودولٍ عربية أخرى هشّةً عام 1989 نتيجةً للسخط العربي من الطموحات الواضحة لسوريا في لبنان، ودعمها إيران ضد العراق في حرب الخليج التي امتدّت بين عامَي 1980 و1988. وبالرغم من شعوره بأن قدرة عون على التحمّل ورفض التدخل الدبلوماسي العربي تثقلان كاهله، صمد الأسد بعناد عاقداً العزم على صدّ كل التحديات التي تواجهه في لبنان. وكان قد أحبط الطموحات الإسرائيلية في لبنان والتدخل الأميركي عام 1983. وكان هذان الأمران يشكّلان تحدّياتٍ أكبر للأسد من الاستياء العربي من سلوك سوريا في لبنان. وكان عون يمثّل العقبة الوحيدة له لبسط سيطرته الكاملة على البلد،

ونزول القائد السوري عند رغبة العرب في هذه المرحلة المتأخّرة أمرٌ بعيد الاحتمال، سيّما وأن الرئيس العراقي صدام حسين، عدوّه الماكر، كان يزوّد عون والقوات اللبنانية بالأسلحة الثقيلة لاستخدامها ضد السوريين.

وأثمر إصرار الأسد. فقد تخلّى العرب عن طلبٍ بانسحاب الجنود السوريين من لبنان ودعوا، عوضاً عن ذلك، إلى وقفٍ لإطلاق النار يليه مؤتمر مصالحة في منتجع الطائف السعودي على البحر الأحمر. ولعب الحريري دوراً مساعداً في تأمين لوجستيات (لوازم) المؤتمر، متدبّراً أمر سفر أعضاء البرلمان اللبناني المسنّين إلى المملكة العربية السعودية فيما قام بجولاتٍ مكوكية إلى دمشق مع وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل لنقل التطورات للأسد. وبقي على قيد الحياة 62 من أعضاء البرلمان اللبناني الأصليين الـ 99 الذين انتُخبوا عام 1972، 20 منهم مسنّون جداً أم مرضى. ومجمَّعين في فندقٍ في الطائف دون تمكّن الصحافة من بلوغهم، وفي آذانهم رنين تحذير رئيس الوزراء السابق صائب سلام بأن "الفشل غير مسموحٍ به"، قضى البرلمانيون شهراً قاسياً مناقشين ميثاقاً للمصالحة الوطنية وضعه الأخضر الإبراهيمي، أمين عام جامعة الدول العربية، بالارتكاز (إلى حدّ كبير) على ورقة عمل الحريري. وبعد 22 يوماً، توصّلوا إلى اتفاق تفاهم ووُلد اتفاق المصالحة الوطنية، المعروف باتفاق الطائف. وكان اتفاق الطائف الاتفاق السياسي الأكثر أهميةً منذ الميثاق الوطني عام 1943 والذي قامت عليه المؤسسة الدستورية في مرحلة ما بعد الحرب في لبنان. ومن بنوده دعوةٌ إلى إلغاء الطائفية السياسية على مراحل دون وضع حدودٍ زمنية للتنفيذ، تاركةً موعد تطبيقه مفتوحاً. وبالفعل، فقد تضمّن اتفاق الطائف اتفاق مشاركة السلطة العائد للعام 1943، ولكن بتوزيعٍ أكثر إنصافاً للمقاعد في مجلسَي النواب والوزراء حيث بات التمثيل الطائفي مناصفةً بين المسيحيين والمسلمين بعد أن كان لصالح المسيحيين بمعدّل 6 إلى 5. ونُقلت السلطة التنفيذية من الرئاسة إلى مجلس الوزراء، حارمةً بذلك الموارنة جزءاً أساسيّاً من امتيازاتهم. وقد نجم عن ازدياد نفوذ رئيس الحكومة السنّي ورئيس مجلس النواب الشيعي على حساب الرئيس الماروني نظام حكمٍ ثلاثي الأقطاب (ترويكا) يجمع المناصب الثلاثة الأكثر فعّاليةً في البلد.

وتضمّن الاتفاق دور سوريا في لبنان. فقد ورد فيه أن القوات السورية ستساعد الحكومة اللبنانية على استعادة سيادتها على كل البلد. وبعد عامَين من إقرار الاتفاق، يكون على الجنود السوريين إعادة انتشارهم من المنطقة الساحلية إلى البقاع. وتحدّد لجنةٌ عسكرية لبنانية سورية الإطار

الزمني لعمليات إعادة انتشارٍ أخرى ومداها. ولكن الاتفاق ألمح إلى صِلاتٍ أكثر عمقاً بين البلدَين. وكانت "العلاقات المميَّزة" بين لبنان وسوريا و"جذور القُربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة" ظاهرةً بوضوح في إطار "اتفاقياتٍ... في ميادين مختلفة".

ورفض عون اتفاق الطائف، واصفاً إياه بـ "الجريمة التي لا تُغتفَر" لأنه لم يحدّد جدولاً زمنياً واضحاً لانسحاب الجنود السوريين. ولكن معظم اللبنانيين رحّبوا بالاتفاق بشكلٍ عام، معتبرين إياه الوسيلة الأكثر واقعيةً لإنهاء إراقة الدماء. فبعد 14 عاماً من الحرب، كان هناك اعترافٌ بأنه لا يمكن الفصل بين مِحَن لبنان وحلّ المشكلة المستعصية المتمثّلة بالنزاع العربي - الإسرائيلي والعلاقات العربية - العربية، وأن السيطرة السورية المؤقَّتة ثمن مقبول لإرساء الاستقرار.

وفي 5 تشرين الثاني/نوفمبر، انتُخب رينه معوّض رئيساً، وكان عضواً متمرّساً في البرلمان ووزيراً سابقاً من بلدة زغرتا الشمالية، منهياً بذلك مرحلة فراغٍ رئاسي دام أكثر من عام. وقدّم الحريري لمعوّض مبنى أوجيه في بيروت الغربية لاستخدامه مقرّاً رئاسياً مؤقّتاً بينما كان عون متمسّكاً بقصر بعبدا التي ظهرت على جدرانه آثار شظايا القذائف؛ وكان الحريري يُلمح إلى رغبته بتولّي منصب رئاسة الوزراء. وأعطى معوّض أيضاً سيارة مرسيدس مصفّحة لاجتياز شوارع بيروت التي يشوبها العنف. ويتذكّر عبد الحليم خدّام، نائب الرئيس السوري آنذاك، ظهور اسم الحريري للمرة الأولى في دمشق كمرشَّحٍ جدّي لرئاسة الحكومة.

"اتُخذ قرارٌ بأنه من الأفضل تسليمه منصب رئاسة الوزراء بعد إجراء الانتخابات التشريعية في لبنان"، يتذكّر خدّام (41) .

وأخبر معوّض الحريري بأن مؤهّلاته التنظيمية ضروريةٌ لتسيير مجلس الإنماء والإعمار الذي سيلعب دوراً محورياً في إعادة إعمار لبنان في مرحلة ما بعد الحرب.

"لا تقلق، رفيق، سيأتي الوقت المناسب لك"، طمأن الحريري.

ولكن في 22 تشرين الثاني/نوفمبر، ذكرى الاستقلال اللبناني، وبعد 17 يوماً من انتخابه، قُتِل معوّض بانفجار قنبلة استهدفت موكبه لدى مروره بمنطقة الصنائع في بيروت في طريقه إلى المقرّ الرئاسي في مبنى أوجيه. وبالرغم من أن الفريق الأمني التابع لمعوّض كان قد أزال كل السيارات المتوقّفة في الشوارع التي سيمرّ بها موكب السيارات، ابتكر القاتلون أسلوباً حاذقاً زارعين قنبلةٍ تحتوي على شحنةٍ ناسفة زنتها 350

كيلوغرام من المتفجرات في مبنى صغير يفصله عن الشارع جدارٌ طويل من الإسمنت. وفجّر القاتل القنبلة بواسطة جهازٍ لاسلكي للتحكّم عن بُعد من سطح مبنى مُشرفٍ على الشارع في الأسفل. وانطلقت الشحنة الناسفة المكيَّفة في اتجاهٍ واحد، محطّمةً الجدار وقاطعةً سيارة المرسيدس المصفّحة التي كان فيها معوَّض إلى نصفَين، وقاذفةً جثّة الرئيس المشوَّهة على بعد 50 متراً. كان اغتيالاً حاذقاً بشكلٍ مُرعب والأخير في قائمةٍ طويلة من عمليات القتل السياسية التي بقي مرتكبوها مجهولي الهوية. وكان رائدٌ في جهاز المخابرات السورية، جمعة جمعة، يستقلّ السيارة التي تتقدّم الموكب على بعد 200 مترٍ منه. وكونه أصبح نائب رئيس جهاز المخابرات السورية في لبنان، بات اسم جمعة مرتبطاً بعملية اغتيال رفيق الحريري المرادفة لاغتيال رينه معوّض باحترافيّتها وقسوتها.

وكان اغتيال معوّض كارثةً كبيرة بالنسبة إلى أولئك المقيمين في لبنان والعالم الذين اعتقدوا أن البلد على طريق العودة إلى وضعه السويّ.

"كلما خطونا خطوةً إلى الأمام، عدنا خمس خطوات إلى الوراء"، قال سفيرٌ يائس إلى جامعة الدول العربية.

وانتُخب الياس الهراوي، وهو عضوٌ في البرلمان من بلدة زحلة البقاعية، رئيساً بعد يومَين وأعاد تعيين سليم الحص رئيساً للوزراء. وحلّ الهراوي رسمياً حكومة عون وأصدر أمراً للعماد المنشقّ بمغادرة قصر بعبدا. فرفض عون ذلك، وساد الأشهر التالية تحفّظٌ متوتّر. وأخيراً، فإن الحدث الذي سرّع سقوط عون لم يحدث في لبنان بل على بعد عدّة آلافٍ من الكيلومترات في الخليج في 2 آب/أغسطس من العام 1990 عندما بدأ صدام حسين باجتياح الكويت.

بالنسبة إلى الأسد، كان توقيت الاجتياح العراقي عرَضيّاً ومفيداً إذ أدّى إلى التقاء المصالح الأميركية والسورية المتقاربة. وفهم الأسد أن عليه المباشَرة بإعادة هيكلةٍ استراتيجية كبرى تشمل تعاوناً مع الولايات المتحدة، وذلك بسبب أفول نجم داعمه السوفياتي. وبعد انتخاب الرئيس جورج إتش دبليو بوش عام 1988، تحسّنت العلاقات الباردة التي يشوبها الارتياب، وتشجّع الأسد بدعم واشنطن لاتفاق الطائف ومعارضة عون الذي يرفض الإذعان.

ومن جهةٍ ثانية، سلّمت إدارة بوش بأن التورّط السوري في لبنان لا يمكن تفاديه إذا أُريد للبلد تحقيق أي استقرارٍ طويل الأمد. وبقيت دمشق عنصراً أساسياً لضمان إطلاق سراح الرهائن الأميركيين الذين احتجزتهم

مجموعاتٌ شيعية. وعلاوةً على ذلك، إذا كان بالإمكان استخدام التأييد السوري ضد العراق فإن هذا الأمر سيدعم مصداقية التحالف الدولي الذي تمّ حشده ضد صدام حسين.

ونزولاً عند طلب الولايات المتحدة، أرسل الأسد 3,000 جندي إلى المملكة العربية السعودية و1,000 جنديٍّ آخرين إلى الإمارات العربية المتحدة تبعتهم فرقةٌ مؤلَّلة من 9,000 جندي إلى الخليج. وأثار القرار بعض المعارضة المحلّية. فكان العديد من السوريين متعاطفين مع العراق، ولا سيّما المناطق القبلية في الشرق الواقعة بمحاذاة الحدود مع العراق والتي تشاطر سكانها السنّة الجذور نفسها. وفي بلدة أبو كمال الحدودية القائمة في منتصف الحدود السورية - العراقية التي تمتدّ مسافة 400 ميل، اندلع عصيانٌ مسلَّح محدود هتف خلاله المقيمون: "يحيا صدام حسين. يحيا العراق". ونشر الأسد فرقةً مدرَّعة لسحق الاحتجاجات، وأُشيع أن العشرات قُتِلوا وأوقف العديدون. وكانت العدائية التي أبداها سكان شرقي سوريا عام 1991 حيال العدوان الأجنبي ضد جيرانهم العراقيين نذيراً لما سيكون عليه الحال عندما شنّت أميركا حربها الثانية على العراق بعد 15 عاماً.

وكوفئ الأسد لإيفائه بتعهّداته للتحالف إذ وافقت الولايات المتحدة ضمناً على قيام سوريا ووحدات الجيش اللبناني الموالية للياس الهراوي بخطواتٍ ضد الجيب الذي يُشرف عليه عون، فطردوا العماد من بعبدا وأعادوا توحيد نصفَي بيروت.

وما عُرف بالمعركة الأخيرة الكبرى من الحرب بدأت فجر 13 تشرين الأول/أكتوبر بغارةٍ جوّية شنّتها المقاتلات السورية على قصر بعبدا ووزارة الدفاع المجاورة في اليرزة. وفرّ عون الذي كان قد تعهّد قبل يوم بالقتال حتى الموت من بعبدا وطلب اللجوء في السفارة الفرنسية. ولتفادي مزيدٍ من إراقة الدماء، اتصل بقادته وطلب منهم الاستسلام إلى الجيش اللبناني. ولكنها كانت نهايةً مروِّعة ودموية بالنسبة إلى مغامرة عون. فقد ارتكب الجنود السوريون عدداً من الأعمال الوحشية عندما اجتاحوا المواقع التي هي بعهدة جنود عون، قاتلين العشرات، وربما المئات من الجنود العونيين إضافةً إلى المدنيين. واختفى ببساطة 200 مقيم في الجيب الذي كان تحت إشراف عون. وتسبّب الميراث الدموي لحلّ العقدة بالحرب تسبّب بتقيّحٍ على مدى السنوات الـ 15 التالية، وكان جرحاً مفتوحاً للمعارضين المسيحيين للوصاية السورية.

بقي عون في السفارة الفرنسية طيلة عشرة أشهرٍ قبل منحه

اللجوء السياسي في فرنسا. ولكن إخراجه من بعبدا كان دلالةً على نهاية الحرب وبزوغ فجر عهد السلام السوري في لبنان.

كان صراعاً طويلاً ومريراً، ولكنها كانت لحظة انتصارٍ قد يكون استمتع بها الأسد في القصر الرئاسي في الروضة بدمشق. فمنذ توسّطه عام 1976 في لبنان، واجه الأسد تحدّياتٍ عديدة بسبب اغتصابه لبنان ولكنه قام بصدّها كلّها من خلال مزيجٍ من المثابرة والمكر والتصميم والحظ. والهزيمة المنكَرة الحاسمة التي لحقت بعون وقيام نظامٍ مُذعِن في لبنان في ظل الرئيس الياس الهراوي منعت أي إمكانية لقيام تحدّياتٍ محلّية جدّية في مواجهة الحكم السوري في لبنان. وكان وضع إسرائيل في لبنان الأضعف منذ العام 1978، وقد واجه جيشها المحتلّ في الجنوب حرب عصاباتٍ محدودة ولكن ضارية قامت بها المقاومة اللبنانية. وعلاوةً على ذلك، سلّمت واشنطن ضمنيّاً بسيطرة الأسد على لبنان، وكانت مكافأةً لقرار الأسد الانضمام إلى التحالف بقيادة الولايات المتحدة ضد اجتياح العراق للكويت.

وبالنسبة إلى الحريري، فقد خرج من الحرب قوةً سياسية جديدة كبرى، قطباً سنّياً مقتدراً. وقد عنت ثروته ومجموعة علاقاته الدولية التي يُحسَد عليها، ولا سيّما مع دمشق، أنّ تحقيق طموحه بتسلّم منصب رئاسة الوزراء ليس سوى مسألة وقت.

الفصل الثالث: السلام السوري

بعد حربٍ دامت 16 عاماً، تحوّل وسط بيروت الذي كان صاخباً ذات مرة إلى أرضٍ قاحلة من الأطلال التي تركت فيها القذائف ندوباً، وشوارع مكسوّةٍ بالعشب تقيم فيها عائلاتٌ معوَزة بشكلٍ غير قانوني، ومجموعات من الكلاب البرّية الطوّافة. وكان التجوال بعد الحرب عبر الشوارع المُقفرة تقريباً من وسط مدينة بيروت التي قسمها الخط الأخضر السيّئ السمعة، وفصلت الجبهة بين شطرَيها الشرقي والغربي، اختباراً يتطلّب ضبطاً للنفس. وينتشر عددٌ لا يُحصى ولا يُعَدّ من الثقوب التي خلّفها الرصاص على واجهات المنازل المبنية بالحجر الرملي منذ العهد العثماني على جانبَي الشوارع التي أُطلق عليها أسماء جنرالاتٍ بعد الحرب العالمية الأولى مثل فوش وويغان وألّنبي، وهي مثيرةٌ لذكرياتٍ تعود لعهد الانتداب الماضي. وبدت هياكل تلك المباني النحيلة الكئيبة والمجدَّرة التي كانت ذات مرة ظريفةً وأنيقة وكأنها تعاني من جُذامٍ كريهٍ يأكل حجارتها، عدوى رهيبة طالت المنطقة بأكملها ولم يسلم منها إلا عددٌ قليلٌ من المباني. وأُطُر أبواب المداخل وفتحات النوافذ التي كانت ذات مرّة واضحة المعالم، والتي باتت مواقع مفضَّلة للمسلّحين، كانت متناثرةً على الأرض وقد حرِصت سنواتٌ من القوة النارية على تبديل هذه المعالم.

كانت الجدران الداخلية ملطَّخةً بكتاباتٍ رسمها رجال ميليشياتٍ شعروا بالسأم، صورٍ بسيطة وغير مُتقَنَة لمعارك بالدبّابات والطائرات مع أعلامٍ حزبية ظاهرة بوضوح. وما زالت أكياس الرمل الصلبة كالصخر على مرّ الزمن تملأ النوافذ المواجهة لخطوط العدوّ التي باتت ساكنة. واستحالت الشوارع آجاماً متشابكةً من الأشجار الصغيرة والشجَيرات الخفيضة الكثيفة الأغصان. وغذّت برَكٌ من مياه الصرف الصحّي الراكدة سحاباتٍ من البرغش السّمين ورُقعاً من العشب الأخضر السقيم. وانتشرت أكوامٌ من الدبش المجروف على أطراف بعض الطرق الرئيسية المؤدّية إلى ساحة الشهداء، وهي النقطة البؤرية لمنطقة وسط بيروت. هنا، جلس جنودٌ سوريون في الظل عاطلون عن العمل يدخّنون السجائر ويتحادثون، ولا يمسكون ببنادقهم بإحكام. وباع مسنّون متعَبون أكواباً بلاستيكية صغيرة من القهوة التركية موضوعةً في قدرٍ نحاسي أو في قوارير ترموس بلاستيكية. وباع أولادٌ صغارٌ فقراء وحفاة متجوّلين بطاقاتٍ بريدية تظهر فيها ساحة الشهداء قبل الحرب وأشجار النخل وحافلات الترام ومقاهٍ مزدحمة على جانب الطريق.

وبالرغم من أن الدمار الحاصل في وسط بيروت كان النتيجة الأكثر وضوحاً للحرب اللبنانية، فلا يمكن مقارنته بالتكلفة الإنسانية طيلة 16 عاماً من القتال. فقد قُتِل حوالى 144,000 شخص منذ العام 1975، وجُرح أكثر من 184,000 شخص بمن فيهم 13,000 أُصيبوا بإعاقاتٍ دائمة، في بلدٍ تشير الإحصائيات إلى أن عدد سكانه بلغ حوالى 3,5 مليون نسمة عام 1990. وشُرِّدت حوالى 90,000 عائلة من منازلها، وزال ببساطة 17,000 شخص آخرين على الأقل. وأُلحق الدمار الجزئي أو الكلّي بـ 45,000 منزل، واستحالت 71 بلدة وقرية دماراً (1) . وقُدِّر أن حوالى 800,000 لبناني هاجروا بين عامَي 1975 و1990، ولا سيّما أولئك المنتمون إلى الطبقة الوسطى الذين كان بإمكانهم تحمّل تكلفة المغادرة وتأسيس حياةٍ جديدة لهم في الغرب.

وتضرّرت شبكات الكهرباء والهاتف والماء بشدّة بسبب الحرب والافتقار إلى أعمال الترميم والإصلاح والتكنولوجيا التي أصبحت قديمة الطراز. وكان ثلث طاقة توليد الكهرباء متوقفاً عن العمل، ممّا يفسّر الهدير اليومي لمولّدات الكهرباء المحمولة في شوارع بيروت. وبما أن نصف شبكة الهاتف باتت غير صالحة للاستعمال، فقد كان إجراء اتصالٍ ما ممارسةً مُحبطة. وكانت ثمانين في المئة من آبار المياه ملوَّثة، ونصف الفنادق لم تكن قادرة على العمل (2) . وقدّرت الأمم المتحدة أن لبنان تكبّد خسائر بقيمة 18 بليون دولار نتيجةً للأضرار التي لحقت به وهو بحاجةٍ إلى 5 بلايين دولار لإصلاح البنية التحتية فقط.

وبنهاية الحرب في تشرين الأول/أكتوبر 1990، ركّز الحريري جهوده الأوّلية على إعادة بناء وسط بيروت التي يمكن إنجازها، كما قال، من خلال تأسيس شركة مشتركة تضم مالكي الأراضي والمستثمرين. وأصبحت الشركة "الشركة اللبنانية للإنماء والإعمار" المعروفة أكثر بمعناها الفرنسي المركَّب "سوليدير". وكانت عملية إعادة بناء بيروت تحقيقاً لتصوّرٍ غذّاه الحريري طيلة عقدٍ من الزمن كما هو بادٍ في النموذج المصغَّر عن وسط المدينة الذي كان يحب إبقاءه بقربه.

"كان يحلم بسوليدير منذ العام 1982. كان هذا حلمه الحقيقي"، يقول نهاد مشنوق، وهو مستشارٌ سابقٌ مقرَّب من الحريري ساعده على تسويق المشروع لدى سياسيين متشكّكين عام 1991 (3) .

وبالرغم من أن الحريري كان شديد التوق للبدء، فقد أُعيق التقدّم الحاصل بشجارٍ سياسيٍّ تلاحمي حادّ وشجاراتٍ بسبب أمورٍ تافهة

حدثت في حكومة عمر كرامي، الشقيق الأصغر الحيادي لرشيد كرامي (رئيس وزراء سابق اغتيل عام 1987). وفي أوائل العام 1992، ارتفع سعر صرف الليرة اللبنانية مقارنةً بالدولار من 879 ليرة للدولار الواحد إلى 2,000 ليرة في غضون شهرَين، جاعلاً بذلك الأزمة الاجتماعية - الاقتصادية الأسوأ تتفاقم منذ الاستقلال. واستقال كرامي في أيار/مايو لدى اندلاع أعمال شغب في بيروت وقيام حشودٍ ثائرة بسدّ الشوارع بإطاراتٍ مشتعلة.

ولم تُعِر دمشق في بادئ الأمر إلا انتباهاً قليلاً للاقتصاد اللبناني، تاركةً الاقتصاد العام والسياسة المالية لحكومة كرامي فيما كانت تركّز على تعزيز فرض سيطرة الأمن على مختلف أنحاء البلد. ولكن الأداء الضعيف لحكومة كرامي ونزول اللبنانيين الغاضبين إلى شوارع بيروت بسهولة كانت بمثابة تحذيرٍ للسوريين بأن سيطرتهم على لبنان لم تكن مُحكَمةً كما كانوا يعتقدون.

"أدرك السوريون أن التحكّم بالوضع السياسي وحده لا يكفي. فقد كان عليهم التحكم بالاقتصاد أيضاً، وكان رفيق الحريري الرجل الوحيد القادر على القيام بذلك"، يقول فارس بويز الذي تسلّم منصب وزير الخارجية بين عامَي 1990 و1998 (4) .

وانطلاقاً من علاقاته بالمملكة العربية السعودية وسيرته كخبيرٍ ماليٍّ بارز في برنامج إعادة الإعمار الناشئ، اعتُبر الحريري من قِبَل العديدين على أنه المرشَّح الواقعي الوحيد لمنصب رئاسة الحكومة. وبالرغم من امتلاكه بعض الحلفاء المقتدرين في دمشق كعبد الحليم خدّام، نائب الرئيس، وحكمت الشهابي، رئيس أركان الجيش السوري، فقد اعتبر أعضاءٌ آخرون في النظام السوري صِلات الحريري بالغرب والمملكة العربية السعودية تهديداً لا مصدر قوة. وإضافةً إلى ذلك، كان على الحريري النضال مع عائلته التي كانت تملك هواجس حيال طموحاته السياسية.

"كانت كل العائلة ضد السياسة كلّياً"، يتذكّر سعد الحريري، الابن الثاني لرفيق (5) . "في العام 1992، عندما كان يحاول تولّي منصب رئاسة الحكومة، حاولنا كلّنا إقناعه بالتراجع عن ذلك، ولكننا دعمناه بأجمعنا عندما قرّر الاضطلاع بهذا المنصب".

ولماذا كانت العائلة ضد خوضه المعترك السياسي؟

"انظر ما الذي جرى"، يقول سعد بابتسامةٍ متجهّمة. "كنا نشعر دائماً بوجود خطرٍ مُحدِقٍ به. في ذلك الجزء من العالم، ليست السياسة أمراً لا يجدر بنا الشعور بالذُّعر منه".

ومع ذلك، كان على الحريري الانتظار أشهراً إضافية قليلة لأن الأسد قرّر تعيين رشيد الصلح، وهو سياسي لبناني متمرّس، رئيساً مؤقّتاً للوزراء للإشراف على الانتخابات البرلمانية في صيف العام 1992، الأولى منذ 20 عاماً.

وكانت الانتخابات شأناً مُحزناً بسبب تحالفات الدقيقة الأخيرة برعايةٍ سورية، والمناطق الانتخابية المقسَّمة بطريقةٍ يستفيد منها حلفاء سوريا، وهي مظاهر مناقضة لاتفاق الطائف ولكنها كانت تؤسّس لنموذجٍ جرت في إطاره الجولتان الانتخابيّتان التاليتان. فقاطع المسيحيون الانتخابات احتجاجاً على التدخل السوري؛ وكانت نسبة المقترعين 30 في المئة، وهي الأكثر انخفاضاً منذ الاستقلال. وأراد السوريون برلماناً مُطيعاً قبل شهر أيلول/سبتمبر الموعد النهائي لتنفيذ المرحلة الأولى من إعادة انتشار الجنود السوريين وفقاً لاتفاق الطائف. ولم يكن للأسد أيّ نيةٍ لتنفيذ عملية إعادة الانتشار، ولكنه كان بحاجةٍ إلى برلمانٍ مِطواع في بيروت لخنق أي معارضة وحماية المصالح السورية المستقبلية. وبالرغم من أن الانتخابات عزّزت الهيمنة السورية على لبنان، فكان من شأن أداءٍ اقتصادي آخر غير ملائم تقوم الحكومة اللبنانية باعتماده إضعاف سيطرة سوريا، وهو أمرٌ لا يمكن للأسد تحمّله. وكان الأسد واثقاً من نفسه وذا خبرةٍ كافية لإدراك أن الحريري كان مصدر قوةٍ مفيدٍ لدمشق يمكن التحكّم به بسهولة. ومُنح الحريري حرّيةً واسعة النطاق لتنفيذ سياساته الاقتصادية، فيما بقيت الشؤون الأمنية في أيدي أجهزة المخابرات العسكرية السورية واللبنانية.

وبعد أشهرٍ من الانحطاط الاقتصادي، والشك السياسي، وسلسلةٍ من رؤساء الوزراء الباهتين، أُثير اللبنانيون بصورةٍ مفاجئة ببلوغ رجل الأعمال البليونير هذا الذي هو أوسع من الحياة، والصديق الحميم للعائلة السعودية المالكة، سدّة رئاسة الوزراء. وفي غضون 24 ساعةً من تعيينه في تشرين الأول/أكتوبر 1992، انخفض سعر صرف الليرة في مقابل الدولار من 2,205 ليرة للدولار الواحد إلى 2,000 ليرة.

وعندما اضطلع الحريري بمنصبه، قيل إن مراسلاً صحافياً سأله إن لم يكن كبيراً جداً بالنسبة إلى بلدٍ صغيرٍ كلبنان.

"إذاً ماذا نفعل؟" أجاب الحريري. "هل نجعل الحريري أصغر أم لبنان أكبر؟"

ونظراً لمستوى الدمار على امتداد الوطن، اعتبر الحريري أنه سيكون بحاجةٍ إلى لمسةٍ ليبرالية لتطبيق سياسته الاقتصادية إذا أراد تحقيق تصوّره

بإعادة إحياء لبنان وجعله مزدهراً. وبالفعل، فقد كان الشعار التجاري لعهد الحريري اتّباع طريقةٍ تنزع إلى الاستبداد يُدير من خلالها البلد وكأنه امتدادٌ لإمبراطورية أعماله الخاصة. فملأ حكومته الأولى بأشخاصٍ ينعمون برعاية المقتدرين إضافةً إلى موظَّفين سابقين، حاثّاً أحد الوزراء على تلقيب الحكومة "مؤسسة الحريري" وذلك على سبيل الدعابة. وتمثّل أسلوبه في الإدارة بإحاطة نفسه بأشخاصٍ يثق بهم - "نظام الحريري" كما قال لإيلي سالم ذات مرة.

وبالإضافة إلى تعيين أشخاصٍ مقرَّبين منه في مناصب أساسية، سعى الحريري إلى تطويق القصور البيروقراطي في بعض الوزارات ومؤسسات الدولة من خلال تطوير إدارة ظل مؤلَّفة من شركاتٍ خاصة ووكالات حكومية مرتبطة به بشكلٍ وثيق ومكلَّفة مهمّة إعادة إحياء الاقتصاد وقيادة برنامج إعادة الإعمار. وضمّت هذه الوكالات مجلس الإنماء والإعمار الذي، وبالرغم من إنشائه عام 1977 لتولّي مهمّة إعادة التطوير الوطني، مُنح سلطات إضافية شاملة عام 1992. وأصبح في الواقع وزارةً إلى حدٍّ بعيد، يرفع تقاريره إلى رئيس الوزراء ويهتمّ بكل جانب من جوانب برنامج إعادة الإعمار الذي رُصِد له مبلغ 18 بليون دولار.

ومع ذلك، فقد كانت سوليدير الجوهرة في تاج إعادة الإعمار التي يتولاّها الحريري، وهي كانت شركة العقارات التي أُسِّست لتولّي مهمّة إعادة إنماء منطقة وسط بيروت التي دمّرتها الحرب.

وأمل الحريري في أن تكون عملية إعادة بناء وسط المدينة الخطوة الأولى البالغة الأهمية في استعادة بيروت مكانتها التي تمتّعت بها قبل الحرب بوصفها المركز التجاري المالي والخدماتي للشرق الأوسط. وطال تفويض سوليدير أكثر من 1,2 مليون متر مربّع من المساحة العقارية الأصلية لوسط المدينة. واستُصلح 608,000 متر مربّع إضافي من مساحة البحر لتوفير مساحاتٍ مفتوحة، ومكاتب، وأحواض لرسوّ السفن.

ولمواجهة المشاكل التي قد تكون عسيرةً بسبب وجود شركةٍ واحدة لإصلاح الأملاك العائدة لمئاتٍ من الأشخاص ولمؤسساتٍ مختلفة، تقدّمت سوليدير على بساط البحث بمخطط ابتكاري لإشراك المالكين في المشروع من خلال عرض أسهمٍ عليهم في الشركة تضاهي قيمة أملاكهم. وجُمِع مبلغ 650 مليون دولار في أوائل العام 1994 نتيجةً للإفراط في الاكتتاب في الأسهم بما يفوق المعروض، وقد اشترى الحريري أسهماً بقيمة 125 مليون دولار وأصبح المساهم الأكبر في سوليدير بحصةٍ تبلغ نسبتها 6,5 في المئة.

وبينما كان مؤيّدو الحريري يجادلون قائلين إن الحريري يوظّف ماله حيث يمكنه جني الأرباح، تذمّر عددٌ من منتقدي سوليدير من تضاربٍ جدّي في المصالح. وازداد ذلك الانتقاد من خلال اتهاماتٍ وجّهها أصحاب الأملاك لسوليدير، بمن فيهم عددٌ من العائلات السنّية الرائدة في بيروت، بأنها قلّلت من قيمة أملاكهم عَمداً. وإضافةً إلى ذلك، تحسّر التقليديون على ما اعتبروه تهديمٌ مفرط لمبانٍ ذات قيمة تاريخية والتي يمكن ترميمها. ولم يتمّ الاحتفاظ إلا بـ 277 مبنى على حالها كما كانت في الأصل، فيما هُدم الباقي وجُرف إلى البحر ليكون جزءاً من الموقع المردوم في النورماندي. ومن جهةٍ ثانية، فقد جدّدت سوليدير وحافظت على ثلاث مناطق مع نتائج سارّة على الصعيد الجمالي وإن غير مشوِّقة بطريقةٍ ما. واختفى إلى الأبد ذلك المقدار الكبير من الفوضى والضجيج الذي كان يسود وسط بيروت قديماً، وقد استُبدل بمناطق معزولة من الشوارع المرصوفة وفقاً لطرازٍ مدينيٍّ عقيم، وكان الأثرياء فقط قادرين على الإقامة وممارسة التجارة في أروقةٍ تحمل طابعاً فنّيّاً ومتاجر تفصل في ما بينها مساحاتٌ صغيرة مغبرَّة وقاحلة في انتظار تنميتها.

وبقيام الجرافات بإزالة المعالم المدمَّرة لمدينة القرن العشرين، ظهرت بالتدريج نسخةٌ أكثر قِدَماً لبيروت. فتحت سحابات كتل الغبار والهدير المتواصل للآلات، وفي حُفَرٍ بعمق بضعة أقدام، كان بالإمكان رؤية فِرَقٍ من علماء الآثار منهمكين برقعةٍ من الأرض، فاحصين، مُقيسين، مفتّتين، منظّفين بالفرشاة، وجامعين كِسَراً من تاريخ بيروت الغنيّ والمتنوّع. وكشفت عمليات التنقيب عن منجم ذهبٍ أثري - فسيفساء هيلّينية، طرقات رومانية، مقبرة رومانية، مدافن فينيقية، جزءٍ من جدارٍ أصلي لمدينةٍ كنعانية، أساسات قلعةٍ صليبية، وأنابيب لمياه الشفة والصرف الصحّي، تعود للقرون الوسطى.

ومع ذلك، فما كان يُفترَض تقبّله على أنه مكافأةٌ مُثرية على الصعيد الوطني لمشروع إعادة بناء وسط المدينة تحوّل، عوضاً عن ذلك، إلى جدالٍ عنيف أثار انفعال علماء الآثار ضد المصالح التجارية لسوليدير.

وفي أواسط التسعينيات، نشرت الصحف اليومية اللبنانية تقارير مصوَّرة عن قيام الجرّافات التابعة لسوليدير بتدمير عشراتٍ من المصنوعات اليدوية، لا بل أيضاً مواقع كاملة تجري فيها أعمال التنقيب، وذلك بشكلٍ متعمَّد وتحت جُنح الظلام في غالب الأحيان بعد مغادرة علماء الآثار إلى منازلهم. "مجزرة تراث"، ارتأى ألبير نقاش، وهو عالم آثار ومؤرّخ لبناني، وهو اتهامٌ ردّده العديد من الخبراء الدوليين. وبالنسبة إلى العديد من

اللبنانيين، فقد كان يرمز الموقف المتعجرف لسوليدير حيال الميراث التاريخي للبلد إلى جشع حكومة الحريري وذهنيّتها التجارية الراسخة.

والاستخفاف الظاهر بماضي بيروت في مرحلة ما قبل الإسلام دعم اعتقاداً في الوسط المسيحي بأن عملية إعادة البناء كانت ستؤدّي إلى أسلمة وسط المدينة بسبب إدارةٍ سنّية قوية لدفّة الإعمار، وهو اتهامٌ لازم الحريري حتى نهاية عمره. وتمّ تسييس الميراث الفينيقي للبنان في أوائل القرن العشرين بعد قيام بعض المفكّرين المسيحيين بتبنّيه لدعم الحجة القائلة إن لبنان كان منفصلاً ثقافيّاً عن العالم العربي والمسلم. وناقش مؤرّخون مسلمون متشكّكون بعملية "إضفاء الطابع الفينيقي"، مؤكّدين أن السلالة التي أقامت على الشاطئ المشرقي منذ 4,000 عام وأكثرت من أسفارها البحرية استوعبها العالم العربي منذ وقتٍ طويل.

واتهام حكومة الحريري باتّباع سياسة أسلمة كان أمراً مبالَغاً فيه على الأرجح؛ فقد وصف الحريري هذه التُهَم بأنها "افتراء". واتّبعت سوليدير أسلوباً خاطئاً في ما يتعلّق بالاكتشافات الأثرية بدافعٍ من الربحية لا بدافعٍ من رغبةٍ إسلامية - إيديولوجية بإغاظة المسيحيين.

ومع ذلك، كان الحريري مسلماً ملتزماً حريصاً على إتمام واجباته الدينية بجدّية؛ فقد موّل بناء العديد من المساجد، بما في ذلك مسجد محمد الأمين الضخم القائم على طرف ساحة الشهداء في بيروت، والذي كان الفروغ من بنائه وشيكاً عندما توفّي الحريري. والمسجد مهيبٌ بتباهٍ، مبنيٌّ بالحجر الرّملي، وتعلوه مئذنتان مذهّبتان وقبّةٌ فسيحة بلون الأزرق السماوي، وهو يجعل كاتدرائية مار جرجس المارونية القريبة منه ومسجد الأمير منصور عساف المرمَّم يبدوان صغيرَين مقارنةً به. وأشار أحد المراقبين بعد وقتٍ قصير من وفاة الحريري إلى أن المسجد المهيب "أخّر تطوّر العلاقات الطائفية عشر سنوات". وقد يكون في هذا الوصف مبالغة، ولكن هذا الغلوّ كان انعكاساً لما تبقّى من رَيبة بعض المسيحيين حيال الحوافز الدينية للحريري.

ولكن الحريري كان يشعر بمخاوف المسيحيين من فقدان هويّتهم في محيطٍ يهيمن عليه الإسلام، وكان مؤيّداً قويّاً لنموذج الطائفية السياسية الذي يميّز لبنان. وفي مقابلةٍ أجراها معه الكاتب عام 1996، أعلن الحريري عن وجوب الاستمرار باعتماد الطائفية السياسية في المستقبل المنظور بسبب طبيعة لبنان الطائفية.

"أنا لست مع إلغاء الطائفية السياسية ما لم يطالب بها

المسيحيون"، قال. "لا أعني 51 في المئة فقط منهم؛ أعني 75 أو 80 في المئة منهم. وإلا، أعتقد أنه من الأفضل إبقاء الأمور على حالها".

وفي الواقع، فإن الاتهام الموجَّه إلى الحريري بأسلمة لبنان يتعلّق أكثر باستياء المسيحيين من النظام الذي اعتُمد بعد الطائف ويتولّى بموجبه رئيس وزراء سنّيٌّ مقتدر بإدارة دفّة الأمور في البلد بدلاً من رئيسٍ ماروني، وذلك للمرّة الأولى منذ الاستقلال. وبالرغم من قيام اتفاق الطائف بإنشاء نظام حكمٍ ثلاثي الأقطاب "الترويكا" يتشارك فيه الرئيس ورئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب، لم يكن أحدٌ يشك بأن الحريري كان الأول بين ثلاثةٍ متساوين، وهذا الأمر هو مدعاةٌ لحدوث حالاتٍ من الاضطراب. وإضافةً إلى قلق المسيحيين من الدور المتناقص للرئاسة والعدائية حيال السلام السوري، استاءت النخبة السنّية التقليدية المؤلَّفة من العائلات المقتدرة في بيروت وصيدا وطرابلس من تدخّل هذا الوافد الجديد الفاحش الثراء والمدعوم سعودياً. واعتبر الشيعة الحريري طليعة دورٍ سعودي معزَّز في لبنان يهدف إلى موازنة التفوّق الديموغرافي للشيعة في لبنان وتعبئتهم السياسية المتنامية، وذلك من خلال الثروات الطائلة للحكام الوهّابيين وتأثيرهم.

ولذلك، وجد العديد من السياسيين اللبنانيين أنفسهم بين خيارَي معارضة سياسة الحريري والاستفادة من تحالفٍ مع رئيس حكومةٍ ذي سلطةٍ ونفوذ.

و"اختبار الحريري غير مسبوق في لبنان"، كتب سمير عطا الله في أيار/مايو 1994، وهو محرّرٌ صحافي في جريدة الشرق الأوسط ومركزها لندن.

"هذه... المرة الأولى منذ الاستقلال التي يكون فيها كل شيء - من حالة العملة المحلّية، وإلى الاقتصاد عموماً وإعادة البناء ومستوى المعيشة والكهرباء والمياه والهاتف - مرتبطاً برئاسة الوزراء المرتبطة بدورها برفيق الحريري".

فبين عامَي 1992 و1996، استخدم الحريري نفوذه لبناء شبكته لخاصة من المُوالين، وهي نخبةٌ سياسية جديدة تتقاطع فيها الانتماءات الدينية ويمكن للحريري الاعتماد على دعمها لتنفيذ برامجه الاقتصادية والإعمارية. كما وسّع مصالحه الإعلامية شارياً أسهماً في الصحف المحلّية اللبنانية، ومُطلِقاً تلفزيون المستقبل عام 1993 وصحيفة المستقبل اليومية عام 1998.

ولكن، لا يمكن حتى لأولئك الذين هزئوا بتكتيكات "الجَرف" التي

اعتمدها الحريري تجاهل واقع أن البلد كان يخطو خطواتٍ واسعة وسريعة في أوائل التسعينيات. وبين عامَي 1993 و1995، بلغ معدّل الناتج الإجمالي المحلّي 8 في المئة. وتمّ التحكّم بالتضخّم الذي بدأ يرتفع في أوائل العام 1992 واستقرّت الليرة بنجاح وانخفضت قيمتها في مقابل الدولار من 2,000 ليرة إلى 1,500 ليرة في نهاية العقد.

واستخدم الحريري علاقاته الدولية لاجتذاب مجموعةٍ كبيرة من الهبات والقروض الميسَّرة من وكالاتٍ عربية ودولية. وأطلق سندات خزينة بفائدة مرتفعة وأول إصداراتٍ لسنداتٍ مالية باليورو قام بها لبنان، وذلك لإضفاء حالةٍ من الاستقرار على الليرة اللبنانية وملء خزينة الدولة. ووصلت مداخيل إضافية من الشتات اللبناني المُقدَّر ثروته بين 30 و40 بليون دولار. وفي أواسط التسعينيات، أُعيد ما بين 1 بليون دولار و1,5 بليون دولار في الفصل الواحد إلى الوطن أرسلها اللبنانيون المقيمون ما وراء البحار.

وكان الحريري مصمِّماً على استعادة بيروت دورها كالمركز التجاري في الشرق الأوسط للشؤون المالية والخدماتية، وهو لقبٌ انتزعته إمارة دُبي إبّان سنوات الحرب في لبنان. وأصبحت بيروت مرةً أخرى الجسر بين الشرق والغرب، ومحوراً عالمياً حيث يمكن للعرب الأثرياء الفرار من حرّ الخليج إلى درجات الحرارة المعتدلة في لبنان، والقيام بأعمال، والتسوّق في المراكز التجارية البرّاقة، وقضاء أيام العطلة في فنادق المدينة من الدرجة الأولى وفي المنتجعات المنتشرة على امتداد الشاطئ اللبناني والجبال. ومع ذلك، كان نجاح إعادة البناء ينطوي على مغامرةٍ واحدة كبيرة غير مضمونة النتائج. فقد كان الحريري يتّكل على عملية السلام في الشرق الأوسط التي بدأت في مدريد عام 1991 وانتهت عام 1996. وكان لبنان في وضعٍ يخوّله حصد ربحية سلامٍ إقليمي، ممكّناً البلد من تسديد الدين الضخم المتراكم بسبب فورة الإنفاق التي أشرف عليها الحريري في أوائل التسعينيات.

وأدّى مشروع الحكومة لإعادة البناء على امتداد عشر سنوات، والمعروف بأفق العام 2000، إلى توقيع عقودٍ لإعادة تأهيل شبكة الهاتف وتأمين مليون خط جديد، وإصلاح شبكة الكهرباء وبناء منشآتٍ جديدة لتوليد الطاقة، وإنشاء مطارٍ جديدٍ تماماً بقيمة 486 مليون دولار، وتوسيع الطرقات الساحلية، وشق طريقٍ عام جديد يربط بيروت بدمشق ويبلغ في النهاية العاصمة ببغداد. وكان يعمل الحريري 18 ساعة في اليوم بشكلٍ منتظم، بدءاً بالساعة 7:30 صباحاً إذ يلتقي مستشاريه المقرَّبين، في غرفة نومه في قريطم في غالب الأحيان، لمناقشة تقدّم مختلف المشاريع.

"يكون هناك دائماً مجموعةٌ منا مجتمعةً في قريطم لرؤيته، ولكنه قد يختار أي واحدٍ منا يحمل خارطةً أو برامج عمل أو مخططاتٍ لرؤيته أولاً. كان يُقفل الباب ويتحدّث معه لساعتَين أو ثلاث ساعات. كان يحب المشاريع"، يقول فادي فواز الذي كان أحد منسّقي الحريري الرائدين لأعمال التطوير (6) .

وكانت طاقة الحريري التي لا تعرف الكلل تؤثّر حتى في منتقديه الأكثر جفاء.

"كان رجل حكمٍ نموذجي من الدرجة الأولى"، يتذكر محمد رعد الذي رئس كتلة حزب الله البرلمانية "الولاء للمقاومة"، وكان مناوئاً دؤوباً لسياسات رئيس الحكومة الاقتصادية والاجتماعية (7) . "لم يسبق لنا أن صادفنا أحداً يعمل في الحكومة 18 ساعة في اليوم. اعتاد متابعة كل الملفات، بما فيها كل التفاصيل. وكان يزوّدنا بالأفكار باستمرار. كان دماغه يعمل باستمرار. وفي بعض الأحيان، عندما تتكلّم مع أشخاصٍ معيَّنين، تكوّن انطباعاً بأنهم لا يستمعون إليك. ولكن الحريري كان يستمع على الدوام".

ولكن لإعادة البناء ثمن. فقد ارتفع الدين العام الداخلي بشكلٍ مثير من 1,5 بليون دولار عندما أصبح الحريري رئيساً للوزراء عام 1992 إلى 18 بليون دولار عندما غادر منصبه عام 1998. وكانت سياسة المعدلات العالية للفائدة لحماية الليرة اللبنانية استنزافاً كبيراً للموارد العامة. وانخفض مستوى المعيشة باطّراد بالنسبة إلى غالبية اللبنانيين واتّسعت الهوّة بين الغنيّ والفقير. واحتسب أنطوان حداد، وهو باحثٌ لبناني، هذا الانخفاض، قائلاً إنه وفقاً للأرقام المسجَّلة عام 1995، كان 28 في المئة من اللبنانيين، أي حوالى مليون شخص، يعيشون تحت مستوى خط الفقر الكامل إذ بلغ دخل عائلةٍ مؤلَّفة من خمسة أشخاص 618 دولار. وتضمّ هذه النسبة 250,000 شخص كانوا يعيشون في فقرٍ مدقع - 306 دولارات في الشهر لعائلةٍ من خمسة أشخاص. وغالباً ما كانت هذه العائلات الفقيرة تعيش في ظروفٍ غير صحّية في شققٍ متعفّنة وفي أجواءٍ من الجلبة تُحدثها مولّدات الكهرباء للتعويض عن التزويد المتقطّع بالتيار الكهربائي. وكانت العائلات تعمد إلى جمع ما كسبته لشراء سلعٍ رئيسية كالخبز والشاي والخضار.

وكان يتراوح متوسط أجر العاملين في المكاتب، كأعمال السكرتاريا والتعليم، ما بين 300 و500 دولار في الشهر، دافعاً العديد من الناس إلى القيام بعملٍ ثانٍ لكسب أجرٍ معقول. وبالرغم من ارتفاع قيمة الليرة اللبنانية، انخفضت القدرة الشرائية للموظفين بنسبةٍ تتراوح ما بين 10 و15

في المئة بسبب التضخّم وأسعار السلع الاستهلاكية الباهظة.

ولم تتحقّق عملية التعجيل في عودة الذين هاجروا أثناء الحرب. فعوضاً عن ذلك، غادر حوالى 200,000 لبناني آخر البلد بين عامَي 1991 ونهاية العقد، معظمهم خرّيجو جامعات وعاملون ماهرون. وكان بإمكان مهندسٍ أو طبيبٍ متخرّج العثور على وظيفةٍ في أوروبا أو الولايات المتحدة حيث يتقاضى أجراً يفوق ما يتقاضاه في لبنان بمعدّل أربعة أو خمسة أضعاف. وغادر الفقراء الريفيون البلد أيضاً طالبين فرصاً أفضل في مكانٍ آخر، فتوجّهوا إلى أفريقيا والخليج، وإلى أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا، إذا تمكّنوا من ذلك.

وبلغ الاستياء الشعبي ذروته في تموز/يوليو من العام 1995 عندما أعلنت الحكومة زيادةً على أسعار النفط بنسبة 38 في المئة، حاثّةً نقابة العمّال الأكبر في البلد على الدعوة إلى إضرابٍ عام. وكان الاضطراب الداخلي الأكثر جدّيةً منذ أعمال الشغب التي أسقطت حكومة كرامي عام 1992. وبدعمٍ سوري، أمر الحريري في الدقيقة الأخيرة بفرض حظر التجوّل ليلاً وكان الأوّل من نوعه منذ 12 عاماً، وفوّض قائد الجيش، العماد إميل لحود، لتسلّم مهام الأمن العام طيلة الأشهر الثلاثة التالية، وهي خطوةٌ وصفتها وسائل الإعلام اللبنانية بـ "إعلان القانون العرفي جزئياً".

وبالرغم من أن هذه التكتيكات العنيدة أخمدت الاضطراب العام، تمثّل العائق الأكبر الذي واجهه الحريري أثناء متابعة تنفيذ برنامجه الاقتصادي والإعماري بالمعارضة التي انبثقت من حكومته ومن زملائه في الترويكا. فبعد أقل من شهرين على تولّيه منصب رئاسة الوزراء، تورّط الحريري في نزاعاتٍ مع نبيه برّي والياس الهراوي حول التعيينات في مجلس الخدمة المدنية، وقد حاول كلٌّ منهم ترقية حلفائه إلى مناصب أساسية. وسعى الحريري إلى منح الحكومة سلطاتٍ خاصة لممارسة الحكم انطلاقاً من المراسيم، وهي خطوةٌ مهّدت لتمرير سياساته الإعمارية ولكن على حساب موافقة البرلمان. ونتيجةً للإزعاج الكبير الذي سبّبه الحريري، رفض برّي الاقتراح ضامناً حقّه كرئيسٍ لمجلس النواب في أن يكون له رأيٌ هامّ بكيفية إنفاق أموال إعادة الإعمار.

وكانت قلّة تعاون زملائه في الحكومة مصدراً مستمراً للإحباط. وانطلاقاً من رؤيته للبنان بلداً متمتّعاً بالنشاط ونابضاً بالحياة على الصعيد الاقتصادي، لم يكن الحريري قادراً على فهم سبب إصرار بعض وزرائه على التصرّف كمعارَضة لا كأعضاء في حكومةٍ متماسكة.

"كان رفيق كالجرّافة، مدمناً على العمل لا ينام أبداً"، يتذكر مخايل الضاهر، وزير التربية والشباب في حكومة الحريري الأولى (8) . "ولكنه لم يكن يملك تلك اللمسة في ممارسة الحكم في البداية. ظنّ أن الحكومة كالأعمال إذ يكفي الضغط على الزرّ لتجري الأمور كما يشتهي. ولكن الحكومة ليست كذلك. فهو لم يُدرك أن كون المرء في حكومة يعني أن عليه بلوغ تسوية".

كان على الدوام في خلافٍ مع وزير خارجيّته العنيد فارس بويز الذي كان أيضاً صهر الهراوي. واعتبر الحريري نفسه وزير خارجيةٍ في الواقع بسبب نفوذه وعلاقاته الدولية.

وفي إحدى المناسبات التي تلت هجوماً إسرائيلياً على جنوب لبنان، أعطى بويز سفير لبنان إلى الأمم المتحدة تعليمات للتقدّم بشكوى ضد إسرائيل. واتّصل السفير الأميركي في بيروت ببويز وطلب منه سحب الشكوى لأن من شأنها "تفاقم الأزمة". فرفض بويز.

في ذلك المساء، سمع بويز عبر الإذاعة أن الشكوى سُحبت. واتصل وزير الخارجية الغاضب بسفيره في نيويورك وسأله عمّا جرى. فقال السفير إن الحريري طلب منه سحب الشكوى وافترض أن بويز قد تمّ إعلامه بالأمر. فأوعز بويز للسفير العديم الحظ بالعودة إلى بيروت لمواجهة إجراءاتٍ تأديبية. واتصل الحريري ببويز ليؤكّد له أن السفير اتّبع أوامره ولم يكن خطأه. ولكن هذا الأمر لم يثنِ بويز وقال إنه سيجعل من السفير مثالاً عن واقع تجاوز الحريري سلطته.

"لم تكن علاقتنا جيدة منذ العام 1992 وحتى العام 1998"، يتذكر بويز (9) . "كان سياسياً قليل الخبرة. لم يكن يملك أي فكرة عن القوانين وآلية الدولة. كان يحاول ممارسة الحكم كما هي الحال في المملكة العربية السعودية حيث يُصدر الملك الأوامر التي يريد".

وفي أيار/مايو من العام 1994، أدّت مشاحنةٌ جرت حول تعديل الحكومة إلى اعتكاف الحريري طيلة أسبوعٍ من الزمن، مُغلقاً على نفسه في منزله الفخم في قريطم، وقائلاً إنه على استعدادٍ للاستقالة "لأنني أفتقد أولادي"، بينما كان منتقدوه يتّهمونه بـ "الحرَد " وبكونه "هاوياً" في السياسة.

ونظر اللبنانيون إلى النفور والمماحكة غير المناسبة باشمئزاز، وحتى بدرجةٍ أعلى عندما كان أركان الترويكا يسلكون طريق دمشق بشكلٍ روتيني كالأولاد الرديئي الطبع الذين يستحقون التعنيف من قِبَل أهلهم السوريين

والطلب منهم تحسين سلوكهم. وبعد إحدى هذه المشاحنات، أخبر خدّام المسؤولين اللبنانيين بأن الحريري "جاء ليبقى حتى العام 2010"، مضيفاً "أننا في سوريا لم نُحدث أي تغييرٍ [في القيادة] منذ العام 1970. فالاستمرارية تؤدّي إلى الاستقرار".

ويتذكّر سعد الحريري والده يتأفّف في أحد الأيام، وبحضور صديقه وزير العدل بهيج طبارة وعددٍ من الوزراء الآخرين، من الصعوبات السياسية التي يواجهها.

"من ثمّ قال له بهيج طبارة، "أنت قائد البلد. لا يمكنك الإصابة بالغمّ. لا يمكنك أن تبدو أمام الناس مضطرباً". وأظن أن أمراً ما أصابه في تلك اللحظة وأدرك أن عليه الاستمرار، وفعل ذلك" (10) .

وحصل الحريري على الإذن الذي انتظره طويلاً لتشكيل حكومةٍ جديدة وأكثر تماسكاً في أيار/مايو من العام 1995. وكان سبب تغيير الحكومة نزاعاً آخر مع برّي، وهذه المرة حول رغبة الحريري بتمديد ولاية الهراوي الرئاسية لمدة ثلاث سنواتٍ إضافية. وإن منح الهراوي مدةً إضافية في منصبه الرئاسي يتطلّب تعديل الفقرة 49 من الدستور التي تقضي بأن تكون مدة ولاية الرؤساء اللبنانيين ست سنواتٍ فقط، ولمرةٍ واحدة. وكان الحريري يحثّ على إجراء تصويتٍ برلماني سريع لتعديل الفقرة 49. وكان السبب المعلَن في ذلك الوقت لتأييد منح الهراوي فترةً إضافية في الرئاسة هو أن من شأن التوترات وحالة الشك المحيطة بانتخاباتٍ رئاسية جديدة عرقلة برنامج إعادة الإعمار. ولكن السبب الرئيسي لتمسّك الحريري ببقاء الهراوي في منصبه منع العماد إميل لحود، قائد الجيش اللبناني، من أن يصبح رئيس الدولة التالي.

وشابت العلاقة القائمة بين الحريري ولحود حالة ارتيابٍ متبادَل. فقد كان الحريري يعتبر قائد الجيش رمزاً للروابط الأمنية والعسكرية الصلبة التي تربط لبنان بسوريا، فتكون إذ ذاك ذهنية الدولة البوليسية نقيض اقتصاد السوق الحرّة والمنفتحة التي كان يحاول رئيس الوزراء تطبيقها في لبنان. ومنذ تعيينه قائداً للجيش في تشرين الثاني/نوفمبر 1989، وبدعمٍ من السوريين، تولّى لحود مهمّة الإشراف على الشؤون العسكرية، بدعمٍ سوري، معتبراً نفسه غير مسؤولٍ عن الحكومة.

"وزّع السوريون الأدوار في لبنان"، يقول وليد جنبلاط (11) . "الجيش مسؤوليّتهم؛ الحريري رجل المال؛ الهراوي رئيسٌ يتلقّى الأوامر منهم. كان الجيش مؤسسةً منفصلة مرتبطةً بالأوامر السورية بشكلٍ مباشَر ويغطّيه

لحود. ومنذ ذلك الوقت فصعوداً، كان التسلّل السوري إلى الجيش كبيراً وهامّاً لأنهم (السوريين) كانوا يبنون الجيش اللبناني على طريقتهم".

وازدادت قوة الجيش اللبناني من 20,000 جندي عام 1990 إلى 60,000 جندي في أواسط العقد، وقد اختيروا بشكلٍ أساسي من رجال الميليشيات المسرَّحين إضافةً إلى مجنَّدين إلزاميين يؤدّون خدمتهم العسكرية الوطنية لمدة عام. وانخفض تدريجياً عدد الضباط اللبنانيين الذين يخضعون لدوراتٍ عسكرية في الولايات المتحدة وفرنسا لصالح التدرّب في سوريا حيث كان يتمّ تدريبهم على المعدات السوفياتية التي بطُل استعمالها. وطُبعت في أذهان الجنود الذين خضعوا لهذه الدورات، وحتى الضباط الكبار منهم، أفكارٌ مُفسدة وفقاً للأسلوب البعثي، معظّمةً شأن العلاقات "الأخوية" والاستراتيجية بين البلدَين. وشعر ضباطٌ كبار في الجيش اللبناني يرتادون معهد الدفاع الوطني في دمشق بالإحراج لانضمامهم إلى نظرائهم السوريين كل صباح هاتفين "يعيش الرئيس الأسد. يعيش البعث" (12) .

وعارضت مجموعةٌ صغيرة من ضباط الجيش إضفاء الطابع السوري على الجيش اللبناني، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم معزولين يجتنبهم أصدقاءٌ خائفون، وأُخضعت خطوط هواتفهم وتحرّكاتهم للمراقبة، إلى أن استقالوا أو أُجبِروا على التقاعد في وقتٍ مُبكر.

واستسلم غالبية الجنود الذين هم في الخدمة للوضع الجديد معتمِدين على الراتب الشهري وعلاواتٍ كبيرة تُمنح للقوات المسلَّحة لتربية عائلاتهم وتعليم أولادهم. وبالفعل، كان الإنفاق على الدفاع يقتضي تخصيص القسم الأكبر من ميزانية الحكومة السنوية. وفي العام 1992، كانت ميزانية الدفاع 271 مليون دولار ولكنها ارتفعت إلى 900 مليون دولار عام 2001، وبإضافة 433 مليون دولار لأدواتٍ أمنية أخرى تابعة للدولة باتت تشكّل نسبة 25 في المئة من الإنفاق الحكومي تلك السنة. وأُنفقت معظم ميزانية الدفاع على الرواتب والمساعدات المخصَّصة للمجموعة الكبيرة من الضباط، كسياراتٍ للاستخدام الشخصي، واستهلاك كمياتٍ لامحدودة من البنزين، وتوفير أسباب الراحة مجّاناً في المجمّعات السكنية التابعة للجيش مع قيام الحكومة بتسديد كافة الفواتير بما في ذلك رسوم خطوط الهاتف السلكية والنقّالة. حتى إن أولاد الضباط كانوا يتلقّون العِلم مجّاناً من الصفوف الابتدائية وحتى الجامعة.

ومُنحت قيادة الجيش ميزانيةً للمخصَّصات التي كان من المفترَض أن تكون للتسلية، ولكنها استُخدمت أيضاً للرشوة (لصندوق المصاريف

السرّية). ووفقاً لضابطٍ سابق في جهاز المخابرات اللبنانية، يتمّ توزيع 6 ملايين دولار من هذا الأموال سنوياً على صورة هدايا لضباط الجيش السوري في لبنان، وذلك في الذكرى السنوية لثورة حزب البعث في سوريا (13) .

وكانت ميزانية الدفاع الضخمة مصدر إحباطٍ دائم للحريري ولوزير ماليّته فؤاد السنيورة، وكان الجيش يعارض بشدّة جهودهما لتخفيض النفقات. وفي أيلول/سبتمبر 1994، تقدّم الجيش بطلبٍ إلى وزارة المالية لشراء قافلةٍٍ من سيارات شيروكي ذات قوة دفع رباعية لصالح الضباط. وكان السنيورة مُجبَراً على إتمام الصفقة ولكنه رفض طلب الجيش شراء موديل العام التالي من هذه السيارات.

"أرادوا موديل العام 1995"، يتذكر السنيورة (14) . "أبرمت صفقةً مع الوكيل لتأمين موديل العام 1994 لهم، جديدة تماماً، ولكن بادّخار 5,000 دولار عن كل سيارة. فقالوا لي إن العماد [لحود] يصرّ على موديل العام 1995".

وأخبر السنيورة مساعدَين للحود بأن الموقف "المبذِّر" للجيش غير مقبول وأنه يرفض شراء سيارات العام 1995 الأغلى ثمناً. ومن ثمّ غادر مكتبه لإلقاء محاضرة خارج بيروت. وعاد إلى الوزارة في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم ليجد المبنى مُقتحَماً من قِبَل ضباط المخابرات العسكريين ومحاطاً بالجنود. وأُخبر الحريري في ما بعد من قِبَل ميشال رحباني، رئيس جهاز المخابرات العسكرية اللبنانية، ونائبه المقتدر جميل السيّد، بأن الحادث كان "خطأً محسوباً".

"كان هذا السلوك بداية انقلاب"، يقول السنيورة. "ذلك الحادث كان بداية تبدّلٍ في اتجاه دولةٍ بوليسية وإشارةً إلى نهاية النظام المدني".

واعتبر لحود الحريري غير موثوق به سياسياً وعامل الحكومة كونها أكبر شأناً بقليل من "مجلسٍ بلدي"، كما قال وزيرٌ في ذلك الوقت. وكان من الواضح في الأوساط السياسية أن لحود أعدّ نفسه لتولّي منصب الرئاسة. وكان بشار الأسد، الابن الثاني للرئيس السوري، مؤيّده الأكبر في سوريا.

وكان بشار قد أُجبر على ترك مهنةٍ في الطب كان يدرس لنيل شهادةٍ فيها في لندن عندما قُتِل شقيقه الأكبر باسل والوريث الشرعي للرئيس السوري في حادث تحطم سيارة عام 1994. وكان الأسد يُعِدّ باسل للرئاسة منذ أواسط الثمانينيات. وفي ظل تلك الظروف، كان عليه البدء مجدَّداً مع بشار والعمل على مادةٍ أقل وَعداً. فقد كان بشار الطويل

القامة، والنحيل، والمتواضع يفتقر إلى الأعصاب الفولاذية التي يتمتّع بها شقيقه الأكبر. وفيما تفوّق باسل بالرياضة وكان فارساً شهيراً، آثر بشار القراءة مهتمّاً بأجهزة الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات ومتجنّباً الأضواء. وكان الظهور العلني الأول لبشار في صيف عام 1994 لتدشين مؤتمر دمشق الأول حول تكنولوجيا المعلومات الذي نظّمه الاتحاد السوري لتكنولوجيا المعلومات، والذي أسّسه باسل.

وباستدعائه إلى سوريا، التحق بشار بالكلّية العسكرية في حمص في المرحلة الأولى للخضوع لدورةٍ سريعة لتحويله من طالبٍ في طبّ العيون في الثامن والعشرين من عمره إلى قائدٍ لـ 17 مليون نسمة. وكان التهديد المتجدد للحريري بالاستقالة في أيار/مايو 1995 المرة الأولى التي يتوسّط فيها بشار علانيةً في أمرٍ مرتبطٍ بالشأن اللبناني، وكان هذا الأمر من صلاحيات عبد الحليم خدّام، نائب الرئيس.

وكانت ولاية الهراوي على وشك الانقضاء في 24 تشرين الثاني/نوفمبر عندما ظهر تخمينٌ محمومٌ في لبنان حول ما إذا كان سيبقى في منصبه لمدة سنتَين أو ثلاث سنوات أخرى.

وفي أوائل تشرين الأول/أكتوبر، أخبر العميد غازي كنعان، رئيس جهاز المخابرات العسكرية السورية في لبنان، تجمّعاً من السياسيين اللبنانيين كانوا يحضرون حفلةً بضيافة رئيس الوزراء عمر كرامي أنه سيتمّ تمديد ولاية الهراوي ثلاث سنوات إضافية بالرغم من كل شيء. وعلاوةً على ذلك، كان سيجري تعديل الفقرة 49 من الدستور في البرلمان برفع الأيدي وليس باقتراعٍ سرّي معتاد. وأوردت صحيفة الحياة أن الموجودين في الحفلة "بدوا وكأنهم أخذوا حمّاماً بارداً... وانتهت الحفلة باكراً. وغادر المفعمون بأمل تولّي منصب الرئاسة مع زوجاتهم، وقد شكا أحدهم من التعب وقال الآخر إنه مصابٌ بألمٍ في الرأس".

وفي وقتٍ لاحق، اعتُبر الحدث الذي حظي باهتمام الناس على نطاقٍ واسع بالون اختبار لقياس ردة فعل الولايات المتحدة حيال تمديد ولاية الهراوي. وطمأن صمت واشنطن دمشق إلى أنه بالإمكان إبقاء الحريري رئيساً لسنواتٍ ثلاث أخرى دون دفع تكلفةٍ سياسية. وانتهى التخمين في 11 تشرين الأول/أكتوبر عندما أعلن الأسد مصادفةً في مقابلةٍ مع الصحيفة المصرية اليومية الأهرام أن "الجميع في لبنان إجمالاً [في القيادة اللبنانية] مع التمديد". وكان الأسد قد اتخذ قراره، وفي اليوم التالي، توجّه 22 عضواً في البرلمان إلى قصر بعبدا لتهنئة الهراوي بفوزه بالتمديد.

وبعد ثمانية أيام، اقترع 110 أعضاء من أصل 128 عضواً في البرلمان اللبناني لصالح تعديل الدستور، واقترع 11 ضده، وتغيّب سبعة عن الدورة.

ولم يكن الأسد مقتنعاً بأن الوقت قد حان للسماح لقائد الجيش اللبناني بالانتقال إلى قصر بعبدا. وكانت سوريا قد دخلت في مفاوضاتٍ متردّدة ودقيقة مع إسرائيل حول إعادة مرتفعات الجولان التي استولت عليها الدولة اليهودية عام 1967. وكان الأسد بحاجةٍ إلى استقرارٍ مستمرّ وهدوءٍ على خاصرته الغربية طيلة مدة مباحثات السلام. وكان الهراوي قد أثبت أنه حليفٌ مستعدّ ومِطواع منذ العام 1989، كما كان قد ساعد على ضمان انتقال لبنان من دولة الفوضى الشاملة والحرب إلى تابعٍ لسوريا بسلاسةٍ نسبية.

ولكن التمديد الرئاسي للهراوي كان انتصاراً للحريري قبل كل شيء ولآخرين شاطروه نفوره من لحود، ومن بينهم وليد جنبلاط. ولكن الحريري اضطُرّ إلى دفع الثمن في العام التالي عندما استُبدلت حكومته بمجلس وزراء أقل اتحاداً مُتخَماً بحلفاء سوريا، كسليمان فرنجية، حفيد الرئيس السابق؛ وطلال أرسلان، سليل عائلةٍ درزية رائدة ومنافسٌ قوي لجنبلاط؛ وكلاهما صديقان مقرَّبان للراحل باسل الأسد وبشار.

ولم يكن الهراوي الوحيد في تمديد ولايته. فقد مُنح لحود الذي كان يواجه تقاعداً إجبارياً عام 1996 سنتَين إضافيّتَين في منصب قيادة الجيش، ضامناً بشكلٍ مناسب مغادرة القوات المسلّحة عام 1998 في الوقت نفسه لمغادرة الهراوي قصر بعبدا.

ويتذكّر نهاد المشنوق، وهو مستشارٌ سابق للحريري في التسعينيات، التقاء لحود عدة مرات خلال النقاش الذي دار حول التمديد الرئاسي في المقر العام في نادي الحمام العسكري في بيروت الغربية.

"كان لحود واثقاً من أنه سيكون رئيساً. كانت معركة حقيقية"، يقول (15) .

ولكن لم يكن الجميع في دمشق متحمّسين للحود. فاثنان من السنّة الأكثر اقتداراً في النظام، هما عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي، رئيس أركان الجيش السوري، كانا يشاطران الحريري تحفظاته حول قائد الجيش، مجادلين أن اللبنانيين لن يقبلوا أبداً بحكم رجلٍ عسكري. وبالرغم من كونه علويّاً، فقد أيّد غازي كنعان تخوّفات معاصريه السنّة في النظام، مُقِرّاً بأن لحود سيكون مشكلةً مستقبلية للعلاقات السورية مع لبنان. ووفقاً لوليد جنبلاط، فقد عارض كنعان ولاية الهراوي الإضافية لمدة ثلاث سنوات،

لا لأنه أراد رؤية قائد الجيش اللبناني مقلَّداً منصب الرئاسة في بعبدا بل لأنها قد تكون سابقة لمنح لحود تمديداً رئاسياً يوماً ما.

وبدلاً من ذلك، كان العنصر العلوي الصغير السنّ في النظام السوري الذي مال إلى مساندة لحود. وكانت هذه المجموعة متمحورة كما يُزعَم حول باسل الأسد قبل وفاته، وضمّت شقيقَيه بشار وماهر وشقيقته بشرى، وهي ابنة الأسد العنيدة والمفضَّلة والأكبر سنّاً بين أشقائها. ومن المجموعة أيضاً آصف شوكت، وكان ضابطاً طموحاً في جهاز المخابرات العسكرية صاحب جاذبية ومظهر بهيّ وزوج بشرى الأسد. ومن المنتمين الآخرين محمد ناصيف، وكان ضابطاً أعلى في جهاز المخابرات يدعوه أولاد الأسد "عمّ" تعبيراً عن مودّتهم، وعائلة مخلوف المقتدرة بزعامة عدنان مخلوف، رئيس الحرس الجمهوري السوري آنذاك وشقيق أنيسة الأسد زوجة الرئيس. وأصبح ابن عدنان مخلوف، رامي، وهو ابن خال أولاد الأسد، رجل الأعمال الأكثر اقتداراً في سوريا.

ورأت هذه الفرقة العلوية المقتدرة في لحود رجلاً يمكنه إضعاف هالة الحريري كقوةٍ سنّية. وكان قد عارض البعض منح الحريري رئاسة الحكومة عام 1992، متّهمين إياه بافتعال الأزمة الاقتصادية عَمداً والتي سرّعت في سقوط حكومة عمر كرامي، وذلك من خلال شراء كميّات كبيرة من الدولارات لتخفيض قيمة الليرة اللبنانية.

وكشف الصراع حول تمديد ولاية الهراوي الرئاسية عن عيبٍ جيلي ومذهبي ناشئ ضمن النظام، محرّضاً الجيل الأصغر سنّاً، ولا سيّما العلوي، ضد الجيل الأكبر سنّاً، ولا سيّما السنّي، من معاصري الأسد. وضمّت المجموعة اللاحقة خدام وحكمت الشهابي وغازي كنعان ووليد جنبلاط، ورفيق الحريري الذي كان ثراؤه الغراء الذي أبقى المجموعة متلاحمة. واعتبر بعض أفراد الجيل الأكبر سنّاً البرنامج غير المعلَن للأسد القاضي بإنشاء جمهورية وراثية تحدّياً ليس فقط لطموحاتهم السياسية الخاصة، بل أيضاً للإيديولوجية الاشتراكية لحزب البعث. ويتذكّر عبد الحليم خدام أن الأسد فكّر في بادئ الأمر بإيراث الرئاسة لعضوٍ من عائلته عام 1980، ووقع اختياره آنذاك على شقيقه الأصغر رفعت.

"كان لي حديث مع الرئيس الأسد حول هذه المسألة لمدة ساعتَين"، يقول خدام (16) . "نصحته بألاّ يُقدم على هذه الخطوة واقتنع".

ولكن الفكرة طفت على السطح عام 1983 بعد شفاء الأسد من إنهاكٍ عصبي لم يكلّفه حياته فحسب بل أيضاً الرئاسة عندما استفاد شقيقه

رفعت من صحّته المعتلّة للقيام بانقلابٍ فاشل. وبدأ باسل الأسد يضطلع بدورٍ متزايد في النظام، معيّناً بعض الوزراء ومالئاً مناصب عليا في جهاز الخدمة المدنية ممّا أثار حفيظة المكتب السياسي لحزب البعث. ولم يناقش الأسد أبداً مع ضباطه الكبار عزمه على التخلّي عن الرئاسة، متظاهراً حتى وفاته عام 2000 بانتخاب رئيسٍ وفقاً للدستور السوري. ولم يكن لخدام وأشخاصٍ آخرين سوى خيار صرّ أسنانهم والتظاهر بالتعاون.

"بعد مرض الأسد [عام 1983]، كانت هذه المسألة حساسةً جداً لتتمّ مناقشتها"، يقول خدام (17) . "فحبّه للعائلة كانت أكبر من واجبه كرئيس. كان القرار متطرّفاً جداً. كان هذا القرار مناقضاً كلّياً لكافة القوانين والأنظمة في سوريا. وفي أواخر التسعينيات، وعندما بات أكثر اعتلالاً، نما هذا الشعور أكثر فأكثر".

وإن مسألة الخلافة ومعانيها الضمنية في ما يتعلّق بمن يضطلع بأمور السلطة والمال في سوريا عزّزت الانقسام بين المجموعة "السنّية" الأكبر سنّاً ومنافستها "العلوية" الأصغر سنّاً، وهو انشقاقٌ استمرّ بالتفاعل خلال التسعينيات إلى أن اضطلعت المجموعة الأخيرة بمزيدٍ من السلطة، مهدّدةً في النهاية استقرار النظام نفسه.

وكان الحريري ممانعاً في بادئ الأمر للتعامل مع أبناء الأسد، اعتقاداً منه وبسذاجةٍ إلى حدٍّ ما، بأن الاحتفاظ بصِلاتٍ جيّدة مع الرئيس السوري تفي بمتطلّباته. ولم يلتقِ باسل الأسد إلا مرةً واحدة عندما كان يروّج لمشروع سوليدير في دمشق. ووفقاً لمساعد الحريري السابق نهاد المشنوق، كان لقاءً غير مُريح. فقد ارتدى الحريري ملابس غير رسمية بخلاف نصيحة المشنوق، وأعرب باسل بصراحة عن معارضته لمشروع سوليدير. وبعد ذلك، قام الحريري بتجاهل باسل وضمن تأييد الأسد للمشروع.

"لم يكن هناك انسجام بين الحريري وهذه المجموعة الشابّة. كان قويّاً جداً بالنسبة إليهم. فقد شعر بأنه يتعاطى مع أشخاصٍ بعمر أولاده"، يتذكّر المشنوق (18) . ويضيف: "الجيل السوري الأصغر سنّاً كره خدام والشهابي المتآلفَين مع الحريري نفسه. كرهوا كل هذه المجموعة القديمة. أرادوا القيام بكل شيءٍ بأنفسهم. لذلك أُقفلت أبواب دمشق أمام الحريري بعد العام 2000 [عندما أصبح بشار رئيساً]".

واتّضحت لفارس بويز، وزير الخارجية، عدائية العلويين المستحكِمة للحريري والقادة السنّة الأكبر سنّاً في دمشق لدى وقوع حادثٍ في المؤتمر

الإسلامي في طهران في كانون الأول/ديسمبر 1997. وكانت علاقة بويز برئيس وزرائه في أدنى مستوياتها بسبب ما اعتبره تدخّلٌ غير مبرّر للحريري بالشؤون الخارجية (19) . وكان بويز في طهران مع الحريري والهراوي. وكان الأسد ووفدٌ كبيرٌ من المسؤولين العسكريين حاضرين أيضاً. وبينما كان بويز يسير في أحد الممرات مارّاً بصالات الاستقبال الفسيحة حيث تتجمّع الوفود، سمع صوتاً خلفه يناديه، "أنت يا بطل! أنت رجل الشجاعة!" فاستدار ورأى عدنان مخلوف رئيس الحرس الجمهوري في سوريا يتّجه نحوه بخطواتٍ واسعة وذراعاه مفتوحتان. وأمسك مخلوف ببويز المُجفَل، وقبّل وجنتَيه وهنّأه للثبات في وجه الحريري.

"هذا الحقير يشتري النظام من حولي"، تأفّف مخلوف مُشيراً إلى الحريري. "لقد اشترى خدام والشهابي وكلبه غازي كنعان".

وبويز الذي صعقه ثوران العميد السوري تمتم قائلاً إن مشاكله مع الحريري مختلفة وأكمل سيره.

"هؤلاء الأشخاص الذين كان مخلوف يتكلّم عنهم كانوا على بعد 50 متراً في الغرفة المجاورة. أخبرني كم أن العلويين يكرهونه في الواقع"، يقول بويز.

وإثر تمديد ولاية الياس الهراوي، أوجز ريمون إدّه، وكان زعيماً مسيحياً لبنانياً مُقيماً في المنفى في باريس، وجهة نظر معظم اللبنانيين قائلاً إن "لبنان قد أصبح مستعمرة سورية في الواقع". وبالفعل، كان الأسد قد عبّر عن موقف سوريا المشتهي لجاره في خطابٍ ألقاه عام 1976 بعد وقتٍ قصير من عبور 30,000 جندي سوري الحدود إلى داخل لبنان للمرة الأولى. وكرّر الادّعاء التاريخي بأن "سوريا ولبنان هما دولة واحدة وشعبٌ واحد... ويتشاطران المصالح وتاريخاً مشتركاً".

ودافع المسؤولون اللبنانيون بامتثالٍ عن سيطرة سوريا على لبنان، متخلّصين من انتقاد الوجود العسكري السوري بتكرار الكلمات السحرية، وبصورةٍ آلية، بأنه "ضروري، شرعي ومؤقّت". وأُلمح إلى عُقم الجملة في مقابلةٍ أجرتها صحيفة دايلي ستار مع الحريري عام 1998 عندما أخطأ بوضع النعوت في مكانها الصحيح، وكان على وزيرٍ في الحكومة تقديم المساعدة له.

وبين عامَي 1991 و1994، طبّق الأسد مفهوم التحررية الوحدوية المستتر عمليّاً من خلال سلسلةٍ من الاتفاقات السياسية والاقتصادية مع لبنان ربطت البلدَين بشكلٍ أساسي في ما يشبه الاتحاد الكونفدرالي. واتفاقية

الأخوّة والتعاون الشاملة التي وُقِّعت في أيار/مايو عام 1991 كانت نذيراً لما يمكن للّبنانيين توقّعه من السلام السوري. فقد دعا البند الأول إلى "أعلى درجة من التعاون والتنسيق... في كافة الشؤون السياسية، والأمنية، والثقافية، والعلمية، وفي شؤونٍ أخرى سعياً وراء مصالح البلدَين الشقيقَين".

وحدّدت المعاهدة إيقاع مجموعةٍ كاملة من اتفاقياتٍ إضافية تتعلّق بمسائل أمنية واقتصادية. ودعت اتفاقية الدفاع والأمن في أيلول/سبتمبر 1991 إلى حظرٍ على "كافة النشاطات العسكرية، والأمنية، والسياسية، والإعلامية التي قد تُلحق الضرر بالبلد الآخر".

ووُقِّعت اتفاقياتٌ إضافية عام 1993 و1994 تشمل تعاوناً اجتماعياً واقتصادياً، وفي مجال الصحة، والزراعة، وحركة مرور السلع والناس عبر الحدود، واليد العاملة، وتشاطر المياه، والسياحة، والتعاون الثقافي. وأجازت اتفاقية العمل عام 1994 دخول العمال السوريين إلى لبنان. واستخدم الموظِّفون سوريين بدون تردّد لأن أجورهم كانت نصف الأجور التي يتقاضاها العامل اللبناني. وساهمت المداخيل النقدية التي كانت ترحَّل إلى سوريا في الاقتصاد السوري، وإلى حدٍّ كبير، وبلغت 4 بليون دولار في العام في أواخر التسعينيّات وفقاً لبعض التقديرات. ومع ذلك، كان التدفّق غير المقيَّد للعمال السوريين مسألةً مثيرةً للجدل، وقد شجب النقّاد خسارة الاقتصاد اللبناني ملايين الدولارات. وشكا العمّال اللبنانيون بمرارة من أن السوريين يسرقون الوظائف منهم ولا يمكنهم العمل وفقاً للأجور التنافسية التي يتقاضاها السوريون.

وما ربحه لبنان من العمّال السوريين خسره من مياهه. فقد وزّعت اتفاقية تقاسم المياه عام 1994 حقوق نهر العاصي الذي ينبع من البقاع ويجري مارّاً بسوريا وصولاً إلى تركيا. وخُصِّص للبنان 60 مليون متر مكعّب سنوياً، أي حوالى 22 في المئة من مقدار المياه المتدفّقة في العام. ووصفت الحكومة اللبنانية الاتفاقية بالنجاح المحقَّق، عِلماً أن لبنان كان قد اقترح على سوريا في الخمسينيات حصولها على 40 في المئة من مياه النهر.

ونجم عن موجة الاتفاقات والمعاهدات مظهرٌ خادعٌ لإضفاء الشرعية على ما كان يُعتبر سعياً إلى ضمّ لبنان إلى سوريا. وبالفعل، فقد أُشير في اتفاقيةٍ واحدة على الأقل، وفي ما يتعلق بالسياحة مثلاً، إلى أن لبنان وسوريا "قطران توأمان".

وكان كلٌّ من أعضاء الترويكا الثلاثة - الهراوي، الحريري، وبرّي - يتعامل مع السيطرة السورية بطرقٍ مختلفة. فقد كان برّي إلى جانب

سوريا "سواءٌ كانت على خطأ أو صواب"، ولذلك اعتُبر حليفاً أساسياً لدمشق. أما الهراوي فكان سياساً لبنانياً منتمياً إلى المدرسة القديمة، "ثعلباً" وفقاً لسياسيٍّ لبناني سابق، استخدم السوريين لمساعدته على تحقيق النصر في معاركه الخاصة الضيّقة، ولكنه لم يكن حذِراً بما يكفي في التعبير عن وجهات نظره. ففي حفلة عشاء استضافها في بعبدا وحضرها السفير الأميركي، راين كروكر، تذكّر السياسي الهراوي يتذمّر من أن "السوريين لا يدعوني أتنفّس" (20) . وكان الحريري العمليّ الدائم، الساعي إلى التسويات والذي يقوم بما هو ضروري لضمان الهدوء السياسي والدبلوماسي بهدف عدم إفساد عملية الإحياء العمراني والاقتصادي.

ووجد سيمون كرم، سفير لبنان إلى واشنطن في أوائل التسعينيات، نفسه ضحية طبيعة الحريري المهدِّئة. وكانت السلطات السورية ترتاب في كرم، وهو محامٍ هادئ الطباع من بلدة جزين المارونية في جنوب لبنان عُرف بتعاطفه القليل مع السلام السوري. وفي تموز/يوليو من العام 1993، وعندما شنّت إسرائيل حرباً خاطفة لمدة سبعة أيام بالطائرات والمدفعية على جنوب لبنان، حثّت دمشق بيروت على استدعاء كرم من واشنطن. واتخذ الحثّ منحىً انتقامياً في عهد الهراوي الذي تسلّم تقييماً مخابراتيّاً حول كرم مكتوباً بخط اليد، متّهماً سفيره بالتآمر ضد السوريين وبالاشتكاء إلى الأميركيين أن الحكومة اللبنانية "دميةٌ سورية" ومهرّبة مخدرات. والمستند الذي وقّعه علي دوبا، رئيس جهاز المخابرات العسكرية السورية، هو اليوم بين يدَي كرم.

"أعطاني الهراوي الرسالة كتذكار"، يقول كرم ملوّحاً بالورقة المصفرّة (21) . "هل يمكن تصوّر رئيسٍ سوري يسلّم رئيساً لبنانياً تقييماً مخابراتياً حول سفيرٍ لبناني؟"

ونتيجةً للضغط السوري، نُحّي كرم عَمداً عن اللقاءات في بيروت مع الدبلوماسيين الأميركيين الذين كانوا يُجرون مفاوضات لوقف إطلاق النار في جنوب لبنان. واستقال كرم بسبب عدم رغبته بمزاولة مهامّه كسفيرٍ ضعيف. بعد أيام، أرسل الحريري أحد معاونيه ليرى كرم.

"كان عُذر الحريري لمعاملتي بهذه الطريقة الضغط السوري طالباً مني عدم اعتبار الأمر مسألة شخصية"، يقول كرم. "أمّن الحريري الغطاء لطردي".

وفي ظل السلام السوري، كان هناك هامشٌ ضيّق للعاملين في الشأن العام الذين يتمتّعون بذهنية أكثر مَيلاً إلى التحرر، مثل كرم، ولم

يكن لأولئك الذين رفضوا قبول النظام الجديد أي هامش، مثل سمير جعجع، قائد ميليشيا القوات اللبنانية.

وبخلاف معظم نظرائه من قادة الميليشيات الذين كانوا العمود الفقري للطبقة السياسية في مرحلة ما بعد الحرب، رفض جعجع الهيمنة السورية مستقيلاً مرّتَين من مناصب وزارية ومقاطعاً الانتخابات البرلمانية عام 1992.

وفي 27 شباط/فبراير 1994، انفجرت قنبلة في كنيسةٍ في زوق مكايل تقع على بُعد 16 كيلومتراً شمال بيروت، قاتلةً 11 شخصاً ومُصيبةً العديدين الآخرين بجروح. وبعد أسبوعَين، أعادت الحكومة تفعيل عقوبة الإعدام لمرتكبي جرائم القتل بينما كان الجنود اللبنانيون يحاصرون منزل جعجع ويعتقلون عناصر من القوات اللبنانية. واعتُقل جعجع في حزيران/يونيو وحُظِّرت القوات اللبنانية. وبالرغم من تبرئته من تفجير الكنيسة، صدر بحق جعجع أربعة أحكام بالسجن المؤبَّد عن جرائم قتل في زمن الحرب، بما في ذلك اغتيال رشيد كرامي، رئيس الحكومة السابق. وكان جعجع قائد الميليشيا الوحيد الذي خضع للمحاكمة بسبب جرائم ارتُكبت إبّان الحرب، عِلماً أن قانون عفوٍ شمل كل من شارك في جرائم متعلّقة بالحرب. وإن إيداع جعجع السجن وحظر القوات اللبنانية قضى فعليّاً على المعقل الأخير لمناهضي النفوذ السوري في لبنان، ممّا أدّى إلى ترك المعارضة المسيحية الساخطة غير منظَّمة ومشتَّتة.

وقام جهاز المخابراتٍ العسكري اللبناني الذي أُعيد تنظيمه بإخضاع نظراء جعجع وتهديداتٍ محتمَلة أخرى للمراقبة الشديدة، وكان يرفع تقاريره إلى نظيره السوري مباشَرةً.

وكان محور شبكة المخابرات السورية قائماً في عنجر، وهي بلدة أرمنية في وادي البقاع بالقرب من الحدود مع سوريا تشتهر بأقواسها وعواميدها الجميلة التي كان يتألّف منها قصر الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك، في القرن الثامن، وكان حاكم المشرق ومركزه دمشق. واختارت سلطات الانتداب الفرنسية أرضاً مستنقعية مسبِّبة لمرض الملاريا بالقرب من الخرائب لبناء بلدة عنجر الحديثة من لا شيء لإيواء اللاجئين الأرمن من لواء الإسكندرون الذي تخلّت عنه فرنسا لتركيا عام 1939. ومن هذه البلدة التي اتخذت مظهر منطقة شرقي أوروبا بأسلوبٍ شاذ بمنازلها الخفيضة وطرقها المشجَّرة الواسعة، كان يعتمد غازي كنعان، رئيس جاهز المخابرات السورية الصارم والمراوغ، أساليب الإطراء والتهديد في التعاطي مع سياسيي

لبنان العنيدين، مثيراً إياهم على بعضهم البعض لضمان حماية المصالح السورية. وأصبح مكتبه مقرّاً لتلقّي الاتصالات الدَورية من السياسيين اللبنانيين المسافرين للقاء الأسد أو مسؤولين آخرين كبار في دمشق. وكان يخصّص كنعان يوم السبت من كل أسبوع لاستقبال أعضاء من البرلمان اللبناني، ووزراء، وشخصيات في ميدان الأعمال، ومحافظين، ورؤساء بلديات، وضباط عسكريين وأمنيين، وكل من سعى إلى خدمةٍ أو نصيحة من الرجل الأقوى في لبنان. واعتاد السكان المحليون رؤية سياراتٍ سوداء فخمة وأنيقة تنطلق برشاقةٍ على امتداد الطرق التي غُرست جوانبها بأشجار الصنوبر، وذلك للتعبير عن ولاء لبنان العظيم واللائق لحاكم سوريا.

وعلى بُعد ميلٍ واحدٍ تقريباً من جنوب عنجر تقوم مزارع عدّة غير ملحوظة مؤلَّفة من طابقٍ واحدٍ ومُحاطة بأرضٍ زراعية منبسطة. وكانت المزرعة، المعروفة بـ "مصنع البصل"، مركز الاعتقال والاستجواب الرئيسي لسوريا في لبنان. وكان اسمه يوقع الرهبة في قلوب السكان المجاورين والعاملين في المزارع الذين اعتادوا، من وقتٍ لآخر، سماع صرخات المعتقَلين التي تحملها هبات النسيم عندما كان المستجوبون يقومون بمهمّتهم المروِّعة.

وقد تواجه الضحية عدة أيامٍ من الاستجواب أو التعذيب قبل إطلاق سراحها، مُجبَرَةً على العمل لحساب المخابرات السورية أو "الاختفاء"، في أسوأ الاحتمالات - نقلها إلى سجنٍ في سوريا.

ولكن الأثر الأكثر إيذاءً وأهميةً للسيطرة السورية على لبنان هو الفساد المستوطن الذي كبّد لبنان بلايين الدولارات فيما أثرى نخبةً صغيرة من المسؤولين السوريين وحلفائهم اللبنانيين.

ومورس الفساد على نطاقٍ واسع بعد الحرب في لبنان، وعلى كافة المستويات، لدرجة أنه بات واقعاً من الحياة اليومية، كدفع "رسمٍ" ضئيل لمسؤولٍ حكومي للحصول على وثيقةٍ ما. وفي آذار/مارس 2000، نشرت مؤسسة غير حكومية تُدعى "كلّنا مسؤول" نتيجة مسحٍ أظهرت أن 74 في المئة من اللبنانيين يشعرون بأن "الرشوة ضرورية لضمان الحصول على عقدٍ ما من أي مؤسسة عامة". واعتقد ربع أولئك الذين شملهم المسح أن "كل السياسيين اللبنانيين فاسدون".

ونُشرت أقاويل وتلميحاتٌ في الصحف اليومية عن أشكالٍ أكثر فظاعةً من الفساد المرتبط بشخصياتٍ مقتدرة في المجالَين السياسي والعملي، ولكنها قلّما كانت تثير احتجاجاً شعبياً ما لم ترتقِ إلى مستوى قضيةٍ جنائية أمام المحاكم وما لم يكن هناك حافزٌ سياسي. ومن الأمثلة الأكثر

لفتاً للأنظار قانونٌ أُقِرّ عام 1995 قضى بتزوّد كل المركبات بمطفأة صغيرة للحريق كتدبيرٍ وقائي للسلامة. وتطبيق قانون مطفأة الحريق على المركبات التي كانت بالكاد صالحةً للسير، تنقصها المصابيح، مكابحها مُعيبة، ويقودها رجالٌ صغار السنّ بحماسةٍ لا ترحم أو بلا مبالاة أشد خطورة بالمارّات على الطريق من ربّات منازل متوسطات العمر، لم يكن أمراً ذا أهمية. وبشكلٍ غير عادي، فُرض القانون بالقوة من قِبَل نقاط تفتيشٍ لرجال قوى الأمن الداخلي انتشرت في شوارع بيروت وحرّرت محاضر ضبط بمخالفي القانون. ولكن اهتمام الحكومة الفجائي لم يشمل منع سائقي المركبات من القيادة بسرعةٍ فائقة مميتة. وكان قد حصل وزيرٌ في الحكومة على إجازةٍ لاستيراد مطافئ الحريق الصغيرة واستخدم نفوذه لإصدار تشريعٍ يقضي بوجود مطفأة واحدة على الأقل في كل مركبة. وبعد أشهرٍ قليلة، تلاشى تطبيق القانون بعد قيام الوزير المحظوظ ببيع مخزونه الكامل من مطافئ الحريق.

وكرئيسٍ للوزراء، اعتُبر الحريري مسؤولاً على نطاقٍ واسع عن تشجيع مناخٍ من الفساد المستشري والصداقات المقرَّبة. وكانت سياسته في تعيين موظفين سابقين في مناصب حكومية رئيسية ومجلس الخدمة المدني بمثابة الذخيرة لأعدائه. وكانت هناك ادّعاءاتٌ متكررة باستخدام ثروته الطائلة لرشوة السياسيين والرسميين للموافقة على مشاريعه. والمثال الأكثر شهرةً الادّعاء بأنه رشا 40 عضواً برلمانياً عام 1991 (قبل تسلّم الحريري منصب رئاسة الوزراء) بمبالغ تتراوح ما بين 50,000 و100,000 دولار أو بقروضٍ بلغت مليون دولار من مصارف الحريري، لا تتوجّب عليها أي فائدة، وذلك للموافقة على قانون تأسيس سوليدير (22) . ويبقى من غير الواضح ما إذا كان الحريري قد استفاد شخصياً من الفساد الذي عمّ العقد الأخير من القرن الماضي، بالرغم من إقرار أعدائه بأنه لم يكن يسعى إلى تحقيق ثروةٍ خاصة.

"يمكننا القول بصدق إن الحريري لم يكن فاسداً"، يقول محمد رعد المنتمي إلى حزب الله (23) . "ولكن الزعماء الطائفيين المحيطين به والعجز عن جعل إعادة الإعمار من أولويّات البلد أدّيا إلى إنفاقٍ وهدرٍ كبيرَين. فإذا كان علينا تخصيص ميزانيةٍ لوزارة المهجَّرين [التي يُديرها الدروز]، يكون علينا إذاً تخصيص بعض المال لمجلس الجنوب [الشيعي] أيضاً وبعض المال لمجلس الإنماء والإعمار بسبب الطائفية. فعلى الشيعة والدروز والسنّة والمسيحيين الحصول على حصصهم".

ومع ذلك، كان الحريري، كرئيس وزراء، في موقعٍ يمكّنه من

استثمار عقود الإعمار وأموال الدولة لإفادة أسياده السوريين وحلفائه اللبنانيين. وكان الافتقار إلى الشفافية، والمحاباة، والفساد الصريح، والتي كانت تُحيط بمنح العقود المُربِحة جزءاً من النظام اللبناني التَبَعي المتمثّل ببناء شبكاتٍ مناصِرة لتعزيز الموقع السياسي لأحدهم. واكتظّت الشركات التي تُديرها الدولة والوزارات والمؤسسات الحكومية بالموظفين غير المناسبين الذين كانت ولاءاتهم لأسيادهم السياسيين المقتدرين ميزاتهم الوحيدة. وبالرغم من ذلك، لم يكن الحريري راغباً في إبطال هذه الطريقة التقليدية لإجراء الأعمال، كما أنه كان عاجزاً عن ذلك، وآثر عوضاً عن ذلك جعل النظام يعمل لصالحه.

ويتذكّر وئام وهّاب الذي يبقى أحد الحلفاء الأكثر دفاعاً عن سوريا طرح سؤالٍ على الحريري في أواسط التسعينيات حول سبب استمراره بتخصيص مبالغ ضخمة من أموال الحكومة لوزارة المهجّرين التي كان يرأسها وليد جنبلاط آنذاك (24) . وكانت الوزارة مكلَّفة مهمّة عودة اللاجئين التي شُرّدوا إبّان الحرب إلى منازلهم وقراهم الأصلية. وكان يتذمّر منتقدو الحكومة، بمن فيهم وهّاب، من أن جنبلاط استخدم الأموال كوسيلةٍ لدعم مناصريه، مخصِّصاً مبالغ مالية لمؤيّديه الدروز غير متجانسة مع ما خُصِّص للآخرين.

"استمرّيت باتهام الحريري بهذا الأمر، وأخبرني بأنه كان يحاول شراء صمت جنبلاط ليتمكّن من الاستمرار بمشروع الإعمار"، يتذكّر وهّاب. "كان يؤمن في استمالة الناس بالمال. لم يكن يعرف طريقة أخرى للتعاطي مع الوضع".

وإذا كان الفساد الذي رافق تولّي الحريري منصب رئاسة الحكومة يميل إلى اتخاذ مظهر الرشوة والصداقة المقرَّبة، فإن الطريقة المتَّبَعة من قِبَل السوريين أقرب إلى أسلوب المافيا في عمليات الابتزاز التي عومِل لبنان بواسطتها وكأنه "بقرة حلوب"، وفقاً لوزيرٍ سابق (25) ، تجمُّع من الأموال النقدية المخصَّصة لإعادة البناء والتي يتم نهبها كما يشاؤون.

وفي ضواحي مدينة زحلة البقاعية طرقاتٌ غير مرتَّبة تملأها الحُفَر، ومنطقةٌ سكنية لا تتمتّع بأي نشاطٍ اقتصادي، ومصانع ومخازن مهدَّمة. وفي وسط المنطقة السكنية برجٌ نحيلٌ كالقلم يرتفع حوالى 30 متراً ومُحاط بعدد من أطباق استقبال إرسال الأقمار الصناعية البيضاء والبرّاقة التي يبلغ قطر أكبرها 3 أمتار. وقد يبدو مشهد أجهزة الاتصال ذات التقنية العالية مُقحَمةً بين المباني الصناعية المُهمَلة متنافراً، ولكن هذه الأطباق عنصرٌ

أساسي في هذه الأعمال غير القانونية التي عادت على من يقومون بها بأرباحٍ تبلغ ملايين الدولارات من خلال تحويل مسار الاتصالات الهاتفية الدولية بحيث لا تمرّ عبر سنترالات الهاتف التابعة للدولة. وفيما من المفترَض مرور الاتصالات الهاتفية الدولية بسنترالات الدولة، قُدِّر أن حوالى نصف الاتصالات الدولية تمرّ عبر مشغّلي سنترالاتٍ هاتفية غير قانونية. وضرب الاحتيال بسيط. فمالكو السنترالات غير القانونية يُغرون مشغّلي السنترالات الأجنبية لتحويل الاتصالات إلى لبنان من خلالهم، وذلك من خلال عرض تعرفاتٍ (تعريفات) أقل من تعرفات الحكومة. وفي العام 2002، قدّر جان - لوي قرداحي، وزير الاتصالات آنذاك، بأن 30 مليون دقيقة من الاتصالات الهاتفية كان يحوَّل مجراها كل شهر، أي ما يوازي 262 مليون دولار من العائدات (المكاسب) السنوية غير المشروعة.

وسُمح لحالات الاحتيال هذه بالاستمرار دون تعرّض السلطات اللبنانية لها بسبب ارتباطها برجل أعمالٍ لبناني ثري وبأسياده المقتدرين في سوريا الذين حصلوا كلهم على نصيبٍ من الأرباح.

"كان النظام السوري يمارس الاحتيال من خلال قواعد واضحة ومحدَّدة"، يقول جو فضول، وهو مستشارٌ مالي لبناني (26) . "كان السوريون يأخذون المال عمليّاً من الموارد المالية للحكومة".

وزُعم أن شخصياتٍ مرموقة في سوريا وحلفاءهم المحليين حقّقوا أرباحاً طائلة جرّاء ازدهار عملية الإعمار في لبنان في التسعينيات، واضعين السياسيين اللبنانيين في الواجهة في غالب الأحيان، ومتلقّين "عمولاتٍ للحماية"، وضامنين الاحتكارات في مجموعةٍ واسعة من القطاعات وبائعين السلع والخدمات بأسعارٍ مبالَغٍ فيها. ولم يكن أي قطاع مستثنى تقريباً: البناء، النفط والغاز، الكهرباء، الاتصالات. ومن أشهر العمليات الاحتكارية منح عقود أول هاتف نقّال في لبنان لشركتَين، سيليس وليبانسيل، ويرأسانهما لبنانيون على علاقةٍ وثيقة بعبد الحليم خدام وحكمت الشهابي وأبنائهما. وبمنع المنافسين من دخول السوق، سُمح لهاتَين الشركتَين بتكبيد المشتركين رسوماً باهظة هي الأعلى في العالم إذ بلغت 13 سنتاً في الدقيقة مقارنةً مع ما بين 3 و8 سنتات في أي مكانٍ آخر من العالم العربي.

وأُنفق حوالى 1,8 بليون دولار على إعادة تأهيل وبناء عشر محطاتٍ لتوليد الكهرباء بهدف رفع الطاقة الإنتاجية القصوى للكهرباء من حوالى 900 ميغاواط إلى 1,800 ميغاواط. ولكن الطاقة الإنتاجية القصوى قصّرت عن بلوغ الهدف، مؤمّنةً 1,400 ميغاواط فقط مع 500 مليون

دولار بلغت "جيوب القادة والوزراء والمقاولين"، وفقاً لما قاله وزيرٌ لوكالة الصحافة الفرنسية عام 2003.

واعتاد وزيرٌ سابق للكهرباء والموارد المائية فرض "ضريبةٍ شخصية" على مشتريات النفط بلغت نسبتها 20 في المئة، وفقاً لفضول. وأسّس سلفه في الوزارة شركةً للعلاقات العامة فرضت عمولةً بنسبة 10 في المئة على الشركات الراغبة في بيع تجهيزاتٍ لشركة كهرباء لبنان، وهي مؤسسة الطاقة التي تشرف عليها الدولة والتي أُنفق عليها أكثر من 150 مليون دولار في أوائل التسعينيات.

وكانت الرسوم الجمركية تُسرَق في مرفأ بيروت، ومطار بيروت الدولي، وعلى الحدود مع سوريا. ووفقاً لفضول، أقام عملاء جهاز المخابرات السورية مكتباً جمركياً بديلاً في مرفأ بيروت حيث يمكن للمستوردين التهرّب من الرسوم الجمركية القانونية من خلال دفع رسومٍ أقل للسوريين لإدخال بضائعهم. وادُّعي أن ضباطاً في جهاز المخابرات العسكرية السورية، بمن فيهم غازي كنعان، كانوا يحصلون على جزءٍ من مداخيل زارعي الحشيشة في وادي البقاع. وفي أواخر الثمانينيات، قُدِّرت مبيعات زراعة المخدرات في البقاع بـ 4 بليون دولار كان يحصل منها الضباط السوريون، كما زُعم، على حصةٍ هامّة. وعُوِّض عن انخفاض زراعة المخدرات في التسعينيات بتكرير الهيرويين والكوكايين في الأماكن النائية من بعلبك والهرمل في البقاع الشمالي.

حتى إن كازينو لبنان ذات الشهرة العالمية القائم على منحدرٍ مُطلٍّ على البحر المتوسط قرب جونيه كان يُنهَب على أساسٍ يومي من قِبَل عملاء أجهزة المخابرات. ففي حوالى الساعة الثالثة من صباح كل يوم، وبعد إقفال الكازينو في الفترة المسائية، ينقل العملاء بسياراتهم نصف المداخيل المحقَّقة والبالغة، كما زُعم، حوالى 50 مليون دولار سنوياً (27) . وكان يتمّ شراء سكوت السياسيين المحليين. وعندما بدأ حبيب لطيف، وهو مديرٌ سابق للكازينو، بالتذمّر من السرقة المنهجية، تعرّض للتهديد والضرب في مكتبه، وقد حُثّ على تقديم استقالته. وكان تأثير الأعمال غير القانونية على الكازينو - إضافةً إلى المساوئ المعروفة على نطاقٍ واسع - ظاهراً بوضوح في تقلّب سعر السهم في فترة الأشهر التسعة التي شهدت اغتيال الحريري وانسحاب سوريا من لبنان. وفي كانون الأول/ديسمبر 2004، بيع السهم الواحد في الكازينو بـ 165 دولاراً. ولكن، وبالرغم من وفاة الحريري في شباط/فبراير، والاضطراب السياسي، والركود الاقتصادي، وانخفاض عدد

السيّاح، وحملة الاغتيالات والتفجيرات المتقطّعة، ارتفع سعر السهم في أيلول/سبتمبر إلى 300 دولار. فقد علم المستثمرون أن عملاء المخابرات لم يعودوا يمتصّون الأرباح، جاعلين الكازينو مغامرةً جذّابة مرّةً أخرى لروّاده.

وبصرف النظر عن إثراء النخبة السورية، فإن النظام القائم على ابتزاز المال ساعد سوريا على الاحتفاظ بسيطرتها على لبنان من خلال شراء ولاء أتباعها المحليين، وذلك بالسماح لهم بالمشاركة في أعمالٍ مُربحة أو بدعمهم لدخول البرلمان أو الحكومة حيث يمكنهم الاستفادة من مواقع النفوذ هذه لكسبٍ شخصي. وكانت تؤجَّل التعيينات الإدارية لأشهر بينما يتقاتل السياسيون المتشاحنون لترقية من يؤثرونه على الآخرين. وغطّى الغبار في المصارف ملايين الدولارات من قروضٍ ومِنَح مصدرها مُقرِضون دوليون لأن السياسيين كانوا يعارضون المشاريع التي لا يستفيدون هم وشبكات مناصريهم منها.

وفي العام 2001، ادّعى تقريرٌ عن الفساد في لبنان صادرٍ عن الأمم المتحدة أن الحكومة كانت تخسر 190 مليون دولار بسبب احتكار خمس شركات مرتبطة بسياسيين مقتدرين عملية استيراد النفط ومشتقاته.

وقدّر التقرير أن لبنان كان يخسر حوالى بليون دولار في العام بسبب الابتزاز، وهو رقمٌ وسطي.

وبعد التمحّص بالتقارير المتعلّقة بالفساد وابتزاز المال التي كانت الصحف المحلية تنشرها من حينٍ لآخر، استنتج جو فضول أن الابتزاز الذي كان يدعمه السوريون بلغ حوالى 2 بليون دولار منذ العام 1990 على صورة مداخيل مباشَرة أو غير مباشَرة. وهكذا، وبحلول العام 2005، كلّف الابتزاز السوري لبنان 30 بليون دولار، ممّا يساعد، وفقاً لفضول، على تفسير الدين العام المُذهل للبلد والبالغ 40 بليون دولار (28) .

ولم يكن الحريري قلقاً جداً من ارتفاع قيمة الدين في أوائل التسعينيات، مُنبئاً بأنه سيُسدَّد بسهولة، هذا إن لم يتمّ شطبه، نتيجةً لاتفاقية سلامٍ شاملة في الشرق الأوسط. ولن ينجم عن السلام كتلةً ضخمة من الاستثمارات في لبنان فحسب، بل هو سيُنهي أيضاً النزاع المتفاقم الذي يثير مقاتلي حزب الله ضد الجنود الإسرائيليين في جنوب لبنان. وسيشير انسحابٌ إسرائيلي من الجنوب إلى نهاية النزاع الطويل الأمد والدموي في لبنان والسماح لبيروت بإعادة ترسيخ دورها كمركزٍ مالي للشرق الأوسط. وإن سوريا في حالة سلامٍ مع إسرائيل لن يمكنها تبرير استمرار وجودها في لبنان.

"كونوا صبورين"، نصح الحريري زملاءه.

ولكن اعتماد الحريري على إمكانية حدوث سلامٍ إقليمي وشيك، وإيمانه في حدوثه، وضعه في مواجهةٍ مباشَرة مع حزب الله الذي كانت عملياته العسكرية في جنوب لبنان ضد الاحتلال الإسرائيلي تهدّد بتعريض إحياء (انتعاش) لبنان للخطر.

وقبل العام 1992، كان الحريري قد تجنّب أي علاقاتٍ مع حزب الله، معتبراً المنظمة نتاجاً إيرانياً مثيراً للقلق. وبدوره، كان ينظر حزب الله إلى الحريري على أنه "سعودي" ولا يميل كثيراً إلى التعاطي معه نظراً للعدائية التي قامت بين طهران والرياض في أواسط الثمانينيات.

"لم نكن نعلم أي شيءٍ عنه"، يتذكّر محمد رعد المنتمي إلى حزب الله (29) . "بدا لنا أنه كان لرفيق الحريري علاقاتٌ واسعة النطاق مع الغرب، وهذا ما جعلنا محترسين. لم نكن نعلم شيئاً عن طفولته، خلفيّته، وحياته السياسية. كان ظهوره على الساحة اللبنانية مفاجئاً".

وفي العام 1985، طلب الملك فهد، العاهل السعودي، من الحريري الاتصال بآية الله محمد حسين فضل الله، وهو رجل دين شيعي بارز تتطابق آراؤه مع آراء حزب الله (30) . وطوّر الحريري وفضل الله علاقةً حميمة، وقد زار الأخير منزل الحريري في الرياض عندما كان في المملكة العربية السعودية أثناء الحج إلى مكة. وأخبر الملك فهد فضل الله بأنه راغبٌ في المساعدة على تقوية الصلات السنّية - الشيعية في لبنان، ولكنه أمِل أيضاً في أن يتمكّن رجل الدين من استخدام نفوذه لوقف اضطرابٍ شيعي تدعمه إيران في المقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية. ووفقاً لسياسيٍّ شيعي لبناني، قُدِّم لفضل الله هبةٌ سعودية بعدة ملايين الدولارات عبر الحريري، ولكنه رفضها مشتبهاً بأنها رشوة أو على الأقل بأن الآخرين سيعتبرونها كذلك (31) .

وفي ذلك الوقت، كان نبيه برّي المحاور الرئيسي للحريري بين شيعة لبنان، ولم يشجّع قائد حركة أمل الحريري على إقامة اتصالاتٍ مع أي شخصية أو مجموعة شيعية أخرى. وفي اليوم الذي تلى لقاء الحريري فضل الله، أُطلقت قنبلة يدوية صاروخية على مكتب فؤاد السنيورة القائم في الطابق الحادي والعشرين من مبنى شاهق في بيروت الغربية. واعتبر الحريري الحادثة تذكيراً قويّاً من برّي بأن قائد أمل هو الممثل الوحيد لمصالح الشيعة في لبنان، ويُستحسَن بالحريري تذكّر هذا الأمر. وفي العام 1992، أصبح حزب الله قوةً لا يمكن للحريري تجاهلها. وكان الحزب يشنّ

حملةً فعّالة بشكلٍ متزايد وفتّاكة على جنود الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان وكان قد فاز بـ 12 مقعداً في البرلمان في انتخابات عام 1992 التشريعية.

وقبل أيامٍ قليلة من تعيينه رئيساً للوزراء في تشرين الأول/أكتوبر من العام 1992، طلب الحريري موعداً للقاء السيد حسن نصر الله، الأمين العام الشاب لحزب الله الذي انتُخب لمنصب الأمانة العامة في شباط/فبراير. وكان للرجلَين مداولةٌ صريحة، وفقاً لمصطفى نصر، وهو صحافي قام بدور الوسيط (32) . وتذكّر نصر نصر الله يقول للحريري: "أنت المقاومة التي ستزيل معاناة الناس [في لبنان] وحزبنا هو المقاومة التي ستزيل الاحتلال عن شعبنا على الحدود. إذا أصبحنا حليفَين وتوافقنا، ستكون مقاومتنا مقاومتك وسيتقدّم البلد بشكلٍ جيّد. ولكن إذا لم نتوافق، ستخسر مقاومتك ومقاومتي".

"أنا معك 100 في المئة"، أجاب الحريري. وواصل حديثه مطمئناً نصر الله بأنه ليس "عميلاً أميركياً".

"أنا قومي عربي"، قال. "أساعد الفقير وقناعاتي ومبادئي إسلامية حقاً".

وبالرغم من ذلك، أثبت التناقض الملازم لسياسات حكومة الحريري ولبرنامج حزب الله المعادي لإسرائيل أنه مصدر توترٍ كبير وعدم ثقة عميقة.

وعُيِّن الحريري رئيساً للوزراء لأنه اعتُبر اللبناني الوحيد الذي يمكنه إعادة إحياء لبنان، مجتذباً معوناتٍ أجنبية أساسية ورؤوس أموال للاستثمار في عملية إعادة البناء، ومستخدماً علاقاته الدولية الواسعة لمصلحة بيروت ودمشق. ولكن النزاع المتصاعد في جنوب لبنان الذي ازداد حدّةً إبّان رئاسة الحريري للحكومة هدّد بتقويض تصوّر رئيس الوزراء بتحويل لبنان الذي دمّرته الحرب إلى مركزٍ مالي وخدماتي للمنطقة.

وكان الحريري رجل تسويات وكان يُبدي آراءً خطِرة، بقدر ما كان حزب الله معنيّاً بالأمر، حيال تسوية الخلافات مع إسرائيل. وبالرغم من كل شيء، فقد كان يراهن على نجاح عملية السلام في الشرق الأوسط لإتمام مشروعه الاقتصادي والسياسي المتعلق بلبنان. ماذا يمكن أن يحدث، تساءل حزب الله، إذا دعت إسرائيل إلى وقفٍ لإطلاق النار في جنوب لبنان، أو حتى إلى نزع سلاح حزب الله، كشرطٍ لانسحاب الجنود من المنطقة المحتلّة؟ هل يمكن الوثوق بأن الحريري سيرفض هذه الدعوات؟

وأصبحت مفارقة المقاومة وإعادة البناء واضحة المعالم بشكلٍ جليّ بعد تسعة أشهرٍ من تولّي الحريري منصب رئاسة الحكومة. وإن قيام المقاومة بتنفيذ هجماتٍ شديدة في أوائل حزيران/يونيو 1993 حثّت إسرائيل على شن غاراتٍ جوّية كثيفة وقصفٍ مدفعي على جنوب لبنان. وأدّى الهجوم الإسرائيلي إلى مقتل 120 مدنياً لبنانياً، وجرح 500 آخرين، وتشريد 300,000 مقيم، والتسبّب بأضرارٍ قُدِّرت بـ 28,8 مليون دولار، وتقويض حملة العلاقات العامة التي شرع بها الحريري لإعادة ثقة المستثمر بلبنان: كان قد أطلق برنامجاً إعمارياً وطنياً بقيمة 10 بلايين دولار دُعي هورايزن 2000، وذلك قبل أربعة أشهرٍ فقط. وكبت الحريري انفعاله ودافع بامتثال عن المقاومة خلال أسبوع التصعيد الطويل في تموز/يوليو. ولكن العلاقات دخلت في أزمةٍ كبيرة بعد ستة أسابيع عندما أطلق الجنود اللبنانيون النار على تظاهرةٍ لحزب الله، قاتلين تسعة محتجّين. وأحدث إطلاق النار اضطراباً، واتهم حزب الله الحكومة بالتسبب بـ "المجزرة" ممّا أدّى إلى أشهرٍ من المرارة.

ولكن الاختلافات في الرأي بين الحريري وحزب الله لم تكن مرتبطةً فقط بالمقاومة في جنوب لبنان. فقد كان التكتل البرلماني التابع لحزب الله يعارض بشكلٍ صريح ودائم خطط الإعمار المكلِفة للحريري. وانتقد حزب الله البرنامج الاقتصادي للحريري بسبب تركيزه على بيروت وتجاهله الواضح للمناطق الفقيرة المحيطة بالعاصمة التي يستمدّ منها الكثير من التأييد والدعم. وفي حين كان نبيه برّي قادراً على الاحتفاظ بقاعدته الشعبية الداعمة له من خلال قدرته على الوصول إلى أموال الدولة، كان حزب الله قادراً على الفوز بالقلوب والعقول من خلال جناحه الاجتماعي الخاص الذي أمّن علاجاً طبّياً، وتعليماً، ومساعدةً زراعية، وتوزيعاً للمياه، ومتاجر متعددة الأقسام مدعومة مالياً، وذلك بصورةٍ مجانية كاملة أو جزئية. وافتقار حزب الله إلى الاعتماد على الموارد المالية للدولة منحه أساساً معنوياً مكّنه من شجب الإسرافات الملحوظة لحكومة الحريري ومهاجمة الفساد الذي استشرى في التسعينيات.

وأخذت العلاقات بين الحريري وحزب الله في النهاية شكلاً من أشكال التفاهم المتبادَل في نيسان/أبريل 1996 عندما شرعت إسرائيل بحملةٍ عقابية عسكرية ثانية ضد جنوب لبنان. واستهدفت الطائرات الحربية الإسرائيلية البنية التحتية المجدَّدة حديثاً كالجسور ومحطات توليد الطاقة، وكانت الرسالة الضمنية أن لبنان لا يملك إلا خياراً واحداً: الإعمار أو

المقاومة.

ولعب الحريري دوراً دبلوماسياً هاماً مستخدماً دعم صديقه جاك شيراك، الذي انتخب رئيساً لفرنسا عام 1995، لنصرة القضية اللبنانية، مشكلاً بذلك ثقلاً دبلوماسياً موازناً لمبادرةٍ أميركية طموحة سعت إلى إنهاء حملة حزب الله المقاوِمة في مقابل وقف الهجوم الإسرائيلي. ورفض الأسد الاقتراح الأميركي مفضّلاً مبادرةً فرنسية أكثر اعتدالاً أرست قواعد الاشتباك بإشراف لجنةٍ دولية. وبعد أسبوعَين، اتّضح أن الهجوم الإسرائيلي كان عاجزاً عن كبح جماح حزب الله وأن الحكومة اللبنانية لن توقف المقاومة ضد إسرائيل. وأوقفت إسرائيل الهجوم بعد 16 يوماً. وبعد شهر، انتُخب بنيامين نتنياهو، وهو الزعيم المشدّد لحزب الليكود، رئيساً لوزراء إسرائيل وجمّد المسار الإسرائيلي - السوري في عملية السلام طيلة ثلاث سنوات.

وبالتوصل إلى تسوية مؤقَّتة مع حزب الله، واجه الحريري تهديداً أكثر إلحاحاً عام 1998 عندما كان العماد إميل لحود يستعد للانتقال من وزارة الدفاع في اليرزة إلى القصر الرئاسي القريب المصنوع من الإسمنت والزجاج في ضاحية بعبدا المجاورة.

كان لحود خياراً شعبياً للعديد من اللبنانيين الذين رأوا في قائد الجيش البالغ من العمر ستين عاماً ضابطاً عازماً وذا مبادئ يزدري السياسيين وينأى بنفسه عن المناسبات الاجتماعية. وفي بلدٍ يحتفي بالحفلات المُسرفة التي لا تعرف الكلل، دُهِشت وسائل الإعلام اللبنانية بأسلوب حياة لحود المقتصِد والمتقشف: كان يستيقظ كل يومٍ في الرابعة والنصف صباحاً ويسبح مسافة ميل قبل الذهاب إلى العمل في وزارة الدفاع قبل شروق الشمس. طليق اللسان بالعربية والإنكليزية والفرنسية، كان ابن عميدٍ سابقٍ في الجيش وابن أخ أحد الآباء المؤسسين للبنان. وبعد تسع سنوات، سئم اللبنانيون من الهراوي العنيد وإذعانه لمشيئة دمشق، وأمِلوا في أن يقوم قائد الجيش الذي لا يتصرّف بشكلٍ أخرق بتحرير لبنان من القبضة الحديدية السورية.

وكان لحود يتمتّع أيضاً بدعم الأميركيين الذين، وفقاً لدبلوماسيٍّ عالي المقام منخرطٍ بشكلٍ وثيق في الشؤون اللبنانية، اعتبروا قائد الجيش "إصلاحياً نظيف الكف" غير ملطَّخٍ بفساد السياسيين اللبنانيين المستشري، فؤاد أيام منذ له مثيلاً اللبنانيون يرَ لم " ' ماروني غير ' مارونياً "رئيساً 1958 عامَي بين الرئاسة منصب تولّى للجيش آخر قائداً كان والذي ،شهاب 1964و (33) .

"ملتزماً في الظاهر بالانضباط الاقتصادي والمالي بعد الإنفاق المُسرِف الهدّام للحريري... بدا لحود نسمة هواءٍ عليلٍ في منصب الرئاسة مجسّداً العزم والنشاط"، يقول الدبلوماسي.

ولكن صورة لحود الشعبية كانت نتيجة حملة علاقاتٍ عامة معَدّة بعناية استغلّت رغبة المسيحيين بثقلٍ موازنٍ مقتدر للحريري السنّي، وجنبلاط الدرزي، وبرّي ونصر الله الشيعيَّين، مقترنٍ باحترام اللبنانيين غريزياً لقدسية رجال الجيش. وكانت حملةً ساعد العديد من الصحافيين اللبنانيين، عمداً أو خطأً، بالترويج لها.

"نشعر ببعض المسؤولية حيال هذا الأمر"، أقرّ سركيس نعوم، المحرر الصحافي المتمرّس في النهار (34) . "وصف بعضُ الأشخاص، طواعيةً أم لا، لحود بالصارم والقوي والشريف. وبالنسبة إلى البعض، كان تفكيراً معلَّلاً بالآمال، بمن فيهم أنا، وكان البعض مُجبَرين على تحريف الوقائع، بينما كان آخرون يعملون للحود".

وكان اللواء جميل السيّد وراء حملة تحسين صورة لحود. والسيّد شيعي من البقاع وقد ساهم بصفته نائباً لقائد جهاز المخابرات العسكرية في إخفاء مدى النفوذ الذي يتمتّع به. وكان السيد ضابطاً مهنياً في الجيش اللبناني وأصبح حليفاً أساسياً للسوريين بعد نجاته بصعوبة من انفجار سيارةٍ مفخَّخة عام 1983 عندما كان رئيس جهاز المخابرات العسكرية في البقاع. وبعد أن أصبح نائباً لرئيس جهاز المخابرات العسكرية عام 1990، أشرف السيّد على إعادة هيكلة ودمج جهاز المخابرات اللبنانية بجهاز المخابرات السورية. وكان السيد رجلاً قصير القامة، قسمات وجهه ضيّقة، وذا ذكاءٍ حاد جعله يفوز باحترامٍ حذِر من قِبَل مناوئيه، ومن ضمنهم الحريري والهراوي.

وبالرغم من أن السوريين أخبروا حلفاءهم اللبنانيين بأنه كانوا ينتظرون الوقت المناسب قبل اتخاذ قرارٍ نهائي، فقد كان من الواضح أن لحود كان على يقينٍ تقريباً من تسلّم المنصب.

وأدرك الأسد الذي رغب في أن يبقى الحريري رئيساً للوزراء أثناء ولاية لحود بأن العداء بين الرجلَين قد يعقّد سيطرة سوريا على لبنان. ومع ذلك، بقي بشار الأسد داعماً مخلِصاً للحود، وكان قد بدأ رأيه باكتساب أهميةٍ داخل النظام. وبدأ بالاضطلاع بملف لبنان في أوائل العام 1998 الذي كان من مسؤولية عبد الحليم خدام راعي الشؤون اللبنانية منذ السبعينيات. وفي العام نفسه، استقال حكمت الشهابي من رئاسة أركان الجيش السوري.

وكان بشار أيضاً على رأس حملةٍ مناهضة للفساد في سوريا، محاولاً تعزيز صورته المحلية وزيادة شعبيّته. وبعض أولئك الذين استهدفتهم حملته مرتبطين بالحريري، ممّا أسهم في إضعاف مكانة رئيس الوزراء في سوريا. وكانت التحركات إشارةً إلى تبدّل النظام القديم في لبنان وسوريا، وبدء تلاشي شبكات المناصرين التي أوجدتها ثروة الحريري. وبتجاهل إقامة صلات بالجيل الأصغر سنّاً في دمشق، وبترحيل الشهابي وتجريد خدام من الملف اللبناني، "وجد الحريري نفسه في موقفٍ حرِج"، وفقاً لمستشار الحريري السابق نهاد المشنوق (35) .

ودعم مناوئو الحريري اللبنانيون بشدة عملية تآكل نفوذه في دمشق، ومنهم سليمان فرنجية، وريث سلالةٍ سياسية مارونية حاكمة في شمال لبنان؛ وطلال أرسلان، المنافس الدرزي لوليد جنبلاط؛ وعمر كرامي، رئيس الحكومة السابق السيّئ الطالع.

"اعتاد فريقنا إخبار بشار بأننا لم نكن على خلافٍ في الرأي حيال دور سوريا في لبنان، ولكن كانت لدينا مشكلة مع هذه الجماعة التي كانت تُسيء إلى العلاقات بين البلدَين"، يقول وئام وهّاب، وهو صحافيٌّ سابق ومؤيّدٍ متحمّس لسوريا، مشيراً إلى الحريري وحلفائه السوريين. "قبل وصول بشار، كنا نعتمد على الجيش [اللبناني برئاسة لحود] لإحداث توازنٍ مع الهراوي والحريري وجنبلاط وأصدقائهم في سوريا، عبد الحليم خدام وغازي كنعان. وعندما أصبح بشار قوياً، فاز فريقنا بقدوم لحود" (36) .

وفي 5 تشرين الأول/أكتوبر، التقى الأسد والهراوي في دمشق، وأعلنا بعد ذلك أن لحود سيكون الرئيس التالي للبنان، عِلماً أن قائد الجيش لم يكن قد أعلن رسمياً ترشيحه. وبعد تسعة أيام، اجتمع 118 عضو برلمان من أصل 128 عضواً للاقتراع بالإجماع لصالح لحود في جلسةٍ هادئة لم تدُم أكثر من 20 دقيقة. وكانت المرة الأولى منذ انتخاب الرئيس بشارة الخوري عام 1949 التي يحصل فيها مرشحٌ للرئاسة على كل الأصوات. ولكن كتلة وليد جنبلاط المؤلَّفة من تسعة أعضاء في البرلمان لم تشارك في عملية الاقتراع، ممّا عكس امتعاض الزعيم الدرزي من أن يصبح لحود رئيساً.

وفي الخطاب الذي ألقاه بمناسبة بدء ولايته، أقسم لحود بالالتزام بـ "حكم القانون" وتعهّد باجتثاث الفساد من جذوره، في إشارةٍ إلى السرقات الجلية التي كانت تحدث أثناء تفرّد الحريري في اتخاذ القرارات. ووعد لحود بحملةٍ مناهضة للفساد تعكس تلك التي يقوم بها بشار في سوريا، مشيراً أيضاً إلى أن القائد السوري المستقبلي هو القوة التي دفعت

بالرئيس الجديد في لبنان إلى سدة الحكم.

وبالرغم من ذلك، كان من المتوقَّع أن يرأس الحريري الحكومة التالية. وخلال الاستشارات المُلزمة بين لحود وأعضاء في البرلمان حول هوية رئيس الوزراء التالي، أيّدت غالبيةٌ ضئيلة تولّي الحريري هذا المنصب. ولكن العديد من النواب عزفوا عن تسمية شخصٍ معيَّن، تاركين للحود خيار تعيين من يريد. واحتجاجاً على الأمر، أعلن الحريري استقالته معلناً أن النواب مُجبَرون على تسمية رئيس الوزراء الذي يختارون، وفقاً لدستور ما بعد الطائف، ولا يمكنهم ترك القرار للرئيس.

وتوقّع الحريري تدخل الأسد لدى لحود، وكان من شأن هذا الأمر منحه قوةً إضافية في علاقةٍ مع الرئيس لحود قُدِّر لها أن تكون نَكِدة ومتوترة. وبالرغم من أن الأسد فضّل عودة الحريري إلى رئاسة الحكومة، فقد اختار عدم إبطال قرار ابنه الداعم للحود. وكان بشار بحاجةٍ إلى حليفٍ موضع ثقة في لبنان يمكنه المحافظة على المصالح السورية هناك بينما يقوم بتوطيد سلطته في دمشق. ومن شأن رئيسٍ سنّي مقتدر في بيروت عدم تحدّي سلطة لحود فحسب، بل أيضاً ممارسة نفوذٍ فعّال على نحوٍ خطِر مع الغالبية السنّية في سوريا إذا استمرّت الرئاسة العلوية عبر بشار الذي يخلف والده.

"كان حافظ الأسد ذكيّاً جداً وكان يعلم جيداً ماهية الوضع في لبنان، وحاول جاهداً إيجاد مناخٍ إيجابي بين لحود والحريري، ولكنه فشل"، يقول غازي العريضي، وزيرٌ درزي في الحكومة ومعاونٌ لوليد جنبلاط (37) .

وبخروج الحريري من دائرة المنافسة، اختار البرلمان سليم الحص رئيساً جديداً للوزراء. والحص اقتصاديٌّ محترَم ورئيسٌ للوزراء ثلاث مرات خلال سنوات الحرب الأحلك في لبنان، وكان نقيض الحريري: متحفِّظاً بينما الحريري كان مُبهرَجاً، محترساً بينما الحريري كان جسوراً، قليل الكلام بينما الحريري كان اجتماعيّ الطبع. وكان الحريري مقترناً بادّعاءاتٍ بالفساد، ولكن الحص كان رجلاً محترَماً بغير تصنّع يتمتّع بسمعةٍ نظيفة ويُعرَف باستقامته. والأهم من ذلك أن الحص لن يقف في طريق لحود. وقد يكون الحريري خلال التسعينيات الأول بين أركان الترويكا المتساوين وهم الرئيس، ورئيس الوزراء، ورئيس مجلس النواب، ولكن الترويكا باتت في حالة همود بقدر ما كان لحود راغباً في ذلك.

الفصل الرابع: الصَدع

كان دنيس روس، المفاوض الأميركي الأعلى في عملية السلام في الشرق الأوسط، يندفع مسرعاً في أحد أروقة فندق جنيفا إنتركونتننتال هوتل، غارقاً في أفكاره وصامتاً، ومضطرباً ومُحبَطاً (1) . فاللقاء الذي انتهى للتوّ بين الرئيسين كلينتون والأسد كان بأسوأ شكلٍ ممكن. وكانت القمة التي تمّ التعجيل لعقدها بلهفة قد وعدت بالخروج من الورطة التي يواجهها المسار الإسرائيلي - السوري في عملية السلام. ولكن، وبالرغم من تقديم الإسرائيليين أفضل عرضٍ له حتى حينه، لم يبدُ الرجل المتمرّس مهتمّاً حتى بمناقشته، ببساطة. وكانت العقبة الجلية مدى الانسحابِ الإسرائيلي من مرتفعات الجولان، وهي الهضبة البركانية الاستراتيجية المشرفة على الجليل الشمالي التي انتُزعت من سوريا في الحرب العربية - الإسرائيلية التي دارت في حزيران/يونيو 1967؛ وهي العقبة نفسها التي رافقت محادثات السلام المتقطّعة طوال ثماني سنوات بين السوريين والإسرائيليين. وكان الأسد وزير الدفاع السوري عام 1967، وباتت عملية إعادة الجولان إلى الوطن الأم - كل الجولان، وكل شبرٍ استولت عليه إسرائيل شرق الحدود بعد حرب 4 حزيران/يونيو 1967 - هدفاً عاطفياً واستراتيجياً. وكانت كل المسائل الأخرى المتعلّقة بالسلام - ترتيبات عسكرية، تقاسم المياه، تطبيع دبلوماسي وثقافي - مفتوحةً للنقاش، ولكن الجولان لم يكن قابلاً للتفاوض.

وعندما استؤنفت مفاوضات السلام في كانون الأول/ديسمبر عام 1999 بعد تجميدها مدة أربع سنوات، كان الاتجاه المحتمَل عقد اتفاقٍ بشكلٍ سريع. لذا، التقى كلينتون في فترة بعد ظهر يومٍ سويسري بارد من أواخر آذار/مارس 2000 الأسد للترويج للعرض الأكثر جرأةً الذي تقدّم به رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك - انسحابٌ من كل الجولان باستثناء شريطٍ ضيّق على امتداد الجانب الشمالي الشرقي لبحر الجليل. وبالنسبة إلى العالم المراقِب، كان مشهد الرئيس السوري النحيل والضعيف الصحة، كما كان يبدو، والبالغ من العمر 69 عاماً يبذل جهداً للقاء كلينتون في جنيف دلالةً على أن اتفاقاً ما كان وشيكاً. ومن شأن حدوث اختراقٍ بين سوريا وإسرائيل تمهيد الطريق أمام لبنان لإجراء مفاوضاتٍ حول اتفاق سلام خاص به، ممكّناً من إتمام انسحابٍ منسّق، آمن، ومشرِّف للجنود الإسرائيليين من المستنقع الدموي في جنوب لبنان.

وكان هناك قليلون ينتظرون نتائج القمة بتشوّقٍ أكثر من رفيق

الحريري. فقد كان رئيس الحكومة السابق على اتصالٍ دائمٍ مع روس طوال العام السابق، طالباً معلوماتٍ من المفاوض الأميركي، وبشكلٍ متكرّر، ومشجّعاً إياه على المثابرة عندما كانت تواجه المفاوضات صعوبات. والاتصال الأخير الذي تلقاه روس من الحريري قبل قمة جنيف جرى قبل أسبوعَين عندما كان عائداً إلى منزله من مكتبه في واشنطن.

"كان متفائلاً جداً"، يروي روس. "قال إن كل ما كان يسمع يشير إلى أن الأسد يريد عقد اتفاق. كان يتحقّق ممّا إذا كنت قادماً [إلى جنيف] مع مقترحاتٍ جدّية وقلت "أجل، أنا قادمٌ مع مقترحاتٍ جدّية"، وقال إنه واثقٌ جداً من أن الأمر سينجح".

ولكن الأمر لم ينجح. فسواءٌ أخطأ باراك بحساباته من خلال الإصرار على الاحتفاظ بالشريط شرق بحر الجليل، أو سواءٌ بدّل الأسد رأيه حول أهمية عقد سلامٍ مع إسرائيل، فما يزال الأمر غير واضح. ولكن الرئيس السوري رفض عرض باراك تماماً.

دخل روس غرفته في الفندق، ونزع حذاءه وارتدى سروال جينز. ولو كان كل شيءٍ يسير على ما يُرام، لكان سيوجز المستجدات للمراسلين الصحافيين المجتمعين في فندق الرئيس ويلسن وسط جنيف. ولكنهم اختاروا جو لوكهارت، الناطق الصحافي باسم البيت الأبيض، للمهمة التي لا يُحسَد عليها والمتمثّلة بإضفاء طابعٍ متفائل على فشل القمة. وبينما كان روس يجلس، رنّ الهاتف وكان الاتصال الأول الذي تلقاه منذ نهاية اللقاء قبل وقتٍ قليل؛ كان الحريري.

"ماذا حصل؟" سأل الحريري وقد بدا مصدوماً بعد سماعه الخبر للتوّ.

"لم يرغب بعقده"، أخبره روس، مشيراً إلى الأسد.

"قل لي ما الذي حدث"، سأل الحريري.

وشرح روس ردة فعل الأسد الرافضة عندما قرأ كلينتون اقتراح باراك سطراً سطراً.

"أظن أن الأمر متعلّق بسياسة الخلافة"، قال روس، عانياً بذلك عزم الأسد على تسليم الرئاسة لابنه بشار.

"لا أصدق ذلك"، قال الحريري. "انظر، لا تستسلم".

"ولكن ماذا لدينا للعمل عليه؟" سأل روس.

"لا تستسلم فحسب. لا بد من أن يكون هناك شيءٌ ما. سأكتشف الأمر. قد يكون الأمر مرتبطاً بالخلافة، ولكن هذا لا يعني أن

الأمر انتهى".

ولا يعرّف روس في مذكراته، السلام المفقود، عن الحريري بأنه رئيس الوزراء اللبناني بالرغم من أن الحريري كان ما يزال في صفوف المعارضة في آذار/مارس من العام 2000. ولم يُبدِ رئيس الوزراء الفعلي في لبنان، سليم الحص، اهتماماً مماثلاً نافد الصبر بنتائج المحادثات، وردّد في الأيام التالية، وبوداعة، إلقاء سوريا اللوم في فشل قمة جنيف على تصلّب الموقف الإسرائيلي.

ووفقاً لحسابات الحريري، كان السلام الإقليمي أمراً أساسياً لتصوّره الأوسع لاستعادة لبنان سيادته الكاملة. وبخروج الإسرائيليين من لبنان، ستكون سوريا مُكرَهةً على شرح سبب إبقاء وجودٍ عسكري ومخابراتي في بقية البلاد. وإضافةً إلى ذلك، فإن السلام في الشرق الأوسط يُلغي دور حزب الله. ولن يسمح لبنان وسوريا باستمرار الهجمات ضد إسرائيل، فيخبو التأييد الشعبي لمجموعة المقاومة الشيعية بعد وضع حدٍّ للأعمال العدائية.

"الأمر الوحيد الذي كان يشغله هو كيفية توسيع نطاق الاستقلال اللبناني"، يتذكر روس. "كان أمله كبيراً في قيام سوريا بتخفيف سيطرتها على لبنان في سياق اتفاق سلامٍ إسرائيلي - سوري. ومن الواضح أنه أقنع كل من تحدّث معه بأن الاتفاق سيتمّ لا محال [في جنيف]. وقد أصعقه فشل القمة. لا أجد طريقةً أفضل لوصف حالته سوى أنه كان مصعوقاً".

وكان لفشل إتمام اتفاق سلامٍ بين إسرائيل وسوريا في جنيف معانٍ ضمنية استراتيجية بعيدة المدى، فأطلق العنان لسلسلةٍ من الأحداث ساعدت على صياغة المشهد السياسي الحالي في لبنان وسوريا، والعلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين.

وكانت النتيجة المحتومة الأولى لجنيف اضطرار باراك للانسحاب بصورةٍ أحادية وبلا شروط من لبنان بحلول شهر تموز/يوليو إذا كان عليه تنفيذ الوعد الذي قطعه قبل الانتخابات بالخروج من لبنان في غضون عامٍ من تسلّمه مقاليد الحكم (2) . وكان رهاناً مبالغاً فيه، ولكنه رهانٌ شعر باراك بأنه مُجبَرٌ على القيام به. ولكن في 21 أيار/مايو، دخل مخطط انسحاب الجيش الإسرائيلي في حالةٍ من التشوّش والفوضى عندما قرّر فجأةً عدة مئاتٍ من اللبنانيين الذين كانوا قد تجمّعوا في مأتمٍ على طرف المنطقة التي كانت تحتلّها إسرائيل بعبور الخط الأمامي وزيارةٍ منازلهم التي هجروها منذ زمنٍ بعيد في قريةٍ شبه مهجورة. وما بدأ تقاطراً بطيئاً لقرويين عائدين تحوّل إلى سيلٍ جارفٍ لا يمكن إيقافه، مُجبِراً القوات

الإسرائيلية على الانسحاب بشكلٍ سريع ومتهوّر وفرار حوالى 6,000 مقيم في منطقة الاحتلال، هم في غالبيّتهم مسيحيون، خوفاً من التعرّض للعقاب على أيدي حزب الله.

وبعد ثلاثة أيام، انتهى كل شيء. فقد كانت حقاً لحظةً تاريخية في النزاع العربي - الإسرائيلي وانتصاراً لحزب الله، كونها المرة الأولى التي تكون فيها إسرائيل مُجبَرَةً على التخلّي عن أراضٍ محتلّة تحت وطأة قوةٍ عربية. وكان قد أثبت حزب الله إمكانية هزم إسرائيل في معركة. وقال السيد حسن نصر الله في اجتماعٍ حاشد بمناسبة تحقيق الانتصار إن الدولة اليهودية كانت "ضعيفة بمقدار ضعف نسيج العنكبوت" وبإمكان فلسطينيي الأراضي التي تحتلّها إسرائيل في الضفة الغربية وقطاع غزة تحرير أرضهم أيضاً إذا اعتمدوا نموذج حزب الله. كانت رسالةً قوية تَردّد صداها في أعماق الفلسطينيين المستائين.

وكانت سوريا الخاسر الأكبر من الانسحاب الإسرائيلي الأحادي من جنوب لبنان. وكان الافتراض الضمني للعقد السابق أن الأسد سيضمن الاستقرار على امتداد حدود إسرائيل الشمالية مع لبنان إذا أعادت إسرائيل مرتفعات الجولان لدمشق. وكلّما ماطلت إسرائيل، كلّما ملأ حزب الله مزيداً من الأكياس بجثث الجنود الإسرائيليين. ولكن بتوقف موت الجنود الإسرائيليين بقنابل وصواريخ حزب الله، بات لإسرائيل حافزٌ أقل للانسحاب من الجولان.

وعلاوةً على ذلك، كان من الحتمي بعد انسحاب الجنود الإسرائيليين من لبنان زيادة مطالب اللبنانيين باتخاذ السوريين خطوةً مماثلة. وبالفعل، وقبل أيامٍ قليلة من قمة جنيف، نشرت صحيفة النهار اليومية اللبنانية رسالةً مفتوحة غير عادية موجَّهة لبشار كتبها جبران تويني، مدير عام الصحيفة وأحد منتقدي سوريا الأكثر لَذعاً في لبنان.

"يجب أن أقول لكم بصراحة إن العديد من اللبنانيين يشعرون بأن سلوك سوريا في لبنان يناقض تماماً مبادئ السيادة والكرامة والاستقلال"، كتب تويني.

ومع ذلك، شجبت المؤسسة السياسية اللبنانية بشكلٍ صارخ الرسالة المفتوحة، بما فيها صحيفة المستقبل اليومية. وإذا كان هذا الشعور المناهض لسوريا بدأ بالظهور حتى قبل مغادرة الإسرائيليين من لبنان، فمن المؤكّد أنه سيزداد قوةً بعد تحرير الجنوب.

ولكن براعة الأسد الصبورة وخبرته التي امتدّت عقوداً من الزمن

لم تتحمّل التحدّيات الجديدة التي تواجه سوريا، لأن "أسد دمشق" توفّي بعد 16 يوماً فقط من خروج آخر جندي إسرائيلي من لبنان.

وجاء موت الأسد قبل أيامٍ من انعقاد مؤتمر حزب البعث، الأول منذ 15 عاماً، والذي كان يؤمَل أن يُمنح بشار خلاله منصباً عالياً داخل الحزب، ربما منصب نائب الرئيس، ممّا يساعد على إضفاء الصفة الرسمية على خلافته. وبالرغم من إعداد بشار لتولّي السلطة منذ 6 سنوات، فكان ما زال من غير الواضح ما إذا كان مستعداً لقيادة الأمّة البالغ تعداد سكانها 17 مليون نسمة. ومع ذلك، فقد اتجهت آلية الدولة لضمان انتقال السلطة بشكلٍ هادئ. فبعد ساعاتٍ من وفاة الأسد، انعقد البرلمان السوري وخفّض السنّ الإلزامية للرئاسة من 40 عاماً إلى 34 عاماً، وهو عمر بشار. وفي 11 حزيران/يونيو، قام الرئيس عبد الحليم خدام بالإنابة، الذي لم يوافق أبداً على أن يصبح ابن الأسد رئيساً، بترقية بشار إلى رتبة فريق أول وعيّنه قائداً للقوات المسلّحة السورية.

"كان كل شيءٍ مرتّباً مُسبَقاً ومنسَّقاً من قِبَل حافظ الأسد بحيث ينتقل الحكم تلقائياً إلى ابنه بشار عند وفاته"،يتذكر خدام. "ومحاولتي معارضة هذا الأمر في ذلك الوقت كان سيؤدّي إلى مواجهة خطِرة في البلد، ولم يكن الوقت المناسب لهذه المواجهة".

وفي 17 حزيران/يونيو، انتُخب بشار أميناً عاماً لحزب البعث، وهو منصبٌ تولاّه والده في السابق. وبعد ثلاثة أسابيع، انتخب 97,3 في المئة من الناخبين في استفتاءٍ وطني بشار رئيساً، وتولّى السلطة في 17 تموز/يوليو.

قد يكون ارتقاء بشار إلى سدّة الرئاسة حدث بشكلٍ أسرع ممّا كان يتمنّاه هو أو والده، ولكنه بدا ثابتاً في موقعه. وكان الأسد قد أمضى العامَين السابقَين بإنشاء بنيةٍ تحتية من الولاء لابنه. وتقاعد بعض رفاق الرئيس المسنّين، واستُبدل ضباطٌ عسكريون ذوو رُتَبٍ متوسطة بجيلٍ أصغر سناً من الموالين لبشار.

وتقاعد حكمت الشهابي عام 1998، وكان آنذاك رئيس الأركان السوري وأحد الستّة القلائل الذين تولّوا منصباً أساسياً. واستُبدل بالفريق علي أصلان المقرّب من آصف شوكت، صهر بشار ونجمٌ صاعد في جهاز الأمن السوري. وفي أوائل العام 2000، عُيِّن شوكت نائباً لرئيس المخابرات العسكرية. وكان رئيس شوكت، علي دوبا الذي كان صيته في إجراء صفقاتٍ تجارية غير مشروعة يشوّه صورة بشار المناهضة للفساد، قد استُبدل بحسن خليل، عضوٌ في فريق المفاوضات السوري مع إسرائيل ومؤيّدٌ مُخلِص للرئيس

بشار.

وشغل محمد ناصيف، وهو من عائلةٍ علوية بارزة وأحد مؤيّدي بشار الأساسيين، منصب نائب مدير دائرة الأمن العام، وهي المنظمة المخابراتية المدنية الرئيسية.

وعُيِّن بهجت سليمان، وهو العرّاب السياسي لبشار، رئيساً لشعبة الأمن الداخلي في مديرية الأمن العام. وكان سليمان أول من تحدّث علانيةً عام 1994 عن دورٍ لبشار عندما كان البلد ما يزال يستوعب الصدمة التي خلّفتها وفاة باسل.

وجُرِّد رفعت الأسد، شقيق حافظ المُبعَد والذي كان يُقيم في المنفى منذ قيامه بمحاولة انقلاب عام 1983، من لقبه كنائب للرئيس. وفي تشرين الأول/أكتوبر السابق، كان بشار قد أصدر أمراً باتخاذ إجراءاتٍ صارمة بحق الموالين لرفعت في مدينة اللاذقية الساحلية، وهو تحذيرٌ لعمّه من مغبّة التدخل في الخلافة القادمة.

وبينما كان الأسد يتخذ إجراءاتٍ تدعم الموقع المحلّي لابنه، كان الحريري يستخدم نفوذه العالمي للمساعدة على قبول بشار بهدوء من قِبَل قادة العالم. فأقنع صديقه جاك شيراك، الرئيس الفرنسي، بلقاء بشار في باريس في تشرين الثاني/نوفمبر 1999، وهو اللقاء الرسمي الأول للقائد السوري المستقبلي برئيس دولةٍ غربي. وقبل أيامٍ من تولّي بشار سدة الرئاسة، أعلنت مجموعة من أربع شركات سعودية بارزة، بما فيها أوجيه التابعة للحريري، أنها تخطّط لاستثمار 400 مليون دولار في سوريا لتمويل مشاريع في مجال الاتصالات والزراعة والسياحة والصناعة "بتزامنٍ مع بدء حكم الدكتور بشار الأسد".

"كان اهتمام الشركات السعودية بسوريا مظهراً من مظاهر الدعم لبشار"، يقول سعد الحريري. ولكن الكونسورتيوم سحب كل استثماراته تقريباً في غضون سنة، وفقاً لسعد، عندما بات واضحاً أن الاعتمادات المالية كانت ستُستثمَر لصالح شخصياتٍ مقرَّبة من النظام السوري (4) .

"استحال الأمر كارثة"، يقول سعد بضحكةٍ خافتة كئيبة. "بدأنا بسحب استثماراتنا، التي تخصّنا وتخص الآخرين، لأننا وجدنا انه لن تكون هناك أي فائدة مالية".

ومع ذلك، وفي تلك الأشهر الأولى من رئاسة بشار، كان الحريري يمتدح القائد السوري الشاب بحماسة، مُخبراً الـ سي إن إن بأن بشار "يعرف سوريا جيداً"، وأنه "مؤمنٌ كبير في السلام" و"يريد رفع مستوى حياة

الشعب السوري".

وإضافةً إلى شيراك، حث الحريري قادةً عرب بمن فيهم ولي العهد السعودي عبد الله والرئيس المصري مبارك والملك عبد الله الأردني على مساعدة القائد السوري الجديد لتثبيت أقدامه في الحكم.

"كل قصة ولوج بشار الساحة الدولية يعود الفضل فيها لرفيق الحريري. فقد مارس ضغوطاً جمّة لأجله"، يقول مستشارٌ سابق للحريري (5) .

وبدا أن أمل الحريري في أن يقود بشار تغييراً جوهرياً في العلاقة الأحادية الجانب بين لبنان وسوريا قائمٌ على أساسٍ ما، وفقاً لباتريك سيل، الصحافي البريطاني وكاتب سيرة حافظ الأسد.

ويتذكّر سيل بشار يقول له في تلك الأشهر الأولى من رئاسته إنه لا يرى حاجةً إلى "تدخلٍ عسكري سوري" في لبنان.

"أخبرني أنه لم يكن يجد سبباً لقيام سوريا بإدارة شؤون لبنان يومياً، وبما أنه لا وجود لمعاهدة سلام منفصلة مع إسرائيل، وما دامت هناك بعض الخطوط الحمراء، يمكن للبنان إدارة شؤونه الخاصة"، يتذكر سيل.

وكان وصول بشار إلى الرئاسة فرصةً جديدة للبنان وسوريا، وأراد الحريري استغلال هذه الفرصة. واقترب موعد الانتخابات البرلمانية في لبنان وكان الحريري يعمل جاهداً لإقامة تحالفاتٍ سياسية لتحقيق انتصارٍ في صناديق الاقتراع يسمح له بالتغلّب على اعتراضات لحود والعودة إلى رئاسة الحكومة.

وبتسلّمه سدة الرئاسة عام 1998، أطلق لحود حملةً مناهضة للفساد ضد الحريري وحلفائه، مطهّراً مجلس الخدمة المدنية من كل شخصٍ مقرَّب من رئيس الوزراء السابق. واستُقبلت الحملة التي استهدفت الحريري في المقام الأول بقدرٍ معيَّن من الابتهاج في لبنان بسبب ما يتعرّض له الآخرون من مشاكل، وبرواياتٍ مثيرة عن الفساد، وصفقاتٍ غير مشروعة في أوساط أصدقاء أقطاب المال، وبأخبار مثيرة في وسائل الإعلام. ولكن التأييد الشعبي خبا تدريجياً عندما بدا أن حملة لحود المناهضة للفساد تحريفٌ للحقائق بهدف الثأر من الحريري أكثر منها تخلّصاً من غير المؤهَّل أو المخادع. وعلاوةً على ذلك، كان تعاطف الرئيس غير المُخجل مع سوريا يتعارض مع صورته الشعبية الأولى المبنية على الأخلاق والاستقلالية. فما الذي حدث للرجل الماروني القوي الذي كان يُفترَض به إنصاف المسيحيين في

مظالمهم ووضع لبنان على قدم المساواة في علاقته مع سوريا؟

وانبثقت الهجمات على الحكومة السابقة من إدارةٍ أنشأها لحود وأُضفي عليها الطابع العسكري بشكلٍ متزايد، وقد عيّن زملاء موالين له من وزارة الدفاع في مناصب إدارية أساسية. وحلّ العماد ميشال سليمان مكان لحود كقائدٍ للجيش عِلماً أنه كان عضواً أدنى مرتبةً من زملائه الذين كانوا يشكّلون فريق العماد. وأدّى تعيينه إلى تقاعد عددٍ من الجنرالات الأكبر سنّاً الذين لم يكن تدريبهم وعلاقاتهم الماضية بالغرب لصالحهم. وعُيِّن الضابط المعاون للحود، العميد مصطفى حمدان، رئيساً للحرس الجمهوري. ووُسِّعت هذه الوحدة النخبوية والمجهّزة تجهيزاً جيداً ليبلغ عدد أفرادها 4,000 جندي إبّان ولاية الهراوي بعد أن كانت 1,500 جندي فقط.

ورُقّي جميل السيّد من منصب نائب رئيس جهاز المخابرات العسكرية ليكون على رأس المديرية العامة للأمن العام، وهي المؤسسة الأقوى بين المؤسسات الأمنية التابعة للدولة. وكان السيد ظل لحود الذي لا يفارقه، مقدّماً له النصائح حول مجموعةٍ كبيرة من المسائل، ومرافقاً الرئيس في رحلاته عبر البحار وفي لقاءاته مع مسؤولين سوريين ذوي مراتب عليا. وأصبح مكتب السيّد في المقر الرئيسي للأمن العام مكاناً إلزاميّاً يعرّج عليه الدبلوماسيون الأجانب في جولاتهم الروتينية على المسؤولين الأرفع مقاماً في لبنان، مدركين أن السلطة الحقيقية في لبنان تكمن في هذا المكان (6) .

وشبّه المنتقدون نظام حكم لحود بنظام فؤاد شهاب، وهو قائدٌ سابق للجيش تولّى سدة الرئاسة بين عامَي 1958 و1964، ويُذكَر بازدرائه للسلطات المدنية. ولكن هدف لحود تمثّل بمحاكاة بنية النظام السوري، وفقاً لضباط مخابرات في الجيش اللبناني، منشئاً جهازاً عسكرياً ومخابراتياً للتجسس على الإدارة المدنية التي تديرها الحكومة، وإضعافها، والتحكم بها (7) .

والفرصة التي وفّرها لحود للسوريين تتمثّل بأنه لا يملك مصدراً مستقلاً لممارسة الحكم، وهو يدين بوضعه إلى الرعاية السورية دون غيرها. ولكن كان للحود مناوئون أيضاً في النظام السوري، مثل عبد الحليم خدام وغازي كنعان اللذين بقيت صلاتهما بالحريري وجنبلاط راسخةً بالرغم من التنحية التدريجية للحرس القديم في دمشق مع ازدياد نفوذ بشار. وفي أوائل العام 2000، تدخل كنعان لإخماد حملة لحود ضد الحريري، داعياً رئيس الحكومة السابق وفؤاد السنيورة إلى حفلةٍ في البقاع حضرها ضباطٌ كبار في المخابرات العسكرية السورية وسياسيون موالون لسوريا.

،قانصوه قاسم يتذكّر ،" ' الحريري إلاّ زعيم لا ' أنه للجميع "أعلن

الأمين العام لفرع حزب البعث في لبنان آنذاك، الذي كان من الحاضرين.
"كانت رسالةً للحود مفادها أنه إذا حاول إضعاف الحريري، فكنعان سيُضعفه" (8) .

وفي محاولةٍ أخرى لإضعاف سلطة لحود، أعدّ كنعان بمساعدة جميل السيّد قانوناً انتخابياً (دُعي في ما بعد "قانون غازي كنعان") مصمَّماً لمساعدة الحريري على النجاح في الانتخابات البرلمانية المخطَّط إجراؤها في أواخر صيف العام 2000 (9) .

وباقتراب موعد الانتخابات البرلمانية، زاد نظام لحود المُعَبّأ للقتال من انتقاده للحريري، مستخدماً أثير محطة تلفزيون لبنان التي تديرها الدولة لشن حملةٍ دعائية هجائية، مصوّراً الحريري بشكلٍ كاريكاتوري حوتاً منتفخاً غروراً تارةً، ومستخدماً عبارة العرّاب طوراً لوصف الحريري برئيس مافيا.

وردّ الحريري من خلال إمبراطوريّته الإعلامية الخاصة، مستغلاً فشل حكومة الحص للتطرّق إلى الأزمة الاقتصادية التي تزداد سوءاً. فقد بلغ الدَين 22 بليون دولار في صيف العام 2000. ومرةً أخرى، نودِي بالحريري "صانع العجائب" الاقتصادية، المخلّص الذي سيعود لإنقاذ لبنان من مِحنه المالية.

وشهدت الانتخابات قيام الحريري وحلفائه من المعارضة بسحق مرشحي الحكومة في كافة المناطق باستثناء الجنوب والبقاع، وهما المعقلان الشيعيان التقليديان. وفي بيروت، حصل الحريري وحلفاؤه على كافة المقاعد الـ 19 باستثناء مقعدٍ واحد. وكانت هزيمةً نكراء لدرجة أن رئيس الوزراء نفسه، الحص، فقد مقعده في البرلمان. ولم يكن بالإمكان إنكار حق الحريري برئاسة الحكومة بعد انتصاره الانتخابي، وكانت حسابات دمشق أن سوريا ستستفيد اقتصادياً إذا كانت عودته ستساعد في إحياء الاقتصاد.

ولكن الحريري وزملاءه المقرَّبين علِموا بأنهم كانوا يواجهون مرحلةً عسيرة محتمَلة يكون عليهم التوافق فيها مع لحود الذي كان مُثبَطاً للغاية لأن غريمه شق طريق العودة إلى السلطة بالقوة. حتى إن بعض أصدقاء الحريري حاولوا إقناعه بعدم قبول رئاسة الحكومة، معتبرين أن ترك الرئيس "يتخبّط بمشاكله الاقتصادية والإدارية" سيعجّل بانهيارٍ مُبكرٍ للنظام.

"قبل الحريري لأن لبنان كان قد تحرّر للتوّ من الاحتلال الإسرائيلي ووجد في الأمر فرصةً لإحياء الوضع المالي والاقتصادي في البلد، والذي كان حلمه الدائم"، يقول مروان حمادة. "ولكن كل ما فعلناه هو أننا أعطينا

لحود دماً جديداً".

ولم تكن العلاقة مع لحود التحدّي الوحيد الذي ينتظر الحريري. فقد تزامنت عودته إلى رئاسة الحكومة مع عودة شبحٍ أنزل البلاء بحكوماته السابقة، وأمِل الحريري في أن ينتهي منه بانسحاب الجنود الإسرائيليين - استأنف مقاتلو حزب الله أعمالهم القتالية في جنوب لبنان.

وفي الأشهر الخمسة التي تلت فرار إسرائيل من الجنوب، كانت قد انتشرت وحدات حزب الله على امتداد الخط الأزرق، وهو الاسم الذي أطلقته الأمم المتحدة على الحدود التي كان يُطلَب من إسرائيل الانسحاب إلى ما ورائها. وكان رجال حزب الله بثيابٍ مدنية يحملون مناظير وأجهزة راديو مرسِلة مستقبِلة لمراقبة تحركات الجنود الإسرائيليين في الجانب الآخر من الشريط الحدودي ومن عدة مراكز صغيرة للرصد على امتداد الخط الأزرق، بينما كان مقاتلون مسلّحون في بذلاتٍ مموَّهة وخوذات يجوبون القطاعات البعيدة. واستجابةً للدعوات المستمرّة من قِبَل الأمم المتحدة والمجتمع الدولي، أرسلت الحكومة اللبنانية في آب/أغسطس قوةً عسكرية مؤلَّفة من 1,000 جندي وشرطي شبه عسكري إلى منطقة الاحتلال السابقة، ولكنها لم تتدخل في شؤون سيطرة حزب الله على الحدود نفسها.

ويمتدّ الخط الأزرق مسافة 110 كيلومترات من الجُرف الطبشوري لرأس الناقورة على شاطئ المتوسط في الغرب إلى سفوح جبل حرمون الصخرية الكلسية في الشرق. وتتبع الكيلومترات الـ 13 الأخيرة من الحدود طرف مزارع شبعا التي تبلغ مساحتها 25 كيلومتراً مربّعاً والواقعة على منحدَر الجبل في الطرف الشمالي من مرتفعات الجولان التي احتلّتها القوات الإسرائيلية بعد الحرب العربية - الإسرائيلية عام 1967. وعندما انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان في أيار/مايو 2000، أبقت مواقعها العسكرية في مزارع شبعا معلِنةً أن المنطقة سورية لا لبنانية. وأصرّت حكومة الحص، بحثٍّ من دمشق، على أن المنطقة لبنانية، وأنه لا يمكن اعتبار الاحتلال الإسرائيلي مكتملاً حتى إعادة المزارع إلى لبنان.

وقبل العام 2000، كان قليلٌ من اللبنانيين قد سمعوا بمزارع شبعا، وكان عددٌ أقل يعرف مكانها بالتحديد باستثناء أولئك الذين يقيمون في القرى المجاورة لها والتي ما يزالون يتذكرون معالمها. وإن تمسّك بيروت غير الملائم بمطالبتها بمزارع شبعا حثّ الأمم المتحدة على الخروج باستنتاجٍ وهو أن الأهمية التاريخية والتوثيقية للدليل تشير إلى ملكيةٍ سورية. ولذلك، فإن وجود إسرائيل هو رهنٌ بالقرارات الصادرة عن مجلس الأمن التابع للأمم

المتحدة المتعلّقة باحتلال الأراضي السورية لا اللبنانية.

ولم يكن النقاش حول السيادة على مزارع شبعا جدالاً غامضاً حول الأرض فقط. فإذا تجاهلت إسرائيل مطلب لبنان حيال مزارع شبعا وأبقت وجودها العسكري، فهي قد توفّر مبرّراً كافياً، وإن مدبَّراً، لتجديد حزب الله نشاطاته المقاوِمة، مانحةً سوريا نقطة ضغطٍ جديدة تستغلّها ضد الدولة اليهودية. وقد ضيّق انسحاب الجنود الإسرائيليين خيارات المناورة لدى سوريا لاسترداد الجولان من إسرائيل، وكان دلالةً على إضعاف السيطرة السورية على لبنان. ومنذ انهيار قمة جنيف في آذار/مارس، تخلّت الولايات المتحدة عن المسار السوري بعد حدوث اختراقٍ في اللحظة الأخيرة في المفاوضات الدائرة بين إسرائيل والفلسطينيين أنهى بواسطتها كلينتون ولايته الرئاسية. وتُركت سوريا مع رئيسها الشاب الذي لا يملك الخبرة في حالةٍ من القلق. وفي ذلك السياق، اتخذ منحدر التل القاحل لمزارع شبعا أهميةً استراتيجية بالنسبة إلى سوريا. وإن إثارة نزاعٍ في المزارع، وإن على مستوى منخفض، مع ما يحمله هذا الأمر من مخاطر إشعال نزاعٍ أوسع، من شأنه تذكير الولايات المتحدة وإسرائيل بأن سوريا ما تزال تملك ورقة ضغط، ولن تبقى لا مبالية فيما يتمّ تجريدها من مصادر قوتها الإقليمية.

وأُطلق الهجوم الجديد لحزب الله في 28 أيلول/سبتمبر مع اندلاع انتفاضة الأقصى الفلسطينية. وبعد سبعة أيام، شنّ مقاتلو حزب الله هجوماً عبر الخط الأزرق في منطقة مزارع شبعا واختطفوا ثلاثة جنودٍ إسرائيليين في كمينٍ منسَّق ومخطَّط له جيداً. وبعد ظهر ذلك اليوم، تردّد صدى دويّ قذائف المدفعية مرةً أخرى بين التلال وفي الوديان في جنوب لبنان عندما كانت المدافع الإسرائيلية تقصف أطراف القرى المقابلة لمزارع شبعا بينما كانت الطوافات الحربية تقعقع فوق الرؤوس.

وأعلن حزب الله أنه كان يرغب في مقايضة الجنود الثلاثة المأسورين بـ 20 أسيراً لبنانياً لم تُفرج عنهم إسرائيل لدى انسحابها من لبنان قبل خمسة أشهر.

وأثبت حزب الله أن اختطاف الجنود الثلاثة لم يكن حادثاً منفرداً، وذلك بإعلان اختطاف عقيدٍ في الجيش الإسرائيلي في عمليةٍ مُتقَنة بعد أسبوع، وبشن هجومَين بالقنابل في كمينَين نُصبا على جانب الطريق ضد دوريّتَين إسرائيليّتَين في أطراف مزارع شبعا في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، ممّا أدّى إلى مقتل جندي واحد وجرح ثلاثةٍ آخرين.

وقد يكون توقيت الحملة التي شُنّت على مزارع شبعا خدمت

مصالح سوريا وحزب الله، ولكنها هدّدت خطط الحريري القاضية بإعادة تحريك الاقتصاد الراكد والتشجيع على معاودة الاستثمار في لبنان. وكان الحريري قد بدأ بمواجهة صعوباتٍ مع لحود حول تشكيل الحكومة الجديدة، عِلماً أن لحود عيّن حلفاء له في وزارات الاتصالات والصناعة والطاقة والمياه لإحباط برنامج الحريري القاضي بخصخصة مؤسساتٍ عامة، وهو أساس خطته للإنهاض الاقتصادي. وهاجم وليد جنبلاط، القائد الدرزي البارز، تدخّل الرئيس في أمورٍ لا تعنيه وتوقّع بتشاؤم بأن الحريري ولحود "لن يعملا معاً ثانيةً واحدة. فلا انسجام بين الرجلَين".

في هذه الأثناء، كان ينشط تحدٍّ جديد للهيمنة السورية في منطقة جبل لبنان المسيحية والدرزية. وكانت مخاوف حافظ الأسد من تأثير الانسحاب الإسرائيلي على وضع سوريا في لبنان راسخة. وكان المسيحيون، ولا سيّما البطريرك الماروني الكاردينال نصر الله صفير، يعبّرون بصراحةٍ أكبر عن مطالبتهم بإعادة انتشار الجنود السوريين كما ينصّ عليه اتفاق الطائف. وفي أيلول/سبتمبر، شنّ المطارنة الموارنة في اجتماعٍ ضمّهم والبطريرك هجوماً غير مسبوق ضد الهيمنة السورية، متذمّرين من أن "الوضع بات لا يُطاق - فقد لبنان سيادته في ظل سيطرةٍ مفروضة على كافة مؤسساته".

وكانت دمشق قادرةً على تجاهل مطالب مماثلة عندما كانت صادرة عن المسيحيين المهمَّشين فقط، وعندما كان مازال الإسرائيليون يحتلّون الجنوب. ولكن في خريف العام 2000، انضم جنبلاط إلى المسيحيين في تحالفٍ وضع حدّاً لقرونٍ من العداء بين المجتمعَين المجاورَين، المسيحي والدرزي، في جبل لبنان، وكان بشيراً بجبهةٍ جديدة فعّالة مناهضة لسوريا.

وأوصى جنبلاط بـ "إعادة انتشار" القوات السورية في لبنان، ودعا إلى إنهاء "التدخل السوري غير المُجاز" في الشؤون اللبنانية. وكانت المرة الأولى منذ العام 1990 التي تقوم فيها شخصية مرموقة غير مسيحية بانتقاد الوجود السوري بشكلٍ علني، بصرف النظر عن كونه حليفاً لسوريا خدم مصالح دمشق إلى حدٍّ كبير إبّان الحرب اللبنانية. وأعلنت السلطات السورية الغاضبة جنبلاط شخصاً غير مرغوبٍ فيه في دمشق وحملت حلفاءها في مسألة لبنان على إطلاق تهديداتٍ ضد الزعيم الدرزي (10) .

وازداد الاضطراب المناهض لسوريا في أوائل العام 2001 بقيام طلابٍ في جامعاتٍ مسيحية بصفةٍ رئيسية باعتصاماتٍ وتظاهرات. وفي آذار/مارس، نقل الكاردينال صفير رسالته إلى الولايات المتحدة وكندا في جولةٍ دامت خمسة أسابيع عاد على إثرها إلى لبنان مباشَرةً. ومن الآثار السلبية

للرحلة رفض الرئيس الأميركي المنتخَب حديثاً، جورج دبليو بوش، وإدارته لقاء صفير. وقال البيت الأبيض إنه سيكون من غير المناسب الاستماع إلى الكاردينال قبل لقاء الرئيس اللبناني ورئيس الوزراء. وكان ما يزال هناك نصف عامٍ على تاريخ وقوع هجمات 11 أيلول/سبتمبر، وكانت تتّبع السياسة حيال سوريا في هذه الأشهر الأولى من رئاسة بوش "التعاطي البنّاء" المعمول به من الإدارات السابقة.

والأمر الأكثر إزعاجاً من التحالف بين المسيحيين والدروز بالنسبة إلى السلطات السورية ظهور عددٍ من الشخصيات السنّية والشيعية الذين ضمّوا أصواتهم إلى الدعوات المطالِبة بعلاقةٍ أكثر توازناً مع سوريا. وبالرغم من قلّة عددهم - صحافيون ثرثارون، زعماء إقطاعيون، وسياسيون ليبراليون - فقد أدّى هذا الأمر إلى انهيار المظهر الكاذب للإجماع المسلم غير المعلَن الداعم للوجود السوري. وقيل في غالب الأحيان إن السوريين لا يمكنهم دخول لبنان إلا بدعم المسيحيين، ولن يغادروه إلا إذا فقدوا دعم المسلمين. ولم يكن بإمكان دمشق الوقوف موقف المتفرّج ومشاهدة نشوء إجماعٍ تلتقي فيه الطوائف ضد حكمها في لبنان.

وتمّ تحريك مزيدٍ من حلفاء سوريا الأكثر صلابةً بطريقةٍ محسوبة لإثارة الاضطراب الطائفي. فقامت مجموعةٌ من رجال الدين السنّة في شمال لبنان أنشأها جهاز المخابرات السورية تحت اسم "علماء عكار" بإصدار بيانٍ تحذيري من أن المسيحيين في المنطقة قد يهاجَمون ما لم يتخلَّ صفير عن حملته العنيفة المناهضة لسوريا. وتعرّض مكتب عضوٍ في البرلمان مناهضٍ لسوريا للتفجير، وهي رسالة جرحت شقيقة وزيرٍ سابق وابنتها، وكان على علاقةٍ وثيقة بجنبلاط. كما صدر عن متطرفين مسلمين موالين لسوريا بياناتٍ يتعهّدون فيها بمقاتلة المسيحيين بـ "الأسنان والهراوات وسكاكين المطبخ". وشجّعت المخابرات السورية واللبنانية قيام مراكز بديلة للنفوذ السنّي، كتسهيل إعادة نشوء "المرابطون"، وهي ميليشيا سنّية منذ زمن الحرب اصطدمت بسوريا في أواسط الثمانينيات وطُردت من بيروت، وتنظيم تظاهرةٍ عدائية للأحباش، وهي منظمة إسلامية تستوحي تعاليمها من الصوفية وتعارض الإيديولوجية السلَفية للقاعدة. ولوّح أتباع الأحباش بالعصيّ والسكاكين وهتفوا مهدّدين في محاولةٍ مدروسةٍ بعناية للظهور أمام وسائل الإعلام بمظهرٍ ضارٍ على النحو الملائم.

وابتُكرت حملة التحريض انسجاماً مع طبيعة لبنان حيث تساعد الأحداث على إعادة إضرام نار الطائفية الكامنة أبداً تحت الرماد. وكان

ذلك الشعور جليّاً في أحياء الطبقة العاملة من عين الرمانة، وهي منطقة مسيحية، وفي المنطقة الشيعية المجاورة، الشياح، في بيروت الجنوبية حيث بلغت التوترات أوجها فيما كان البلد يستعدّ للسنوية السادسة والعشرين لاندلاع الحرب الأهلية في 13 نيسان/أبريل. وكانت قد أُطلقت الطلقات الأولى للنزاع في هذه الشوارع المؤلَّفة من مجمّعاتٍ سكنية رتيبة ومتاجر صغيرة، وفي نيسان/أبريل 2001 كان المقيمون يتكلّمون ثانيةً عن الحرب.

"أنا مستعدّ لمقاتلة المسلمين أو السوريين، لا يهمّ. كل أصدقائي يملكون الشعور نفسه"، قال أديب البالغ من العمر 16 عاماً لجدّه الذي هزّ رأسه موافقاً وهو يرتشف فنجان قهوة خارج مقهى صغير في عين الرمانة. وتحدّث آخرون بشكلٍ مُبهَم عن تَوق المسلمين إلى إخراج كل المسيحيين من لبنان. "عام 1958، كان لديهم خطة لإقامة أمّةٍ مسلمة. يريدون ذهاب كل المسيحيين. ما زالت الخطة قائمة"، قال أحدهم. وألقى البعض اللوم على السوريين في التوترات الحاصلة، بينما تحدّث آخرون عن ترويج إشاعاتٍ بالقيام بأعمالٍ تخريبية، ووضع كتاباتٍ على الجدران مناهضة للمسيحيين، واستخدام العنف: ضُرب كاهنٌ في الحدث، إحدى ضواحي بيروت، وجُرِّد من ثيابه (روبه).

وعلى بُعد شوارع قليلة حيث مزارات صغيرة لقديسين لبنانيين ذات واجهاتٍ زجاجية وُضعت عليها شعاراتٌ لحركة أمل وصورٌ ممزَّقة لـ "شهداء" حزب الله، ألقى فهد سلوم، وهو شيعي في الـ 25 من العمر، اللوم في التوترات الحاصلة على الكاردينال صفير، ذلك "الفيروس الصغير" الذي "يسبّب الاضطراب بيننا".

"آمل في أن يُصدر السيد حسن [نصر الله] فتوى ضد البطريرك. سأكون الشهيد الأول. آمل في أن تكون هناك حرب لتكون هناك أمّةٌ إسلامية"، قال. ولكن أصدقاءه سخروا منه وهزّوا رؤوسهم. "لا مشكلة بيننا وبين المسيحيين. رأوا الأحباش في الشوارع بسكاكينهم وعصيّهم فأُصيبوا بالذعر"، قال طارق.

وكانت معظم التعليقات جوفاء أكثر من كونها تحمل نيةً مبطَّنة. ومع ذلك، فهي عكست مدى سهولة استغلال أطرافٍ ثالثة التوترات بين الجماعات الطائفية وجعلها تتفاقم.

وحاول السوريون دعم شعبية لحود المتناقصة بإطلاق 45 معتقَلاً لبنانياً في كانون الأول/ديسمبر، قائلين إنها كانت استجابةً لطلب الرئيس اللبناني. وفي أواسط حزيران/يونيو، أخلى حوالى 7,000 جندي سوري مواقعهم

في بيروت في ما كان إعادة الانتشار الأولى الهامة منذ نهاية الحرب. وزرعت شاحناتٌ عسكرية قديمة مدهونة بلونٍ أخضر فاتح لمّاع الطريق العام الممتدّ بين بيروت والبقاع حاملةً جنوداً سوريين مبتسمين ابتهاجاً وملوّحين ببنادقهم وبصورٍ لبشار. وأُعلن أن قرار إعادة الانتشار اتخذه الرئيسان اللبناني والسوري قبل أشهرٍ عدّة ولكنه عُلِّق بسبب الاعتراضات المناوئة لسوريا التي جرت في الربيع. وكانت الرسالة الضمنية أن لحود وحده قادرٌ على تحقيق انسحاب الجنود السوريين، في حين أن إبداء الشعور المناهض لسوريا يعيق العملية.

وشهدت الحدود الجنوبية للبنان أيضاً توتراتٍ حيث لم تكن غارات الكرّ والفرّ المتقطّعة التي كان يشنّها حزب الله ضد القوات الإسرائيلية في مزارع شبعا تحثّ على هجومٍ إسرائيلي كبير فحسب، بل تهدّد أيضاً بتعريض جولة الحريري العالمية لجمع الهِبات والقروض الميسَّرة، والاستثمارات لإعادة إحياء الاقتصاد، للخطر (11) . وفي شباط/فبراير، زار الحريري باريس برفقة فريقه الاقتصادي والمالي للإعداد لمؤتمرٍ للمانحين في وقتٍ لاحقٍ من ذلك الشهر يستضيفه شيراك ويحضره مسؤولون من البنك الدولي والاتحاد الأوروبي. وطمأن الحريري المانحين المحتمَلين بأنه لن تكون هناك أي استفزازاتٍ من لبنان على امتداد حدوده الجنوبية مع إسرائيل.

"هناك اتفاقٌ واضح مع أشقائنا السوريين في هذه المسألة"، قال. "لن تكون هناك أي استفزازاتٍ من قِبَلنا".

ومع ذلك، هاجم مقاتلو حزب الله في اليوم التالي عربةً إسرائيلية بواسطة صاروخٍ مضادٍ للدبابات، فقتلوا جندياً. وكان الهجوم الأول لحزب الله منذ نهاية تشرين الثاني/نوفمبر، وبدا أنه جوابٌ سريع متعمَّد بسبب تجرّؤ الحريري على التكلّم باسم المقاومة.

وأحرج الهجومُ الحريري وهدّد بإيقاف التدفّق المتوقَّع للأموال التي كانت قد ضمنتها باريس. فأسرع عائداً إلى لبنان وعقد لقاءاتٍ فورية مع بشار، ولحود، ومسؤولي حزب الله، والسفير الإيراني، جاهداً لتحقيق وقفٍ للعمليات العسكرية في مزارع شبعا. وكان إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل المنصرف (الخارج)، على وشك حلول أرييل شارون مكانه، وهو عرّاب اجتياح لبنان عام 1982. وكان الحريري قلِقاً من أن شارون المولَع بالقتال سوف لن يتردّد بشنّ هجماتٍ مدمّرة ضد لبنان. وعلى غرار عددٍ متزايد من اللبنانيين، امتعض الحريري من وقوع عملية إحياء الاقتصاد اللبناني رهينةً للمصالح الاستراتيجية السورية الهادفة إلى استرجاع مرتفعات الجولان من

إسرائيل، وكان الهدف الخفيّ من حملة مزارع شبعا.

وفي حالةٍ من الإحباط، أصدر الحريري بياناً متسائلاً فيه عن احتكار حزب الله للعمليات القتالية ضد إسرائيل. وملدوغاً بالانتقاد، عقد حزب الله عدة لقاءاتٍ طارئة مع رئيس الحكومة أعلن الفريقَين في نهاية كلٍ منها أنهما توصلا إلى "تفاهم". ومع ذلك، لم تُعطَ أي تفاصيل وبقي من غير الواضح كيف يمكن التوفيق بين طموح الحريري بإعادة بناء الاقتصاد وبين عزم حزب الله على الاستمرار بشنّ حربه على إسرائيل.

وأدرك الحريري أن استمرار حزب الله بحالته المسلّحة غير ملائمٍ لازدهار لبنان في المستقبل، ولكنه فهم أنه لا يمكن نزع سلاح الحزب بالقوة دون أن يؤدّي الأمر إلى حربٍ أهليةٍ جديدة حتى وإن وافق السوريون على خطوةٍ مماثلة.

"كان الحريري يتبنّى موقفاً عملياً وواقعياً من حزب الله - كما كان موقفه من معظم المسائل - وطبّق منطق رجل الأعمال في ما يتعلّق بحساب الربح والخسارة"، يقول دبلوماسي أجنبي منخرط بشكلٍ وثيق بالشؤون اللبنانية، وعلى معرفةٍ بالحريري لأكثر من 25 عاماً (12) . "كان الحريري يعتبر الوضع المستمر لحزب الله كـ "دولة ضمن دولة" مسلّحة أمراً متناقضاً كلّياً مع قدرة لبنان على تصوّر شكل - وواقع - الأمن والاستقرار الضروريَّين لضمان الاستثمارات وتطوير الاقتصاد. ولذلك، فإن نزع سلاح حزب الله ودمجه في التيار السياسي اللبناني كانا الهدفين الأساسيين اللذين يجب بلوغهما لمصلحة لبنان على المدى البعيد".

وفي صيف العام 2001، تضاءلت المخاوف من عنفٍ وشيكٍ ومواجهةٍ مستمرة بين حزب الله وإسرائيل لأن الجانبَين استوعبا "قواعد اللعبة" الجديدة المحيطة بالنزاع. وأصبحت مزارع شبعا موقع العمليات العسكرية لحزب الله، وباتت الحكومة الإسرائيلية قادرةً على تحمّل الأمر ضمنيّاً ما دام القتال محصوراً بمنحدر الجبل النائي غير المأهول.

ومن جهةٍ ثانية، فقد باتت المصاعب التي واجهها الحريري مع حزب الله أقل وطأةً من علاقته المتوتّرة بلحود الذي بدا مصمّماً على إحباط مشاريع وسياسات رئيس الحكومة ما دام الحريري وحلفاؤه هم المعنيون.

وكان الصراع حول السلطة في لبنان يزداد حدّةً وتتمّ مناقشته بتهوّرٍ أكبر مع ازدياد مكاسب أحد الفريقَين على حساب المكاسب المتضائلة للفريق الآخر. وهيمن الحريري المدعوم من غازي كنعان وعبد الحليم خدام

على معظم مرحلة ما بعد الحرب باستثناء ما آل إليه الوضع عام 1998 مع تعاظم نفوذ بشار في دمشق ودعمه للحود الذي انتُخب رئيساً تلك السنة. وبعد عامَين قضاهما معسكر الحريري على الخطوط الجانبية من الساحة السياسية، انقضّ مجدّداً عام 2000 مستفيداً من وفاة حافظ الأسد لجعل قانون الانتخاب معاكساً لمصالح لحود بينما كان بشار منشغلاً بخلافته الرئاسية في دمشق.

ولكن حان دور الحريري الآن ليكون في موقع الدفاع بسبب قيام الرئيس لحود بتهديد سلطة رئيس الحكومة بقسوة بعد أن استعاد قوّته متمتّعاً بدعمٍ كاملٍ من بشار ومساندة حلفائه اللبنانيين في الحكومة.

وفي العام 2002، دعم السوريون بهدوء حملةً لاستبدال الحريري بالأمير الوليد بن طلال، وهو رجل أعمال ناجح من والدٍ سعودي ووالدةٍ لبنانية يوصف بأنه سادس أغنى رجلٍ في العالم. والوليد بن طلال الذي كان يستثمر بكثافة في بناء الفنادق في بيروت دعم علانيةً لحود في معاركه الرئاسية مع الحريري، ولم يتردّد بالتعبير عن رأيه في كيفية معالجة الصعوبات الاقتصادية في لبنان. وفي الافتتاح الرسمي لفندق موفنبيك في تموز/يوليو عام 2002، الواقع على جُرفٍ صخري في بيروت مُطلٍّ على البحر الأبيض المتوسط، والذي بلغت تكلفته 140 مليون دولار، عرض الوليد بن طلال للخطوط الرئيسية لمخطط الإصلاح الاقتصادي في لبنان أمام حضورٍ ضمّ عدداً كبيراً من المسؤولين اللبنانيين الرفيعي المقام، وقد وصفته وسائل الإعلام بأنه "إعلان خطة عمل" لحكومةٍ مستقبلية يرأسها الوليد بن طلال.

وفي اليوم التالي، سخر غازي العريضي، وزير الإعلام وحليف الحريري، قائلاً إنه "إذا استُبدلت الحكومة كلما أُنشئ فندقٌ في لبنان، سيكون لدينا ما بين 15 و20 مجلساً للوزراء في الأشهر القليلة القادمة". ولكنه سلّم بوجود "أزمة عدم ثقة" بين الحريري ولحود.

وقبل جلسات مجلس الوزراء، يستلم الوزراء تعليماتٍ في مغلّفاتٍ مُحكمة الإغلاق من الرئاسة حول كيفية الاقتراع على كل اقتراح واردٍ في جدول أعمال اللقاء. وعندما كان لحود يترأس الجلسات، كان يتجاهل الحريري في غالب الأحيان رافضاً السماح له بالتكلم أو مقاطعاً إياه أثناء الحديث (13) .

وأثناء نقاشٍ حاد في إحدى الجلسات، شعر الحريري بأنه مُجبَرٌ على الاقتراع ضد اقتراحه الخاص بعد رفضه من قِبَل لحود. ووفقاً لزميلٍ له في مجلس الوزراء، شرح الحريري قراره قائلاً: "لو لم أقترع مع لحود،

لذهب إلى السوريين وأخبرهم بأنني أعيقهم وأقضي على استقرار النظام. يمكنكم القيام بالأمر، ولكنني لا أستطيع ذلك" (14) .

ويتذكّر فارس بويز، وزير الخارجية في حكومات الحريري في التسعينيات، لقاء بشار عام 2002 وتقديم النصح للرئيس السوري بأن معاملة لحود للحريري بقلة احترام هو خطأٌ محفوفٌ بالمخاطر لأنه قد يجعل من رئيس الوزراء "شهيداً سنّياً" بسبب ما يقاسيه (15) .

"نحن كمسيحيين لا نريد أن يذكر التاريخ أن إميل لحود الماروني استعان بقوةٍ خارجية لمهاجمة وتهديد رئيس وزراء سنّي"، يتذكر بويز ما قاله لبشار.

وإضافةً إلى ذلك، سأل عمّا سيحدث للاقتصاد اللبناني إذا استقال الحريري؟

ابتسم الأسد وقال له، "لا تخف، الحريري لن يترك أبداً منصبه. لقد سمّرناه بكرسيّه. سيبقى لأنه لا يمكنه رفض أي طلبٍ لنا مهما فعلنا به"، يقول بويز.

وبينما الحريري مختلف مع لحود في نزاعٍ مرير، كانت علاقات سوريا بالولايات المتحدة تتدهور باستمرار نتيجةً لعزم واشنطن على الإطاحة بصدام حسين ورفض بشار التعاون. وقد يكون والده أدرك الفوائد الاستراتيجية للتحالف مع الولايات المتحدة ضد العراق عام 1990، ولكن الظروف الجيو - سياسية تبدّلت منذ 12 عاماً. فقد شرعت سوريا والعراق بتقاربٍ عام 1997 منهياً عقوداً من العداء بين الفرعَين المتنافسين لحزب البعث الذي حكم البلدَين. وبلغت قيمة السلع المتَّجَر بها بين سوريا والعراق وفقاً لبرنامج "النفط في مقابل الغذاء" حوالى بليون دولار عام 2001 أي ضعف القيمة المسجَّلة عام 2000. واشتُبه بأن سوريا تحقّق مكاسب غير قانونية تتراوح ما بين بليون دولار و1,5 بليون دولار في العام جرّاء تهريب النفط العراقي الذي كان يُستخدم لتلبية المتطلبات المحلية، ممّا سمح بتصدير النفط الخام السوري الذي عاد على النظام بعملاتٍ صعبة هو بأمسّ الحاجة إليها.

وكان الطموح الأكبر لإدارة بوش بالتخلّص من صدام حسين وبالتالي التسبّب بسقوط أنظمةٍ توتاليتارية مستبدّة في المنطقة سبباً مُلحّاً آخر لمعارضة سوريا الاجتياح المدبَّر. وعلاوةً على ذلك، بدا أنه في حسابات بشار لن يكون رفع ألوان القومية العربية مُضرّاً لسوريا، ضارباً على وتر الشعور المعادي للولايات المتحدة في "الشارع" العربي الذي عارض بشدة الاجتياح

المدبَّر للعراق. فلْتجثُم أممٌ عربية أخرى كالأردن والمملكة العربية السعودية ومصر وراء الدبابات الأميركية مرتعدة، أما سوريا فستبقى معقلاً حصيناً للتصميم والتحدّي العربي. كانت رسالة وافق عليها العديد من العرب العاديين.

وبلغ الخطاب السياسي بين دمشق وواشنطن مستوياتٍ غير مسبوقة من العدائية في الأيام التي تلت اجتياح العراق في آذار/مارس 2003. وصعق النظام العراقي بضربةٍ سريعة أفزع السلطات السورية وأوحى بأن دمشق ارتكبت خطأً استراتيجياً فادحاً برفع رايتها على سارية صدام حسين المترنّحة.

وببلوغ الدبابات الأميركية قصور الديكتاتور المُطاح به وانتصار واشنطن، بدت سوريا المجاورة فجأةً عُرضةً للأذى بصفةٍ خاصة. واعتاد المسؤولون الأميركيون وصف سوريا بـ "الثمرة المنخفضة" التي يسهل قطفها.

وفي أوائل أيار/مايو، سافر كولين باول إلى دمشق ووضع على الطاولة أمام بشار قائمةً بكل ما يعكّر صفو العلاقات الأميركية - السورية. وعرضا لمحتويات القائمة نقطةً نقطة، متّفقين على بعضها ومختلفين على الأخرى. ولكن التنازل الرئيسي الذي انتزعه باول من بشار هو وعدٌ بإعادة نشر الجنود السوريين إلى البقاع، في أواخر العام، إذعاناً (استجابةً) لاتفاق الطائف.

وكان باول مسروراً بالزيارة، ولكن الحريري كان أكثر شكوكية. وبقيام أحد معاونيه بإطلاعه على المستجدات، سأل الحريري: "هل هذا يعني أنهم سيسحبون الجيش والمخابرات؟" (16)

وعندما قال معاونه إنه لا يعلم، توقّع الحريري بأن السوريين لن ينسحبوا، مضيفاً: "إذا كانوا جدّيين يمكنهم الانسحاب الشهر القادم. لِمَ الانتظار حتى نهاية العام؟"

ولا بدّ من أن يكون الحريري قد شعر بأن شكوكيّته مبرَّرة بقيام دمشق قبل أسبوعين بإدخال تعديلٍ على الحكومة اللبنانية أدّت إلى مجلس وزراء أكثر موالاةً لسوريا منذ العام 1989. وضمّت أنصاراً راسخين في ولائهم كعاصم قانصو، رئيس فرع حزب البعث في لبنان، وأسعد حردان، رئيس الحزب القومي الاجتماعي السوري. وبالرغم من الإبقاء على الحريري رئيساً للحكومة، فَهِم هو وحلفاؤه أن تركيبة الحكومة لم تعزّز سيطرة دمشق على لبنان فحسب بتصاعد الضغط الدولي، بل فرضت أيضاً قيوداً إضافية على قدرة الحريري على الترويج لتبنّي سياساته (17) .

وقام أصدقاء الحريري، وزملاؤه السياسيون، وعائلته، بحثّه على

الاستقالة. دَعِ الاقتصاد ينهار. فهذا سيذكّر لحود وداعميه السوريين بقيمة الحريري. ولكن الحريري رفض الاستسلام. فقد كان متمسّكاً برئاسة الحكومة بسبب حاجته إلى تهدئة السوريين وتفاؤلٍ لا يتزعزع بأن الوضع سيتحسن. وألقى اللوم على لحود والإطار الأمني اللبناني - السوري في المصاعب التي يواجهها، أكثر منه على القيادة السورية نفسها. وبالرغم من اعتبار التشكيلة الحكومية في نيسان/أبريل 2003 حدثاً هاماً على طريق تخاصم الحريري مع سوريا في النهاية، استمرّ بالنضال لأجل علاقةٍ سليمة مع النظام السوري. وفهم أن سوريا هي واقعٌ ثابتٌ في حياة لبنان، كونها الجار الأكبر والأكثر قوة، وقدر البلدَين مرتبطٌ بإحكام. وإضافةً إلى ذلك، من شأن التخلّي عن رئاسة الحكومة في هذا الظرف البالغ الأهمية ذهاب كل ما كان قد تمّ النضال لأجله منذ العام 1992 هباءً.

"قال لنا أن نذهب ونمصّ ليمونة حامض"، يقول سعد الحريري. "كان يتحدّث عنها معنا على الدوام ولكنني أعتقد أنه لم يكن قادراً على التخلّي عن السياسة لأنهم لن يدعوه يفعل ذلك. كانوا يريدون إضعافه فحسب، وإضعافه وإضعافه. واعتاد أيضاً النظر إلى الصورة الأوسع ويرى معاناته وكأنها مشكلة مؤقَّتة لا بد من أن تزول" (18) .

وقبل خمسة أشهر، كان الحريري قد أتمّ أحد أكبر إنجازاته الموفَّقة أثناء تولّيه رئاسة الوزراء والمتمثّل بإقناع جاك شيراك باستضافة مؤتمرٍ للمانحين في باريس لصالح لبنان، وهو تابعٌ للمؤتمر الصغير العائد لشباط/فبراير 2001. ومؤتمر باريس 2 الذي ضمّ 18 بلداً من أكثر البلدان ثراءً وقوة مع ثماني مؤسسات دولية مُقرِضة، جمع حوالى 4,3 بليون دولار على صورة دعمٍ مالي للبنان في مقابل وعودٍ بإجراء إصلاحاتٍ إدارية واقتصادية، بما في ذلك خصخصة مؤسسات الدولة وتخفيض الإنفاق العام. وكان الحريري قد عمل جاهداً لتعبيد الطريق أمام المؤتمر الذي حيّته وسائل الإعلام اللبنانية معتبرةً إياه "نجاحاً رائعاً". وكان قد تلقّى وعوداً من نبيه برّي بأن التشريع المرتبط بخصخصة مؤسسات الدولة سيتمّ إقراره في البرلمان دون عرقلة. حتى إن شيراك توسّط مع بشار ولحود إبّان زيارته لبنان وسوريا قبل شهرٍ من عقد المؤتمر طالباً منهما الوثوق بأن الإصلاحات الموعود بها ستُطبَّق بسلاسة وفي الوقت المحدَّد. وهكذا، وحتى بوجود حكومةٍ غير ملائمة ومتماسكة، هل كان بإمكان الحريري التخلّي عن رئاسة الوزراء بينما كانت الحكومة على وشك الالتزام بما يتوافق مع وعود باريس 2؟

"كان يظنّ في ذلك الوقت أن التعهّدات التي قطعها له بشار والمانحون الرئيسيون في باريس 2 سيتمّ الإيفاء بها وأن مهمّته الرئيسية ستكون إنجاز ما تمّ التوافق عليه في المؤتمر"، يقول مروان حمادة، وزير الاقتصاد في الحكومة الجديدة (19) . "فَهِم تدريجياً أن التغيير الذي أُدخل على الحكومة كان يُراد منه إعاقة نتائج باريس 2 وتجريده من أي أهلية لإعادة الاقتصاد إلى وضعه السويّ".

وقبل أشهرٍ من تشكيل الحكومة الجديدة، عُدِّلت بنية المخابرات العسكرية السورية في لبنان عندما حلّ اللواء رستم غزالة مكان غازي كنعان الذي استلم منصب رئاسة المخابرات مدةً طويلة من الزمن.

وجاء استدعاء كنعان بسبب علاقته العدائية مع لحود التي لم تصطلح أبداً فعليّاً منذ تدخّل اللواء السوري بالقانون الانتخابي للعام 2000 الذي ساعد الحريري على تسلّم منصب رئاسة الحكومة مجدَّداً. وكان يُعتبَر كنعان الذي عُيِّن رئيساً لدائرة الأمن السياسي في دمشق وثيق الصلة بالحريري، و"باروناً" عَلَوياً كان قد ساعد "العدوّ" السنّي للنظام.

"عام 2000، ردّوا لنا الضربة وعاد الحريري إلى السلطة على جوادٍ أبيض مع وليد جنبلاط"، يقول وئام وهاب السياسي المؤيّد لسوريا. "ولكن عندما حلّ رستم غزالة مكان كنعان، انقطعت الصلة بين الحريري وأصدقائه السوريين" (20) .

وغزالة الذي كان حتى ذلك الحين رئيس جهاز الأمن والاستطلاع العسكري السوري في بيروت، كان رجلاً صارماً، متكتّماً، جبينه على صورة قِبّة وشعره أسود كثيف، يحشر جسده الممتلئ في بذلاتٍ مرتفعة الثمن وقمصانٍ مكويةٍ بهشاشة. وكان يفتقر إلى خبرة سلفه وقوة شخصيته. وكان كنعان يجمع بين القسوة الباردة والتفهّم العميق، حتى إنه كان متعلّقاً بالوسط اللبناني، ولكن غزالة كان "فظاً، قاسياً" (21) ، يقول أحد السفراء في بيروت.

"كان غازي كنعان مهذّباً، ولكن غزالة كان سفّاحاً أذلّ رفيق الحريري بقسوة. قاطع الطريق ذو الطبع الأسوأ".

ووصف كنعان بالرجل المهذّب من شأنه إجفال عددٍ غير قليل من اللبنانيين، ولكن "المفوَّض السامي" السوري المحنَّك كان يُدير لبنان بثقةٍ بالنفس كونه مسؤولاً عالي المقام في النظام السوري، ومعاصراً لحافظ الأسد، وقادراً على تكييف أوامره بما يتلاءم مع الوضع، وغير خائفٍ من مناورات جميل السيد ولحود وحلفائهما. ومن جهةٍ ثانية، كان غزالة مجرّد مستخدَمٍ

ينفّذ الأوامر الصادرة إليه في حين "يسهل شراؤه بامتيازاتٍ مالية"، وذلك وفقاً لوزيرٍ لبناني سابق كان على معرفةٍ جيّدة بالضابط السوري (22) .

ويقول نهاد المشنوق، مستشار الحريري في التسعينيات الذي كان على معرفةٍ بكنعان وغزالة: "لا أظن أنه [غزالة] كان يكره الحريري في أعماقه، ولكنه لم يكن يجرؤ البوح بهذا الأمر. لم يكن يتمتّع غزالة بالسلطة التي يملكها كنعان" (23) .

وتحت أنظار غزالة، ازداد مستوى الفساد الذي كان مرتفعاً قبل ذلك، وباطّراد، على حساب الاقتصاد اللبناني.

وخير مثالٍ على نظام الابتزاز المدعوم سورياً انهيار بنك المدينة في أوائل العام 2003 مع خسائر غير مبرَّرة فاقت حدّ البليون دولار. وأثّرت الفضيحة في اللبنانيين. فقد كانت نظرةً سريعةً نادرة إلى داخل عالم الفساد والاختلاس المشبوه الذي يتورّط فيه مسؤولون لبنانيون وسوريون ذوو مراتب عليا. وأُكرهت وسائل الإعلام اللبنانية على عدم بحث أسباب الفضيحة في العمق، مركّزةً عوضاً عن ذلك على رنا قليلات التوّاقة إلى الشهرة، وكانت أمينة صندوق بسيطة ارتقت بشكلٍ غامض إلى مصاف مساعدة الرئيس لأحد مالكي المصرف. وكانت قليلات ظاهرياً مشارِكةً رئيسية بالكثير من النشاطات غير القانونية في بنك المدينة. وشملت بعض التفاصيل القضائية المرتبطة بالفضيحة القطاع العام، مورِّطةً شخصياتٍ لبنانية وسورية مقتدرة. ووفقاً لتقريرٍ نشرته يو إس نيوز ، اكتشفت مؤسسة محققين، ومركزها نيويورك، أن قليلات استخدمت أموال المدينة لدفع 941,000 دولار لأشقاء غزالة، كما زُعِم، وذلك في غضون شهرٍ واحدٍ ينتهي في كانون الثاني/يناير 2003. وبعد شهرَين، زُعم أن قليلات أعطت غزالة "هبة" بقيمة 300,000 دولار من أموال المصرف. وقيل أيضاً إنها دفعت للياس المر، وزير الداخلية آنذاك وصهر لحود، 10 ملايين دولار لشراء فيلا قدّرت السلطات اللبنانية ثمنها في ما بعد بـ 2,5 مليون دولار (24) .

"الجشع"، يقول سعد الحريري، "كان سبب سقوط السوريين في لبنان. لم يكن رستم غزالة ومجموعته من ضباط المخابرات يهتمّون إلا بملء جيوبهم، مافيا تملك سلطةً سياسية. الفارق الكبير بين حافظ الأسد وبشار الأسد هو أن حافظ استخدم المال لغاياتٍ سياسية، ولكن بشار الأسد استخدم السياسة لجني المال. وهذه المعادلة كارثة".

وبدءاً بشهر نيسان/أبريل، وبتشكيل الحكومة الجديدة، وجد الحريري سياساته الاقتصادية والإصلاحية الرئيسية مقيَّدةً من قِبَل حكومته

مع ازدياد المعارك في الحكومة سوءاً. وفي شهرَي أيار/مايو وحزيران/يونيو، كانت الحكومة عاجزة عن عقد اجتماعاتٍ متواصلة بسبب الاختلافات حول برنامج العمل.

وفي 16 حزيران/يونيو، أُطلق صاروخَين على محطة تلفزيون المستقبل التابعة للحريري في بيروت، حارقةً أستوديو دون التسبّب بأي إصابات. وادّعت جماعةٌ إسلامية لم يُسمَع بها من قَبل مسؤوليّتها عمّا اعتبره معظم اللبنانيين تحذيراً منذراً بالسوء بسبب الاستياء السوري من معارضة الحريري للحود.

وحُدّ من صلاحيات مجلس الإنماء والإعمار الذي لعب دوراً رئيسياً في تنفيذ عملية إعادة تأهيل البنية التحتية للبنان في التسعينيات، وجُعل مسؤولاً أكثر فأكثر أمام مجلس الوزراء أكثر منه أمام مكتب رئيس الوزراء. ولم يكن بإمكان مسؤولي مجلس الإنماء والإعمار سوى مراقبة تأخير مشاريع إعمارية وشيكة، مُحبَطين، أو إيقاف مشاريع قيد الدراسة بتكلفة ملايين الدولارات.

"مُنحنا قروضاً ميسَّرة لآجالٍ مريحة ولكننا كنا عاجزين عن القيام بالمشاريع لأن لحود يعيق عملية تملّك الأراضي"، يقول هشام ناصر، نائب رئيس مجلس الإنماء والإعمار منذ كانون الثاني/يناير 2002 وحتى تشرين الأول/أكتوبر 2004. "واجهنا عقباتٍ طيلة ثلاث سنوات. كنا نملك 3 بلايين دولار لتنفيذ مشاريع. وكل ما كان عليهم القيام به هو الموافقة على 250 مليون دولار لتملّك الأراضي. وهذه العقبات التي كان يضعها لحود أعادت لبنان ثلاث سنوات إلى الوراء" (25) .

وفي صيف العام 2003، كان يواجه لبنان فترات انقطاعٍ للتيار الكهربائي لأن مؤسسة كهرباء لبنان كانت تفتقر إلى الاعتمادات المالية لتسديد ثمن المازوت بهدف تشغيل محطات توليد الطاقة في البلد. وتفاوضت لجنة لبنانية منتدَبة حول عقد اتفاقٍ لشراء المازوت من الحكومة الكويتية مباشَرةً بأسعارٍ تفضيلية، وهو إجراءٌ يُلغي الرسوم الباهظة التي يتلقّاها الوسطاء. ولكن مجلس الوزراء لم يوافق على الصفقة بسبب المصالح اللبنانية والسورية القوية المرتبطة بابتزاز المال من خلال استيراد النفط والتي قد تضيع إذا تمّت الصفقة (26) .

وجُمِّدت مشاريع في منطقة سوليدير وسط بيروت بما في ذلك بناء سوقٍ جديد مُعَدٍّ ليضمّ أكبر مركزٍ للبيع بالتجزئة ونشاطات التسلية في المدينة. وأدّت مماطلة الحكومة في إصدار مرسومٍ يجيز بناء السوق إلى

إقامة العديد من الشركات الهامة للبيع بالتجزئة أسواقها لتصريف السلع في مواقع للمنافسين.

وكانت فترةً مُحبِطة بشدة بالنسبة إلى الحريري، وقد ألمح إليها ببراعة للديبلوماسيين الزائرين.

"لم يكن يقول لنا شيئاً ضد لحـود، أي شيءٍ يمكن اقتباسه، ولكن ما عنـاه كان واضحاً جـداً من خلال حاجبَيه المرفوعَين وبسماته الساخرة"، يقول أحد السفراء (27) .

وبالرغم من محاولة الحريري البقاء مبتهجاً ومتفائلاً أمام الناس، كان يزلّ لسانه أحياناً أمام حارسه الشخصي معبّراً عن مشاعره الحقيقية حيال لحود.

"لا يريد التصالح معي"، أخبر صحيفة السفير اليومية بعد جلسةٍ متوترة لمجلس الوزراء في أيلول/سبتمبر. "لا أريد أن تكون لي مشكلة معه ولكنه يُصرّ على استفزازي". وأضاف الحريري أن لحود كان يطلب دعمه لتمديد ولايته الرئاسية، "ولكن لم يكن لي دور في ذلك الأمر وهو يعلم جيداً أن المسألة في أيدي فريقٍ آخر".

وكان الفريق الآخر، سوريا، يُبقي خياراته مفتوحة في ما يتعلّق بولايةٍ إضافية للحود بالرغم من أن التشكيلة الحكومية في نيسان/أبريل 2003 الموالية لسوريا بشكلٍ صريح كانت تشير إلى ذلك وأن هذا ما كان يدور في خُلد دمشق.

وبالنسبة إلى دمشق، سيكون من شأن تمديد ولاية لحود الرئاسية تأمين الاستمرارية والاستقرار بسبب استمرار تدهور علاقات سوريا بالولايات المتحدة. وفي تشرين الأول/أكتوبر، صدّق الكونغرس الأميركي على قانون محاسبة سوريا الذي لم يُبتّ فيه منذ مدةٍ طويلة والذي هدّد بفرض عقوباتٍ ضد دمشق ما لم تنفّذ مجموعةً كبيرةً من الشروط التي بدت ملائمة لمتطلبات إسرائيل الأمنية أكثر منها لاحترام سيادة لبنان. ومن المطالب انسحابٌ سوري من لبنان، ووقف دعم المجموعات الإرهابية، والتخلّي عن تطوير الصواريخ الباليستية وأسلحة الدمار الشامل، والإحجام عن انتهاك عقوبات الأمم المتحدة ضد العراق، وإجلاء حزب الله والحرس الثوري الإيراني من المنطقة القائمة على امتداد الحدود مع إسرائيل واستبدالها بجنودٍ لبنانيين، والدخول في محادثات سلام غير مشروطة مع إسرائيل. وانتظر بوش حتى أيار/مايو 2004 قبل إجازة مجموعةٍ كبيرة من العقوبات ضد سوريا، بما في ذلك منع تصدير السلع الأميركية إلى سوريا، واستثناء الإمدادات

الإنسانية، وحظر رحلات خطوط الطيران السورية من الولايات المتحدة وإليها.

ورداً على التصديق على القانون، وصف بشار إدارة بوش بأنها مجموعةٌ من "المتعصّبين" ومثيري الحرب. وبدأ المسؤولون المدنيون الأميركيون في البنتاغون باتهام سوريا بعدم القيام بما يكفي لمنع المقاتلين من دخول العراق. وكان المسؤولون الأميركيون يحثّون سوريا أيضاً على إعادة أصولٍ مسروقة تقدَّر قيمتها بـ 3 بلايين دولار، وزُعم أن النظام العراقي السابق أودعها مصارف سورية ولبنانية، وهو اتهامٌ نفته دمشق.

وفي 8 تشرين الأول/أكتوبر، أطلق البطريرك الماروني الكاردينال صفير الطلقات العلنية الأولى في المعركة القادمة للتمديد الرئاسي، معلناً في خطابٍ له في باريس أنه يعارض تعديل الدستور لأنه "لا يُفترَض إخضاعه للأهواء". وكما كانت الحال لدى تمديد ولاية الهراوي الرئاسية عام 1995، سيكون من الواجب تعديل الدستور مرةً ثانية للسماح للحود بولايةٍ رئاسية غير تلك المحدَّدة أصلاً بست سنوات. ولم يُشر البطريرك إلى طموحات لحود بولايةٍ ممدَّدة، ولكن الاستنتاج كان واضحاً.

وبعد أيام، وافق الحريري ببراعة على وجهة نظر صفير، قائلاً: "ملاحظات البطريرك هي ملاحظات بطريركٍ عظيم".

ولكن الدعم السوري للحود بقي راسخاً. ففي 20 تشرين الثاني/نوفمبر، أكّد بشار دعمه الوطيد للحود خلال قمةٍ بين القائدَين في دمشق. وأوردت وسائل الإعلام اللبنانية أن لحود ما زال الحليف الأكثر تقرّباً من سوريا في لبنان، "مصدر ثقة" يتلقّى "الدعم الذي يحتاج إليه لمواجهة التحدّيات التي تلوح في الأفق".

وبعد يومين، غاب الحريري عن الاستعراض العسكري في ذكرى الاستقلال في ساحة الشهداء الذي تحضره عادةً النخبة السياسية والعسكرية في البلد. وقال الحريري إنه في السعودية يزور مكة في نهاية شهر رمضان من أجل أداء العمرة، عِلماً أن شهر الصيام الفضيل كان قد انقضى منذ أيام. وكان إحجام رئيس الوزراء عن حضور الاحتفال السنوي، أو حتى انتداب ممثل عنه، صدّاً (رداً جافاً) غير مسبوق يشير بطريقة علنية جداً إلى مدى تسمّم العلاقة بين رئيس الوزراء والرئيس.

ولم يكن النظام السوري متعاطفاً مع هذا التمثيل المسرحي واعتبر ازدراء الحريري للحود إشارة تمرّدٍ خطِرة. وفي نهاية العام، دُعي الحريري إلى دمشق للقاء بشار والمسؤولين السوريين ذوي المراتب العليا الذين هم على علاقة بلبنان: غازي كنعان، رستم غزالة، ومحمد خلوف وهو معاون أعلى

لغزالة. واتُهم الحريري طوال 45 دقيقة بالتآمر مع الولايات المتحدة وفرنسا ضد سوريا، وبالانحراف عن الموقف اللبناني - السوري، ولقاء مسؤولٍ أعلى في وزارة الخارجية الأميركية في بيروت سرّاً، وبإقناع العاهل الأردني الملك عبد الله باستخدام نفوذه مع إسرائيل لإعاقة عملية مقايضة أسيرٍ تقوم ألمانيا برعاية المفاوضات بين حزب الله وإسرائيل لإتمامها. وكان اللقاء الأقسى للحريري طوال مدة تعاطيه مع السوريين.

"فكّر الحريري بالخروج من اللقاء، ولكنه بقي هناك فحسب"، يقول مستشارٌ سابق مقرَّب من الحريري. "كان السوريون يشعرون بالضغط الدولي. كانت كل استراتيجيّتهم قائمة على "السيطرة على لبنان وإلا فستكون الفوضى". وفجأةً، ظهر هناك من يمكنه قيادة لبنان بأمان من خلال ضماناتٍ دولية بمعزلٍ عن السوريين" (28) .

وفي نهاية اللقاء، أمسك كنعان الحريري بذراعه وقاده إلى مكتبه ليتمكّن رئيس الوزراء المرتعد الهدوء والشفاء من نزيفٍ في الأنف بسبب ارتفاع ضغط الدم. وبعد فترةٍ وجيزة من الصباح نفسه، التقى عبد الحليم خدام الرئيس بشار المهتاج الذي أخبره عن اللقاء المحموم مع الحريري.

"بعد أن أخبرني بهذا الأمر، سألته كيف كان بإمكانه التحدث بهذه
.لسوريا وثيق حليفٌ هو ' خدام. يتذكّر لبنان"، وزراء رئيس إلى الطريقة
سوريا؟ الأمر هذا سيفيد وكيف الآن شعوره سيكون ماذا .سوريا خدم لقد
اتصالٍ على البقاء منّي وطلب الأسد بشار هدأ ،عندها .له قلت '
. (29) "دمشق إلى مجدَّداً لدعوته بالحريري

رفض الحريري العودة إلى العاصمة السورية والتقى خدام بدلاً من ذلك في منزل نائب الرئيس في المنتجع الجبلي في بلودان القريب من الحدود اللبنانية.

"كان رفيق غاضباً بشكلٍ جليّ وأبدى خيبة أمله. قال إنه لم يكن يتوقّع معاملةً مماثلة وإن هذه المعاملة ستبقى في عقله حتى مماته. إنه لن ينسى هذا الأمر أبداً"، يقول خدام.

وعدائية القيادة السورية هذه حيال الحريري أذكت نارها حملة تشهيرٍ مركَّزة وضارية قام بها لحود وحلفاؤه ضد رئيس الوزراء، وفقاً لعددٍ كبيرٍ من الشخصيات اللبنانية والسورية. وادّعى اللبنانيون الموالون لسوريا أن الحريري خائنٌ يسعى إلى نزع سلاح حزب الله. كانت هناك حملة قدحٍ وذمّ وريبة متواصلة جعلت مكانة الحريري تتآكل بشكلٍ مطّرد.

"اعتاد بشار الأسد استقبال ولقاء اللبنانيين المعادين للحريري"، يقول

خدام (30) . "اعتاد الاستماع إليهم وأخذ كل المعلومات بعين الاعتبار لدى اتخاذ قراراته. واعتادت المخابرات العسكرية اللبنانية إرسال تقارير ودراسات مغلوطة لبشار مرّة واحدة أو مرّتين في الأسبوع حول نوايا الحريري وشعوره المعادي لسوريا".

ووفقاً لخدام، كان جميل السيّد المهندس الأعلى للحملة المناهضة للحريري، والذي من خلال تعاطيه المباشَر مع بشار "لم يكن حاكم لبنان فحسب، بل أيضاً حاكم سوريا تقريباً" (31) .

هذا، وكانت إمكانات الحريري محدودةً لوضع حدٍّ للحملة التي شُنَّت ضده، عِلماً أنه استمرّ في محاولة إقناع القيادة السورية وطمأنتها بأنه صديقها وليس خائناً.

"لعبت المخابرات اللبنانية والسورية دوراً هاماً في إفساد العلاقات بين الحريري والعديد من الناس والجماعات، بما فيها حزب الله"، يتذكر فؤاد السنيورة. "كان الحريري يتعرّض للضغط والهجوم باستمرار. اعتاد الشعور بغضبٍ كبير من هذا الأمر. كان يقول "لا يمكنني تكرار كل يوم الأسطوانة بأنني قومي ومواطن جيد". أين كانوا [متّهموه] من القومية والوطنية؟ ضحّى الحريري كثيراً بحياته وبثروته الخاصة. وفي نهاية اليوم، كان يغدو مجنوناً".

وبالرغم من معاملة دمشق المُخزية، استمر الحريري بالدفاع عن مصالح سوريا مستخدماً اتصالاته الدولية لمنفعة سوريا. وفي إحدى المناسبات، أعلن في مؤتمرٍ صحافي أن الاتهامات بتدخل سوريا في الشؤون اللبنانية "مبالغٌ فيها إلى حدٍّ كبير لدرجة أنها تقلب الأشياء رأساً على عقِب".

ولكن مظاهر الولاء لدمشق لم تؤدِّ إلا إلى إمهال الحريري فترةً وجيزة. وفي أوائل العام 2004، تلقّى أحد معاوني الحريري اتصالاً هاتفياً من صديقٍ له في باريس قال له إن التداول جارٍ في البرلمان الفرنسي، ومن خلال الحزب الذي ينتمي إليه شيراك جاك (UMP - حزب الاتحاد الحركة الشعبية)، بمشروع قانونٍ مماثل لقانون محاسبة سوريا (32) .

"صديقك شيراك وحزبه يحاولون تمرير القرار"، قال المساعد للحريري. وقال الحريري مندهشاً إنه ليس على عِلمٍ باقتراح مشروع القانون هذا. فاتصل بشيراك الذي قال له إنه ليس على عِلمٍ بمشروع القانون أيضاً. فأخبره الحريري أن تمرير القانون سيكون مؤذياً للبنان ويعقّد العلاقة اللبنانية - السورية إلى حدٍّ كبير. ووعد شيراك بالنظر في الموضوع، وما لبث التشريع المقترَح أن اختفى بعد ذلك.

"بعد أسبوعين، تلقّى الحريري رسالةً من الرئيس الأسد يتّهمه فيها بإعداد كل هذه المسألة ليتمكّن من الاتصال بصديقه شيراك وإلغاء مشروع القانون ليحمل السوريين على الشعور بأنهم مدينون له"، يقول المساعد. "لم يكن الأمر سوى ذُهانٍ ارتيابي عَلَوي لأن الحريري سنّيٌّ ثريٌّ ومقتدر يملك خمس طائرات ويمكنه إجراء اتصالٍ هاتفي في الساعة الواحدة بعد الظهر، ويكون مع [رئيس الوزراء] مهاتير محمد في ماليزيا في منتصف الليل، وفي اليابان في اليوم التالي، ويعود في اليوم الثالث إلى بيروت مع وعودٍ بالحصول على 600 مليون دولار [للإعمار] في جيبه الخلفي".

ولم يكن الحريري منيعاً عن متناول يد أجهزة المخابرات اللبنانية والسورية حتى في منزله في قريطم.

"كان يعتقد الحريري أن منزله مزروعٌ بأجهزة التنصت"، يقول دبلوماسي عربي. "لدى لقاء الضيوف في مكتبه في قريطم، يقوم الحريري بتشغيل جهاز التلفزة والانتقال من محطةٍ إلى أخرى للتعتيم على الحديث. وإذا تناول الحديث مسائل دقيقة، يلجأ الحريري وضيفه إلى حمّامٍ صغير متّصل بمكتبه حيث يمكنهما التكلّم هَمساً" (33) .

وتدور أحاديث أخرى في الحديقة في الخارج. وإذا أراد الحريري التلميح إلى أمرٍ ما للمُصغين إليه غير المنظورين، يقوم برفع صوته عَمداً.

حتى إن أحد معاونيه أصبح عميلاً مزدوجاً للمخابرات العسكرية السورية. فقد كان علي الحاج رئيس الفريق الأمني للحريري منذ العام 1992، وهو ضابطٌ في قوى الأمن الداخلي ذو شاربٍ كبيرٍ بشكلٍ مفرط. وأُعيد تعيينه في المنصب عام 2000 عندما أصبح الحريري رئيساً للوزراء ثانيةً. ولكن الحريري بدأ يرتاب في الحاج الذي كان ينعم بعلاقةٍ وثيقة مع رستم غزالة. واختبر الحريري ولاء الحاج من خلال إبلاغه بمعلوماتٍ زائفة في أربع مناسباتٍ مختلفة ليكتشف في ما بعد أنها بلغت المخابرات السورية (34) . وصُرف الحاج من الخدمة، ولكن غزالة عيّنه قائداً لقوى الأمن الداخلي في البقاع، وهو منصبٌ بارز قرّبه أكثر فأكثر من جهاز المخابرات السورية.

وبدا الارتياب المتزايد لسوريا في الحريري والاستياء منه موازياً لتكثيف الضغط الدولي على دمشق وكأن رئيس الوزراء اللبناني كيسٌ للّكم يصبّ بشار وقادةٌ آخرون في النظام جام غضبهم عليه.

وفي أواخر ربيع العام 2004، كان الطريق المسدود الذي بلغته العلاقات الأميركية - السورية تثير بعض النقاشات الداخلية حول جدوى

صياغة قرارٍ في مجلس الأمن الدولي ضد سوريا. واستنتجت إدارة بوش أن الولايات المتحدة ستكون بحاجةٍ إلى حلفاء جدّيين ذوي نفوذ، وفرنسا بالتحديد، يكون لهم مصالح خاصة في لبنان وسوريا، وذلك إذا ما اتخذت الأمم المتحدة أي إجراءٍ ضد دمشق. وللولايات المتحدة وفرنسا أولوياتٌ مختلفة ولكن غير متناقضة في سوريا يمكن أن تجتمع في قرارٍ دولي قوي صادرٍ عن مجلس الأمن. وكان الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل والعراق الاهتمامات الأساسية لواشنطن مع سوريا. من جهتها، ركّزت فرنسا أكثر على السيطرة السورية الشاملة على لبنان. ووصف شيراك لبنان ذات مرة بأنه "منزله الثاني"، وكان قد صبّ اهتمامه بشكلٍ غير عادي على مصير لبنان وسوريا. وكانت باريس العاصمة الأوروبية الأولى التي زارها بشار بصفةٍ رسمية عام 1998 قبل أن يصبح رئيساً. وشيراك هو الرئيس الغربي الوحيد الذي حضر مراسم دفن الأسد في حزيران/يونيو 2000. وكانت فرنسا قد استثمرت جهداً كبيراً في المساعدة على دعم انبثاق بشار قائداً وطنياً، مرسلةً فريقاً من الاختصاصيين التقنيين إلى سوريا لتقديم النصح حول مسائل الإصلاح، إضافةً إلى مستشارٍ مقرَّب من شيراك بصفته سفير فرنسا إلى دمشق.

وفي تشرين الأول/أكتوبر 2002، قال شيراك في خطابٍ موجَّه إلى البرلمان اللبناني إن انسحاب الجيش السوري من لبنان يعتمد على تسويةٍ شاملة في إطار عملية السلام في الشرق الأوسط، مانحاً بذلك الموافقة الفرنسية، وبشكلٍ فعّال، على الوضع القائم. وبالرغم من كون أسلوب شيراك المتساهل حيال سوريا في تناقضٍ ملحوظ مع موقف واشنطن الأكثر عناداً، توقّع شيراك أن تقوم سوريا في المقابل بتخفيف سيطرتها على لبنان. وكان خطابه "الصريح" للبرلمان اللبناني في حدّ ذاته رسالةً إلى القيادة السورية بأن فرنسا تعلّق أهميةً كبيرة على لبنان.

ولكن صبر شيراك حيال سوريا بدأ بالنفاد مع اتضاح عدم رغبة دمشق بملاقاة فرنسا في منتصف الطريق. وكان فشل الحكومة اللبنانية بالإيفاء بالعهود المقطوعة على باريس 2 مصدر سخطٍ فرنسي كبير إزاء سوريا، عِلماً أن شيراك استثمر مكانته الشخصية المرموقة في استضافة المؤتمر وإقناع البلدان المانحة والمنظمات بالمشاركة. ولكن بالرغم من الوعود بالتعاون التي قطعها له بشار ولحود، أُنجز القليل من الإصلاحات التي تمّ التعهّد بإتمامها.

وتلقّى شيراك صفعةً أخرى على الوجه في نيسان/أبريل 2004

عندما خسرت شركة توتال للنفط أمام كونسورتيوم كندي - بريطاني - أميركي عقداً بقيمة 700 مليون دولار لتطوير حقول الغاز في المنطقة الوسطى من سوريا. ووفقاً لمصادر سورية وفرنسية، أكّد بشار لشيراك أن توتال ستفوز بالعقد. وكتب شيراك أيضاً رسالة لبشار طالباً منه فيها إجراء المفاوضات بطريقةٍ شفافة ومنطقية. ومع ذلك، لم تتمّ الإجابة على الرسالة، وفشلت الصفقة عندما رفضت توتال عرضاً تقدّم به رجل أعمال سوري بارز يقضي بضمان حصول الشركة الفرنسية على العقد في مقابل عمولة. وبعد تسعة أشهر، ألغت الحكومة السورية العقد مع الكونسورتيوم الكندي - البريطاني - الأميركي ومنحته لشركة البترول السورية التي تملكها الدولة. وقال إبراهيم حداد، وزير النفط السوري، في كانون الثاني/يناير 2005 إن القرار اتُخذ على ضوء العقوبات الأميركية على سوريا التي من شأنها إعاقة نجاح المشروع.

وفي أيار/مايو، انتقلت المواجهة بين الحريري ولحود التي ازدادت سوءاً من مجلس الوزراء إلى صناديق الاقتراع عندما انتخب لبنان مجالس بلدية جديدة. وبقيام السياسيين ذوي النفوذ بدعم اللوائح المنافسة للمرشحين، تكون نتائج الاقتراع الفرصة الأخيرة لتقييم القوة الشعبية للشخصيات الرئيسية قبل الانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني/نوفمبر. وإذا أصابت اللوائح الانتخابية التي دعمها الحريري نجاحاً، فهي ستقوّي موقفه ضد طموح لحود بتمديد ولايته.

ولكن النتائج كانت متفاوتة بالنسبة إلى الحريري. ففي حين فازت لائحة بلدية بيروت التي دعمها، فقد الانتصار بريقه بسبب لا مبالاة المقترعين وانخفاض عدد المشاركين في الانتخابات ولا سيّما في المناطق المسيحية. وفي مدينته الأم صيدا، مُنيت اللائحة التي دعمها الحريري بهزيمةٍ نكراء في مواجهة تحالفٍ أعدّه لحود وأجهزة المخابرات جمع الإسلاميين السنّة وحزب الله والعائلات البارزة.

وفيما قوبلت نتائج الانتخابات بلا مبالاةٍ عامة في معظم لبنان، كان العكس صحيحاً في المناطق الشيعية حيث كان حزب الله وحركة أمل ينافسان بعضهما البعض للمرة الأولى. وفي كل الانتخابات البرلمانية والبلدية منذ نهاية الحرب، شكّل حزب الله وأمل لوائح انتخابية مشتركة. وبالرغم من أن التحالفات كانت تحت إشراف سوريا، فإن أيّاً من السيد حسن نصر الله أو نبيه برّي، بصفةٍ خاصة، لم يعترض. فقد فهم نصر الله أن التكيّف مع سوريا هو ثمن حماية أولوية المقاومة بالنسبة إلى الحزب، في

حين أن انخفاض شعبية أمل كان يُخفيها التحالف مع منافسها الأكثر تنظيماً.

ونتائج الانتخابات البلدية التي حقّق فيها حزب الله فوزاً ساحقاً في معاقله في الضواحي الجنوبية من بيروت والبقاع وأبلى بلاءً حسناً في منطقة الحدود الجنوبية، وهي الخط الأمامي في مواجهة إسرائيل، أكّدت ما كان تدور حوله الشكوك - كان قد تجاوز حزب الله أمل في التعبير عن آراء شيعة لبنان.

وبعد أربعة أيام من الجولة الأخيرة من الانتخابات البلدية، اندلعت أعمال شغب في منطقة حي السلّم من بيروت الجنوبية، وهي معقلٌ لداعمي حزب الله، عندما أطلق جنودٌ النار في اتجاه حشدٍ من المتظاهرين الشيعة المشاركين في إضرابٍ على مستوى الوطن ككل احتجاجاً على أسعار النفط. وتلقّت أعمال الشغب كالعادة إدانةٍ غاضبة من قِبَل السياسيين اللبنانيين. ولكن الحريري ونصر الله اشتبها بأن العنف لم يكن فورياً بل محاولةً منظَّمة لإحراج رئيس الوزراء وإضعاف حزب الله بعد نجاحه في الانتخابات البلدية. وألقى نصر الله اللوم في شأن أعمال الشغب على الأجهزة الأمنية تحديداً أكثر منه على حكومة الحريري. وتدبّر حزب الله، كما زُعم، أمر تصوير مجموعةٍ من العملاء المحرِّضين تنقّلوا بين نقطة توتّرٍ وأخرى في حيّ السلّم، موزّعين إطاراتٍ للحرق وحاثّين الحشد على العنف. ونشرت صحيفة المستقبل التي يملكها الحريري تقريراً مُصاغاً بعناية قامت فيه "مصادر حسنة الاطّلاع" باتهام أمل ضمناً بمحاولة إضعاف الثقة بحزب الله.

متفاجئاً باستثنائه من حملة الانتقاد التي شنّها حزب الله، اتصل الحريري بنصر الله بعد انتهاء أعمال الشغب بساعات لتحديد موعد. والتقيا بعد ظهر ذلك اليوم وطرح الحريري السؤال التالي "لمَ لم تلُمني على ما حصل؟" فأخبره نصر الله "نعلم أنك غير مسؤول" (35) . وكان الحادث الحافز لعلاقةٍ سرّية ومثمرة بشكلٍ غير متوقَّع بين الحريري ونصر الله. وبالرغم من خلافاتهما في الرأي القائمة منذ زمنٍ طويل وبرامج العمل غير المتناغمة، بات الرجلان أكثر تقرّباً من بعضهما البعض في الأشهر الأخيرة من حياة الحريري، ملتقييْن مرّتين في الأسبوع في المقرّ الرئيسي لنصر الله ذي الحراسة المشدَّدة في ضواحي بيروت الجنوبية. ونظّم مصطفى نصر اللقاءات في ساعاتٍ متأخرة من الليل، وهو صحافي ووسيط بين الحريري ونصر الله منذ فترةٍ طويلة.

"كان الحريري يتصل بي ويسأل "هل بقي أي ثمرة في البلد؟" كانت الشيفرة المعتمَدة بيننا للاتصال بحزب الله وإجراء لقاءٍ في تلك الليلة"، يتذكّر نصر (36) .

والمشاركان الآخران في اللقاءات إضافةً إلى الحريري ونصر الله هما نصر والحاج حسين الخليل، المعاون السياسي للأمين العام لحزب الله. وكان حزب الله يؤمّن أيضاً الأمن للحريري في رحلاته من قريطم إلى الضواحي الجنوبية، ويبقى الحارس الشخصي للحريري، يحيى العرب، المعروف أيضاً باسم أبو طارق، في قريطم مع بقية مفرزته الأمنية. وكانت لقاءات الساعات المتأخرة من الليل مع نصر الله تثير أعصاب نازك الحريري التي كانت تخشى على زوجها من تعرّض قائد حزب الله لمحاولة اغتيال. وعندما كان الحريري يغادر إلى الضواحي الجنوبية، كانت تهمهم نازك قائلةً "ليحفظك الله، ليحفظك الله" وتتلو آياتٍ من القرآن.

من جهته، كان الحريري يستطيب محادثاته مع نصر الله. وبالرغم من التباينات القائمة بينهما في السنوات الأولى من ترؤس الحريري الحكومة والتوترات المنفعلة حول مزارع شبعا، كان للرجلَين أمورٌ كثيرة مشتركة على الصعيد الشخصي وطوّرا علاقةً قوية. فكلاهما نشأ من أصولٍ متواضعة ليحقّقا شهرة. وكلاهما عانى من ألم فقدان ابن (37) . وامتدّ النفوذ الذي استخدماه والاحترام الذي كسباه إلى ما وراء حدود لبنان. وقدّر رجل الدين الشيعي والقطب المالي السنّي بعضهما بعض حق قدر كونهما عرباً أكثر منهما لبنانيَّين وقائدَين فحسب، وهو فارقٌ ميّزهما عن معظم سياسيي لبنان الذين قلّما كان نطاق اهتماماتهم يتخطّى عشائرهم أو طوائفهم.

وكان يتمّ إضفاء جوٍّ من الاسترخاء على محادثاتهما بإطلاق دُعابات ونوادر ظريفة. وكان يملك نصر الله الذي اعتبره أعداؤه متعصّباً عنيفاً الحسّ القوي بالفكاهة الذي يمتاز به شيعة جنوب لبنان. في حياته غير العلنية، هو متكلّمٌ هادئ وغير مُدّعٍ يستمع بانتباه لما يقال له. هو سريع الابتسام وعيناه تتلألآن ضحكاً وراء نظاراتٍ مربّعة الإطار.

ومرتشفَين أكواباً صغيرة من الشاي الحلو المذاق أو القهوة التركية ومتناولَين وجبةً خفيفة من الفاكهة الطازجة، كانت تتناول محادثاتهما مواضيع تتراوح بين المسائل المحلية (علاقة لبنان بسوريا، حماية المقاومة، توطين اللاجئين الفلسطينيين) والشؤون الإقليمية الأوسع (النزاع العربي - الإسرائيلي، العلاقات السنّية - الشيعية والعراق).

وكانا يتشاطران المخاوف من التفتيت المحتمل للشرق الأوسط إلى

دولٍ طائفية أو إثنية متقاتلة، متّفقَين على أن هذه النتيجة لن تفيد إلا مصالح إسرائيل. وكان نصر الله يعبّر عن شكوكه حيال أهداف إدارة بوش في العالم العربي، والحريري يستمع بشكلٍ ودّي ومتعاطف.

وفي نهاية كل جلسة التي قد تدوم حتى الساعات الأولى من الصباح، يعود الحريري برفقة مصطفى نصر إلى قريطم، سالكين طرقاً جانبية عبر الشوارع الخالية في وسط المدينة، محدّقين بالمباني المجدَّدة والشوارع المرصوفة بالحجارة، أو متفحّصين عملية إنشاء مسجد محمد الأمين الضخم القائم على طرف ساحة الشهداء والذي كان يموّله.

وفي حزيران/يونيو، تلقّى الحريري بعض الضمانات السارّة من السعوديين والمصريين بأن بشار لن يمدّد ولاية لحود الرئاسية، وذلك وفقاً للعديد من زملاء الحريري ومستشاريه (38) . وبدا بشار الأسد داعماً لتلك الطمأنات، والذي قال في مقابلةٍ مع صحيفةٍ كويتية في حزيران/يونيو إن سوريا ستدعم أي رئيسٍ يختاره الشعب اللبناني.

ومن جهةٍ ثانية، بقيت الولايات المتحدة متشكّكةً من سماح بشار للبنانيين بانتخاب رئيسٍ جديد باستقلالية (39) . وكان ارتياباً شاطرها الفرنسيون إياه. وفي 6 حزيران/يونيو، وفي الذكرى الستين لنزول الحلفاء على شواطئ النورماندي، أقرّ بوش وشيراك بأن لبنان قد يشكل أساساً لتقارب عبر الأطلسي بعد أشهرٍ من العلاقات المتوتّرة بسبب اختلافاتٍ مريرة في الرأي حول حرب العراق.

مدعوماً بوعودٍ أجنبية، شغل الحريري نفسه بإعداد قائمةٍ من الرؤساء البديلين الذين توافق عليهم سوريا، واثقاً من أن ولاية لحود ستنتهي في تشرين الثاني/نوفمبر. ولكن في منتصف آب/أغسطس، وعندما بدأ بشار استشاراته العادية مع السياسيين اللبنانيين لتقييم وجهات نظرهم حول الانتخابات الرئاسية القادمة، كانت هناك إشاراتٌ متزايدة بأن لحود قد يحظى بتمديدٍ لولايته الرئاسية بالرغم من كل شيء. ولم تقتصر المناقشة على بيروت. فقد أقرّ بعض المسؤولين الأعلى مرتبةً في دمشق، وبوضوحٍ تام، بمخاطر تمديد ولاية لحود الرئاسية، وبصفةٍ أساسية عبد الحليم خدام وغازي كنعان، وهما قائدان متمرّسان في النظام مع خبرةٍ بالشؤون اللبنانية امتدّت عقوداً من الزمن. وكان خدام ضد تعيين لحود رئيساً منذ البدء، وكان بشكلٍ مضاعَف ضد منح الرئيس اللبناني ثلاث سنواتٍ إضافية. ولكن قدرته على السيطرة على الأحداث في دمشق انخفضت باطّراد منذ تولّي بشار مقاليد الحكم منذ أربع سنوات.

وفي 18 آب/أغسطس، التقى خدام بشار لوداعه قبل المغادرة لقضاء العطلة في فرنسا، ويتذكر حثّه الرئيس السوري عدم تمديد ولاية لحود. وحذّر بشار من أنه "لا هو ولا لبنان قادرٌ على تحمّل هذا التمديد. فكل لبنان سيكون ضدنا" (40) . وطمأنه بشار بأنه لن يكون هناك أي تمديد.

وبعد أربعة أيام، حذّر الكاردينال صفير من أن منح لحود ولايةً إضافية "سينهي بطريقةٍ حاسمة القليل المتبقي من الديموقراطية التي نتباهى بها". وأُيّد موقفه في اليوم التالي من قِبَل الشيخ عبد الأمير قبلان، رئيس المجلس الشيعي الأعلى، والشيخ محمد قباني، مفتي الجمهورية السنّي في تصريحٍ مشترك للمراجع الدينية العليا في لبنان. وبالرغم من إذاعة البلاغ الرسمي كاملاً على المحطات الإذاعية، فقد حذفت "أيادٍ مُبهَمة"المقطع الذي رفض فيه رجال الدين التعديل الدستوري، وفقاً لإحدى الصحف، من نسخة البلاغ التي نشرتها في ما بعد وكالة الأنباء الوطنية، والتي تدير شؤونها الدولة.

وفي 25 آب/أغسطس، أعلن لحود، وللمرة الأولى، والذي بدا غير مُحرَجٍ بانخفاض شعبيّته نتيجةً لهذا التلاقي الطائفي، أنه مستعدٌّ لقبول ولايةٍ ثانية "إذا طلبت منه ذلك غالبية برلمانية".

وكان الدليل الأكثر وضوحاً أن سوريا عقدت العزم على تمديد ولاية لحود.

الفصل الخامس: المكاشفة

بينما كان فارس بويز، وزير البيئة، متّجهاً بسيارته إلى فيلا الحريري الحجرية المنبسطة في منتجع فقرا للتزلج في الجبال اللبنانية في فترة بعد الظهر من 26 آب/أغسطس، لاحظ أن لا وجود لأي سيارة متوقّفة في الخارج ولأي حارسٍ على المدخل، وبدا المبنى في ظُلمة (1) . وكان قد أُخبر بويز الذي كان مقيماً في الشاليه الخاص به في الجوار أن الحريري يمضي الليلة في فقرا بعد لقائه بشار في دمشق ذلك الصباح. وبلغ بويز أن اللقاء كان قصيراً على غير عادة، وكان فضوله يحثّه على معرفة ما كان قد جرى.

دخل المنزل ووجد الحريري جالساً بمفرده في قاعة استقبال فسيحة. وبدا رئيس الحكومة مكتئباً كلّياً وقد استنزفت أحداث الساعات القليلة الأخيرة قواه ولم يكن سعيداً تماماً برفقةٍ غير متوقَّعة. فأخبره الحريري أن بشار أعلن بوضوح أن لحود سيحصل على تمديدٍ لولايته لمدة ثلاث سنوات إضافية. ووفقاً للروايات التي تناقلتها مصادر متعدّدة حول الحديث بمن فيهم أصدقاء الحريري وزملاؤه، أجاب رئيس الوزراء "ولكن يجب مناقشة الموضوع" (2) .

"لا شيء نناقشه"، أجاب بشار كما قيل. "أنا لحود ولحود أنا. إذا كان صديقك شيراك يريدني خارج لبنان، سأحطِّم لبنان قريباً على رأسك وعلى رأس شيراك ولن أتراجع عن كلامي".

واعترض الحريري بوضوح، قائلاً إنه طالما كان صديقاً لسوريا طيلة 20 عاماً. "عليك الاستماع إليَّ"، قال.

"عرفتك منذ أربع سنواتٍ فقط"، أجاب بشار كما قيل، مضيفاً أنه على الحريري الاختيار بين مساندة سوريا أو معارضتها، وعليه إبلاغ غزالة بجوابه في غضون 48 ساعة.

ولم يدم اللقاء أكثر من 15 دقيقة.

"هل أنت واثق من الأمر؟ هل هذا هو قرارهم النهائي؟" سأل بويز.

"أجل".

"هل شرحت لهم مدى فداحة هذا القرار على لبنان وسوريا؟"

أومأ الحريري برأسه مؤكّداً أنه شرح لهم الأمر.

وسأل بويز الحريري ثانيةً وبإلحاح عمّا إذا أوضح لبشار معارضته

التامّة لهذا القرار.

"فارس"، أجاب الحريري وعيناه مغرورقتان بالدموع، "لِمَ تُصرّ على إذلالي؟"

فاعتذر بويز من الحريري متفاجئاً بموقفه. وبعد قليل، سأل "ماذا ستفعل؟"

"هل تظن أن لديَّ خياراً؟"

فحثّه بويز على المغادرة فوراً إلى باريس. وبوجود الحريري خارج البلد، لن يكون بالإمكان عقد أي جلسةٍ لمجلس الوزراء لصياغة أي اقتراح قانون لتعديل الدستور يسمح للحود بالحصول على سنواته الثلاث الإضافية لمدة ولايته.

"من السهل جداً عليك قول هذا الكلام"، أجاب الحريري. "ولكن إذا قمت بهذا الأمر ستكون القطيعة النهائية بيني وبين السوريين، ولا يمكنني تحمّل ذلك".

وكان الحريري يواجه خياراً قاسياً. فقبول تسوية بشار الظالمة يعني نزاعاً طاحناً أكثر فأكثر مع لحود؛ والاستقالة تحاشياً للمصادقة على التمديد الرئاسي مجازفةٌ من شأنها إثارة غضب سوريا.

وسأله أحد معاونيه عمّا قد تفعله سوريا باعتقاده إذا رفض الإنذار السوري النهائي (3) .

"هل تظن أنهم قادرون على حشد 100,000 شخص مؤيّدين لحزب الله في تظاهرةٍ وسط بيروت؟" أجاب الحريري.

"بالطبع".

"ما الذي قد يحدث باعتقادك إذا أطلق أحدهم النار على ذلك الحشد؟"

"سيحرق حزب الله المدينة"، قال المساعد.

وأخبر الحريري مستشاراً آخر أن دبلوماسياً أجنبياً كان قد أعلمه بأن 20 سيارة مفخَّخة أُعدّت وسيتمّ تفجيرها حول بيروت إن لم تقم كتلته النيابية بتأييد التمديد للحود (4) . وشعر الحريري بأن لا خيار له. فإذا لم يصدّق على التمديد الرئاسي للحود، فهو يجازف بإقحام البلد في حالةٍ من سفك الدماء.

"أظن أنه كان خائفاً، خائفاً جسدياً بصفة رئيسية على نفسه وعلى البلد، وخائفاً بدرجة أقل على كل الاستثمارات التي حقّقها وعلى أتباعه الذين سيُعتقَلون ويُضطهَدون كما كانت حالهم [إبّان حملة لحود المناهضة

للفساد عام 1999]"، يتذكّر بويز (5) .

وكان يبدو أيضاً أن بشار وجّه رسالةً لوليد جنبلاط مُنذرة بالشؤم. فإثر لقائه ببشار، عاد الحريري إلى بيروت، معرّجاً على جنبلاط في منزله الحجري الرمادي في منطقة كليمنصو في بيروت الغربية. وكان جنبلاط جالساً في فناء منزله يتحدّث إلى أربعة حلفاءٍ سياسيين عندما أطلّ عليه الحريري بمشيةٍ مضطربة ووجهٍ شاحب وروى له ما حدث في دمشق.

"كان الحريري غاضباً جداً"، يتذكّر العريضي، أحد أولئك الذين كانوا موجودين في منزل جنبلاط. "أعتقد أنه كان يتوقّع سماع هذا الأمر من الأسد ولكن ليس بالطريقة التي اعتمدها والكلمات التي اختارها" (6) .

وجاذباً جنبلاط إلى جهته، أخبره الحريري بأن الرئيس السوري قال "سنتلاقى مع جنبلاط ثانيةً".

قال: "لجنبلاط دروزه. حسناً، ولنا دروزنا أيضاً ، وسنُحدث فوضى عارمة في جبل لبنان"، أخبر الحريري جنبلاط (7) .

وبعد برهةٍ من الزمن سادها الصمت، تكلّم جنبلاط بلا تردّدٍ أو خوف.

"أنظر، أفهم الوضع الذي أنت فيه. حاول ألا تختلف مع السوريين"، قال. "لن أوافق على تجديد الولاية. ولكنك تملك حرّية التصرّف ويُفترَض بك عدم الاختلاف معهم".

وبعد مغادرة منزل جنبلاط، اتجه الحريري مباشَرةً إلى فقرا، عاجزاً عن مواجهة أسرته المخيَّبة في قريطم.

"كان حزيناً جداً"، يتذكّر أحد معاوني الحريري المقرَّبين الذي كان برفقته ذلك المساء. "أخبرني بأمرٍ سيعيد تكراره يوم حتى مماته - ' نحن كالنمل بالنسبة إليهم ' " (8) .

في اليوم التالي، أعلم الحريري رستم غزالة بأنه سيستجيب لطلب بشار، قائلاً "لن أكون الأداة لكسر كلمة سوريا في لبنان" (9) .

وأغدق غزالة على الحريري بالمديح بسبب حكمته، منادياً إياه بـ "رجل الدولة العظيم" وبـ "الوطني الحقيقي". وطُلب من الحريري البقاء رئيساً للوزراء في عهد لحود، وكوفئ لتعاونه بقطع وعدٍ له بتمكينه من تشكيل حكومته الخاصة، "فريقٌ وزاري يحلم به" حرّ من أي تأثيرٍ سوري.

وفي 28 آب/أغسطس، وبعد يومين من لقاء الحريري المشؤوم ببشار، انعقد مجلس الوزراء وعلى جدول أعماله موضوعٌ واحد. وتخلّف عن الحضور أربعة وزراء من أصل 30 وزيراً تتألّف منهم الحكومة، بمن فيهم

فارس بويز وجان عبَيد، ولم يقدّم أيٌّ منهما تفسيراً عن غيابهما بالرغم من كونهما طموحَين إلى منصب الرئاسة ويُعرفان بمعارضتهما لتعديل الدستور.

وبدأ لحود اللقاء بكلماتٍ قليلة حول الوضع في العراق والأراضي الفلسطينية، وركّز على "التهديدات الإسرائيلية" ضد لبنان. وشاكراً الوزراء لدعمهم، سلّم الجلسة إلى الحريري وغادر الغرفة. وبوجهٍ خالٍ من أي تعبير، أخبر الحريري الوزراء بأن "الوضع في المنطقة يتطلّب إجراءاتٍ استثنائية" و"استمرار القيادة في هذه المرحلة". وتمّ التصديق على القانون بالرغم من قيام ثلاثة وزراء من كتلة وليد جنبلاط بالاقتراع ضده.

وانتهى اللقاء بعد 10 دقائق، وطار الحريري مباشَرةً من بيروت لقضاء فترة راحةٍ قصيرة على متن يخته في سردينيا.

وقوبِل قرار تمديد ولاية لحود الرئاسية باعتراض سياسيين لبنانيين عليه. فمخايل الضاهر، الذي كان قد أعلن ترشيحه لمنصب الرئاسة، شبّه جلسة الحكومة التي وافقت على مشروع القانون القاضي بتعديل الدستور بـ "عملية تهريب جرت في ليلةٍ لا ضوء قمر فيها". ومعترضاً على التعديل، أعاد وليد جنبلاط إلى الأذهان الأشياء الجديرة بالتذكّر المتعلّقة بوالده، كمال، من قصر بيت الدين، المقر الرئاسي الصيفي، قائلاً إن ما يذكّر بوالده، "رمز الشهادة"، لا يمكن أن يتواجد مع "مشاغبين عسكريين".

وكان للطريقة الوقحة التي فرضت سوريا بواسطتها إرادتها على الحكومة اللبنانية عواقب وخيمة أكثر ممّا تسبّبت به من إثارةٍ لغضب سياسيين لبنانيين. فقد كانت دلالةً على أن المؤيدين الأميركيين لعملٍ ما تقوم به الأمم المتحدة ضد سوريا كانوا في انتظاره. وصاغ دبلوماسيون أميركيون وفرنسيون مسوّدة قرار برشاقةٍ غير معهودة حازت على موافقة البريطانيين ودعمهم قبل التقدّم به إلى مجلس الأمن. وعكس القرار مصالح الحريري والفرنسيين والأميركيين. ودعت الفقرة التي تثير اهتمام الحريري إلى "عملية انتخابٍ حرّة وعادلة خلال الانتخابات الرئاسية القادمة في لبنان تُجرى وفقاً للقواعد الدستورية اللبنانية دون أي تدخلٍ أو تأثيرٍ أجنبي". وكانت مصلحة فرنسا الأساسية التي تتشاطرها مع الولايات المتحدة الدعوة إلى "انسحاب كافة القوى الأجنبية المتبقّية من لبنان"، وبمعنى آخر السوريين.

وطالب الجزء الأساسي الأميركي في القرار بـ "توسيع سلطة الحكومة اللبنانية لتشمل كافة الأراضي اللبنانية"، قاصداً بذلك، وبشكلٍ أساسي، المنطقة الحدودية المتاخمة لإسرائيل والتي يسيطر عليها حزب الله، و"حلّ كل

الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية ونزع سلاحها"، وهي إشارة شفّافة إلى حزب الله والجماعات الفلسطينية المسلَّحة. وتوقّف العديد من مؤيّدي ما أصبح في ما بعد القرار 1559 الصادر عن مجلس الأمن الدولي عند هذه الفقرة التي اعتُبرت بشكلٍ رئيسي خدمةً للمصالح الإسرائيلية، وهو أمرٌ لا علاقة له بالموضوع ومن شأنه تعقيد المساعي المبذولة لجمع تأييدٍ دولي للهدف الأكثر صلةً بالموضوع ألا وهو خلع لحود وانسحاب سوريا من لبنان. وكانت الفقرة "كارثة"، وفقاً لشبلي ملاط، وهو أستاذٌ لبناني في القانون الدولي ومشارك في حملة حول الديموقراطية.

"حاولنا إلغاء هذه الفقرة الساذجة لأننا قادرون على رؤية كيف أن القرار 1559 سيؤدّي إلى شقاقٍ بين الشيعة والبقية"، يقول (10) .

وبدا أن السوريين قد ارتكبوا خطأً فادحاً ذا أبعادٍ استراتيجية من خلال تمديد ولاية لحود، وهي خطوة عرّضتهم لعقوبة مجلس الأمن. وفي اليوم ذاته، سلّم بشار إنذاره للحريري، وكرّرت واشنطن وباريس دعواتهما إلى إجراء انتخاباتٍ رئاسية عادلة في لبنان. كيف يمكن للسوريين الهزء بإرادة المجتمع الدولي بهذه الطريقة الفاضحة؟

"شعر جاك شيراك بأن السوريين خدعوه بعد إخباره بأنهم لن يمدّدوا ولاية لحود"، يقول وزير لبناني سابق. "كان الأمر بحاجةٍ إلى أعجوبة في الواقع لجمع الأميركيين والفرنسيين، وقد سهّل السوريون حدوث هذه الأعجوبة" (11) .

ولا يُفترَض بدمشق التفاجؤ من إمكانية صدور قرارٍ ضد سوريا بتعاونٍ أميركي وفرنسي. ووفقاً لنهاد المشنوق، وهو مستشار سابق للحريري، فقد "علِم الحريري بالقرار 1559 في مرحلةٍ مُبكرة" (12) .

"ناقش بالتأكيد القرار المطروح على بساط البحث مع شيراك. ووجّه رسالةً لبشار الأسد قائلاً فيها "انتبه، الأمر يحدث. يمكنني مساعدتك". ولكنه لم يحصل على أي جواب من السوريين"، يقول المشنوق.

ولامت القيادة السورية الحريري باستهزاء على القرار 1559، معتقدةً أنه أقنع صديقه جاك شيراك برعاية القرار مع الأميركيين. واتهمه أعداؤه بوضع مسوّدة القرار مع مروان حمادة وغسان سلامة، وهو وزير ثقافة سابق غادر لبنان عام 2003 للعمل مع الأمم المتحدة في بغداد، وذلك على متن يخته في سردينيا، وقبل أيامٍ من قيام مجلس الأمن باعتماد القرار 1559.

وبالرغم من إنكار العديد من زملاء الحريري السياسيين ومعاونيه

بأنه ساعد على صياغة ما أصبح القرار 1559، فقد استخدم بالفعل نفوذه مع شيراك "لممارسة الضغط على سوريا لعدم تمديد ولاية لحود"، يقول جوني عبدو، وهو سفير سابق إلى باريس وصديقٌ قديم للحريري.

"كانت أولويّته عدم نزع سلاح حزب الله وعدم انسحاب الجنود السوريين بشكلٍ كامل، ولكن إيقاف تجديد ولاية لحود"، يقول عبدو. "لم يبالِ إذا كان هناك تقاربٌ بين الولايات المتحدة وفرنسا [من خلال اتفاقٍ حول قرارٍ صادرٍ عن الأمم المتحدة ضد سوريا] شريطة أن يوقف هذا الأمر لحود".

وبالرغم من أن القرار 1559 تضمّن مطلبه بإجراء انتخاباتٍ رئاسية حرّة وعادلة، لم يكن بإمكان الحريري تأييد القرار علانيةً بسبب الفقرات المتبقّية التي تطالب بنزع سلاح حزب الله وانسحابٍ سوري كامل. وفهم الحريري أن فقرة الانسحاب السوري الكامل هي بمثابة إذلالٍ للسوريين ولن تؤدّي إلا إلى صعوباتٍ إضافية تواجه تحقيق هدفه القاضي بتبديل العلاقة بين البلدَين إلى صلاتٍ سياسية واقتصادية لا تحكمها اعتباراتٌ أمنية.

وبالرغم من إدراك القيادة السورية صدور قرارٍ محتمَل مُسلّط كسيف ديموكليس فوق رأسها، أقنع بوضوح أن فاروق الشرع، وزير الخارجية السورية، بشار بعدم حدوث مضاعفات دولية إذا ما تمّ تمديد ولاية لحود. وبالرغم من كل شيء، فقد غضّ الأميركيون الطَرف بشكلٍ أساسي عن هيمنة سوريا على لبنان منذ العام 1990 ولم يعارضوا التمديد الرئاسي للهراوي عام 1995. لمَ سيكون الأمر مختلفاً عام 2004؟

وقد تكون إساءة فهم الشرع للمزاج الأميركي حيال سوريا نابعةً من نصيحة سيّئة تلقّاها من بعض حلفائه اللبنانيين، بمن فيهم أحد الوزراء الموالين لسوريا في الحكومة، وقد أخبر الشرع بأنه التقى العديد من المسؤولين الأميركيين في واشنطن الذين صرفوا النظر عن فكرة صدور قرارٍ عن الأمم المتحدة ضد دمشق.

"أخبر فاروق الشرع الأسد في ذلك الوقت أنه بإمكانهم تأييد لحود دون حدوث مضاعفاتٍ في الأمم المتحدة"، يقول غازي العريضي. "دفع بعض تحرّكٌ هناك ' له] [قالوا الاتجاه. هذا في الشرع لسوريا الموالين اللبنانيين غير الدولي والمجتمع مقتنعين غير الأميركيين ولكن وشيراك الحريري قِبَل من مقتنع ' " (13) .

ومن جهةٍ ثانية، يؤكّد المسؤولون السوريون والمسؤولون اللبنانيون الموالون لسوريا أن التمديد للحود مستوحى من معرفةٍ مُسبَقة لحتمية

صدور قرارٍ عن الأمم المتحدة ضد دمشق.

"عَلِم السوريون من مصادرهم أن قراراً سيصدر بصرف النظر عن التمديد للحود"، يقول وئام وهّاب. "عَلِم السوريون أنه بدخول الأميركيين العراق، كانت قد دخلت المنطقة مرحلةً جديدة... وأن سوريا ستدفع ثمناً. واعتُبر لحود الوحيد القادر على مقاومة ضغوطٍ مماثلة إلى جانب حلفاء كحزب الله" (14) .

وبعد أشهر، شرح بشار في خطابٍ له أنه كان قد علم بوجود قرارٍ مُعَدٍّ في مجلس الأمن ضد سوريا بصرف النظر عن التمديد للحود أم لا.

"لا يوجد صلة بين القرار وتمديد ولاية الرئيس لحود"، قال. "قد اكتشفنا في الأشهر القليلة الماضية وجود بعض الفقرات الشرطية الضمنية والصريحة في القرار 1559. فقد أُعدّت بعد الحرب على العراق مباشَرةً".

وفي تشرين الأول/أكتوبر 2005، أخبر بشار المحرر الصحافي في الحياة جهاد الخازن بأن قرار تمديد ولاية لحود كان تدبيراً وقائياً ضد قرار الأمم المتحدة الحتمي. كان لحود "رجل مبادئ وإخلاص"، قال بشار. "كان الخيار الأفضل لخوض المعركة معنا، كما أثبتت الأحداث اللاحقة".

لا يوافق الكثيرون على ذلك التصريح الأخير. فعندما قال بشار للحريري، كما زُعم، أنه لحود ولحود هو، حرّك سلسلةً من الأحداث كان من شأنها إفلات لبنان من قبضة سوريا في أقل من تسعة أشهر.

ومع ذلك، فقد كان لحود "أحد حماة المصالح السورية الأكثر فعّاليةً في لبنان"، وفقاً لدبلوماسي أوروبي في بيروت، وشملت "الروابط المافيوية" بين البلدَين (15) . ولم تكن سيطرة سوريا على لبنان هدفاً سياسياً - إيديولوجياً فقط؛ كانت أيضاً عملاً جنت منه عدة بلايين من الدولارات، وكان بالإمكان تعريضه للخطر إذا بلغت شخصيةٌ أقل مرونةً سدة الرئاسة.

كان قد أعلن السوريون عمّن يريدونه في منصب الرئاسة، ولكن ولاية لحود الإضافية كانت ما تزال رهناً بموافقة ثلثَي أعضاء البرلمان الـ 128 على تعديل الفقرة 49 من الدستور. وكان بإمكان السوريين ضمان 77 صوتاً هم حلفاء لبنانيون لها، وما تزال تحتاج إلى تسعة لتأمين الثلثَين. وبتوقّع اقتراع كتلة وليد جنبلاط البرلمانية المؤلَّفة من 17 نائباً ضد مشروع القانون، فهذا عنى أن مصير التمديد رهنٌ بكتلة الحريري المؤلّفة من 18 نائباً.

ووضع نبيه برّي الاقتراع البرلماني في جدول أعمال 3 أيلول/سبتمبر،

آملاً في أن يصبح تمديد ولاية لحود أمراً واقعاً قبل تبنّي مجلس الأمن الدولي القرار الذي رعته فرنسا وأميركا ضد سوريا. ومن يخته في سردينيا، أعلن الحريري أنه سيبقى وفيّاً لسوريا وأصدر تعليماتٍ لكتلته النيابية للاقتراع كما يشاؤون.

ولم يكن الحريري السياسي الوحيد الذي يتعرّض للضغوط لقبول القرار السوري. فقد أعلن مصباح الأحدب علانيةً، وهو نائبٌ سنّي معارض من طرابلس، أنه كان قد تلقّى وزوجته تهديداتٍ بالموت عبر الهاتف. وادّعى بطرس حرب، وهو نائب ماروني من مدينة البترون الساحلية في شمال لبنان، توجيه رسائل فاكس مجهولة المصدر لسياسيين وشخصيات دينية تعارض التعديل الدستوري تتضمّن تهديداتٍ واتهاماتٍ لرجال الدين تتناول "الاغتصاب وسِفاح القُربى".

وتلقّى غطاس خوري أيضاً، وهو عضو كتلة الحريري البرلمانية، اتصالاً هاتفياًَ في وقتٍ متأخر من الليل يهدّد بالموت.

ضد وصوّتتَ ذكي أنك تظنّ كنت إذا ' ويقولون بي يتصلون "كانوا

. (16) خوري يقول ،" ' بعائلتك الأذى ويلحق للقتل تتعرّض قد التمديد البطريركي المقر في صفير الكاردينال خوري التقاء من واحد يومٍ وقبل مجهول هاتفياً اتصالاً زوجته تلقّت ،لبنان شمال في الديمان في الصيفي .حيّاً بيروت إلى يعود لن زوجها إن قال ما شخصٍ من المصدر

"طلبت مني عدم الذهاب لرؤية البطريرك، ولكنني ذهبت بأية حال وأصدرت تصريحاً علنياً في الديمان حول التهديد، وقلت إنني أخطط للاقتراع وفقاً لضميري"، يقول.

وعُرض على بعض أعضاء البرلمان إغراءاتٌ أو مناصب شريطة الاقتراع للتعديل. وقام نائبٌ ووزيرٌ سابق بالاقتراع لصالح التعديل بعد رفع حظرٍ مفروضٍ على نشاطاته المُربِحة في الكسارات قبل يومٍ واحد من انعقاد البرلمان، وكان قد عارض علانيةً التمديد للحود. وقيل لأحد النواب الذي كان يواجه مشاكل مالية إنه سيتمّ الضغط على المصارف التي أقرضته المال للموافقة على آجالٍ ميسَّرة لتسديد ديونه، شريطة التصويت لصالح التعديل. ووُعد أيضاً بمقعدٍ وزاري في الحكومة المقبلة، وهو وعدٌ نُفِّذ بعد شهرين (17) .

وتلقّى نوابٌ اتصالاتٍ هاتفية من جميل السيّد ورستم غزالة حملت تشجيعاً، وتملّقاً، وتهديداً للحصول على تعاونهم في الاقتراع البرلماني. وقام أحد الوزراء بقطع خطه الهاتفي النقّال لعدة أيام وأصدر تعليماتٍ

لموظَّفيه للقول بأنه غير موجود بهدف تجنّب التحدّث إلى المسؤولَين الأمنيَّين (18) .

عُقد مجلس الأمن يوم الثلاثاء في 2 أيلول/سبتمبر وصوّت بالكاد لصالح القرار 1559 إذ بلغ عدد المقترعين لصالح القرار تسعة فيما امتنع ستة عن التصويت، وهو العدد الأدنى المطلوب لتبنّي القرار. واسترضاءً لروسيا، والصين، والجزائر، استثنت المسوّدة النهائية ذكر سوريا بالاسم ولكن لم يكن بالإمكان تجاهل أن سوريا هي المعنية بما يطالب به القرار.

وأثار القرار ردة فعلٍ عنيفة من قِبَل الموالين لسوريا في لبنان الذين جادلوا قائلين، مع بعض التبرير، إنه تدخّلٌ لا مبرّر له في الشؤون اللبنانية. وكان هناك بالتأكيد أكثر من مجرّد نفحةٍ من الرياء في تصميم الولايات المتحدة وفرنسا والأمم المتحدة على استعجال سوريا للاستجابة لمتطلبات القرار. وأشار منتقدو القرار 1559 إلى أن الولايات المتحدة لم تُظهر حماسةً مماثلة في الطلب بالإيفاء بمتطلّبات قرارات مجلس الأمن المتعلّقة بإسرائيل، بما فيها تلك المرتبطة باحتلال الدولة اليهودية جنوب لبنان طيلة 22 عاماً.

عاد الحريري إلى بيروت من سردينيا يوم الجمعة، قبل ساعاتٍ قليلة من الجلسة البرلمانية وكتفه الأيسر ملفوفٌ بجبيرة جصية. فقد كانت إصابةً رمزية إلى حدٍّ كبير وأدّت إلى تعليقاتٍ تشير إلى أن السوريين لووا ذراعه بقوة. ووفقاً لسياسيٍّ لبناني متمرّس موالٍ لسوريا، بذل الحريري جهداً بالمكر والحيلة لعدم حصول لحود على سنواتٍ ثلاث إضافية من خلال عرض مبلغ 20 مليون دولار على رستم غزالة لإخبار القيادة السورية بأنه عاجزٌ عن تدبّر أمر التمديد الرئاسي. ولكن غزالة رفض العرض.

"لم يكن غزالة في وضعٍ يمكّنه من إخبار السوريين بأن التمديد لن يتمّ. كان العرض دلالةً على يأس الحريري"، يقول السياسي (19) .

وبعد 24 ساعة تقريباً من تبنّي القرار 1559، وافق البرلمان اللبناني مُطيعاً على التعديل الدستوري الذي أيّده 96 صوتاً في مقابل 29، مانحاً لحود سنواتٍ ثلاث إضافية في منصبه الرئاسي. وباستثناء غطاس خوري، اقترعت كل كتلة الحريري، بمن فيهم الحريري نفسه، لصالح الاقتراح.

وفي تلك الليلة، أضاء مؤيّدو لحود سماء بيروت بالألعاب النارية احتفالاً. ولم تكن هناك احتفالاتٌ في منزل الحريري في قريطم بل جوٌّ من الاستسلام الكئيب بينما كان الحريري يستعدّ لتشكيل حكومةٍ جديدة كان قد وعد السوريون بأنها ستكون متحررة من التدخل السوري. وسعى

الحريري إلى حكومةٍ موسَّعة تضمّ أعضاء من المعارضة كشخصياتٍ بارزة من مجموعة قرنة شهوان التي يدعمها الكاردينال صفير.

ولكن سرعان ما بات من الواضح أن السوريين لم يكن ينوون الإيفاء بتعهّدهم القاضي بتقييد لحود وإطلاق يد الحريري في اختيار الحكومة الجديدة. ووفقاً لأحد مساعدي الحريري، فقد سُلِّمت للحود قائمة بـ 18 وزيراً طِبقاً للدستور. ومرّر لحود القائمة للسوريين للموافقة عليها.

"كانت القصة نفسها مجدَّداً"، يقول المساعد. "شرع السوريون بالاستفهام عن الأسماء وبدأوا بتسمية أشخاصٍ من قِبَلهم. كانت النتيجة ' قال، عندها منهم. الكثيرين الحريري يختر لم اسماً 24 من قائمةً النهائية . (20) " ' الآن بعد اللعبة هذه في أشارك لن .كفى

ومع ذلك، طلب السوريون من الحريري الصمود أقلّه حتى نشر التقرير الأول للأمم المتحدة حول تطبيق القرار 1559 والمتوقَّع في أول تشرين الأول/أكتوبر.

وكانت الأحداث المكدِّرة في الأسابيع السابقة قد أصابت الحريري بخيبة أملٍ كبيرة، مُرهَقاً جسدياً ومُجهَداً معنوياً. وفؤاد السنيورة الذي يقول إنه عرف الحريري "كما أعرف بصمات أصابعي"، يتذكّر عندما كان في مكتب الحريري في أحد أيام أيلول/سبتمبر، وطرح عليه سؤالاً حول التمديد الرئاسي الذي "كان تدقيقاً يحمل حساسية ليس من المفترض مني قوله".

"بكى لمدة 30 ثانية على كتفي"، يقول السنيورة (21) . "كان كمن يحمل إصابة وخدشتَ تلك الإصابة وبدأت تنزف ثانيةً".

وبينما كان الحريري منشغلاً بالتفاوض حول قائمته الوزارية في أيلول/سبتمبر وكانت الحكومة تخوض معركةً دبلوماسية ضد القرار 1559، كانت الكاميرات الأمنية المثبَّتة على واجهة السفارة الإيطالية المؤلَّفة من أربعة طوابق والمغلَّفة بأحجارٍ رملية وفقاً للطراز الكلاسيكي الحديث، والمواجهة لمبنى البرلمان في بيروت، تلتقط بعض النشاط غير الاعتيادي بما يكفي لوضع الجهاز الأمني العسكري الإيطالي في حالة تيقّظٍ وحذَر. وبعد أيام، وفي 22 أيلول/سبتمبر، كشف وزير الداخلية الياس المر أن الحكومة فكّكت مجموعةً منتسبة إلى القاعدة كانت على وشك القيام بسلسلةٍ من الهجمات بالقنابل ضد أهدافٍ غربية وحكومية في بيروت، بما في ذلك السفارة الإيطالية والقنصلية الأوكرانية.

"تمكّنا من تخليص الوطن وبلدانٍ أخرى عربية وأجنبية من عملياتٍ إرهابية خطِرة كان من شأنها استهداف أشخاصٍ أبرياء وتشويه سمعة

لبنان"، قال المر.

ولقي إعلان الاعتقالات الاستحسان في ظل أجواءٍ شكوكية واسعة النطاق في لبنان. وتزامن الكشف مع إتمام القوات السورية إحدى عمليات إعادة الانتشار الدورية في لبنان، مخفّضةً عدد جنودها إلى حوالى 14,000 جندي. واعتقد المحلّلون والمعلّقون أن الرسالة الثنائية الواضحة وراء الاعتقالات هي أن الحاجة إلى الوجود العسكري السوري ما زالت قائمة لحماية لبنان من "الإرهابيين" الإسلاميين. وكانت طريقةً أيضاً أخبرت فيها بيروت واشنطن بأنها تواجه أيضاً تهديداً نضالياً وفقاً للأسلوب الذي تتّبعه القاعدة.

ولكن كانت هناك حاشيةٌ للقصة لافتةٌ للنظر. فبعض أولئك المعتقلين قدموا من مجدل عنجر، وهي بلدة سنّية في البقاع على بُعد كيلومترٍ واحد جنوب عنجر، وهي البلدة الأرمنية التي تستضيف المقرّ الرئيسي للمخابرات العسكرية السورية. ويبدو أن المر اتصل بالمسؤولين الأميركيين في شأن الاعتقالات قبل استشارة غزالة، وهو خرقٌ فادح للبروتوكول، والذي حثّ الحريري على توجيه ملاحظةٍ لوزير داخليّته مفادها أن "ما فعلته خطِرٌ جداً" (22) . وأبدى غزالة الغاضب اعتراضاته المعروفة في محادثةٍ هاتفية محمومة مع المر تبادل خلالها الرجلان الشتائم أمام العديد من زعماء العشيرة المجفَلين القادمين من مجدل عنجر. وكانت مجدل عنجر في الفناء الخلفي لمسكن غزالة. فإذا كانت خليةٌ من المقاتلين الإسلاميين قادرةً على التخطيط لحملة تفجير على مسمع المقر الرئيسي لغزالة، من المحتمَل إذاً أن تكون المخابرات العسكرية السورية إمّا مشاركةً في العملية أو غير كفوءة لأنها لم تكتشف العملية بسرعة.

ومن ثمّ، كانت هناك تفاصيل عن مؤامرة مزعومة لم تتسرّب تفاصيل كافية عنها. ويبدو أن خلية القاعدة خطّطت لتفجير السفارة الإيطالية بواسطة 300 كيلوغرام من المتفجرات (23) . ولكن السفارة تقع في الجهة المقابلة من ساحة النجمة حيث مبنى البرلمان ومقهى النجمة الذي كان الحريري يحب تبادل أطراف الحديث فيه مع الصحافيين وارتشاف القهوة. فهي المنطقة الأكثر أمناً في كل بيروت إذ يُمنع دخول المركبات إليها وحتى سيارات لأعضاء البرلمان والوزراء. ولم يكن بالإمكان نقل 300 كيلوغرام من المتفجرات عبر الحواجز العسكرية المؤدّية إلى الساحة إلا تحت غطاء أجهزة المخابرات السورية واللبنانية. ويشتبه بعض المسؤولين العسكريين والسياسيين اللبنانيين بأن التخطيط لم يكن جارياً لمهاجمة السفارة الإيطالية،

وهكذا عثر المر مصادفةً على المؤامرة الأولى لاغتيال الحريري، ربما بتفجير موكبه لدى مغادرة ساحة النجمة. وتبقى الدلائل ظرفية، عِلماً أنها قد تكون سبباً لردة فعل غزالة الغاضبة والتهديدات اللاحقة للمر ومحاولة اغتياله (24) .

وفي 30 أيلول/سبتمبر، التقى الحريري شيراك الغاضب في فرنسا وشرح له سبب اضطراره للاقتراع لصالح التمديد الرئاسي، وطالب فرنسا بعدم الإصرار كثيراً على القرار 1559. وأخبر الحريري أحد مساعديه في وقتٍ لاحق بأن شيراك قال قُبَيل انتهاء اللقاء إنه فهم الضغوط التي تعرّض لها صديقه اللبناني، ووعد بألا يؤثّر تطبيق القرار 1559 في استقرار لبنان.

وبعد اللقاء، اعترف الحريري لبعض المراسلين الصحافيين أن حديثه مع شيراك كان "صريحاً جداً".

قال "هناك أمرٌ واحدٌ أكيد وهو أننا نمرّ في مرحلةٍ صعبة وحساسة جداً ونرجو ما هو أفضل".

وفي الصباح التالي، كان مروان حمادة، وزير الاقتصاد وحليف الحريري، أبطأ من المعتاد بمغادرة منزله القائم في مجمّعٍ سكني على هضبةٍ مُشرفةٍ على الطريق البحري في بيروت الغربية. وكان السياسي الدرزي يغادر منزله إلى مكتبه في البرلمان عادةً في الساعة الثامنة صباحاً، ولكنه تلكّأ في صباح الأول من تشرين الأول/أكتوبر عن المغادرة بسبب مشاهدة مقابلة تلفزيونية مع إيلي الفرزلي، نائب رئيس مجلس النواب.

وفي الساعة التاسعة وخمسة دقائق، رَكِب حمادة، وسائقه أسامة عبد الصمد، ومرافقه الشخصي من أفراد الشرطة الرقيب غازي بو كرّوم، سيارة المرسيدس الصالون السوداء. وقاد عبد الصمد السيارة إلى خارج الموقف تحت المبنى الذي يقطن فيه حمادة، وتوجّه نزولاً في شارعٍ ضيّق تمتدّ على جانبه أجماتٌ من الخيزران وصولاً إلى الطريق البحري الذي يبعد 400 متر. وبدنوّ عبد الصمد من مطبٍّ للتخفيف من السرعة، وعلى بعد مئة يارد (90 متراً) من المجمّع السكني الذي يقيم فيه حمادة، انحرف بالسيارة إلى جانب الطريق لتجنيب الإطارات اليسرى المطبّ ممّا يخفّف أثر المرور فوقها - هي تقنية شائعة يعتمدها السائقون اللبنانيون. وقال حمادة لاحقاً إن هذا الانحراف أنقذ حياته لأن المرسيدس كانت تشكل زاوية مع خط الطريق عندما انفجرت السيارة المفخَّخة على الجانب الآخر من الطريق على بعد 3 أمتار فقط. وأصاب الانفجار الذي تسبّبت به عبوة تزن 10

كيلوغرامات موضوعة فوق خزان الوقود لسيارة مرسيدس أخرى مؤخّرة سيارة حمادة، مُشعلةً النار فيها وفي ثلاث عربات متوقّفة. وعرف حمادة على الفور أنها عبوة ودفع باب السيارة وخرج. كانت قدمه مكسورة ولم يكن بإمكانه الوقوف. فانهار على الطريق عندما انفجر خزان الوقود التابع لسيارته محوّلاً إياها إلى كرة نار.

كان محمود أرناؤوط، وهو رسام ومهندس ديكور سوري، يدخل سيارته بعد الانتهاء من تنزّهه على الطريق البحري عندما سمع الانفجار (25) . فتدحرج تحت سيارته طلَباً للحماية ومن ثم لاحظ جثّةً ينبعث منها الدخان ملقاةً بجانب سيارةٍ مشتعلة في أعلى الطريق. فركب أرناؤوط سيارته واتجه إلى مسرح الحادثة للمساعدة. كان بو كرّوم قد قُتل بالانفجار وكانت جثّته متّقدةً بألسنة اللهب في المقعد الخلفي من المرسيدس المحترقة. ولم يُصَب عبد الصمد بأذى نسبياً وساعد أرناؤوط على سحب حمادة إلى داخل السيارة. لم يكن لأرناؤوط أي فكرة عن هوية الضحية إلى أن استعار عبد الصمد هاتفه النقّال وذكر اسم حمادة عندما كان يُعلِم الناس بما حدث. ونُقل حمادة إلى مستشفى الجامعة الأميركية على بعد دقائق قليلة من المكان.

وبانتشار أخبار محاولة الاغتيال، تجمّع حشدٌ غاضب خارج المستشفى. ومن بين المتمنّين العديدين بالشفاء الذين اندفعوا أفواجاً أفواجاً إلى المستشفى عبد الحليم خدام. فتحمّل بشجاعة عدائية الحشد وعانق جنبلاط علانيةً، وهو تصرّفٌ أظهر نفوذ خدام المتداعي في دمشق.

وكانت محاولة الاغتيال إشارةً إلى احتدام المواجهة التي رفعت من المخاطر بشكلٍ كبير.

"هذا هو المقصود، لقد دمّروا الحكومة الجديدة"، أخبر الحريري أحد معاونيه لدى تلقّيه النبأ (26) . وبالانفجار الذي كاد يودي بحياة حمادة، زالت أي فرصة لتشكيل حكومة وحدة وطنية.

لم يكن هذا الحادث تحذيراً لحمادة. كان من المفترَض أن يموت بالانفجار وكان محظوظاً بالنجاة. وبالإضافة إلى قدمٍ مكسورة، كانت أضلعه كلها مكسورةً أيضاً وعانى من حروقٍ خطِرة في يده، وكان بحاجةٍ إلى 450 قطبة في رأسه ووجهه، وأُصيب بنزيفَين تحت (الأُم الجافية). وتطلّبه الأمر أشهراً من العمليات الجراحية والعلاج الفيزيائي قبل التماثل إلى الشفاء.

وتميل التفجيرات الغامضة في لبنان إلى البقاء دون حل، ولم تكن محاولة اغتيال حمادة مختلفة. وإثر الانفجار، يُزعَم أن ضباط التحقيق

التابعين لقوى الأمن الداخلي تلقّوا اتصالاً هاتفياً من غزالة أخبرهم فيه أن المرتكبين إسرائيليون على الأرجح ولا جدوى من التحقيق. وأضاف غزالة أنه من المحتمَل أن يكون حمادة قد تدبّر أمر الانفجار عَمداً "للفت الانتباه إليه". ورشح في وقتٍ لاحق أن مشتبهاً فيه بالهجوم التفجيري، طلال العرب، الذي أوقف بتهمٍ أمنية مختلفة، كان قد حظي بعفوٍ رئاسي من قِبَل لحود عام 2000 بسبب جريمةٍ سابقة. وكانت معاملة عرب الخاصة مرتبطةً على ما يبدو بتوظيفه في شركةٍ أمنية يملكها ماجد حمدان، شقيق العميد مصطفى حمدان قائد الحرس الجمهوري واليد اليمنى للحود. ونفى القصر الرئاسي في ما بعد أن يكون عرب قد تلقّى عفواً. وعلاوةً على ذلك، التقطت كاميرا أمنية عائدة لمدرسة إنترناشونال كولدج القائمة بالقرب من المجمّع السكني الذي يقيم فيه حمادة صوراً للسيارة المفخَّخة ورجلٍ واقفٍ بقربها قبل الانفجار. ولكن شريط الفيديو اختفى بطريقةٍ غامضة، وبعد أيامٍ قليلة، عُثِر على جثة رجلٍ في وادي البقاع قيل إنها مشابهة للشخص المصوَّر.

"لم أستفهم عن المسألة. سُمح لي بعشر دقائق فقط مع جان فهد [قاضٍ عسكري] في المستشفى"، يقول مروان حمادة الذي كان ما يزال يسير متّكئاً على عكّاز ويخضع لعلاجٍ فيزيائي يومياً بعد عشرة أشهرٍ من محنته (27) . "لم يكن بإمكاننا رؤية المستندات [التابعة للتحقيق]. كان قد أعاق [النائب العام التمييزي عدنان] عضوم كل شيء".

مرتدياً عباءته، سند ظهره بهدوءٍ إلى وسادات الأريكة، ووجهه الشاحب مفعَمٌ بالحياة مع عينَين حادّتَي الذكاء تحت شعرٍ خفيفٍ رمادي بلون الفولاذ. وعلى طاولةٍ صغيرة للقهوة بجانب حمادة توجد صورةٌ له في إطار تجمعه والحريري وشقيقة الحريري، بهيّة، في البرلمان صبيحة 14 شباط/فبراير 2005. والثلاثة يضحكون، غير مُدركين أن ما تبقّى من حياة الحريري أقل من ساعتَين عندما التقط المصوّر الصورة.

وفي خاتمةٍ مُريعة للانفجار، سُلّم دماغ الحارس الشخصي بو كرّوم الممزَّق، وأسنانه ولسانه لعائلته المحزونة في مغلّفٍ رسمي من قِبَل قوى الأمن الداخلي، وهو تصرّفٌ بدا أنه إهانة افتراضية ممّا زاد من سخط المعارضة.

وفي كلمةٍ إبّان مأتم بو كرّوم، وصف جنبلاط حلفاء سوريا اللبنانيين بـ "النافخين المرتزقة في البوق" و"زمرة من المستفيدين".

وقرأ جنبلاط ثلاث رسائل في الهجوم التفجيري: إحداها لوسائل

الإعلام (لحمادة صلات عائلية بـ النهار)، وأخرى لفرنسا (يملك حمادة الجنسية الفرنسية)، ولكن محاولة الاغتيال كانت بصفةٍ أساسية تحذيراً صريحاً لجنبلاط نفسه، العضو الأبرز والأكثر صراحةً في المعارضة.

وفي اللحظة نفسها التي كان قد سارع فيها جنبلاط إلى المستشفى لتفقّد حالة صديقه بعد الهجوم التفجيري، اتصل الحريري من باريس.

"وليد، لديَّ سيارة مصفّحة بانتظارك في المستشفى"، قال، مشيراً إلى إحدى سياراته الفخمة المصفّحة من طراز مرسيدس (28) . "عليك استخدامها الآن".

وبعد أسبوعين، غادر حكمت الشهابي سوريا، وهو رئيس أركان الجيش السوري السابق الذي وقف موقف المتفرّج من التطورات ونبذه المجتمع، إلى الولايات المتحدة حيث كان يخطط للعيش بعد اتخاذ قرارٍ بمغادرة الوطن بشكلٍ دائم.

"كان في طريقه إلى مطار بيروت وأخبرني ثلاث مرات "انتبه على نفسك. انتبه على نفسك. انتبه على نفسك". فقد كان يعني أنني معرَّضٌ لتهديدٍ حقيقي"، يتذكّر جنبلاط.

لم تكن المرة الأولى. فقدرة جنبلاط على الاستمرار زعيماً للدروز طيلة 30 عاماً تقريباً كان بسبب قدرته على السير ببراعة في طريق التحالفات المتبدّلة والخدَع التي تميّز سياسات لبنان المضطربة والعنيفة في غالب الأحيان. وكان قد اكتسب سمعةً استحقّها تماماً كونه شخصاً بدا أنه يبدّل آراءه بسبب نزوةٍ عابرة مهما كانت صغيرة، وقد اعتبر البعض عدم موثوقيّته جزءاً من جاذبية هذا الشخص ذي الجسم الهزيل الذي يرتدي ثياباً غريبة، مع شعرٍ أشعث غير مرتَّب، وعينَين ناتئتَين، وجبينٍ على صورة قِبّة، وابتسامة ساخرة. لم يبدُ أبداً أنه أخذ الحياة - والموت - بجدّية. كان يملك سمعة المستهتر في سنّ الشباب، ويفضّل حضور اجتماعات مجلس الوزراء ببنطال الجينز عندما كان وزيراً في حكومات الحريري في التسعينيات، فاكتسب شكلاً خارجياً غير متّسمٍ بالاحترام مقارنةً مع المسؤولين اللبنانيين الآخرين ذوي السلوك المتّسم بالغرور في غالب الأحيان.

ولكن كانت هناك شخصيةٌ فولاذية وراء ذلك الذي يوحي باللامبالاة. فهو قادرٌ على أن يكون متحجّر القلب وذكياً، ويكون الزعيم اللبناني الأكثر اتّساماً بالمكر في الدفاع عمّا يعتبره مصلحةً للدروز ولعائلة جنبلاط. وبالرغم من سمعته الذي اكتسبها بسبب انعطافاته السياسية غير المبرَّرة، فقد بد أنه قرّر مواجهة دمشق كوالده كمال منذ 30 عاماً، وهو

أمرٌ محفوفٌ بالمخاطر. وقد انتهت تلك المواجهة السابقة بمقتل كمال جنبلاط بوابلٍ من الرصاص.

وفي صباح يوم سبت بعد محاولة اغتيال حمادة بفترةٍ قصيرة، كان يجلس جنبلاط على مقعدٍ حجري مغطّى بوسائد على امتداد جدار غرفة انتظار في منزله الفخم ذات الحجارة العسلية اللون في قرية المختارة الواقعة في عمق جبال الشوف. وكان مئاتٌ من الرجال الدروز، بعضهم يرتدون شراويل سوداء تقليدية وقلنسواتٍ بيضاء، مجتمعين للقاء زعيمهم الإقطاعي كما في كل سبت، بعضهم يحمل مطالب والتماسات، وآخرون يصافحونه فحسب معبّرين عن تأييدهم. هو طقسٌ أسبوعي يتقيّد به جنبلاط على الدوام، مُدركاً واجباته الإقطاعية.

ولكن في ذلك اليوم، كان في ذهن جنبلاط مسائل أخرى أكثر أهمية وخطورة.

"عندما قرّرنا أن نقول لا لتمديد ولاية السيد لحود، كان الجواب سيارة مفخّخة من المفترَض بها قتل مروان حمادة. الوضع خطِرٌ جداً"، قال هازّاً كتفَيه باقتضاب. "من المستحيل الدخول في حوارٍ جدّي مع هؤلاء الناس. فهم لا يريدون أي حوار".

وتُطلّ النافذة القائمة وراء جنبلاط على جزءٍ من ممتلكاته مع فناءاتٍ مظلَّلة بأشجار الصنوبر، وسلالم حجرية شديدة الانحدار، ونوافير، وعددٍ وافرٍ من الجداول التي تمرّ في قنواتٍ عبر الحدائق. وترتفع الغابة الكثيفة وراء المختارة وتغدو أقل كثافةً تحت قمّة جبال الباروك القاحلة التي ترتفع 2,000 متر تقريباً. وبين الأشجار في الحديقة يتوارى قبر والد جنبلاط، وهو بلاطةٌ مسطَّحة من الرخام الأسود مع زهورٍ منبسطة بعذوبة وبجانبها صفٌّ من الشموع الصغيرة.

تُرى، هل كان يفكّر كثيراً بمصير والده خلال فترة التوتر هذه؟ أظهر جنبلاط بعض الاهتياج في المرة الأولى. فوقف وبدأ يمشي في الغرفة جيئةً وذهاباً محدّقاً بالأرض.

"كانت الظروف مختلفة"، قال أخيراً. "كنا ما زلنا في وسط هذه الحرب الأهلية المروّعة. في تلك الأيام، قرّرت المسامحة. النسيان صعب. المسامحة ممكنة".

في نهاية فترة الحداد على والده التي امتدّت 40 يوماً عام 1977، ذهب جنبلاط إلى دمشق للتعبير عن ولائه لحافظ الأسد. وحيّا الرئيسُ السوري الرجلَ الشاب بتعليقٍ غامضٍ يُفقد العزيمة "يا لهذا الشبه الكبير

مع والدك". وأثبت جنبلاط أنه حليفٌ مُخلصٌ لسوريا، ثابتٌ على مبادئه، منذ ذلك الوقت. وبالرغم من كونه الشخصية البارزة في المعارضة اللبنانية، فقد كانت معركته العلنية ضد لحود وجهاز المخابرات السورية - اللبنانية التي تحكّمت في لبنان. وأبقى أفكاره الشخصية حيال سوريا وقيادتها لنفسه.

ولكن قبل أيامٍ قليلة، كان قد ألقى بشار كلمةً قوية اللهجة في دمشق، مبرّراً دور سوريا في لبنان والتضحيات التي بذلتها لإنهاء الحرب الأهلية. "لم نأخذ شيئاً من لبنان، ولكننا قدّمنا الدماء"، قال.

ووصف بشار كيف أن سوريا كان قد قدِمت عام 1976 لمساعدة مسيحيي لبنان "الذين كانوا يُذبَحون في ذلك الوقت... باسم إصلاح النظام السياسي، والعدالة والاشتراكية والتقدم".

وبالرغم من إحجام بشار عن ذِكر كمال جنبلاط بالاسم، فإن التلميح إلى "العدالة والاشتراكية والتقدم" هي إشارةٌ شفافة إلى والد وليد، مؤسس وقائد الحزب التقدّمي الاشتراكي.

ومن الواضح أن كلمة بشار أزعجت جنبلاط، نظراً إلى أنه يعتقد، وبشكلٍ غير مثيرٍ للدهشة، أن والده قُتِل تنفيذاً لأوامر والد الرئيس السوري الشاب.

"الوالد، حافظ الأسد، كان قائداً مشهوراً في أواخر القرن العشرين"، قال جنبلاط مكلّماً نفسه أكثر ممّا كان يكلّمني، كما بدا لي ذلك، وكان ما يزال يجوب أرجاء الغرفة بعصبية. "لا يمكننا إنكار ذلك، وقد لعب دوراً هاماً في المنطقة، وفي النزاع العربي - الإسرائيلي، وفي بناء سوريا. ولكنني أدّعي أيضاً أن والدي كان شخصيةً مشهورة في العالم العربي ولا أريد لذِكرى والدي أن تُهان. هذا أقل ما يمكنني طلبه. لم أتحدَّ أبداً جدارة حافظ الأسد بالاحترام... لم أذكر أبداً شيئاً مسيئاً إليه في الصحافة. أبداً... ولكن يبدو أن ذاكرة بعض الناس ضعيفة، للأسف".

أطلقت الأمم المتحدة تقريرها الأول حول تطبيق القرار 1559 في أول تشرين الأول/أكتوبر، أي بعد 30 يوماً من تبنّي القرار وفي اليوم نفسه الذي كاد يُقتَل فيه حمادة بواسطة سيارةٍ مفخَّخة. وكانت دمشق تنتظر نتائج تحقيق الأمم المتحدة ببعض القلق، متخوّفةً من أن هذا الأمر قد يكون نذيراً لصدور قرارٍ آخر. ولكن التقرير تضمّن ببساطة نظرةً عامة تاريخية حول التدخّل السوري في لبنان، ومن ثمّ تقييماً واقعياً للإذعان اللبناني والسوري لكلٍّ من مطالب القرار. وباستثناء إعادة انتشارٍ ثانوية للجنود السوريين في أيلول/سبتمبر، أشار التقرير إلى أن أيّاً من المطالب لم

يتمّ الإيفاء بها.

ومنح التقييم الفاتر الصادر عن الأمم المتحدة سوريا مجالاً كافياً لالتقاط أنفاسها والاستغناء عن الحريري كرئيس وزراء. وكُلِّف نبيه برّي توجيه الضربة القاضية. وفي 20 تشرين الأول/أكتوبر، أخبر برّي الحريري خلال لقاءٍ قصير أنه يملك ساعتَين للتخفيف من حدّة لهجته أم أن سبعةً من الوزراء في حكومته الموالين لرئيس مجلس النواب والرئيس سيعتكفون.

فعاد الحريري إلى قريطم وكتب رسالة استقالته بمساعدة ثلاثة زملاء له، اثنان منهم عضوان في البرلمان (29) . واختتم الحريري رسالته بجملةٍ دراماتيكية "إنني أستودع الله سبحانه وتعالى، هذا البلد الحبيب لبنان، وشعبه الطيّب، وأعبِّر من كل جوارحي وامتناني لكل الذين تعاونوا معي خلال الفترة الماضية".

ولكن الثلاثة الآخرين ألحّوا عليه لاختصار الجملة.

"هل أنت واثق من قول ذلك؟" سأل أحدهم. "الناس سيظنون أنك ستتخلى عن لبنان نهائياً".

"دعوهم يظنّون ما يريدون أن يظنّوا"، أجاب الحريري.

واختير عمر كرامي، رئيس الوزراء السابق من طرابلس الذي سرّعت معالجته الكارثية للاقتصاد عام 1991 - 1992 في وصول الحريري إلى رئاسة الحكومة، لرئاسة حكومةٍ جديدة، وهو قرارٌ وصفه كولن باول بلهجةٍ تأنيبية بـ "غير الملائم".

وكانت استقالة الحريري طلباً بإعفائه من التزاماته وتنفيساً عن مكنونات صدره، وقد أسدلت الستارة على أحداثٍ مريرة شهدها الشهران السابقان. وقد يكون أُجبر على التخلّي عن منصبه، ولكن فيما يتعلق به لن يكون هذا سوى غيابٍ مؤقّت. وحُدِّد موعد الانتخابات البرلمانية في أيار/مايو 2005 وكان الحريري يعتزم تكرار فوز العام 2000 الساحق في الانتخابات على نطاقٍ أكثر توسّعاً. وإن هو تمكّن من إنشاء تحالفٍ يضمّ مختلف الطوائف ويقدر على سحق المرشحين الذين تدعمهم سوريا، لن يكون أمام نظام دمشق سوى خيار التعامل معه كندٍّ موضع تقديرٍ واحترام لا كتابعٍ مستخَفٍّ به. ومع ذلك، فقد كانت حملةً تتطلّب براعةً وحذاقة. كان يريد إثبات أمرٍ ما للسوريين لا مواجهتهم. وحتى في هذه المرحلة الأخيرة، وبالرغم من الإذلال التي تعرّض له في العامَين السابقَين، كان ما يزال الحريري يعترف بأن سوريا واقع حياتي لا يمكن للبنان اجتنابه، وأن المحافظة على علاقاتٍ قوية وسليمة هي ذات أهمية كبيرة لاستقرار لبنان

وازدهاره المستقبلي.

وبالطبع، كانت محاولة اغتيال مروان حمادة سبباً قوياً وشخصياً لعدم الضغط على السوريين كثيراً. وبعد الهجوم التفجيري في أول تشرين الأول/أكتوبر، بدأ الحريري وجنبلاط باتخاذ تدابير وقائية أمنية أكبر، مطمئنَّين إلى حدٍّ ما للتحذيرات التي وجّهها الفرنسيون والأميركيون لدمشق ومفادها أن أي هجماتٍ أخرى تتعرّض لها شخصيات المعارضة لن تلقى تسامحاً.

وطمأن الحريري مستشاريه القلقين بأن السوريين لن يحاولوا قتله لأنه ليس عضواً كاملاً في المعارضة وبشكلٍ علني، ولأنه كان ذا شأنٍ كبير ببساطة. فلم يكن الحريري مجرّد سياسي محلّي ثانوي غير معروف خارج لبنان يمكن قتله بسهولة دون أي مضاعفاتٍ من قِبَل المجتمع الدولي.

"رأى شيراك أنه من غير الآمن للحريري العودة إلى لبنان. وعندما عاد، كان يتصرف وكأن شيئاً لم يحدث. كان مُسرفاً في ثقته بنفسه"، يقول جنبلاط.

ومن جهةٍ ثانية، بقيت عائلة الحريري ومجموع موظفيه قلقين جداً على سلامته. وخلال فترة عيد الفطر التي امتدّت ثلاثة أيام مشيرةً إلى نهاية شهر رمضان المبارك، تدفّق آلاف المتمنّين بالسلامة إلى قريطم للتعبير عن تأييدهم للحريري. كان عرضاً جليّاً لشعبية الحريري ومفارقةً رفعت مستوى التهديد المُحدق به حتى وإن كان تهديداً اختار تجاهله.

وبدأ الخناق يضيق على عنق الحريري. ورُقّي علي الحاج، الرئيس الأمني السابق لدى الحريري، إلى منصب المدير العام لقوى الأمن الداخلي في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر. وكانت أحد أعماله الأولى تخفيض الوحدة الموكَلة حماية الحريري من 40 ضابطاً من قوى الأمن الداخلي إلى ثمانية. وصدرت التعليمات من رستم غزالة، ولكن لحود برّر الأمر قائلاً إنه لا يُسمَح لرئيس وزراءٍ سابق إلا بثمانية ضباطٍ من قوى الأمن الداخلي لحمايته. ولكن الحريري لم يُبالِ. فلديه فريقه الأمني الخاص وسيارات مرسيدس فخمة مصفّحة ومزوَّدة بالأجهزة الإلكترونية الأكثر تطوّراً لمقاومة الإشارات الإلكترونية التي يمكن استخدامها لتفجير قنابل. وعندما نجا بالكاد صديقه برفيز مشرَّف، رئيس باكستان، من محاولة اغتيالٍ عام 2003، أرسل له الحريري قافلةً من سياراته المصفّحة.

"لم يكن الحريري قلقاً في ذلك الوقت"، يقول أحد معاوني الحريري المقرَّبين (30) . "اعتاد القول "لا تموت إلا عندما يحين الأجل المحتوم". كان مؤمناً بالقضاء والقدر وفقاً للتقليد الإسلامي. أظن أنه بات

متهوّراً قليلاً لأنه اعتقد أن السوريين لن يفعلوا له شيئاً بعد تحذير الأميركيين والفرنسيين لهم".

وبالرغم من ثقته بنفسه، حرص الحريري على ألا يُعتبَر شخصيةً معارضة تماماً، وذلك بخلاف ما صار عليه حاله في الأشهر الثلاثة التالية. وبالرغم من أنه كان على اتصالٍ عبر وسطاء بجماعات المعارضة كتجمّع قرنة شهوان المسيحي، فقد كان يعتبرهم عدائيين جداً لسوريا ومتعاطفين جداً مع مطالب القرار 1559 المُحرِجة والحساسة الداعية إلى نزع سلاح حزب الله والجماعات الفلسطينية، ونشر الجيش اللبناني على امتداد الحدود الجنوبية مع إسرائيل.

"أراد الحريري البقاء في مكانٍ ما في الوسط لأنه كانت هناك بعض المسائل لم يكن على توافقٍ مع المعارضة في شأنها. لم يكن يتّفق مع المعارضة دائماً. كان الحريري مع الطائف لا مع 1559"، يقول وزيرٌ سابق في حكومات الحريري (31) . "بكل صدقٍ وأمانة، لم يفكّر أبداً بإيذاء السوريين. لا لأنه كان خائفاً منهم، بل لأنه كان رجلاً يؤمن بأن قيام علاقةٍ جيدة معهم يخدم المصلحة العربية".

وفي كانون الأول/ديسمبر، وُلدت معارضة متعددة الطوائف خلال مؤتمرٍ في فندق البريستول في بيروت الغربية. وجاء في الإعلان الذي تُلي في نهاية اللقاء أن لبنان كان قد دخل "مرحلةً خطِرةً جداً"، ودعا إلى "انتخاباتٍ برلمانية "نزيهة وحرّة" واستقالة حكومة كرامي بسبب "بنيتها المتحيّزة وموقفها الهادف إلى تعميق الخلافات بين اللبنانيين أكثر فأكثر".

وبقيادة وليد جنبلاط، ضمّ "تجمّع البريستول" شخصياتٍ رائدة من أحزاب المعارضة المسيحية والدرزية، بمن فيهم الحزب التقدمي الاشتراكي التابع لوليد جنبلاط، واليساريون العلمانيون، والقوات اللبنانية التابعة لسمير جعجع، وأتباع ميشال عون. وكان المشاركون السنّة أقل عدداً دون وجودٍ شيعي تقريباً، مع الإشارة إلى أن التحالف المسيحي - الدرزي بقي العمود الفقري للمعارضة المناهضة لسوريا. وبقي الحريري بمنأى عن تجمّع البريستول، ولكنه طلب من غطاس خوري الحضور بصفةٍ شخصية، وهي خطوة قال خوري إنه كان يُقصَد بها أن تكون غامضةً بشكلٍ متعمَّد.

"أردنا ضمّ حركة الحريري إلى المعارضة بالتدريج بسبب التهديدات المباشَرة التي كان يتلقاها هو والآخرون"، يقول خوري (32) .

وبعد ساعاتٍ من انتهاء اللقاء في فندق البريستول، قذف راكب دراجةٍ نارية إصبع ديناميت على مكتبٍ للحزب التقدمي الاشتراكي التابع

لجنبلاط في منطقة وطى المصيطبة في بيروت الغربية. ولم يتسبّب الانفجار بأي إصابات أو أضرار ولكنه أصاب سكان المنطقة بالذّعر، بمن فيهم وزير البيئة الجديد وئام وهّاب الذي اندفع بسرعةٍ إلى خارج منزله المُحاط بالحراس الشخصيين معلناً أن شخصاً ما كان يحاول اغتياله.

حضر خوري لقاءً ثانياً لتجمّع البريستول في 28 كانون الأول/ديسمبر برفقة باسل فليحان، وزير الاقتصاد السابق ومستشار مقرَّب للحريري.

وكان الحريري مُدركاً أنه إذا أسرع باحتضان قرنة شهوان وجماعاتٍ مسيحية أخرى متعاطفة مع القرار 1559، قد يفقد دعم ناخبيه السنّة ويُعيق محاولاته لانضمام الشيعة إليه. وكان الشيعة الرافضين الوحيدين لتقبّل المعارضة وإن مؤقّتاً. وكان يقيم الحريري تحالفاً مفتوحاً وقوياً مع الدروز من خلال جنبلاط. وكان هناك اتصالٌ بينه وبين جماعات المعارضة المسيحية وإن ببعض الحذَر. وكان السنّة يؤيّدون الحريري على نطاقٍ واسع كمعارضٍ صامت إذ إن الوقت لم يحِن بعد لتحدّي السلام السوري علانيةً. وهكذا، بقي الشيعة، وهم يشكّلون الطائفة الأكبر عدداً في لبنان، إلى جانب السوريين. وفي نهاية تشرين الثاني/نوفمبر، أرخى حزب الله بثقله لاستجماع القوى المؤيّدة لسوريا بإشرافٍ حكومي، وذلك من خلال تحرّكٍ دُعي "مسيرة المليون رجل" دعماً لسوريا ورفضاً للتدويل الزاحف إلى المسرح السياسي اللبناني. ولم تجتذب المسيرة التي وعد عمر كرامي بأنها ستكون ضخمة وساحقة سوى 100,000 شخص، وكانت أمراً مستنبَطاً إذ إن الأحزاب الموالية لسوريا شاركت في المسيرة جنباً إلى جنب مع العمّال السوريين واللاجئين الفلسطينيين.

ومن جهةٍ ثانية، بذل حزب الله جهداً كبيراً للتأكيد على أنها كانت تظاهرة ضد التدخل الدولي في لبنان وليس ضد المعارضة اللبنانية. وعشية المسيرة، أرسل حزب الله وفداً مفوَّضاً إلى بكركي، مقرّ البطريركية المارونية، لطمأنة الكاردينال صفير بأنه لا يُفترَض تفسير مشاركة الحزب بأنها ضد المسيحيين. وأثناء المسيرة نفسها، أخبر الشيخ نعيم قاسم، نائب الأمين العام لحزب الله، الحشد بأننا "لن نقسم لبنان بين مناوئين ومؤيّدين للقرار 1559". واختارت محطة تلفزيون المنار التابعة لحزب الله تجاهل مضيف المسيرة، النائب ناصر قنديل الموالي لسوريا بشكلٍ متطرّف، والذي كانت كلمته هجوماً استفزازياً متعمَّداً على المعارضة.

وكانت تلك الطبيعة التصالحية غير المجابِهة التي شجعت الحريري

على التسليم بأن السيد حسن نصر الله هو شريكه الشيعي المحتمَل. والخيار الآخر هو نبيه برّي، رئيس حركة أمل. ولكن الحريري تخلّى في نهاية المطاف عن برّي معتبراً إياه مرتشياً وغير جدير بالثقة بصورةٍ غير قابلة للعلاج. فقد كان برّي انتهازياً وساعياً إلى البقاء، لا مجازفاً. فهو سيبقى حليفاً لسوريا موثوقاً به ما دامت دمشق تقوم بمحاولاتٍ في لبنان.

"أنهى رفيق علاقته مع نبيه برّي 100 في المئة"، يقول مستشار مقرَّب من الحريري (33) .

وكانت قد استمرّت اللقاءات بين الحريري ونصر الله في ساعاتٍ متأخرة من الليل بلا انقطاع حتى أوائل حزيران/يونيو. وبعد تقديم استقالته في تشرين الأول/أكتوبر، بدأ الحريري بتوجيه المناقشات في اتجاه ضرورة إعادة تحديد العلاقات بين لبنان وسوريا لصالح البلدَين. ويجادل الحريري قائلاً إنه يُفترَض بحزب الله أن يصبح شريكاً له في محاولة إنشاء علاقة جديدة مع سوريا، شراكةٌ تقوم على الاحترام المتبادَل بين الدولتَين مع أولوياتٍ استراتيجية مشتركة. وكشف لقائد حزب الله عن تفاصيل حول الابتزاز والفساد اللذين كانا سمة الهيمنة السورية على لبنان، والأثر الأكّال الذي خلّفته على قدرة البلدَين على التعاطي مع بعضهما البعض بإنصاف. وإن علاقةً قائمة على الفساد توجهها الأجهزة الأمنية والمخابراتية لا تعود بأي فائدة على أيٍّ من الجانبَين، كما قال. فقد حان الوقت لصياغة العلاقات وفقاً لأساسٍ سياسي والتخلّي عن عدم الثقة وذُهان الارتياب اللذين طبعا العلاقات في الماضي.

"أنا لست مع القرار 1559. أنا مع الطائف"، أخبر الحريري نصر الله، وفقاً لمصطفى نصر، الوسيط الذي كان يحضر اللقاءات (34) . "إذا انسحب السوريون إلى البقاع طِبقاً للطائف وبات لنا اتفاقٌ جديد مع السوريين، عندها سأحمل هذا الاتفاق وأجعله رسمياً في العالم العربي، وأوروبا، والولايات المتحدة".

وبالنسبة إلى سلاح حزب الله، سيقنع الحريري المجتمع الدولي بأن مصير المقاومة مسألة لبنانية لا يمكن حلّها إلا عبر حوارٍ داخلي وليس بضغطٍ خارجي. وعندما يكون رئيساً لمجلس الوزراء، لن يعمد الحريري أبداً إلى استخدام الجيش ضد حزب الله. فهو لن يجعل من لبنان "جزائر جديدة"، في إشارةٍ إلى النزاع الدموي في التسعينيات بين الحكومة الجزائرية والمقاتلين الإسلاميين (35) .

"بات حسن نصر الله مقتنعاً بأن الحريري لم يكن ضد السوريين

ولكن كانت له وجهة نظرٍ خاصة مؤيّدة للقضية العربية وسوريا"، يقول نصر. "فهم أن الحريري لا يمكنه التعاطي مع القيادة السورية عبر أجهزة المخابرات السورية لأن الثقة فُقِدت بين الفريقَين. لا يمكن للحريري التعاطي مع السوريين إلا عبر قناةٍ سياسية. وشرح نصر الله هذا الأمر للرئيس الأسد".

ومن غير الواضح ما إذا كانت دمشق مهتمّةً بنصيحة نصر الله. ولكن في أوائل كانون الثاني/يناير، أوكلت القيادة السورية وليد المعلّم، نائب وزير الخارجية المعتدل والسفير السابق إلى واشنطن منذ أمدٍ طويل، البدء بجولةٍ من الاستشارات مع الحكومة اللبنانية والمعارضة. وفسّر العديدون هذه الخطوة بأنها بادرة تصالحية قد تؤدّي إلى انسحاب القوات السورية إلى البقاع وفقاً لاتفاق الطائف، وذلك كخطوةٍ بديلة لانسحابٍ كاملٍ طِبقاً للقرار 1559.

وفي أوائل كانون الثاني/يناير، عيّنت الأمم المتحدة تيري رود لارسن، موفد الأمم المتحدة إلى الشرق الأوسط للسلام والذي تقاعد مؤخَّراً، لتنسيق عملية تطبيق القرار 1559. وكان لارسن، وهو دبلوماسي نروجي شارك في صياغة اتفاقيات أوسلو، منخرطاً بشكلٍ وثيق في الشؤون اللبنانية منذ أوائل العام 2000 عندما نصح بالخط الأزرق وروّج له قبل انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان.

وحتى ذلك الحين، كان من الواضح إلى حدٍّ كبير أنه بات من المتعذّر صدّ القوة الانتخابية الساحقة للحريري وهي هدّدت بإحداث تغييرٍ جذري على الساحة السياسية اللبنانية في انتخابات أيار/مايو.

وكان الحريري مصرّاً على إقامة تحالفات بطريقةٍ لا هوادة فيها وتعزيز عدد مؤيّديه، فالتقى أعضاء النقابات العمّالية، والمحافظين، والأحزاب السياسية، ورؤساء البلديات. وتبنّى الفريق الانتخابي علماً أبيض وأخضر، وهما اللونان الانتخابيان للحريري إذ يعبّر الأبيض عن السلام والأخضر عن مستقبل لبنان.

وأشارت كل المعلومات التي تلقّاها المقرّ الرئيسي لحملة الحريري في قريطم إلى أنه سيُحرز نصراً حاسماً في المناطق السنّية والمسيحية والدرزية الرئيسية في البلد، تاركاً فقط المناطق الشيعية في الجنوب ووادي البقاع بين أيدي المرشحين الموالين لسوريا.

"كان تركيزنا على أنه سيكون هناك على الأرجح انسحابٌ سوري جزئي إلى البقاع بسبب ضغوطات القرار 1559. ومن ثمّ ستكون هناك

انتخابات تكون لنا إثرها اليد الطولى في بيروت وجبل لبنان والشمال، وسنحصل على الغالبية [في البرلمان] ونشكّل حكومة حتى وإن كان السوريون ما يزالون في البقاع. هذا ما كنا نعتقده"، يقول غطاس خوري.

وبدا أن السوريين كانوا عاجزين تقريباً عن القيام بأي أمرٍ حيال هذا الواقع. ووفقاً لعبد الحليم خدام، أدرك بشار ولحود كلاهما أن المعارضة ستفوز بالغالبية بالتأكيد في البرلمان التالي إذا خاض الحريري حملته الانتخابية على صعيدٍ وطني، مقيماً التحالفات في مختلف أنحاء البلد بدلاً من التركيز فقط على جمهور ناخبيه في بيروت.

"من شأن هذا الأمر أن يحدّ كثيراً من نفوذ لحود وبشار الأسد في لبنان"، يقول خدام (36) .

وفي 9 كانون الثاني/يناير، انتقل رستم غزالة من عنجر إلى قريطم للقاء الحريري على غداء عمل. واعتبرت وسائل الإعلام اللقاء النادر - لم يرَ الرجلان بعضهما بعضاً منذ أشهر - محاولةً سورية لترميم العلاقات مع القطب المالي السنّي المثير للمتاعب. ولكنها كانت مواجهة متوترة. واقترح غزالة صفقةً تقضي بألاّ يكون قانون الانتخاب الذي يضعه سليمان فرنجية، وزير الداخلية، ضد الحريري في مقابل الموافقة على ضمّ خمسة أو ستة وزراء موالين لسوريا إلى قائمة مرشحيه في الانتخابات، والإقلاع عن خوض حملةٍ انتخابية على مستوى الوطن ككل. ولكن الحريري رفض على الفور قائلاً، وفقاً لمروان حمادة، "إما تؤمن بأننا أصدقاء وحلفاء وستكون كتلتي صديقةً وحليفةً لكم، أم أنك لا تثق بنا وإذ ذاك لن نضع حصان طروادة في كتلتنا البرلمانية" (37) .

وانتهى اللقاء بتضاربٍ في الآراء وقد خرج غزالة من قريطم غاضباً عائداً إلى مقرّه الرئيسي في عنجر. وكانت المرة الأخيرة التي يلتقي فيها الرجلان. وبمغادرة غزالة، أجرى الحريري اتصالاً بثلاثة نوابٍ من كتلته البرلمانية فرضهم السوريون عليه وأعلمهم بوضوح أنه لن يُشركهم في لائحته الانتخابية القادمة.

كانت لحظةً مشؤومةً للحريري. كان قد اتّخذ قراراً حاسماً بدون رَجْعة.

وقرّر الحريري أن الوقت يداهمه للانتقال إلى صفوف المعارضة بطريقةٍ موافقة للأصول والقواعد. فاتّفق مع غطاس خوري وباسل فليحان اللذين انتدبهما لمحاورة المعارضة المسيحية في شأن هواجسه المتعلّقة بتجمّع قرنة شهوان والتعاون مع تجمّع البريستول علانيةً.

وشرح الحريري استراتيجيته الانتخابية لفارس بويز، قائلاً إن الانتخابات البرلمانية ستكون "ساحةً جيدة لمعركتنا" (38) .

"أفترض أنك ستتمترس في قريطم في الأسابيع القليلة القادمة وتقاوم السوريين وتخوض المعركة الانتخابية"، قال بويز.

"بالضبط"، أجاب الحريري. "لا يمكنني القيام بذلك الآن ولكنني سأفعل في الشهر ونصف الشهر الأخير [قبل الانتخابات]. لن أغادر منزلي ولكنني سأتّخذ جانب المعارضة أكثر فأكثر".

ووفقاً لوليد جنبلاط والمصادر السياسية والعسكرية اللبنانية، وضعت أجهزة المخابرات السورية واللبنانية في الأيام التي تلت زيارة غزالة الأخيرة إلى قريطم خطةً لاعتقال الحريري وجنبلاط. وقد اتُهم الحريري بأنه عميل إسرائيلي، في حين اتُهم جنبلاط لاحقاً بإصدار الأوامر لاغتيال رينه معوض، الرئيس اللبناني السابق.

وأثناء تهيئة الأجواء لإتمام عمليّتَي الاعتقال، اتصل سليمان فرنجية بنايلة معوض، أرملة رينيه وعضوٌ بارز في تجمّع قرنة شهوان المعارضة، وأخبرها بأنه تمّ تحديد هوية قاتل زوجها وهو عضو في الحزب التقدمي الاشتراكي التابع لجنبلاط. فهمت معوض ما كان يجري وزارت جنبلاط لتحذيره من أن السلطات تخطط لاعتقاله بسبب تُهمٍ ملفَّقة.

ولم تنفَّذ الاعتقالات أبداً. ويبقى سبب إحجام السوريين عن الأمر غير واضح. ولكن نظراً للتدقيق الدولي الكبير في الشؤون اللبنانية والسورية، من الصعب تخيّل كيفية تمكّن السلطات في بيروت من تبرير احتجاز رجلَين هما على علاقة وثيقة بالمعارضة القائمة في مواجهة النظام اللبناني المدعوم سورياً.

وفي 24 كانون الثاني/يناير، كشف سليمان فرنجية النقاب عن القانون الانتخابي الذي ستجري بموجبه الانتخابات البرلمانية في أيار/مايو. وتمّ اختيار القضاء ليكون الدائرة الانتخابية بدلاً من المحافظة الأوسع، أو حل وسط بين الخيارَين. وكان القرار ملائماً للمسيحيين الذين فضّلوا الدوائر الانتخابية الصغرى لأنهم شعروا بأنها تمنحهم تمثيلاً أكثر دقة. ولكن في محاولةٍ لإضعاف فرص الحريري في بيروت حيث كان يخوض الانتخابات، قسم فرنجية المدينة إلى ثلاث مناطق انتخابية أضعفت التمثيل السنّي لصالح المرشحين الشيعة والأرمن والمسيحيين. وفي صيدا حيث كانت شقيقة الحريري، بهية، مرشَّحة للانتخابات، ضُمّت المدينة ذات الغالبية السنّية، وللمرة الأولى، إلى ضواحيها ذات الغالبية الشيعية في مسعى إضافي لإخراج

الاقتراع الذي كان لصالح الحريري عن خطّه المعتاد.

وقال وليد جنبلاط إن تقسيم بيروت "لا مبرّر له" ومحاولة جلية لإعاقة المعارضة. ولكن كان من الواضح أن العبث بالقانون الانتخابي سيفشل في الحؤول دون تحقيق المعارضة انتصاراً في انتخاباتٍ كانت تتحوّل بسرعة إلى استفتاءٍ حول الوجود السوري في لبنان.

ومع ذلك، كان يزداد قلق بعض ناخبي الحريري السنّة من الهجمات المتواصلة التي يتعرّض لها. وطالب أحد الداعمين السنّة الحريري بتزويدهم بالأسلحة ليتمكّنوا من تشكيل ميليشيا.

"كل الطوائف الأخرى مسلَّحة. لِمَ لا نكون كذلك أيضاً؟" سأل الحريري.

"أسلحة؟" أجاب الحريري. "لا أريدكم أن تمتلكوا أسلحة. أزوّدكم بالعِلم. سأعطيكم أي شيء. ولكن ليس أي شيء إذا كنتم تريدون السلاح" (39) .

وفي أول شباط/فبراير، وصل وليد المعلّم إلى بيروت، وهي زيارته الثانية في غضون شهر، للقيام بجولةٍ جديدة من الاستشارات شملت هذه المرة أعضاء من المعارضة أيضاً. وزار الدبلوماسي المحترف، البدين والوقور، وذو شعرٍ أبيض، الحريري في قريطم، وسأل الحريري المعلّم أثناء حديثهما عن المرة الأولى التي أدرك فيها السوريون إعداد قرارٍ فرنسي - أميركي محتمَل ضدهم (40) .

"الصيف الماضي، منذ ستة أو سبعة أشهر"، أجاب المعلم.

"إذاً لِمَ لم تأتوا وتطلبوا منّي المساعدة؟" سأل الحريري.

فمنذ أوائل الثمانينيات، كان الحريري يستخدم نفوذه للترويج للمصالح السورية واللبنانية والدفاع عنها في المجتمع الدولي. وكان قد ساعد المقاومة اللبنانية للحصول على اعترافٍ وشرعية دوليَّين عام 1996 من خلال تفاهم نيسان، وحثّ الغرب على الاعتراف بمتطلبات دمشق. وكان الحريري "وزير خارجية سوريا غير الرسمي... على درجةٍ أعلى من الأهمية مقارنةً مع وزير الخارجية الفعلي، فاروق الشرع"، يقول وليد جنبلاط (41) .

وحتى في هذه المرحلة الأخيرة، كان الحريري عاجزاً عن فهم رفض القيادة السورية عروضه للمساعدة. وأثناء حديثه مع المعلّم، قال الحريري إن بشار ضُلِّل عَمداً من قِبَل المخابرات العسكرية السورية وفاروق الشرع في ما يتعلّق بنواياه.

"لا يمكنني العيش في ظل نظامٍ أمني متخصّص بالتدخل في شؤون

الحريري، ونشر معلوماتٍ مغلوطة عن الحريري، وكتابة تقارير لبشار الأسد"، قال، مضيفاً في وقتٍ لاحق من الحديث "لن يُحكم لبنان أبداً من سوريا. فهذا لن يحدث بعد الآن".

وخلال الحديث، اعترف المعلم للحريري بـ "أننا والأجهزة [الأمنية] وضعناك في الزاوية". وأضاف، "رجاءً لا تأخذ الأمور باستخفاف" (42) . ووفقاً لفؤاد السنيورة، وافق المعلم أثناء اللقاء على محاولة إجراء مصالحة بين بشار والحريري (43) .

وبعد لقائه قادةً لبنانيين متنوّعين، موالين ومعارضين، قال وليد المعلم إن "القيادة السورية قرّرت عدم التدخل في الشؤون اللبنانية الداخلية وهي راغبة بالتحدث مع كافة القوى السياسية دون أي استثناء".

ولكن تجمّع قرنة شهوان المعارِض والجامح دعا للمرة الأولى بعد مغادرة المعلم إلى انسحابٍ كامل للجنود السوريين من لبنان. وردّ الموالون اللبنانيون لسوريا بشن هجومٍ كلامي على الحريري وجنبلاط والمعارضة غير مسبوقٍ بضراوته.

وقام أحد الوزراء، طلال أرسلان، وهو سليل عائلةٍ درزية كبيرة منافسة لآل جنبلاط، باتهام الحريري بتمويل المعارضة ضد لحود، واصفاً إياه بـ "ثعبان قريطم". وقال سليمان فرنجية، وزير الداخلية، إن الحريري هو "مرشد المعارضة" ويوجّهها ضد الحكومة من وراء الكواليس. وحذّر عمر كرامي المعارضة من أنه "سيريهم ما يمكننا فعله في اليومَين القادمَين"، في حين دعا عاصم قانصوه، وزير العمل وأمين عام حزب البعث – قطر لبنان، جنبلاط "جاسوساً أجنبياً"، مضيفاً "ستُصلَب فوق نفاية التاريخ دلالةً على جحودك والطعن في الظهر" ومحذّراً من أن الزعيم الدرزي "ليس بعيداً عن متناول مقاتلينا". وردّ جنبلاط بلهجةٍ مماثلة، قائلاً إن "حُثالة حزب البعث" هم من اغتالوا والده، وهو اتهامٌ حث حزب البعث على تقديم دعوى قضائية ضده.

"هل البلد على شفير انقسامٍ داخلي حاد؟" سألت صحيفة السفير اللبنانية اليومية مع بلوغ الخطاب السياسي مستوياتٍ جديدة من العدائية. وتدخلت صحيفة تشرين التي تُديرها الدولة السورية شانّةً هجوماً مطوَّلاً على حكومات الحريري السابقة ودعت قادة المعارضة "أبطال الفساد".

وكانت الأجواء تزداد حدّةً كل يوم، وشعر الحريري وجنبلاط بأن هجمات الموالين ضدهما تحدث جوّاً يشوبه عنفٌ مُحتمَل. وبدأ شعور الحريري بالمناعة يتضاءل وقد بات الجوّ السياسي مسموماً أكثر فأكثر، وغدت

الهجمات التي يتعرّض لها أكثر تعبيراً عن حقدٍ كامن.

وفي أوائل شباط/فبراير، اختلى بجنبلاط وقال له "تعلم، قد أكون أنا أو أنت في الأسبوعين القادمين. إذا أرادوا إحداث اضطراب، فهم سيقتلونني أو يقتلونك".

"من الواضح أنه كان يعتقد أن أمراً ما سيحدث"، أخبر وليد جنبلاط الكاتب بعد أسابيع.

والحريري الذي كان يتحدّث يومياً مع عبد الحليم خدام، التقى حليفه السوري القديم للمرة الأخيرة في أوائل شباط/فبراير. وبات خدام مقتنعاً بأنه سيتمّ اغتيال صديقه ونَصحه "بركوب الطائرة والمغادرة".

"حذّرتُه تكراراً وطلبت منه التخلّي عن الأمر ومغادرة البلد لأنني علمت بأن حاكم سوريا لا يملك عقلاً منطقياً ومتّزناً. كان بإمكانه القيام بأي عمل"، يتذكّر خدام. "ولكن الحريري أجاب بأنه كيف يكون بإمكانه المغادرة والانتخابات على الأبواب؟" (44)

وفي 8 شباط/فبراير، وصل تيري رود لارسن، مبعوث الأمم المتحدة، إلى بيروت للتفاوض حول آليةٍ تسمح بتطبيق القرار 1559 بموافقة كافة الفرقاء. وأثناء لقاءاته مع القيادة اللبنانية، اقترح ربط القرار 1559 بالطائف كوسيلةٍ لتشجيع سوريا على البدء بعملية إعادة انتشار جنودها إلى البقاع.

"كان توجّهي الأساسي - ما نقلته إلى الفرقاء - أن الانسحاب إذا تمّ، فلا يهمّني إذا دُعي الأمر تطبيقاً لاتفاق الطائف أو تطبيقاً للقرار 1559... شريطة أن يحدث"، يتذكر لارسن (45) .

وكان من المفترَض مغادرة لارسن بيروت إلى دمشق مباشَرةً للقاء بشار، ولكنه استُبقي يومَين إضافيَّين. ووفقاً لمسؤولين في الأمم المتحدة، أرجأ فاروق الشرع موعد لارسن عَمداً حتى يوم الثلاثاء في العاشر من شباط/فبراير بحيث يتزامن مع التزامٍ سابق مع جاك شيراك في باريس.

في دمشق، أخبر لارسن بشار أن المجتمع الدولي يرحّب بقيام الرئيس السوري ببعض الخطوات الهامة في لبنان. وقد تكون تلك الخطوات رمزية، أضاف لارسن بعناية. فقد كان من الواضح أن دمشق غير قادرة على سحب جيشها بأكمله وجهاز المخابرات العسكرية في ليلةٍ وضحاها. ومع ذلك، أردف قائلاً، حتى وإن سحب الرئيس جندياً واحداً فإن لارسن سيعكس هذه الخطوة في تقريره الذي سيتقدّم به إلى الأمم المتحدة حول تطبيق القرار 1559.

"من سيكون ذلك الجندي؟" سأل بشار.

"رجلك في عنجر"، أجاب لارسن، مشيراً إلى رستم غزالة.

فبدا بشار مُجفَلاً، وأجاب بعد لحظات بأنه من الأسهل إخراج الجيش السوري بأكمله من لبنان من إخراج غزالة من عنجر (46) .

وكان الشرع موجوداً أثناء اللقاء مع بعض معاوني لارسن التابعين للأمم المتحدة. وطلب لارسن التحدّث مع بشار على انفراد لدقائق قليلة، وغادر الحاضرون الآخرون الغرفة. واكتشف معاونو لارسن بامتعاض أن رستم غزالة كان جالساً في مكتب المدير العام للقصر الرئاسي، متصالب الذراعَين، محدّقاً بالأرض ومستغرقاً بالتفكير. من الواضح أنه كان ينتظر إيجازاً لحديث لارسن مع بشار الذي سيقترح مبعوث الأمم المتحدة عليه بلا شك نقله.

وفي حديثه المنفرد مع بشار، ناقش لارسن التوترات القائمة بين لبنان وسوريا، ولا سيما العلاقة المتدهورة بين الحريري والقيادة السورية والتي "قد تؤدّي إلى وضعٍ خطر" في اعتقاد مبعوث الأمم المتحدة.

"التقيت عدداً من المسؤولين في كلا الجانبَين وكان انطباعي، وبدون أي تلطيفٍ وبدقة، أن هناك وضعاً متدهوراً بسرعة بين قيادة البلدَين سبّبت [لي] قلقاً"، يقول لارسن. "حثثت الجانبَين على المباشرة بحوارٍ على الفور؛ وإلا فإن الوضع سيستمر بالتدهور بسرعةٍ أكبر. كان لنا [لارسن وبشار] حديثٌ غير نهائي حول إجراء لقاءٍ بين ممثّلٍ لبشار والحريري في الأسبوع القادم، الأسبوع نفسه الذي قُتِل فيه الحريري" (47) .

وعاد لارسن إلى بيروت مساء ذلك اليوم وتناول طعام العشاء في قريطم لوضع الحريري في أجواء محادثاته مع بشار وإمكانية تنظيم لقاءٍ للمصالحة.

في ذلك اليوم نفسه، ناقش تجمّع قرنة شهوان المسيحي المعارض عرضاً تقدّم به مروان حمادة للقاء الحريري في قريطم لاتخاذ موقفٍ مشترك من القانون الانتخابي. وكان الحريري قد زار الكاردينال صفير لطمأنة البطريرك الماروني بأنه غير ممانع في عزم الحكومة إجراء الانتخابات على أساس القضاء، وهو الخيار المفضَّل للمسيحيين. وأوحى هذا الأمر للمعارضة المسيحية بأن تنسيق موقفهم مع الحريري فكرةٌ جيدة. ولكن كان ما زال هناك بعض القلق. فبالرغم من اتخاذ الحريري القرار بالانضمام كلّياً إلى المعارضة المسيحية - الدرزية الوطيدة، فما زال عليه إعلان الأمر. وقرّرت قرنة شهوان لقاء الحريري ولكن ليس في قريطم. وبدلاً من ذلك، وقع اختيارها على المكان الأكثر محايدةً وهو البرلمان حيث سيلتقي النواب المنتمون إلى قرنة شهوان الحريري يوم الاثنين القادم.

وشكّلت الانتخابات البرلمانية أيضاً جزءاً من النقاش بين الحريري ونصر الله في اليوم التالي، وكان الجمعة 11 شباط/فبراير، في ما كان اللقاء الأخير بينهما. وكان الحريري ما يزال يرفض ضمّ موالين لسوريا إلى لائحته الانتخابية، ولكن نصر الله نجح في إقناعه بقبول مرشحَين، أحدهما أرمني والآخر عضوٌ في حزب الله.

"كيف يمكنني ألا أضمّن لائحتي في بيروت عضواً من المقاومـة؟" قال الحريري (48) . وقبل أسابيع قليلة، كان الحريري قد استخدم نفوذه لدى جاك شيراك لإقناع فرنسا بعدم تأييد إضافة حزب الله إلى قائمة الاتحاد الأوروبي للمنظمات الإرهابية، والتي كان يخطط وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي لمناقشتها في بروكسل في 16 شباط/فبراير. وكان نصر الله ممتنّاً لتدخل الحريري، ووافق في المقابل على محاولة رعاية لقاءٍ سرّي في دمشق بين الحريري وبشار تُناقَش خلاله كل نقاط الخلاف. وتمثّل وساطة نصر الله مساراً ثالثاً إلى جانب جهود وليد المعلم وتيري رود لارسن لتحقيق تقاربٍ بين الحريري وبشار. وبالرغم من أنه كان على وشك إعلان انضمامه إلى المعارضة، لم يكن الحريري قد تخلّى عن إمكانية التصالح مع القيادة السورية، وفقاً لزملائه. وبالرغم من كل شيء، إذا أثمر مخططه الانتخابي، فهو سيعود رئيساً للوزراء في لبنان بعد انتخابات أيار/مايو، وسيكون عليه التعاطي مجدّداً مع السوريين.

وأخبر نصر الله الحريري بأن مسؤولاً أعلى في حزب الله سيكون في دمشق يوم الاثنين 14 شباط/فبراير لترتيب مصالحةٍ مع بشار.

وبلغت حالة الضغط على الحريري مستوياتٍ جديدة يوم السبت 12 شباط/فبراير عندما اعتقلت الشرطة أربعة عاملين في إحدى مؤسساته الخيرية، مؤسسة بيروت للتطور الاجتماعي، بتهم تقديم رشواتٍ للعائلات على صورة صفائح من زيت الزيتون قبل الانتخابات البرلمانية. ووزّعت المؤسسة الخيرية صفائح زيت الزيتون إيفاءً لتعهّدٍ قُطع إبّان شهر رمضان المبارك الذي توزّع فيه مؤسسات الحريري الخيرية تقليدياً حصصاً غذائية للعائلات المُعوَزة. وبما أن رمضان الماضي حلّ قبل موسم قطاف الزيتون، تضمّنت رُزَم الحصص الغذائية ملاحظاتٍ تُعلِم متلقّي المساعدات بأنهم سيحصلون على الزيت ما إن يتمّ عصر الزيتون ووضع الزيت في صحائف. ولدى سماع أخبار الاعتقالات، تدخل الحريري لإطلاق العاملين، واصفاً الحادثة بـ "الحماقة".

وأخبر الحريري في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم عدنان البابا،

السكرتير الخاص، "إذا قتلوني [السوريون]، يكونون قد وقّعوا على وثيقة وفاتهم" (49) .

وتسبّبت فضيحة اعتقال العاملين في المؤسسة الخيرية باهتياجٍ في نهاية الأسبوع وأدّت إلى إدانةٍ صارخة في الأوساط المسلمة والسياسية. وقال الشيخ محمد قباني، مفتي الجمهورية السنّي، إن الاعتقالات "مُخزية" وطلب من السلطات "إيقاف هذا الأسلوب على الفور". وعندما أمرت الشرطة العاملين المعتقَلين بالبوح بأسماء العائلات التي تمّ تزويدها بزيت الزيتون، أصدر قباني فتوى تقول "يُمنع الكشف عن أسماء العائلات التي تتلقّى المعونات".

حتى إن السياسيين الموالين لسوريا بدوا مُحرَجين من هذه المحاولة الخرقاء للضغط على الحريري إذ قال إيلي الفرزلي، وزير الإعلام، إن الاعتقالات "غير مبرَّرة".

وخصّص الحريري كثيراً من وقته في نهاية الأسبوع للتعاطي مع الاعتقالات المرتبطة بزيت الزيتون، عِلماً أنه تلقّى اتصالاً هاتفياً غير متوقَّع صباح الأحد. كان رستم غزالة. فقد طلب العميد السوري بوضوح مبلغاً طائلاً من المال يُسلَّم نقداً لمقرّه الرئيسي في عنجر، وقد بدا عليه الاهتياج وفقاً لأحد مساعدي الحريري. ولم تكن المرة الأولى التي يبتزّ فيها غزالة الحريري. وبالرغم من اتخاذ الحريري قراراً بعدم التعاطي مع المخابرات السورية، فقد لبّى طلب غزالة، قائلاً إن على العميد الانتظار حتى اليوم التالي لأن المصارف مقفَلة أيام الآحاد. ولكن غزالة أصرّ على تسليم المال في اليوم نفسه. فأجرى الحريري الترتيبات المناسبة وسُلِّم المال إلى عنجر من خلال أبو طارق، رئيس المفرزة الأمنية التابعة للحريري. ووفقاً لسعد الحريري، تهجّم غزالة على أبو طارق كلامياً مستخدماً "كل شتيمةٍ موجودة في القاموس العربي" ضد رئيسه. وكان أبو طارق يرتجف بسبب التعنيف القاسي لدرجة أنه أقفل خط الهاتف وعاد إلى منزله حيث بقي طوال ثلاث ساعات لتهدئة نفسه (50) .

وبحلول المساء يوم الأحد 13 شباط/فبراير، تلقّى الحريري زياراتٍ من قِبَل حلفائه وأصدقائه، بمن فيهم جنبلاط وغازي العريضي اللذان بقيا مع الحريري حتى ساعةٍ متأخرة من المساء.

وكان قد انتصف الليل تقريباً عندما انتقل الحريري بالمصعد إلى مسكنه في الطابق السابع. وكانت زوجته، نازك، في باريس، عِلماً أنه كان يخطط للسفر إلى فرنسا يوم الجمعة للاحتفال بعيد مولد ابنته الوحيدة،

هند، التي كانت تلازم والدتها. وبينما كان يخلع ملابسه استعداداً للنوم، اتصل بابنه سعد الموجود في المملكة العربية السعودية لمحادثته الليلية المعتادة (51) . واستخبر عن صحة لارا، زوجة سعد، وحفيده حسام، وكان مولَعاً بهما بصفةٍ خاصة. وقال سعد إنه ينوي السفر إلى أبو ظبي في الصباح. ولم تتعدَّ المحادثة الشؤون الشخصية العامة. وبالرغم من أن سعد كان فضولياً لسماع آخر التطورات السياسية، فقد آثر عدم السؤال لأن الخطوط الهاتفية مراقَبة. وبعد دقائق قليلة، أنهى الحريري الاتصال بوداعه الاعتيادي لابنه.

"أحبك"، قال، وأقفل الخط.

الفصل السادس: ربيع بيروت

الفصل السادس: ربيع بيروت

الفصل السادس: ربيع بيروت

سُمع الانفجار في مختلف أنحاء بيروت، صوت رعدٍ مدوٍّ بشكلٍ يصدم المشاعر، وقد تردّد صداه في شوارع المدينة حتى التلال في الشرق، مصلصلاً (مُقعقعاً) النوافذ، ومُطلقاً أجهزة الإنذار في السيارات، وحاملاً اللبنانيين القلقين على الخروج إلى الشرفات. وفي بادئ الأمر، حدّق معظم الناس إلى السماء، ظنّاً منهم أنه خرقٌ لجدار الصوت أحدثته طائرة تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي تُحلّق على علوٍّ منخفض. ولكن العمود الشاهق من الدخان الأسود الكثيف المرتفع من وسط المدينة في كَبِد السماء بزرقتها الداكنة تؤذن بروايةٍ مختلفة.

يشعر عامر شحادة، الحارس الشخصي الذي يقود سيارة المرسيدس الأولى التي تتقدّم الموكب، بانفجارٍ هائل يضرب بعنف مؤخرة سيارته كموجةٍ صلبة، رافعاً السيارة عن الأرض كلّيّاً وقاذفاً إياها على بعد أمتارٍ عدّة على الطريق (1) .

"ماذا حدث؟" يصيح محمد ضيا، الحارس الشخصي الجالس في مقعد الركاب.

"لقد أُصبنا"، يقول شحادة.

كارول فرحات هي على وشك الدخول إلى البناء الملحَق بفندق السان جورج والمواجه له، وإذ بالموجة الصدمية تضربها. فتُقذَف على بعد 12 متراً تقريباً إلى اليسار وتصطدم بغطاء محرّك سيارة متوقّفة. فيمزّق الانفجار طبلة أذنها اليسرى. ويلي انفجارٌ ثانٍ أصغر حجماً الانفجار الأول مباشَرةٍ فتغمض عينَيها غريزياً لدى سقوط وابلٍ من الحطام حولها هي كناية عن قطعٍ من الإسفلت الأسود والإسمنت بحجم كرة القدم، وحجارة، وتراب، وغبار، وكِسراتٍ مسنَّنة من الزجاج. فتفتح عينَيها ثانيةً على عالمٍ أصبح مظلماً. وعبر السحابة الكثيفة من الغبار والدخان، يمكنها تمييز فقط الخطوط الكفافية لثلاث جثثٍ ملقاةٍ على الطريق. لا بدّ من أنه زلزال، تقول في نفسها، وتبدأ بالصراخ بشكلٍ هستيري.

وغطاس خوري موجودٌ في غرفة العمليات الجراحية في مستشفى الجامعة الأميركية عندما حدث الانفجار على بُعد أقل من ميل. فيهتزّ مبنى الجامعة الضخم، ويُزاح لوحٌ موجودٌ في السقف المستعار فوق طاولة

العمليات من مكانه. ويعرف خوري غريزياً هوية الضحية. فجنبلاط غير موجود في بيروت، والانفجار كبيرٌ جداً. لا بدّ من أنه الحريري.

وسامر رضا، وهو المشرف على عمليات التوزيع للصحف مع الشخص الذي يدرّبه واقفان على جانب الطريق على بُعد 20 متراً إلى يمين العبوة الناسفة عندما دوّت. ولا يتذكر رضا سماع دويّ الانفجار، ولكنه يشعر بقوةٍ هائلة تدفعه إلى الوراء إلى أسفل السلّم المؤدّي إلى نادي اليخوت التابع للسان جورج.

وفادي خوري، مالك فندق السان جورج، يتحدّث بواسطة هاتفه النقّال وهو واقفٌ على الدرج المؤدي إلى الطريق الرئيسي في الأعلى عندما ضربه الانفجار بعنفٍ على ركبتَيه. فيلتفت إلى سائقه يوسف مزهر الواقف بجانبه ويسأله إن هو أُصيب بأذى. ويجيب يوسف بصوتٍ مرتعِدٍ بأنه بخير. وها هو انفجارٌ ثانٍ يُسقط جداراً حجرياً على يوسف ويسحق حوضه ويمنعه من الحراك. فيصرخ ألماً. أما خوري فيجد نفسه تحت سطحٍ مستعار يقيه من الجدار المتداعي. لا بدّ أنها غارة جوّية، يقول خوري في نفسه. إذا حدث انفجارٌ ثالث، فأنا هالك.

ورامي فاروس، وهو مالك متجرٍ للهواتف النقّالة في الزاوية المؤدّية إلى فندق سان جورج، يجلس في كرسيّه وراء المنضدة، وإذ بالانفجار يقذفه بقوّة إلى الحائط. وها هي موجات الضغط تُخرج كل الهواء من رئتَيه ويبقى عاجزاً عن التنفّس للحظات. وتتحطّم النافذة الأمامية للمتجر في اتجاه الداخل، ممطرةً أحد الزبائن بمئات الكِسَر الزجاجية. ولا يصاب رامي بأي أذى. فيسير بخطى متعثّرة إلى الخارج وسط ضبابٍ كثيفٍ من الغبار. ويحدّق بأشخاصٍ آخرين مذهولين وذوي وجوهٍ شاحبة يترنّحون خارج متاجر ومكاتب مجاورة. فيتّجه مسرعاً نحو السان جورج ويضغط على زر الفيديو في هاتفه النقّال ويبدأ بتسجيل مسرح الدمار القائم أمامه، مرتعداً: صورٍ ضبابية لسياراتٍ محترقة، دخانٍ كثيف وناجين مصابين بدوار، أحدهم جالسٌ على الطريق وقد جُرِّد من ثيابه بسبب قوة الانفجار.

ويخرج عامر شحادة من سيارة المرسيدس بخطى متعثّرة ويحدّق بالجحيم وراءه مذهولاً، كتلةٍ مشوَّهة من السيارات المحترقة ودخانٍ أسود سميك متلبّد. ومحمد ضيا خارج سيارته أيضاً، ولكن حسن العجوز في المقعد الخلفي فاقد الوعي. ويخترق شحادة ألسنة اللهب باحثاً عن الحريري. وبالرغم من أن المرسيدس التي تُقلّ الحريري كانت وراء سيارته على بُعد 4 أمتار في الموكب، فهو لا يستطيع التعرّف إلى سيارة الرئيس

بين السيارات المحترقة. وتُجبره الحرارة والدخان على التراجع. فيأخذ نفساً عميقاً ويخترق النيران مجدَّداً، ويرى جثثاً منتصبة تلتهمها النيران في السيارات المشتعلة، ويعود بعضها لزملاء له. هم أموات. لا يمكنني القيام بأي شيءٍ لأجلهم، يقول شحادة في نفسه. وكان أبو طارق، رئيس الفريق الأمني والحارس الشخصي للحريري لأكثر من عقدَين من الزمن، الأقرب إلى الانفجار، وجالساً في مقعد الركاب في السيارة الرابعة التي تغطّي الجانب الأيمن لسيارة لحريري. فقد تحوّل إلى أشلاء. وكل ما سيعثرون عليه من جثّته 38 قطعة من اللحم لم يكن بالإمكان تمييزها عن سواها إلا بواسطة فحوصات الحمض النووي. وقُطع محمد درويش، سائق السيارة الرابعة، إلى نصفَين وقد قُذِف الجزء الأعلى من جسمه على بُعد عشرات الأمتار. وقُتِل الحراس الشخصيون الثلاثة الموجودون في السيارة الخامسة على الفور واندلعت فيهم نيران السيارة المشتعلة. ويلاحظ شحادة أن الطريق مكسوّة بما يشير إلى القوة الرهيبة للانفجار المثير للاشمئزاز - أيادٍ مقطوعة، أذرعة، سيقان، قطعٌ لا تُحصى ولا تُعَدّ من اللحم الذي لا يمكن تحديد هوية أصحابها، وبِركٌ من الدم الأحمر الثخين الذي بات لونه قاتماً بسبب حرارة النيران. وهو لم يتمكّن بعد من العثور على الحريري، وتُجبره قوة الحرارة والدخان على التراجع مرّةً أخرى. فيُعطيه محمد ضيا جهاز الإرسال ويحاول الاتصال بمقرّه الرئيسي في قريطم.

ويحمل صوت الانفجار عبد العرب، وهو مساعد قريبه أبو طارق في الفريق الأمني، إلى الخروج من مكتبه ومن ثمّ إلى الشارع خارج قريطم، باحثاً في السماء عن آثار البخار الذي تخلّفه طائرات مقاتلة إسرائيلية. فتناديه زوجته، رُدَينة، من سطح مجمّعٍ سكني مقابل لقريطم حيث يُقيمان. "إنه انفجارٌ كبير بالقرب من فينيسيا"، مشيرةً إلى اتجاه الانفجار.

ويهرع عرب مُسرعاً إلى غرفة المراقبة الموجودة قرب البوّابة الرئيسية.

"أين الموكب"، يقول بإلحاح.

"لا نعلم"، يجيب أحد زملائه.

ويطالب عبد بجهاز الإرسال الخاص به، فيُعطى له ويسمع صوت عامر شحادة يعرّف عن اسمه ويقول، "تعرّض الموكب لانفجار".

ويُبقي عبد الموجة مفتوحة ويطلب تفاصيل بينما يُشير لسيارة شرطة مارّة يقودها ضابطٌ من قوى الأمن الداخلي للتوقف. وبانضمام أحد

مستشاري الحريري إليه، انطلق الرجال الثلاثة بأقصى سرعة عبر شوارع الحمرا في اتجاه السان جورج. ولا يمكن للذبذبة التي يُحدثها جهاز الإرسال إخفاء الصدمة البادية على صوت شحادة.

"اهدأ. خذ نفَساً عميقاً وأخبرني ما حدث"، قال عبد لشحادة. "أين الرئيس؟"

"لا أعلم. لا أستطيع العثور عليه"، يجيب شحادة.

كان غطاس خوري مخطئاً. فجنبلاط في بيروت في منزله الحجري الرمادي في حي كليمنصو على بُعد خمس دقائق سيراً على الأقدام، على الأكثر، من السان جورج. ويهزّ الانفجار المبنى، ويحدّق جنبلاط خارج النافذة، ظانّاً في بادئ الأمر، على غرار العديد من أشخاصٍ آخرين، أنه خرق طائرةٍ مقاتلة إسرائيلية لجدار الصوت تحلّق على علوٍّ منخفض. ويرى بعد ذلك سحابة الدخان السوداء السميكة المرتفعة ناحية البحر.

"غازي"، ينادي جنبلاط غازي العريضي الموجود معه في المنزل، "حاول الاتصال بقريطم. قد يكون رفيق". ويطلب العريضي الرقم ولكن الخطوط مقطوعة. فيقوم جنبلاط بإرسال أحد حراسه الشخصيين إلى مسرح الانفجار لاكتشاف ما يحدث. وبعد مغادرة الحارس الشخصي مباشَرةً، يتمكّن العريضي من الاتصال بقريطم.

"أين هو؟" يسأل.

"لا نعلم"، يقول صوتٌ على الطرف الآخر من الخط. "لا معلومات لدينا".

د. أحمد حُصَري، وهو المسؤول عن وحدة العناية الفائقة ذلك الصباح في مستشفى الجامعة الأميركية، يقوم ببعض الأعمال الكتابية في مكتبه في الطابق الثالث. وإذ بالمبنى يهتزّ نتيجةً للانفجار المروِّع، ويتسبّب بسحابةٍ من الغبار المتساقط من السقف. وظنّاً منه بأنها طائرة حربية إسرائيلية، يقوم بانتظار الخرق الثاني الاعتيادي لجدار الصوت، مُدركاً أن المقاتلات الإسرائيلية تجوب الأجواء اللبنانية أزواجاً. ولكن الخرق الثاني لجدار الصوت لم يحدث. فيفتح أحد الأطباء باب المكتب مندفعاً إلى الداخل ويُخبره بحدوث انفجارٍ في فرعٍ لمصرف إتش إس بي سي في الحمرا، على بعد 600 متر فقط من المستشفى. فيلتقط حُصَري هاتفه النقّال ويتصل بزوجته، لينا، التي تقوم بالتسوّق في الحمرا، شاريةً معداتٍ للتزلّج لابنها. وطمأنت لينا زوجها أنها بخير، وأن لا انفجار في الحمرا، وبعد ذلك تنقطع الخطوط.

ويستمع نجيب فريجي، المتحدث باسم الأمم المتحدة والذي ما يزال واقفاً خارج البرلمان بعد دقائق من انطلاق موكب الحريري في اتجاه قريطم، مذهولاً إلى الجلبة المروِّعة لآلاف النوافذ المتساقطة على أرصفة وسط بيروت. فيسحب هاتفه النقّال ويلتقط صورة عمودٍ من الغبار الأصفر يتصاعد بشكلٍ لولبي في السماء فوق المباني التي يغلّف الحجر الرملي واجهاتها، وذلك إلى الجهة الشمالية من ساحة النجمة ناحية البحر.

"حدث انفجارٌ في مكانٍ ما بين البحر وكليمنصو"، يُخبر حارسٌ خارج البرلمان فريجي وعلي حمادة، الصحافي في النهار . فمنزل جنبلاط في المدينة في كليمنصو. ويطلب الرجلان رقم هاتف جنبلاط بواسطة جهازَيهما النقّالَين، ولكن الخطوط مُثقَلة بضغط الاتصالات ولا يمكن إجراء أي اتصال. ويهرع حمادة مسرعاً إلى مقهى النجمة حيث كان يرتشف القهوة ويتحادث مع الحريري منذ دقائق، ويستخدم خط الهاتف السلكي للاتصال بالزعيم الدرزي.

"جنبلاط حي"، يُخبر حمادة فريجي بعد لحظات. لم يكن المستهدَف.

"حاول الاتصال بالحريري"، يقول فريجي.

لا تشعر كارول فرحات بأي ألم، عِلماً أن حرارة الانفجار لفحت وجهها ويدَيها. وقد نالت حروقٌ صغيرة من سترتها وبنطالها الجينز المصنوعَين من الجلد. وهي مصابةٌ بجروح ومغطاة بدمٍ متدفّقٍ من أذنها اليسرى. وهاتفها النقّال الموجود على الأرض بقربها يشير إلى اتصالٍ وارد. فتنزلق عن السيارة ممزّقةً الجينز بواسطة قطعة معدنية. يداها ترتجفان كثيراً لدرجة أنها غير قادرة على الإجابة على الهاتف أو حتى معرفة هوية المتّصل. وها هي تسمع صوت طلقاتٍ نارية عبر الغبار والدخان. هل تتمّ مهاجمتنا؟ أما الطلقات النارية فتعود لذخائر الحراس الشخصيين للحريري، ويبلغ مجموعها 750 طلقة مسدّس ورشاش وهي تنطلق تلقائياً وسط النيران. وتتوارى كارول مرتعدة في المدخل المحطّم للبناء الملحَق بفندق سان جورج. وعلي، سائق شقيقة زوجها، يربض في المدخل. فتعانقا.

"ماذا حدث؟" يسأل علي.

"لا أعلم"، تجيب كارول، مختبئةً وراء جدارٍ لتفادي الطلقات النارية. "إنها نهاية العالم".

وتجلس الجثتان المحترقتان منتصبتَين في المقاعد الأمامية للسيارة متفحّمتَين لا يمكن التعرّف إليهما، جمجمتان بيضاويتان تتلألآن لحماً مسودّاً

وهما ملتويتان ومتجعّدتان بسبب الحرارة كنسخةٍ مروِّعة لضحايا بومباي. ويناضل رجل إطفاء، وجهه مسودٌّ بسبب الدخان، أمام بابٍ ما يزال ينبعث منه الدخان، محاولاً ليّه لإخراج الجثث. ويصرخ مُسعفان في الصليب الأحمر ينقلان جثةً على حمّالة طالبَين من الناس التنحّي من طريقهما. والجثة المغطاة تحت بطانية صوفية تتمايل كالهلام لدى تعثّر المسعفَين بالدّبش والركام المبعثَر الذي يغطّي هذه الطريق الناشطة عادةً. وتمتدّ خراطيم مياه رجال الإطفاء متلوّيةً كالثعابين فوق الحطام. وتمتزج المياه المستخدَمة لإطفاء السيارات المشتعلة بالغبار والتراب محوّلةً الشارع إلى وحل. وقد قذف الانفجار بعض السيارات المتجعّدة إلى جانب الطريق كأوراقٍ مكنوسة، وحوّلت ألسنة اللهب جسم السيارات إلى لونٍ رمادي بركاني. وما يزال محرّك إحدى السيارات المهجورة ولكن غير المتضرّرة مشغَّلاً. وتقوم مجموعةٌ أخرى من المنقذين والمتطوّعين باقتلاع باب سيارةٍ مجعَّدة كالورق المعدني الفضّي ما تزال تئزّ بسبب الحرارة التي حوّلت ركّابها إلى جثثٍ مسودَّة بلا ملامح.

وفي مستشفى الجامعة الأميركية، يندفع د. أحمد حُصَري إلى داخل غرفة الطوارئ، ناقلاً توجيهاتٍ سريعة لأعضاء الفريق الطبّي للاستعداد للوصول الوشيك للإصابات. ويتّفقون على إجراء عملية الفرز خارج الباب الأمامي لغرفة الطوارئ لتقييم حالات المصابين بشكلٍ عاجل، فيُرسَل ذوي الإصابات البالغة إلى غرف العمليات في حين يتمّ التعاطي مع الإصابات الأقل خطورة في منطقةٍ أخرى. وتُستدعى الممرضات من كافة طوابق المستشفى وتُرجأ العمليات الجراحية الاختيارية. وتذكّر الاستعدادات السريعة بعض الأطباء الأكبر سنّاً بتلك الأيام المقيتة في الثمانينيات عندما كانت تجري يومياً معالجة ضحايا القصف والمصابين بطلقاتٍ نارية. وتوضع الحمّالات في صفٍّ أمام المدخل، ولدى إتمام كل شيء، يلزم الفريق الطبّي صمتاً يشوبه التوتر بانتظار وصول سيارات الإسعاف الأولى.

وها هو سامر رضا، موزّع أعداد الصحيفة، عالقٌ تحت كومةٍ من الدّبش بسبب انهيار سقف مدخل نادي اليخوت التابع للسان جورج. وهو يعاني من صعوبةٍ في التنفس وقد أعمته الدماء. فعينه اليسرى تنزف وهناك شظيةٌ خشبية مغروسة عميقاً في صُدغه الأيمن وراء مُقلة العين. ويحاول تحريك ساقَيه ولكن وزن الدّبش ثقيلٌ جداً. ومروَّعاً من أن يكون قد تُرك ليموت في قبره الضحِل المؤلَّف من الوحل والركام، يشقّ طريق يدَيه إلى وجهه حيث يُحدث ثقباً صغيراً يمكّنه من التنفّس وطلب المساعدة. فيرفع

بعض الواقفين بجانبه الركام ويساعدونه على الوقوف. كفيفاً، يمدّ رضا يدَيه إلى الأمام متلمّساً طريقه ومستمعاً إلى صرخات المصابين، وصيحات ذُعرٍ وعويل صفارات الإنذار. ما الذي حدث، سأل نفسه.

والانفجار الثالث الذي خشي مالك السان جورج، فادي خوري، من أن يقتله لم يحدث أبداً. فيندفع مذعوراً من تحت السقف المتداعي ويحتمي لمدةٍ وجيزة بين أنقاض الفندق مقدّراً أنه سيكون ملجأً ممكناً في حالة حدوث مزيدٍ من الانفجارات. ويوسف واعٍ ولكنه عالقٌ تحت ركامٍ منهار. ويقوم بعض الأشخاص بالنزول من الطريق الرئيسية ويساعدون على انتشاله من تحت الأنقاض. ويلاحظ خوري رجلاً ذراعه مكسورة يزحف من تحت كومةٍ من الدبش بقرب الفندق. فيرى الشاب الذي كان قد سلّم صحيفة الوسيط قبل دقائق يترنّح وسط الدخان، وذراعاه ممدودتان. هناك ثُقبان أحمران حيث يُفترَض أن تكون عيناه.

"لا يمكنني أن أرى"، يقول الشاب مُعوِلاً.

فيمسك خوري بذراعه. "اجلس هنا. سأطلب المساعدة".

ويخطو إلى الشارع. هي رؤية، يقول في نفسه، محدّقاً بالسيارات المشتعلة، والدخان الأسود المنبعث موجاتٍ موجات، والقتلى والمصابون مُلقَون على الطريق المغطّى بالركام. فيرى سليمان فرنجية، وزير الداخلية، ويشق طريقه في اتجاهه.

ويحمد فرنجية الله على سلامة خوري. ولكن خوري لا وقت له للمجاملات. فالبناء المُلحَق بالسان جورج مشتعل، وموظفوه في الداخل. ويلفّ الدخان المبنى حيث كانت الجدران الخارجية ذات مرة، وقد زالت تقريباً الواجهة الحجرية بلون اللحم. ولم يدمّر الانفجار قسماً كبيراً من الجدار الخارجي فقط بل هدم أيضاً الجدران الداخلية، كحجارة الدومينو تماماً، محوّلاً المبنى إلى هيكل.

"أطفئ النيران"، صاح خوري لفرنجية، "وإلا فسيكون لديك مزيدٌ من الأموات".

وفي ساحة النجمة، لا يستطيع نجيب فريجي وعلي حمادة طلب رقم هاتف الحريري، فيسيران مسافةً قصيرة إلى مبنى النهار المُشرف على ساحة الشهداء. هناك، جبران التويني، مدير عام الصحيفة، متجهّم الوجه ويرتجف. ومحدّقين من نافذة الطابق السادس، يمكنهم رؤية تحوّل السحابة الصفراء الأساسية إلى دخانٍ أسود ثخين في تباينٍ قبيح مع زُرقة السماء الصافية. وتبدأ المشاهد الأولى لمسرح الانفجار بالظهور على شاشة التلفزيون

في مكتب تويني. ويتعرّف فريجي إلى سيارة الإسعاف الشبيهة بالنعش كما وصفها حمادة قبل دقائق.

ويستعيد رشيد حمود وعيه تدريجياً على أرض العربة، وهو المسعف الطبّي في سيارة الإسعاف السوداء في مؤخّرة موكب الحريري. وفقد محمد عوَيني، السائق، ومازن ذهبي، المسعف الطبّي في مقعد الركاب، وعيَهما أيضاً بسبب قوة الانفجار. وسيارة الإسعاف التي تسير عادةً على بُعد 50 متراً من مؤخّرة السيارة الأخيرة في الموكب لأسبابٍ أمنية، توقّفت عند حافة الحفرة الجهنّمية التي أحدثها الانفجار. والدم يسيل في عينَي حمود من جرحٍ بليغ في رأسه. ومؤخرة العربة مليئة بالدخان. ويحاول حمود الوقوف وهو يسعل ويناضل للتنفس، ولكنه ينهار ثانيةً. فساقه اليسرى مكسورة عند الكاحل وعظم الساق. لا بدّ من أن السيارة قد اصطدمت بشيءٍ ما، يقول في نفسه، غير مُدركٍ بأن الموكب قد تعرّض لانفجار. فيقوم بتثبيت ساقه بجبيرةٍ مؤقّتة وينادي ذهبي وعوَيني. لا جواب، ولكنه يستمرّ بالصراخ طيلة دقيقةٍ من الزمن منادياً إياهما باسميهما. فيكفّ عن الصراخ ويسحب نفسه بواسطة ساقه اليمنى السليمة ويمعن النظر عبر النافذة الضيّقة في الحاجز الخشبي الذي يفصله عن المقصورة الأمامية. ولا يمكنه رؤية زملائه، ولكنه يلاحظ أن محرك سيارة الإسعاف يشتعل. فيقوم بإلقاء نظرةٍ سريعة على قارورتَي الأكسجين الموجودتَين بجانبه في مؤخرة السيارة مذعوراً. وتمنحه حالة الرعب القوة فينحني نحو الباب الخلفي ويجذب المقبض بشكلٍ يائس. ولكن الباب عالق ولا يفتح. فينظر إلى الأعلى مشدوهاً بسبب تمكّنه من رؤية السماء. لقد اختفى سقف سيارة الإسعاف بأكمله. فيمسك حمود حافة السقف، ويسحب نفسه إلى الأعلى، وينزلق إلى الأرض خارج العربة. ويرى عامر شحادة حمود جالساً بالقرب من سيارة الإسعاف المحترقة وينقله بعيداً عن الموقع.

"هل رأيت رئيس الوزراء؟" يسأل حمود المرتعِد.

"رئيس الوزراء؟ لا"، يجيب حمود مُربَكاً. لِمَ يسأل عن مكان وجود الحريري وقد كانوا في سيارةٍ تعرَّضت لحادث؟

"هل هناك أحدٌ آخر في سيارة الإسعاف؟" يسأل شحادة.

"محمد عوَيني ومازن ذهبي"، يجيب حمود. "لم يحترقا بعد".

النار مستعرة في المحرّك ويتطلّبها دقائق قليلة لبلوغ خزّان الوقود في السيارة. فيقوم شحادة بإلقاء نظرةٍ سريعة عبر نافذة السائق ولا يرى عوَيني الذي ما يزال فاقد الوعي، ولكن ذهبي موجود وهو جالسٌ بشكلٍ

مستقيم ولكن غير واعٍ. وغير واثقٍ ممّا إذا كان ذهبي حيّاً أو ميتاً، يدور شحادة حول مؤخرة سيارة الإسعاف لبلوغ باب الركاب والتحقّق. وفي هذه الأثناء، ينفجر خزان الوقود فجأةً ويغمر العربة بسائلٍ حارق، فيُضطرّ شحادة للتراجع.

يستيقظ محمد عوَيني ليرى يدَيه مُمسكتَين بمِقوَد سيارة الإسعاف. ومصاباً بدُوار، يُدير رأسه ببطء إلى اليمين ويرى ذهبي بجانبه مغطّى بألسنة اللهب. فيحرّك عوَيني أصابعه على المِقوَد ويقول في نفسه "أنا حيّ". فيدفع الباب إلى الخارج، ويقفز من سيارة الإسعاف ويركض في اتجاه فندق فينيسيا المجاور في الوقت الذي تلتهم فيه النيران العربة.

ويصل عبد العرب إلى السان جورج ويرى عامر شحادة الذي يخبره بأنهم لم يعثروا على الرئيس بعد. فيقوم العرب بعملية مسحٍ دقيقة لمسرح الانفجار أمامه، حيث يُقاطَع الدخان الأسود السميك بانفجاراتٍ كل بضع ثوانٍ بسبب ألسنة اللهب التي تطال خزانات وقود السيارات المشتعلة. وتفشل الأصوات الحادة لأجهزة إنذار السيارات بحجب فرقعة الرصاصات المنطلقة بين النيران. ونسيبه أبو طارق موجودٌ هنا في مكانٍ ما. ويرى عبد العرب جثة رجلٍ ضخم مُلقاة على الطريق على بُعد 10 أمتار. هل هو الرئيس؟ ويخبره أحدهم أنه جمال منصور، أحد الحراس الشخصيين، وكان يشبه الحريري بمظهره وحجمه.

وها هو عامر شحادة يعثر على سيارة الحريري. فقد اختفى مؤخّرة سيارة المرسيدس المصفّحة، وما تبقّى منها هو النصف الأمامي المتجعّد والمحطَّم، هيكلٌ من المعدن المحترق الملْويّ. ويُخبره أحدهم بأن الحريري على قيد الحياة وفي إحدى المباني المواجهة للسان جورج التي طالها الانفجار. فيندفع شحادة فوق الركام متحقّقاً من الجثث والأشخاص المصابين الذين تمّت معالجتهم على الفور من قِبَل مسعفي الصليب الأحمر، ولكن الحريري ليس بينهم. ومع بدء شحادة بفقدان الأمل بأن يكون الرئيس ما يزال على قيد الحياة، ينتابه ألمٌ شديد في رأسه. فتسيل قطراتٌ صغيرة من الدماء من أذنَيه، ويخبو سمعه تدريجياً بسبب الارتجاج الدماغي الذي أحدثه الانفجار الهائل. فيغادر إلى المستشفى بسيارة إسعاف، ولن يستعيد سمعه إلا بعد أسبوعين.

ومن وراء شريطٍ على جانبَي مسرح الانفجار يصرخ جنودٌ وعناصر شرطة طالبين من المتفرّجين المذهولين الابتعاد. فقد تناثرت النوافذ على بُعد مئات الأمتار، وهناك كُوَمٌ سميكة من الزجاج ملقاةٌ في الشارع. ولم يتبقَّ

أي نافذة في واجهة فندق فينيسيا الشاهق المقابل للسان جورج، والمصنَّف من الدرجة الأولى. وكان الانفجار قوياً لدرجة أنه لوى ومزّق أطر الأبواب الخشبية في غرف نوم الفندق. وتحطّمت عشرات القطع الفخارية الممتدّة عبر جدران طريق النفق بالقرب من فينيسيا، والتوَت بسبب موجة الضغط. ويسير موظفو فرع مصرف إتش إس بي سي القائم في الزاوية المؤدّية إلى موقع الانفجار، وهم مُصابون بدوار، على امتداد الواجهة المحطَّمة للمبنى، وتسيل الدماء من العديدين منهم بسبب جروحٍ أحدثتها كِسَر الزجاج المتطايرة. وهناك سيارتا ليموزين سوداويتان متوقّفتان وسط الطريق على بُعد 30 متراً من الحفرة، وهما متضرّرتان جداً ولكن النار لم تطَلْهما. إحداهما سيارة مرسيدس يقودها عامر شحادة، والأخرى سيارة بي إم دبليو. وما يزال ضوء المؤشّر في السيارة الثانية يومض، والنوافذ محطَّمة، وهيكل السيارة متغضّن. وتوجَد بِركةٌ صغيرة من الدم الأحمر المتخثّر على الطريق بجانب باب السائق. وصندوق سيارة شحادة مفتوح، كاشفاً عن علبةٍ معدنية لمّاعة مع إشاراتٍ ضوئية وأقراصٍ ومفاتيح؛ هو الجهاز الإلكتروني القوي الذي يمنع حدوث انفجارات.

وهناك في قلب الفوضى الشاملة والوحل والدخان حفرةٌ بعمق 3 أمتار وباتساع 10 أمتار، مع أعمدةٍ رفيعة من الدخان ما تزال تنبثق من الأرض المُزبِدة متلوّيةً. وتنتأ أنابيب مياهٍ محطَّمة من جدار الحفرة كالأسنان المكسورة. ويتسلّق عمّال إنقاذ ورجال شرطة بثيابٍ عادية جوانب الحفرة، باحثين بين الوحل عن دليلٍ لما قد يكون تسبّب بهذا الانفجار الضخم. والأهم من ذلك، من كان المستهدَف من التفجير؟ ويقوم رجلٌ أنيقٌ ببذلةٍ قاتمة اللون، وقميصٍ بلون الأزرق الباهت، وربطة عنق، بتوجيه المنقذين بينما يدقّقون بالدبش في مبنى مجاور. يبدو وكأنه حارسٌ شخصي لشخصٍ عام. وترتسم على وجه محمد عزاقير ملامح الذُعر، وهو مصوّر فوتوغرافي يعمل لصالح وكالة الأنباء رويترز، وكان من بين أول من وصلوا وسيفوز لاحقاً بجائزةٍ في الصحافة عن الصور التي التقطها ذلك اليوم.

"نالوا من الحريري"، يقول مُحبَطاً.

وفي مستشفى الجامعة الأميركية، يقطع عويل أول سيارة إسعافٍ مقتربة بوطأته الثقيلة الصمت المثير للقلق خارج غرفة الطوارئ. وتتوقّف السيارة متمايلةً، فيدرك د. أحمد حُصَري على الفور بأن أولى الضحايا أمواتٌ جميعاً بعد إلقاء نظرةٍ سريعة على داخلها. والجثث مسودّةٌ بسبب الحريق، وبعضها بلا أوصال. يأمر حُصَري سائق سيارة الإسعاف بأن يتجه نحو

المَشْرَحة. وتصل سيارات إسعاف أخرى بتتابعٍ سريع، مُفرغةً ضحايا تتراوح إصاباتهم بين التمزّق بسبب الزجاج المتطاير وبين الحروق الخطِرة، والأوصال المبتورة والجراح البالغة بسبب الشظايا المعدنية. وبعض الضحايا مصابون بشكلٍ خطِر لدرجة أنهم ماتوا على طاولة العمليات قبل البدء بها. وصُدِم حُصَري بواقع أن معظم الضحايا يرتدون بذلاتٍ وربطات عنق، وهذه الملابس مختلفةٌ جداً عن البِزّات العسكرية التي كان يرتديها الضحايا الذين عالجهم إبّان الحرب. وإذ به يسمع إشاعةً بأن التفجير استهدف الموكب الذي يضمّ الحريري وفليحان. وتتأكد الإشاعة عندما يرى رشيد محمود مصاباً بجراح ويُنقَل إلى غرفة الطوارئ على حمّالة، وهو زميله في مستشفى الجامعة الأميركية الذي اعتاد التكلّم باعتزاز عن وظيفته في الفريق الطبّي التابع للحريري. ويخبره أحدهم بعد ذلك أن الحريري وفليحان نجيا من التفجير بدون التعرّض لإصابات وغادرا مسرح الانفجار بسيارةٍ أخرى. شكراً لله، يقول في نفسه. فقد فاز حُصَري بمنحةٍ دراسية من مؤسسة الحريري عام 1986 لدراسة الطب في جامعة جونز هوبكنز في الولايات المتحدة، وكان على معرفةٍ بفليحان مذ كانا طالبَين معاً في الجامعة الأميركية في بيروت. وتوقّفت سيارة إسعاف أخرى، وأُخرج من الخلف بمساعدة مُسعفَين شخصٌ مروّع ببذلةٍ سوداء وقميصٍ مقلَّمة باتت أشرطةً متفحّمة تتدلّى من جسمه المصاب بحروقٍ سطحية وبجروحٍ بليغة. فترتعش عينا الرجل ويلفظ بصوتٍ أجشّ اسم امرأة، "يسما، يسما"، مراراً وتكراراً. ومن المذهل أن الرجل واعٍ، ناهيك عن كونه حيّاً. وقد سلخت النار معظم بشرة جسمه وحرقت أطراف الأعصاب بحيث إن الرجل بات لا يشعر بالألم رأفةً به. ويقوم حُصَري بتمديده في غرفة الطوارئ حيث حُضِن، ودُعم بأجهزةٍ الإنعاش، واقتيد بعد ذلك إلى وحدة العناية المركَّزة على حمّالةٍ مدولَبة. ويعود حُصَري إلى منطقة الفرز خارج غرفة الطوارئ ويُقال له إن الحريري وفليحان لم ينجوا من التفجير بالرغم من كل شيء، وهما في عِداد الأموات على الأرجح. ويفكّر حُصَري بالرجل المصاب بحروقٍ بالغة في وحدة العناية المركَّزة الذي كرّر اسم يسما. فزوجة فليحان تُدعى يسما. فيعود إلى وحدة العناية المركَّزة وينحني فوق الشخص الذي ما زال واعياً.

"هل أنت باسل فليحان؟" يسأل.

فيومئ فليحان برأسه موافقاً على ما يقول.

"أنا أحمد حُصَري. هل تتذكرني؟"

فيومئ برأسه ثانيةً دلالةً على الموافقة.

"أنا هنا للعناية بك"، يقول حُصَري، مُدرِكاً تماماً أنه لا يمكن لفليحان النجاة من هذه الحروق الرهيبة. فيلقي نظرةً على الخاتم في أحد أصابع فليحان المسودَّة ويلاحظ اسم "يسما" محفوراً عليه. ويقول في نفسه، ماذا سأقول لزوجته؟

في هذه الأثناء، يستمرّ عبد العرب بالتحديق بالجثة المُلقاة على الطريق. هل هو الرئيس أو جمال منصور، الحارس الشخصي؟ فنادى مسعفَين ووضعا الجثة في مؤخرة سيارة إسعاف. وصعد العرب على متنها وبدأ يتفحّص الجثّة سنتيمتراً سنتيمتراً، محاولاً إيجاد اسمٍ للجثّة المشوَّهة الموجودة أمامه. فقد احترق الشعر ولا يمكن التعرّف على الوجه، وباتت العينان مستطيلتَين وضيّقتَين، والبشرة مصفرّة اللون بسبب حرارة النيران. كما أن الحذاءَين اختفيا كاشفَين عن زوجٍ من الجوارب القصيرة الداكنة التي احترقت على الجِلد. وعلم العرب بأن الحريري كان يميل إلى ارتداء جوارب طويلة. وتطلّبه الأمر خمس دقائق قبل تحديد هوية الجثّة. فالأظافر هي التي كشفت الأمر. فتلتمع في ذهنه صورة الحريري في قريطم. كان الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، عيد مولد الرئيس. فسأله أبو طارق آنذاك إن كان بإمكانه تقبيل يده تعبيراً عن الاحترام. ولم يكن الحريري يحب أن يقوم أي شخصٍ بتقبيل يده، ولكن العرب كان مختلفاً. فقد كان من العائلة. فجلس الحريري على الأريكة ورفع يده. فأخذها العرب وقبّلها. كانت لحظةً شخصية حميمية إلى حدٍّ كبير. وها هو الآن جالسٌ في مؤخرة سيارة إسعاف أمام هذه الجثّة المصابَة بالتلَف وأظافرها النظيفة والمقلَّمة بإتقان تُشبه تلك الأظافر التي كان قد قبّلها منذ ثلاثة أشهر.

وفي كليمنصو، يعود الحارس الشخصي لجنبلاط إلى المنزل ويقول إنه يبدو أن موكب الحريري تعرّض لعملية تفجير. فيتوجّه جنبلاط والعريضي إلى مستشفى الجامعة الأميركية على بُعد دقائق قليلة. ولدى وصولهما، يريان بهاء الحريري، ابن رفيق البكر، وهو يبدو مذهولاً ومصدوماً. ويدخل ثلاثتهم إلى المستشفى معاً ويُقال لهم إن الحريري قد يكون في غرفة العمليات الجراحية. وفيما هم متّجهون إلى غرفة العمليات، ينفرد ضابط أمنٍ تابعٍ للمستشفى بجنبلاط ويقول "لا فائدة. لقد مات".

في هذه الأثناء، يكون غطاس خوري في المشرحة فينضمّ إليه سليم دياب، وهو وزير سابق وصديق مقرَّب للحريري. ويبدآن معاً المهمّة المعذِّبة محاولَين التعرّف إلى جثة رئيس الوزراء السابق بين كل هذه الجثث. ويشير مسعفٌ إلى إحدى الجثث قائلاً إنه الحريري، ولكن خوري ودياب لم يوافقا.

فالحريري لا يحمل أي شبهٍ لتلك الجثة المحترقة والمشوَّهة. ويستمرّان بالبحث.

وفي موقع الانفجار، ولدى توقّف الطلقات النارية، تساعد كارول فرحات وعلي بعضهما البعض للعودة إلى الشارع. فالغبار مترسّبٌ ومتراصّ وقد تبدّد الدخان بما يكفي لرؤية الدمار الذي تسبّب به الانفجار. وتمتلئ رُعباً لدى مشاهدتها رجلاً تلتهمه ألسنة اللهب يخرج من نافذة سيارةٍ مشتعلة ويتلوّى على الركام والوحل. هو المسعف الطبي مازن ذهبي. فقد كان حيّاً بالرغم من كل شيء. وسيلازم موته المرفَق بعذابٍ شديد أحلام كارول طيلة أشهر. وتتذكر أن ماري، شقيقة زوجها، وزملاء آخرين موجودون في الطابق الأول من البناء المُلحَق بفندق السان جورج.

"ماري، زاهي، عبدو"، تصرخ كارول في اتجاه الطابق الأول من المبنى. فقد عملت مع زاهي أبو رجيلي وعبدو فرح طيلة 16 عاماً. وتشعر بأن شخصاً ما عانقها، فتلتفت وترى زوجها بشير. ويطلب من كارول انتظاره عند المدخل بينما يقوم بالبحث عن ماري في البناء المُلحَق بالسان جورج. وبعد عشر دقائق، يظهر بشير مجدّداً برفقة عمّال إنقاذ آخرين كانوا قد تغلغلوا في المبنى من الجهة المقابلة. وماري مستلقية على حمّالة ولم تتعرّف إليها كارول تقريباً. فوجه شقيقة زوجها قناعٌ من الدم.

ويصل عدنان البابا، السكرتير الخاص للحريري، إلى مستشفى الجامعة الأميركية، وكان قد جرى مُسرعاً من قريطم لدى سماعه خبر تعرّض موكب الحريري لانفجار. ويرى الدكتور جابر صوايا، الطبيب الخاص للحريري، ويناديه.

"هل تعلم ماذا كان يرتدي هذا الصباح، عدنان؟"، يسأل.

يجيب البابا بالإيجاب.

"إذاً تعالَ معي".

ويقتاد صوايا البابا إلى خزانته ويُخرج رزمة ملابس. وفاضّاً الملابس، يسلّم الطبيب البابا قصاصةً صغيرة من ربطة عنق مقلّمة بالأزرق والأبيض مصابة بحروقٍ طفيفة.

"نعم، هي ربطة العنق التي أعطيتها له هذا الصباح"، يقول البابا.

ويعرض صوايا عليه خاتم زواجٍ غير مزخرَف من الذهب الأبيض وقلادة تحمل حجراً كريماً بنّيّ اللون كانت زوجة الحريري، نازك، قد قدّمتها له، واعتاد وضعها حول عنقه تحت قميصه.

ويومئ البابا برأسه مؤكّداً على أن هذه الأغراض تخصّ الحريري.

"عدنان"، يقول صوايا برقّة، "السيد الحريري توفّي".

ويتلقّى خوري ودياب اتصالاً هاتفياً قيل فيه إن سيارة الحريري نجت من الانفجار. فيتوجهان إلى مسرح الانفجار آملَين في أن يكون الحريري قد نجا بأعجوبة بالرغم من كل شيء. ولكنهما لم يتمكّنا من العثور على سيارة الحريري وسط الدمار. ويعودان إلى مشرحة المستشفى لإعادة تفحّص الجثث. وبالإضافة إلى خوري ودياب، يقف حول الطاولة في المشرحة عدنان البابا، والدكتور جابر صوايا، وعبد اللطيف شمعة، أحد أصدقاء الحريري الأقدمين. والكل يبكي الحريري ويندبه. وعلى اللوح أمامهم جذع إنسان، وهو كل ما تبقّى من إحدى الضحايا. فيهزّ البابا رأسه ويقول إنه ليس الحريري. ويتمّ إدخال جثّةٍ أخرى على حمّالة مدولَبة إلى الغرفة وتوضَع على الطاولة، وهي الجثة نفسها التي كان قد عاينها خوري ودياب في وقتٍ سابق وقالا إنها غير عائدة للحريري. وبالرغم من الإصابات الرهيبة والتشويه، فإن 28 عاماً من الصداقة الحميمة تسمح للبابا بالتعرف إلى الحريري على الفور.

"إنه هو"، يقول.

وفي المستشفى، يلتفت جنبلاط إلى بهاء الذي ما زال يجهل حالة والده، ويقول "لنذهب إلى المنزل". ويقود جنبلاط سيارته وبهاء إلى جانبه.

"ماذا يحدث؟ رجاءً، بحق الله، أخبرني ما الذي يجري"، يقول بهاء ملتمساً.

"الأخبار سيّئة"، يجيب جنبلاط بهدوء، عاجزاً عن منع نفسه من إخبار بهاء بأن والده توفّي.

ويصمت الشاب.

ويصلان إلى قريطم ويسرعان إلى الداخل. ويُدرك جنبلاط أن الأسرة لم يتمّ إعلامها بعد بأن الحريري توفّي. فيمطرونه بالأسئلة ولكنه غير قادرٍ على قول الكلمات التي يحتاجون إلى سماعها.

"حسناً، الأخبار سيّئة"، يكرّر، وبعد توقّفٍ قليل، يهزّ كتفَيه استهجاناً ويقول ببساطة، "الله أكبر".

"سألته مؤخّراً إن كان يشعر بالخوف"، أخبر فؤاد السنيورة الكاتب بعد ساعات. "قال لي ’لا، هذه الأعمال العنيفة باتت من ماضي لبنان‘." بوجهٍ شاحب

وكان الجو داخل قريطم مساء 14 شباط متجهّماً ومتوتّراً لدى اجتماع المعارضة للقاء أزمة. وعُرف أن تسعة أشخاص ماتوا في الانفجار،

الحريري وسبعةً من مفرزته الأمنية. وسترتفع الحصيلة في النهاية إلى 23 قتيلاً وأكثر من 220 جريحاً. وسيكون باسل فليحان المصاب الوحيد الذي يلقى حتفه. فقد كانت معجزة أن يخرج من الانفجار حيّاً بأية حال. وكان الفريق الطبّي في مستشفى الجامعة الأميركية قد ولج الإنترنت لاختيار المستشفى الأكثر قدرةً على التعاطي مع حروقه الخطِرة. واتفقوا على مستشفى بيرسي العسكري في باريس. وكان غطاس خوري قد أجرى كل التدابير وطار فليحان إلى فرنسا ذلك المساء على متن طائرة الحريري الخاصة برفقة صديقه د. أحمد حُصَري. وعاش فليحان مدة 64 يوماً من العذاب الشديد قبل الموت في النهاية بسبب إصاباته.

وكان حشدٌ من الناس قد تجمّع حول المداخل العُلوية والسفلية لمنزل قريطم الحجري. وجلست امرأةٌ عجوز على الأرض، وعلى رأسها وشاح، تتمايل وتندب في عرضٍ طقسي تعبيراً عن الحِداد. وكان الحشد يغلي من الغضب والأسى بهدوء. ومن ثمّ، صاح شاب، "أنظروا إلى داخل قلوبكم! نعلم من قام بهذا الأمر! سوريا!" وكان أسلوبه يعبّر عن تحدٍّ منبِّه وهو يحدّق في وجوه أولئك المحيطين به. كانت لحظةً بالغة الأهمية. وكان موت الحريري يضع حدّاً لـ 15 عاماً من الإذعان السنّي للحكم السوري في لبنان. وكحاملة طائراتٍ تبدّل مسارها في المحيط، كان المجتمع السنّي يتحوّل بزخمٍ متصلّب إلى معارضةٍ صريحة.

وداخل المنزل، كانت مناطق الاستقبال والردهة خارج غرفة المؤتمرات ملأى بأعضاء المعارضة والصحافيين وأصدقاء العائلة والدبلوماسيين. وفي إحدى الزوايا، كانت مجموعةٌ من الناس تشاهد تغطيةً حية للحدث على قناة تلفزيون المستقبل التابعة للحريري. وكان المذيعون والمذيعات يرتدون ملابس سوداء، ويظهر في أعلى الزاوية اليسرى من الشاشة شريطاً أسود تعبيراً عن الحِداد.

وشاهدت امرأةٌ متوسطة العمر، ترتدي ملابس أنيقة والدموع تنهمر على وجهها، رجلاً غربياً في غرفة الاستقبال، فاتجهت نحوه. وسألت من يكون. فأخبرها بأنه السفير الإسباني. فأمسكت بكمّ سترته وقالت بلغةٍ إنكليزية ضعيفة "رجاءً، يجب عليكم مساعدتنا. لا يمكننا الاستمرار على هذا النحو. نحتاج إلى مساعدتكم لوضع حدٍّ لكل ما يجري. لقد عانينا طويلاً. رجاءً ساعدونا". وأومأ السفير برأسه بشكلٍ ودّي ومتعاطف موافقاً دون أن يقول أي شيء.

وكان زعماء المعارضة يعقدون لقاءً في غرفة المؤتمرات لاتخاذ قرارٍ

في شأن التصريح الذي سيصدرونه. وفي اللقاء الذي دعا إليه وليد جنبلاط، جلس أعضاء تجمّع قرنة شهوان المسيحي رسمياً، وللمرة الأولى، مع تيار المستقبل التابع للحريري. وتأمّل العديد من أعضاء قرنة شهوان بسخرية القدر إذ كانوا يرفضون قبل يوم لقاء الحريري في قريطم، مفضّلين البرلمان. وها هم الآن جالسون كلّهم حول الطاولة نفسها ينظرون إلى بعضهم البعض بحذَر. ودخل سعد الحريري الغرفة وجلس إلى الطاولة، دون أن يقول أي شيء. فقد وصل مباشَرَةً من أبو ظبي لدى تلقّيه الأخبار حول وفاة والده، "هي الرحلة الجوية الأطول في حياتي"، كما تذكر في وقتٍ لاحق. وتحدّث سعد عدة مراتٍ أثناء رحلته إلى جاك شيراك "الغاضب" الذي وعد بالقدوم إلى بيروت لحضور مراسم الدفن (2) .

وناقش معظم المشاركين في اللقاء صورة إدانةٍ قوية لعملية التفجير واتهام السلطات اللبنانية والسورية وتحميلها مسؤولية مقتل الحريري. وكان الحريري يتلقّى تهديداتٍ بالموت منذ أشهر، فهل بإمكانهم إصدار بيانٍ شكلي عادي يُحجمون فيه عن الإشارة بإصبع اللوم؟

ولكن الإشارة إلى سوريا بالاسم وتحميلها مباشَرةً مسؤولية موت الحريري هي مسألة أخرى. فقد كان بإمكان إدانةٍ ناجمة عن ردّ فعلٍ آلي أن تؤدّي إلى تفاقم الجوّ المشحون، سيّما وأنها حُمِّلت مسؤولية الانفجار.

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، أي بعد 30 دقيقة من الانفجار، تلقّى مكتب تلفزيون الجزيرة الفضائية العربية في بيروت اتصالاً هاتفياً من شخصٍ ما لغته العربية ضعيفة، قال فيه إن مجموعةً تُدعى "النصر والجهاد في بلاد الشام" نفّذت عملية الاغتيال.

ونشرت الجزيرة التصريح في الساعة الثانية بعد الظهر. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، تلقّت محطة التلفزيون اتصالاً هاتفياً آخر من شخصٍ يتكلّم العربية بطلاقة هذه المرة، قال فيه إن شريط فيديو تُرِك في شجرةٍ مواجهة للمقرّ الرئيسي للأمم المتحدة في وسط المدينة. ويقع مكتب الجزيرة في مبنى مجاور. واستُخرجت المعلومات من شريط الفيديو، ولكن المكتب الرئيسي للجزيرة أرجأ عرضه على الهواء. وتلقّت المحطة اتصالين هاتفيَّين آخرَين يحملان تهديداتٍ ممّا اضطُرّها في النهاية لعرض الشريط في النهاية على الهواء بعد الساعة الخامسة بعد الظهر.

ويُظهر الشريط رجلاً مُلتحياً يرتدي عمامةً بيضاء وثوباً أسود، ويقرأ بياناً قُبالة علمٍ أسود في خلفية الصورة كُتب عليه بخطٍّ أبيض، "لا إله إلا الله، محمد رسول الله. الله أكبر".

وقال، "دعماً لإخوتنا المجاهدين في أرض الحرَمَين الشريفَين [غالباً ما استُخدم هذا الوصف من قِبَل القاعدة لوصف المملكة العربية السعودية] وثأراً لشهدائهم الأبرار الذين قتلتهم القوى الأمنية التابعة للنظام السعودي في أرض الحرمَين الشريفَين، قرّرنا، بعد الاتكال على الله القدير، إنزال عقابٍ عادل بعميل هذا النظام وأداته الرخيصة في سوريا الكبرى، الآثم وجاني الأموال الحرام، رفيق الحريري، من خلال تنفيذ عمليةٍ استشهادية مدوّية. وهذا يُثبت وعدنا بدعم وخوض الجهاد، وستكون بداية عدة عملياتٍ استشهادية ضد الكفار، والمرتدّين، والطغاة في سوريا الكبرى".

وأعلنت الجزيرة في وقتٍ لاحق أن البيان المسجَّل على شريط الفيديو أشار إلى أن اسم المفجّر الانتحاري هو أحمد أبو عدس، وثبُت في النهاية أنه فلسطيني في الاثنين والعشرين من العمر ويُقيم في منطقة الطريق الجديدة في بيروت الغربية.

وسلّم تيسير ونهاد أبو عدس، وهما والدا أحمد، نفسَيهما إلى الشرطة مع ابنتَيهما بعد وقتٍ قصير من مشاهدة البيان على الجزيرة. وأغار أفرادٌ من قوى الأمن الداخلي على شقة أبو عدس وصادروا حاسوباً وشرائط ومستندات. ورشح أن أبو عدس كان قد غادر المنزل صباح 16 كانون الثاني/يناير ولم يره أحد منذ ذلك الوقت. وكان أهله قد أبلغوا عن اختفائه قبل ثلاثة أيام.

وكان لقاء المعارضة جارياً عندما أُذيع على التلفاز خبر ادّعاء أبو عدس مسؤوليته عن الانفجار ممّا أثار غضب بعض أعضاء تكتّل الحريري.

"هم يتّهمون متعصّبين. يريدون أن يبدو الأمر وكأننا قتلناه"، قال عضو برلمان سنّي بغضب (3) .

ووضع باسم السبع مسودّة بيانٍ أوّلي، ولكن مروان حمادة عارضها. فقد كانت متساهلة جداً.

"لسنا هنا في مجالس العزاء"، قال للآخرين. "نحن هنا كقوةٍ سياسية وقد اغتيل زعيمنا" (4) .

وحذّر جبران تويني من أن الكاردينال صفير لن يساند دعوةً إلى استقالة لحود، وهو تعليقٌ تسبّب ببعض التوتر الوجيز في الأوساط غير المسيحية في الغرفة التي كانت واثقة من أن الرئيس مُذنبٌ بالتحريض على الأقل.

ووُضع بيانٌ معدَّل، وأعلنت المعارضة أنه سيُتلى مباشَرةً على شاشات التلفزة. وحدث تدافعٌ عند البابَين المؤدّيَين إلى الغرفة فيما كان

المراسلون الصحافيون والمتفرّجون يناضلون للدخول.

وكان أعضاء المعارضة البارزون جالسين على جهةٍ واحدة من طاولة المؤتمرات. وجلس جنبلاط بجانب السبع، غير مبتسم، يداه متصالبتان ويحدّق بوجه الطاولة المصقول أمامه. وجلس السبع الذي قرأ البيان في الوسط، وجبينه العريض يتلألأ بسبب التعرّق تحت وهج أضواء كاميرات محطات التلفزيون. وبدأ واصفاً "التفجير الإجرامي" بالعمل غير المسبوق منذ نهاية الحرب، وقال إن المعارضة أخذت على نفسها عهداً بـ "هزم المخطط الشيطاني" للمجرمين. ولكن السبع بلغ جوهر الموضوع قُبَيل نهاية البيان.

وفي ما يتعلّق بوفاة الحريري، "تحمّل المعارضة السلطة اللبنانية والسلطة السورية، نظراً إلى أنها السلطة القائمة فعلاً في لبنان، مسؤولية هذه الجريمة وجرائم مماثلة أخرى في لبنان".

"الله أكبر"، صاح مؤيّدٌ شاب للحريري كان قد شقّ طريقة بين الحشد إلى داخل الغرفة.

وكان بياناً قوياً بالرغم من كل شيء. فقد قرّرت المعارضة توزيع المسؤولية بين الحكومتَين اللبنانية والسورية بدلاً من التركيز على دمشق وحدها. ولكن قد لا يكون بالإمكان التراجع عن هذا الاتهام الجريء؛ وفجأةً، كان لبنان يدخل مدارك مجهولة المعالم. ومستمراً بالقراءة، طالب السبع بتحقيقٍ دولي حول مقتل الحريري، والاستقالة الفورية للحكومة وتشكيل حكومة مؤقّتة، وانسحاب القوات السورية من لبنان قبل بدء الانتخابات البرلمانية، والقيام بإضرابٍ وطني لمدة ثلاثة أيام بدءاً باليوم التالي.

واختُتم اللقاء، وأَفلت أعضاء المعارضة من معمعة وسائل الإعلام منطلقين بسرعة إلى الخارج عبر بابٍ جانبي في المطبخ.

"منذ هذا الصباح، أعيش اغتيال زوجي منذ 15 عام"، أخبرت نايلة معوض، وهي شخصية بارزة في تجمع قرنة شهوان، الكاتب عندما توقفت قليلاً في الرواق بجانب المدخل السفلي للمنزل. ووقف ابنها ميشال بجانبها يقِظاً. وأُثيرت مشاعر معوض بالأحداث التاريخية لذلك اليوم، وهي امرأةٌ حيوية وجذّابة مع تاجٍ من الشعر الأسمر المائل إلى الحُمرة. "حان الوقت للشعب اللبناني للتحرّر من الوصاية... لم نعُد خائفين بعد الآن"، قالت. "لا يمكنك منع الشعب من التعبير عن خيبة أمله. أظن أن الشارع سيغدو أقوى عاجلاً أم آجلاً".

وحدث الأمر في وقتٍ عاجل. فالحشد المحيط بقريطم غدا أكبر حجماً، وتحرّر من كل ما يُعيقه عن التعبير في أعقاب بيان المعارضة

المتلفَز.

"سوريا "برّا"، سوريا أُخرجي (برّا)"، صاحوا بأعلى صوت. ولم يكن الغضب مقتصراً على محيط قريطم. فتلك الليلة، نزل السنّة الغاضبون إلى الشوارع في مختلف أنحاء البلد، ملوّحين بصور الحريري وقاطعين الطرق الرئيسية بإطاراتٍ مشتعلة. وفي تقاطع الكولا في بيروت الغربية، مزّق حشدٌ من الناس رايةً كبيرة لحافظ الأسد بينما حاصر آخرون مبنى لحزب البعث المحلّي، محطّمين النوافذ بالحجارة ومُشعلين صورةً لبشار. وفي البقاع، أُمطِرت شاحنة تحمل 20 عاملاً سورياً بنيران الرشاشات، وفي إحدى البلدات، حذّرت نشرات إعلامية مكتوبة تحمل توقيع "المجموعة السرّية - مجموعة الشهيد رفيق بهاء الدين الحريري" كل السوريين في المنطقة من وجوب مغادرة البلد قبل 20 شباط/فبراير. وفي صيدا، مدينة الحريري الأم، هوجم عمّالٌ سوريون من قِبَل حشدٍ من الناس ينشدون "لا إله إلا الله، وسوريا عدوّة الله".

وكانت هذه المشاهد غير مسبوقة ولا تصدَّق، ولكن قتل شخصٍ ما بشهرة الحريري بهذه الطريقة القاسية والوقحة يبرّر ما حدث. لم يكن اغتيالاً عادياً، أو إفراغ قارورة سمٍّ في كوب كاكاو أثناء النوم، أو غرز خنجرٍ في الظهر دون إحداث جلَبة. فمن قتل الحريري أراد حدثاً صارخاً ووقحاً.

"هو الاغتيال السياسي الأول الأبرز في زمن السلام"، أخبر فريد الخازن الكاتب بعد ساعاتٍ من التفجير، وهو أستاذ في السياسة في الجامعة الأميركية في بيروت وقد انتخب عضواً في البرلمان في وقتٍ لاحق. "هذا أبعد ما يمكنك بلوغه عندما تستهدف شخصاً ما بمنزلة الحريري. فقد تخطى هذا الأمر كل محظور".

واستبقت سوريا ردة الفعل على مقتل الحريري بشكلٍ ممتاز. ففي حين كان معظم العالم الخارجي حذِراً إزاء إلقاء التهَم جزافاً - حتى إن البيت الأبيض تجنّب اتهام دمشق بوضوح - لم يكن اللبنانيون يشكّون أبداً بمن يجب عليهم اتهامه. "تسألني عن الجهة المسؤولة؟" أجاب سعد الحريري عن سؤال أحد المراسلين الصحافيين حول من يعتقد أنه المسؤول. "هم معروفون جيداً"، قال.

واقتُبس عن بشار قوله ببساطة إن الاغتيال كان "عملاً إجرامياً شنيعاً". وقال مسؤولون سوريون، إضافةً إلى الحكومة اللبنانية، إن القاتل استهدف استقرار لبنان، ووفقاً للحود، سعى القاتل إلى "التحريض على

الفتنة". وردة الفعل الوحيدة التي صدرت عن دمشق وكانت من القلب وتضمّنت شعوراً حقيقياً بالصدمة، هي ردة فعل عبد الحليم خدام.

"بانذهالٍ مُحزن، تلقّيت خبر اغتيال شقيقي وصديقي أبو بهاء الذي عرفتُ منذ أكثر من 25 عاماً"، قال، مستخدماً عبارة "أبو بهاء"، وهو تعبيرٌ مألوف عمّا يكنّه من عاطفة للحريري. وأكمل خدام واصفاً الحريري بـ "الوطني اللبناني الذي يحب بلده والشعب" والذي كان "وفيّاً" لسوريا وقد تجلّى هذا الأمر بكل ما يتعلّق بسوريا".

وكان خدام المسؤول السوري الأعلى الوحيد الذي اتجه مباشَرةً من دمشق إلى مستشفى الجامعة الأميركية لدى سماعه خبر مقتل الحريري، مواجهاً بشجاعة الحشد الغاضب المتجمّع في الخارج. ولا بد من أنه شعر بمروره بهذا الوضع وهو يشقّ طريقه وسط الحشد إلى داخل المستشفى، مكرّراً الزيارة القصيرة نفسها التي قام بها لمروان حمادة المصاب بجروح قبل حوالى أربعة أشهر. وحضر خدام التعازي أيضاً في قريطم التي أُقيمت طيلة الأيام الثلاثة التالية، وقد شارك فيها آلاف المشيّعين بمختلف مستوياتهم الاجتماعية مارّين أمام العائلة المحزونة ومصافحين الأيادي وهامسين بمؤاساتهم. وطار شيراك من باريس إلى لبنان يوم الثلاثاء، وظهر على شاشات التلفزة يؤاسي نازك المفجوعة، حاملاً يدها بحنان وهي تبكي بجانبه على الأريكة.

ورفضت عائلة الحريري عرضاً من الحكومة لإقامة جنازة رسمية، معلنةً أنه سيتمّ دفنه بجانب مسجد محمد الأمين غير المنجَز في ساحة الشهداء. وسيكون وداعاً شعبياً، قالت العائلة، ولن يكون المسؤولون اللبنانيون مرحَّباً بهم. ونصح جنبلاط الجهات الرسمية بالابتعاد عن الجنازة لـ "تجنّب الحجارة والبيض من الناس".

ونزلت بيروت إلى الشارع في اليوم التالي وقد لبّت الأمّة دعوة المعارضة إلى إضرابٍ لمدة ثلاثة أيام. وكانت الشوارع المزدحمة في العادة فارغة بشكلٍ مخيف، وبثّت محطات التلفزيون قراءاتٍ من القرآن. وأُقفلت أبواب المدارس والمتاجر وتوقّفت الأعمال، واختار معظم الناس ملازمة منازلهم إذ فرضت الحكومة طوقاً أمنياً، لاغيةً كل المأذونيات لعناصر الجيش والشرطة، وناشرةً جنوداً على تقاطعات الطرق في المدينة. وتجمّع حشدٌ من المشيّعين على مقربةٍ من موقع الانفجار في السان جورج المحاط بشريط، واضعين الزهور على الرصيف، مصلّين، وتالين آياتٍ من القرآن والإنجيل أو محدّقين ببساطة بأعينٍ دامعة مروَّعة بمسرح الدمار أمامهم. وأضحت صورةٌ

كبيرة لباسل فليحان مثبَّتة على شجرة نخيل بالقرب من الشريط مزاراً صغيراً وُضعت أمامه الشموع وتقدمات الأزهار.

ومن جهةٍ ثانية، ووسط مظاهر الحزن والأسى، أظهر سنّة بيروت بوضوحٍ تامّ أنهم يعتبرون عائلة الحريري سلالةً حاكمة سياسية واجتماعية باقية ومستمرّة بالرغم من وفاة الحريري. وبالرغم من كون أبناء الحريري الأكبر سنّاً رجال أعمال، لا سياسيين، فقد فهموا المهمة التي فرضها القدر عليهم.

"خدم والدي لبنان كل حياته، وسنستمر بخدمة لبنان أيضاً مثله"، قال سعد الحريري وهو يقف بقرب الحفرة حيث مات والده قبل 24 ساعة.

وبالفعل، فقد أكمل الحريري بموته انتقال عائلته من أصولها الزراعية المتواضعة في منزلٍ حجري صغير من طابقَين وسط بساتين البرتقال في صيدا إلى ما هي عليه حالهم مؤخَّراً كأفرادٍ من تلك النخبة المختارة من السلالات الحاكمة في لبنان الأكثر اقتداراً.

وظهر الاحترام الذي اكتسبه الحريري بوضوح، وبشكلٍ مؤثّر، صباح اليوم التالي، الأربعاء 16 شباط/فبراير، عندما ودّع اللبنانيون "سيد لبنان"، الرجل الذي بات رمزاً لإعادة ولادة البلد بعد الحرب وهيمن على المسرح السياسي الوطني دون أن يكون هناك مثيلٌ له منذ أكثر من عقدٍ من الزمن.

وقدم الناس بعشرات الآلاف - أثرياء وفقراء، مسنّون وشبّان، مسيحيون ومسلمون - مدٌّ متماوج من الناس يتقدمهم صفٌّ من رجال الدين السنّة في سلسلة حركات نظامية متكرّرة مُرتدين أرديةً طويلة رمادية تعلوها عماماتٌ بيضاء، ومتشابكي الأيدي لاحتواء الكتلة الكبيرة من الناس المتجمّعين وراءهم. وككائنٍ حيٍّ لا شكل محدَّد له يتّسع باتساع شوارع بيروت تارةً ويضيق طوراً، رافق حشد المشيّعين الحريري في رحلته الأخيرة الممتدة مسافة ستة كيلومترات من قريطم إلى مسجد محمد الأمين في ساحة الشهداء. وانحنت النساء خارج النوافذ تراقبنَ تقدّم الموكب لرَمي حفناتٍ من الأرزّ ملء الأيدي على الموكب الجنائزي. وكان دروز جنبلاط قد نُقلوا بالحافلات من جبال الشوف، وامتاز حضورهم بين الحشد بوفرة أعلام الحزب التقدّمي الاشتراكي المتمثّل بمطارق متصالبة الشكل على خلفيةٍ حمراء. وكان بحر المشيّعين المسعورين يغمر سيارات الليموزين التي تُقلّ عائلة الحريري إلى ساحة الشهداء وسيارات الإسعاف المزيّنَة بالزهور والتي تحتوي

على توابيت الحريري وحراسه الشخصيين السبعة. ولم يكن بالإمكان تمييز تقدّم الموكب إلا من خلال الرجال الشبّان المتمايلين كراكبي الأمواج على سطوح سيارات الإسعاف طالبين من الناس بصيحاتٍ مرتفعة فتح الطريق، وقد ضاعت أصواتهم وسط عويل صفارات الإنذار وأناشيد المشيّعين وصراخهم.

واستمرّ سَيلٌ مطّرد من الناس غير المنضمّين إلى الموكب الرئيسي بالتدفق إلى الساحة من المناطق المسلمة في بيروت الغربية والمناطق المسيحية في الشرق. وكانت مكبّرات الصوت في مسجد محمد الأمين تتلو آياتٍ قرآنية وفي الخلفية أصوات الأجراس المجلجلة لكنيسة الأرمن الأرثوذكس في الجهة المقابلة للساحة.

"هي المرة الأولى منذ 30 أو 40 عاماً التي أسمع فيها الشعارات نفسها التي يطلقها جانبا المدينة"، قال يوسف الزين، وهو رجل أعمال لبناني بارز، محدّقاً إلى الأسفل في اتجاه الحشد من الجسر المعروف بـ "الرينغ" القائم في الطرف الجنوبي لساحة الشهداء. "هؤلاء ليسوا حشد الـ 10 دولارات. هم الطبقة البورجوازية"، أضاف، مشيراً إلى المشيّعين القادمين من مناطق الأشرفية والجمّيزة المسيحية المجاورة. "لا يمكنك أبداً إخراجهم من منازلهم، ولكنهم قدِموا اليوم. هم هنا في سبيل الاستقلال والحلم".

وبالفعل، فقد كان مشهداً غير عادي. كانت النساء المسيحيات المارونيات المرتديات ملابس سوداء أنيقة ونظاراتٍ ذات تصميم رياضي تتحدّثنَ بالفرنسية وتحملنَ عالياً صوراً للحريري. وبجانبهنّ وقفت نساءٌ مسلماتٌ بوشاحات رأس بيضاء وعباءاتٍ طويلة وقد ركع أزواجهنّ في منتصف النهار على الطريق للصلاة. وكان الطلاب المسيحيون يتحدّثون إلى زملائهم الدروز؛ ورجال الدين الشيعة المعمَّمون واقفون بجانب الكهنة المسيحيين.

وعُلِّقت صورٌ ضخمة للحريري على جدران مسجد محمد الأمين الشاهق. وفي إحداها، يتكئ ذقنه على قبضته عرَضاً، وترتسم على وجهه ابتسامةٌ رقيقة ومسترخية. وتُظهر صورةٌ غطّت الجدار الجنوبي للمسجد الحريري واقفاً ويداه في جيبَيه، ورأسه منحنياً قليلاً ويحدّق بنظرةٍ أبوية بوسط المدينة الذي كان قد ساعد على إعادة بنائه بعد ما ألحقته به الحرب من دمار.

وأُنزلت التوابيت من سيارات الإسعاف ونُقلت على بحرٍ عاصف من سعف النخل المقلوبة رأساً على عقِب إلى المثوى الأخير. وتسلّق العديد

من الشبّان الرافعات المحيطة بالمسجد غير المُنجَز، متأرجحين بشكلٍ خطِر على الجوانب وعلى علوّ عشرات الأمتار، وذلك تجنّباً للازدحام في الأسفل والحصول على منظرٍ أفضل.

وكان تابوت الحريري المغطّى بالعلم اللبناني الأحمر والأبيض والذي تتوسّطه الأرزة الخضراء يتمايل على مناكب أبنائه بينما كان متّجهاً ببطء إلى القبر، وقد أعاقت مئات الأيدي التي تحاول الوصول إلى التابوت الخشبي تقدّمه، وكأن ملامسته تجعل الحريري أقرب إليهم بطريقةٍ من الطرق في هذه اللحظات الأخيرة قبل مواراته الثرى. وبإخراج جسد الحريري الملفوف بكفن من التابوت ووضعه برفق في القبر طِبقاً للتقليد المسلم، صاح رجل دين مهتاجٌ اضطراباً "كان الشهيد حبيب الله... نشكر الله على تنشئته أبناءً صالحين". وصاح الحشد بأعلى صوت "الله أكبر".

لم يكن لبنان قد شهد يوماً مأتماً جنائزياً مماثلاً، وكان مع ذلك أكثر من جنازة. فقد كان أيضاً تظاهرة ضخمة ضد الوصاية السورية على لبنان. وبالفعل، كانت جنازة الحريري أولى التجمّعات الحاشدة المعادية لسوريا التي ستهزّ الأسس السياسية للبنان في الشهر التالي.

"سوريا أخرجي (برّا)، سوريا أخرجي (برّا)" و"الانتقام، الانتقام"، أنشد المشيّعون. وحمل العديدون لافتات كُتبت عليها عباراتٌ جريئة معادية لسوريا تقول إحداها "مرتكب جرائم متسلسلة" (syrial killer)، وهي تورية ستصبح شائعة لدى المتظاهرين.

وإذا كان السوريون وحلفاؤهم اللبنانيون يأملون في أن تستنفد المشاعر المعادية لسوريا ذاتها من خلال تدفّق العواطف أثناء جنازة الحريري، فقد كانوا مخطئين. ففي يوم الجنازة، كتب سمير قصير، وهو محرّر صحافي في النهار ، ومروّج رائد للديمقراطية، ومنتقد للحكم السوري في لبنان، "كانت بيروت القلب النابض لقوميةٍ عربية جديدة... ترتكز هذه القومية على الإرادة الحرة للمواطنين، ذكوراً وإناثاً. وهذا ما يُفترَض بالنظام [السوري] الاستبدادي الخوف منه أكثر من أي شيءٍ آخر إذا تلكّأ في إنهاء هيمنته على بيروت ولبنان".

وأطلق مقتل الحريري العنان لشعورٍ جديدٍ بتصميمٍ مُنذر في نفوس العديد من اللبنانيين العاديين الذين تعبوا من السيطرة السورية وخنوع النظام اللبناني بشكلٍ أخرق. وفي الأيام التي تلت جنازته، أصبح قبر الحريري مزاراً يضع النائحون أمامه كميّاتٍ كبيرةً من الزهور والشموع الخافقة، وفي الوقت نفسه، مركزاً للثورة المستفحلة في شوارع بيروت.

وأصبحت لوحاتٌ ضخمة بيضاء تُستخدَم لعزل موقع بناء المسجد بقرب قبر الحريري لوحاتٍ تعكس الروح الجديدة للثورة من خلال كتاباتٍ متعددة اللغات تتراوح بين الثناء العاطفي، "ستعيش في قلوبنا على الدوام، يا رفيق"، وبين إهاناتٍ شديدة، "تبّاً لك يا بشار".

وعلى غرار إلقاء حصاة في بركة، تسبّب مقتل الحريري بتموّجاتٍ تخطّت حدود لبنان. وهي ستعجّل بنشوء وتَعزُّز تبدّلاتٍ جيو - استراتيجية وعمليات إعادة اصطفاف في منطقة الشرق الأوسط تحفّزها (تحدثها) السياسات التي تتّبعها إدارة بوش بعد 9/11 واجتياح العراق. وبالنسبة إلى الغرب، سيصبح لبنان موقع ضغطٍ جديد ضد دمشق وشوكةً حادّة في خاصرة سوريا لحمل الدولة الحَرون على اتّباع مسارٍ تُوافق عليه الولايات المتحدة. وبالرغم من عدم قيام الإدارة الأميركية علانيةً بتحميل دمشق مقتل الحريري، فقد اتّضح عدم رضا واشنطن من سوريا عندما استُدعيت مارغريت سكوبي، سفيرة الولايات المتحدة إلى دمشق، "للتشاور" بعد يومٍ واحد من وفاة الحريري. وفي الأسبوع نفسه، طالب بوش بانسحاب القوات السورية من لبنان، قائلاً إن دمشق "بعيدة كل البُعد عن مواكبة التقدّم الحاصل في الشرق الأوسط الكبير".

وهدّد نفوذٌ سوري متناقص في لبنان بمضاعفاتٍ تطال قدرة إيران على ولوج النزاع العربي - الإسرائيلي من خلال حزب الله وحلفائها الفلسطينيين الذين تدعمهم إيران. وكان حزب الله الرابط لاستراتيجية إيران المعادية لإسرائيل. وشملت عملياته السرّية مدّ خلايا من المقاتلين الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة بالأموال والمهارة التقنية والتدريب المتخصّص. وشنّت محطة تلفزيون المنار التابعة لحزب الله حملةً دعائية عشواء معادية لإسرائيل ومشجّعة للفلسطينيين بينما كان مقاتلوها المنظَّمون والمتمرّسون يهدّدون أمن إسرائيل انطلاقاً من الحدود الجنوبية للبنان. ولكن بعد أربع سنواتٍ ونصف من إراقة الدماء، بدا على الانتفاضة الفلسطينية علامات الإرهاق التام. وقبل أيامٍ من مقتل الحريري، اتّفق الرئيس الفلسطيني محمود عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون على وقفٍ لإطلاق النار برعاية المصريين. وإذا أُضعف موقع سوريا في لبنان، تكون حرية حركة حزب الله - وبالتالي إيران - مهدَّدةً بالتقلّص، ممّا يؤثّر بالتالي في استمرارية الانتفاضة.

وإذا جازفت سوريا بتآكل موقعها في لبنان، فهي ستجد نفسها أيضاً معزولةً أكثر فأكثر من قِبَل جيرانها العرب، سيّما وأن مقتل الحريري

قلّص صبر العرب حيال الرئيس السوري الشاب والضعيف كما كان يبدو. عبّرت المملكة العربية السعودية، بصفةٍ خاصة، عن سخطها بسبب الرسالة القاسية التي وُجِّهت إليها عبر الشخص اللبناني الذي يحظى برعايتها واهتمامها، معتبرةً مقتل الحريري وأشهر الإذلال التي مرّ بها قبل وفاته والتهديدات بالموت محاولةً متعمَّدة لإضعاف نفوذ المملكة في لبنان. وكان العالم العربي قد أبدى تسامحاً حيال قيام سوريا بضم لبنان إليها فعليّاً منذ العام 1989، مختاراً تجاهل إخضاع عضوٍ زميل في جامعة الدول العربية مخافة عدم ظهور الوحدة العربية للعيان إلا بمظهر التحكّم بزمام الأمور. ولكن بعد مقتل الحريري، لم تكن أي دولة عربية مستعدّة لرفع إصبعٍ واحد لمساعدة سوريا على إطالة وجودها في لبنان. حتى إن إيران، وهي الحليف الإقليمي (غير العربي) الوحيد الذي تعتمد عليه سوريا، كانت تعارض دعم هيمنة دمشق المستمرة على لبنان. وأورد تقريرٌ لـ الحياة بعد أسبوعٍ من وفاة الحريري أن "بعض المسؤولين الإيرانيين" يعتبرون "أن لا تراجع عن الدعم الإيراني لسوريا في مواجهة إسرائيل، ولكن إيران غير مستعدّة لدعم الوجود السوري في لبنان لأن سيادة لبنان هي أمرٌ هام بالنسبة إلى إيران".

ولم تكن الصورة الاستراتيجية في الفترة التي تلت مقتل الحريري مباشَرةً تبشّر سوريا بالخير. ولكن حلفاء سوريا اللبنانيين بدوا غافلين تقريباً عن الزلزال السياسي الوشيك في المشرق والمصير الذي سيُصيبهم بسبب طريقة إجراء التحقيقات المتعلّقة بعملية الاغتيال. وأورد تقرير وفدٍ تابعٍ للأمم المتحدة لاستقصاء الوقائع برئاسة شرطي إيرلندي، بيتر فيتزجيرالد، في شباط/فبراير وجود "افتقارٍ واضح إلى التزام من قِبَل السلطات اللبنانية بالتحقيق بالجريمة بشكلٍ فعّال".

وأورد التقرير قائمةً من مجموعةٍ كبيرة من التدابير التي اتخذتها الأجهزة الأمنية اللبنانية والتي لم تُعِق إجراء تحقيقٍ ملائمٍ في مسرح الجريمة فحسب، بل بدت تغطيةً مقنَّعة. فقد نُقلت السيارات الست التي شكّلت موكب الحريري المدمَّر وسيارة بي إم دبليو سوداء (التي وُجد على من (" Snoop Dogg " دوغ لسنوب متراصة أسطوانة الخلفي مقعدها أضاع ممّا ،للشرطة قريبٍ مجمَّعٍ إلى شباط/فبراير 14 ليلة الانفجار موقع ورُميت .الانفجار موقع في المقذوفة الأشياء يتناول تحليلٍ لإجراء فرصة أي داخل الناسفة العبوة حملت أنها يُعتقَد بيضاء ميتسوبيشي شاحنة من أجزاء الحفرة المياه أنابيب وغمرت .دليلاً واعتُبرت الشرطة رجال وصوّرها الحفرة

في غضون 24 ساعة لأن أحداً لم يقطع المياه، مدمِّرةً بذلك دليلاً محتمَلاً. وبالرغم من عزل الموقع عن عامّة الناس، كان ضباط المخابرات والضباط الأمنيون يطوفون في مسرح الجريمة متى شاؤوا. وأوصى تقرير فيتزجرالد لاستقصاء الوقائع بأن تقوم الأمم المتحدة بإطلاق تحقيقٍ كاملٍ مستقل حول اغتيال الحريري بما أن السلطات اللبنانية عاجزة كما يبدو عن القيام بالأمر بنفسها أو غير راغبة بذلك.

ورشح أن العميد مصطفى حمدان، رئيس الحرس الجمهوري والساعد الأيمن للحود، أصدر تعليماتٍ لعلي الحاج، المدير العام لقوى الأمن الداخلي والحارس الشخصي الأعلى السابق للحريري، بردم الحفرة على الفور للتمكّن من فتح الطريق الساعة العاشرة صباحاً في اليوم التالي للانفجار (5). وأنكر حمدان إصدار الأمر.

ولكن الأخطاء الإجرائية لا تقارَن بالإهمال وفقدان الحسّ الظاهرين من قِبَل السلطات اللبنانية حيال ضحايا الانفجار وعائلاتهم. فقد انتُشلت جثة زاهي أبو رجيلي، زميل كارول فرحات في فندق سان جورج، من بين أنقاض البناء المُلحق بالسان جورج في اليوم التالي. وأظهر فحصٌ للجثة بعد الوفاة أنه بقي على قَيد الحياة طوال 12 ساعة تقريباً بعد الانفجار، ومات بمفرده تحت الركام دون أن يكتشفه أحد. ولم يتمّ العثور أبداً على جثة فرحان العيسى. وفي 22 شباط/فبراير، اكتُشفت جثةٌ ثانية مصادفةً. وفي 1 آذار/مارس، أي بعد 15 يوماً على الانفجار، عُثر على ما تبقّى من جثة عبد الحميد غلاييني، البالغ من العمر 53 عاماً، مدفونةً تحت طبقةٍ رقيقة من الدبش بالقرب من الحفرة.

واستمرّت عائلة غلاييني بحثّ السلطات للعثور على نسيبها المفقود منذ يوم الانفجار، ولكن السلطات صرفت النظر عن الموضوع. وعندما سُمح للعائلة أخيراً بتفتيش مسرح الانفجار بأنفسهم، لم يتطلّبهم الأمر سوى خمس دقائق لاكتشاف جثّة غلاييني المتحلّلة. وبثّت محطات التلفزيون اللبنانية مشاهد مطوَّلة لابنتَي الرجل الشديدتي الاضطراب تعبّران عن غضبهما الشديد من السلطات وتطالبان باستقالة لحود.

"لم يفعلوا شيئاً طيلة أسابيع"، صرخت لما غلاييني، الابنة البكر. "استمرّوا بإخبارنا أن الهررة كانت تعثر على أقدامٍ وأيادٍ، واليوم ساعدنا الذباب على العثور على والدي. هل علينا الاعتماد على الهررة والذباب؟ ماذا تفعل الدولة؟"

وبُثّت المشاهد التلفزيونية لعائلة غلاييني المفجوعة، وبشكلٍ ساخر،

إلى جانب مشاهد للحود وهو مبتسم في القصر الجمهوري في التلال المُشرفة على بيروت يتحدث مع حلفائه السياسيين.

"تُظهر تلك الصورة السخيفة الانطباعية الذهنية التي تصوّر لحود منعزلاً وأخرقَ"، ذكر دبلوماسي أوروبي في حوارٍ مع الكاتب في ذلك الوقت.

وبعد يومٍ من الانفجار، قال سليمان فرنجية، وزير الداخلية، إن الدلالات الأولى توحي بأن المرتكب "قد يكون [مفجِّراً] انتحارياً فجّر نفسه".

وقال عدنان عضوم، وزير العدل الموالي لسوريا بعناد، إن التحقيقات كانت تركّز على عددٍ من حاملي جوازات سفر أسترالية "مُلتَحين" غادروا مطار بيروت في اليوم نفسه من حدوث الانفجار. وادّعى العثور على آثارٍ لمادة الـ تي إن تي الشديدة الانفجار على مقعدَين استخدمهما المشتبَه بهم في الطائرة.

وفي الأيام التي تلت الانفجار، انطلق جدالٌ محموم في وسائل الإعلام والإنترنت حول ما إذا كانت المتفجرات مزروعةً في باطن الأرض أم على سطحها. وكانت نقطةً هامّة. وشدّدت السلطات اللبنانية على فكرة انفجارٍ فوق سطح الأرض تسبّب به مفجّرٌ انتحاري، ذاكرةً الاعتراف الفيديوي الغامض لأبو عدس والأستراليين المشتبَه بهم. ولكن أولئك الذين اعتقدوا بصورةٍ راسخة أن سوريا هي المسؤولة عن الاغتيال علّقوا آمالهم على أن يثبت في النهاية أنه انفجارٌ تحت الأرض، لأن إحداث حفرة في الطريق الرئيسي أمام فندق سان جورج يحتاج إلى تواطؤ السلطات. ونشر خبيرٌ لبناني بالمتفجرات مجهول الهوية، وعبر البريد الإلكتروني، تحليلاً لصورةٍ عن مسرح الانفجار داعماً حجّته بأن العبوات الناسفة زُرِعت تحت الأرض. وبدا الأمر مُقنِعاً. فالبقايا المحترقة لسيارة الإسعاف الخاصة بالحريري والسيارة الخامسة في الموكب قائمةٌ عند حافة الحفرة، وهذا يعني أن قوة الانفجار موجَّهة نحو الأعلى، وتتوافق هذه الحالة مع انفجارٍ تحت أرضي لا جانبي يوحي بأن الانفجار حدث على سطح الأرض. وأوحت الحفرة نفسها، وأغطية قساطل فُتْحات دخول الصرف الصحّي المنتفخة، والكميات الكبيرة من التراب وقطع الإسفلت التي عُثر عليها على بُعد مئات الأمتار من مركز الحفرة، بأنه انفجارٌ تحت أرضي. ولكن كيف يمكن لأحدهم تفجير عبوةٍ ناسفة مزروعة تحت الطريق عِلماً أن موكب الحريري مزوَّدٌ بثلاثة أجهزة قوية مصمَّمة لإعاقة إشاراتٍ إلكترونية تُستخدَم لتفجير العبوات الناسفة؟ فالاحتمال الوحيد هو تمكّن المرتكب من تخطّي الترددات التي توفّرها الأجهزة الإلكترونية، ويتطلّب هذا الأمر معرفةً تقنية متقدّمة وتجهيزاتٍ خاصة.

وهناك تفسيرٌ آخر أقل جدارةً بالتصديق ويتمثّل بتفجير العبوات الناسفة آلياً بواسطة سلك. ومع ذلك، يستلزم هذا العمل وجود شخصٍ يمدّ سلكاً إلى نقطةٍ معيَّنة على بُعد مئات الأمتار من الشُحنة الناسفة لتجنّب مفاعيل التفجير. وقد استخدم المتمرّدون في العراق أسلاكاً يتراوح طولها ما بين 300 و400 متر لإطلاق التفجيرات الموضوعة إلى جانب الطرقات. ولكن تلك الهجمات حدثت في ريفٍ مفتوح، وليس في قلب العاصمة حيث يمكن لأي شخصٍ يمدّ سلكاً بطول مئات الأمتار لفت الانتباه. ويبقى المرتكب بحاجةٍ إلى رؤية مكان العبوة الناسفة بوضوح لاختيار الوقت الصحيح للضغط على الزر. هذا، ولم يكن تصميم الشارع الذي يلتفّ حول المرتفَع الذي يقوم عليه السان جورج يسمح بتوفير خط نظر مستقيم لعملية التفجير. وإن إلقاء نظرةٍ جانبية على الطريق هو أمرٌ مستحَبّ للحكم بشكلٍ أفضل على اللحظة التي يتراصف فيها الهدف مع العبوة الناسفة، ولكن الحصول على هذه الرؤية في السان جورج هو أمرٌ ينطوي على مخاطر لأن المواقع التي يمكنها تأمين خط نظر مستقيم موجودةٌ في أفضل الأحوال في الفندق نفسه أو في البناء المُلحق المقابل له.

وكان هناك أيضاً تخمينٌ قوي بأن عبوتَين ناسفتَين انطلقتا في وقتٍ واحد، وذلك نظراً لإلحاح كارول فرحات وفادي خوري، بصفةٍ خاصة، من بين الناجين الأكثر قُرباً من العبوة الناسفة، على أنهما سمعا انفجارَين واضحَي المعالم. وكان بإمكان نظرية الانفجار المزدوج شرح بعض الأدلة المتعارضة كقطع الإسفلت التي عُثر عليها على أسطح المباني المجاورة، والدليل القذفي الذي يشير إلى أن عربة النقل المقفَلة من طراز ميتسوبيشي كانت تحمل العبوة الناسفة. وفي أيار/مايو 2006، أعادت اللجنة التابعة للأمم المتحدة تفحّص موقع الانفجار. وفي أواسط حزيران/يونيو، أورد تقرير اللجنة أن "الاعتقاد السائد"، في انتظار الاستجوابات القضائية النهائية، يتمثّل بأن الحريري قُتل بعبوةٍ ناسفة فوق الأرض تزن 1,200 كيلوغرام على الأقل من الـ تي إن تي ومزيجٍ من العبوات البلاستيكية الناسفة فجّرها "على الأرجح" شخصٌ ما يزال مجهول الهوية.

وبعد أسبوعَين من الانفجار، تبيّن أن كاميرا للمراقبة مثبَّتة على واجهة فرع مصرف الـ إتش إس بي سي بالقرب من السان جورج التقطت صور اللحظات الأخيرة لموكب الحريري. وتُظهر الصور مشاهد سياراتٍ وشاحناتٍ تنطلق بأقصى سرعة بصمت على امتداد الطريق الرئيسي على بُعد 100 متر من المصرف، مارّةً بزاوية فندق سان جورج وتختفي عن الأنظار.

وتشير ساعةٌ إلى الوقت. في الساعة 12:56:17، تظهر السيارة الأولى لموكب الحريري على الشاشة. وتليها السيارات الأخرى، ومن ثمّ سيارة الإسعاف في المؤخرة التي تختفي عن الأنظار وراء إحدى زوايا البناء المُلحق بالسان جورج عند الساعة 12:56:25. وبعد ثانية، تلتقط الكاميرا موجةً صدمية ضبابية وتمرّ بعد ذلك ثانيةٌ من السكون. وضرب الانفجار القاعدة التي ثُبِّتت عليها الكاميرا، وبعد اتضاح الصورة تُظهر الكاميرا الطريق خارج مدخل الـ إتش إس بي سي بسبب انحنائها، مسجّلةً أشكالاً شبحية يخرجون مترنّحين من المدخل الأمامي.

ومشاهدة الشريط تصيب المرء بالقشعريرة، ولكن المعنى الحقيقي يكمن في ما التقطه من مشاهد قبل دقيقتَين من ظهور موكب الحريري. ففي الساعة 12:54:00، تظهر شاحنة الميتسوبيشي الصغيرة على الشاشة، سائرةً بسرعةٍ أبطأ من العربات الأخرى بست مرات تقريباً. وهذه الشاحنة محمَّلة بالكامل، وتغطّي ملاءةٌ رمادية المحتويات في مؤخرتها. وتحافظ على سرعةٍ ثابتة بمحاذاة الجهة اليمنى للطريق بالقرب من فندق سان جورج قبل تواريها عن الأنظار في الساعة 12:54:37، أي قبل دقيقة واحدة وأربعين ثانية من ظهور موكب الحريري على الشاشة. ويحدث الانفجار الفعلي عند الزاوية وفقاً للكاميرا. ولكن المحقّقين يعتقدون أن الشاحنة كانت تحمل المتفجّرة، وهي العربة نفسها التي لاحظتها كارول فرحات وأثارت فضولها للحظات وهي تعبر الطريق إلى البناء المُلحق بالسان جورج قبل ثوانٍ قليلة من الانفجار.

ولم يكن من باب الصُدَف أن يختار المفجّر المنطقة المجاورة لفندق سان جورج ليكمن لموكب الحريري. فمن الطرق الثلاث التي كان بإمكان الحريري سلوكها انطلاقاً من ساحة النجمة إلى منزله في قريطم، تلتقي الطريقان الأقصر اللتان تبعدان مسافة 600 متر عن فندق سان جورج في المنطقة المجاورة له. والطريق الممتدة من نقطة الالتقاء هي جادّة واسعة لا تشهد زحمة سيرٍ نسبياً، وتعبر هضبة السان جورج مروراً بفندق فينيسيا ووصولاً إلى ملتقى طرقٍ بجانب برج المرّ المهجور المؤلّف من 32 طابقاً.

ووفقاً لتقييم عبد العرب الذي حلّ مكان نسيبه أبو طارق في ترؤس الفريق الأمني التابع لعائلة الحريري، توقّفت عربة الميتسوبيشي في مكانٍ ما بين السان جورج وبرج المر. ولم يتّخذ السائق مكانه إلا بعد اتصال المراقب خارج البرلمان ليؤكّد الطريق التي سيسلكها الحريري لدى

مغادرة الموكب الساحة. ولو سلك الحريري الطريق الداخلية، لاعترض المفجّر موكبه بالقرب من برج المر. وإضافةً إلى ذلك، لو كان المفجّر غير قادر على اختيار موقعه بعناية قبل وصول الموكب في 14 شباط/فبراير، لتبقّى له يومان إضافيان للقيام بمحاولةٍ أخرى بما أن المناقشة البرلمانية للقانون الانتخابي كانت ستدوم حتى يوم الأربعاء.

وبينما كان التحقيق اللبناني يسير ببطء، كانت المعارضة التي يتآكلها الغضب والحزن اللذان واكبا جنازة الحريري متأثّرةً بما رافق ذلك من غضبٍ دولي وتستعدّ لاستئناف حملتها في الشارع.

فدعت كافة اللبنانيين إلى المشاركة بـ "انتفاضة الاستقلال" والتظاهر لتحقيق انسحاب القوات السورية واستقالة حكومة كرامي. وسيصبح الشعار "حرية، سيادة، استقلال" صرخة المعركة و"الحقيقة" الكامنة وراء قتل الحريري هدفهم.

وجرت التظاهرة الأولى في 21 شباط/فبراير، بعد أسبوعٍ واحدٍ بالتحديد من مقتل الحريري، عندما تجاهل حوالى 25,000 شخص تحذير الحكومة من أن هذه الاحتجاجات "خطِرة جداً" وتجمّعوا قرب فندق سان جورج. واستُبدلت الوشاحات الخضراء والبيضاء التي كانت قد أُعدّت لحملة الحريري الانتخابية بوشاحاتٍ حمراء وبيضاء ترمز إلى دماء "شهادته"، وقام محتجّون عديدون بارتدائها.

وأشارت وفرة الأعلام إلى الولاءات السياسية، وبالتالي الطائفية، للمتظاهرين. وكان العديدون يحملون شعاراتٍ بالإنكليزية، ومنها "اكسروا جدار الصمت" و"يا سوريا! من التالي؟" وكانت امرأةٌ في منتصف عمرها ترتدي ثياباً أنيقة وترفع شعاراً يقول "الاستقلال حقنا. لبنان الحر!"

وفي الساعة 12:55 بعد الظهر، التزم الحشد الصمت إحياءً لذكرى اللحظة التي قُتل فيها الحريري. وانتهت لحظات الصمت بإنشادٍ مدوٍّ للنشيد الوطني اللبناني تردّد صداه على واجهات فندق الهوليداي إن الكئيبة المليئة بثقوب الرصاص كالغربال، والتي ما تزال تحمل ندوب الحرب التي امتدّت بين عامَي 1975 و1990. وملأ المتظاهرون شوارع وسط بيروت وهم في طريقهم إلى قبر الحريري بجانب ساحة الشهداء. وانتشر مغاوير الجيش اللبناني وشرطة مكافحة الشغب على امتداد الطريق. وأُحيط قبر الحريري بشريطٍ دائمٍ من المحزونين الوافدين والمغادرين، مسيحيين يصلّون راسمين إشارة الصليب، وبجانبهم مسلمون يقرأون نسخاتٍ صغيرة من القرآن، وقد خرجوا من المسيرة للحظاتٍ قليلة. وتسلّق بعض المحتجّين التمثال البرونزي

الذي يحمل ثقوباً بسبب الرصاص ويمثّل "شهداء" الوطن الذين شنقهم العثمانيون عام 1915، ملوّحين بالأعلام اللبنانية والرايات. وقام أحدهم، ويرتدي ثياباً مماثلة لثياب بن لادن مع كتابةٍ على صدره تقول "الإرهاب السوري"، بتسديد بندقيةٍ زائفة إلى أحد "الشهداء".

"هذه بداية أمرٍ هام"، قال جبران التويني المبتهج، وهو مدير عام صحيفة النهار وكاتب صحافي شجاع وغزير الإنتاج كانت مقالاته النقدية طيلة سنوات، وما زالت، تستهدف باستمرار الوصاية السورية على لبنان. وكانت عيناه تُشعّان حماسةً تكاد لا تخمد حيال ما يجري. "طلبنا من بعض الطلاب المشاركة بالاعتصام وانظروا إلى عدد الناس الذين حضروا. فالشعب يتولّى القيادة وليس نحن".

وكان تويني أحد مهندسي انتفاضة الاستقلال. ومن مكتبه في الطابق السادس من مبنى النهار الزجاجي الوامض في الجانب الشمالي لساحة الشهداء، كان بإمكانه التحديق ببعض الاكتفاء إلى حشد الناس في الأسفل الملوّحين بأعلامٍ ملوَّنة، شارعين بما كان قد دعا إليه منذ وقتٍ طويل في صحيفته.

وكان لهذا الحدث تأثير. ففي 24 شباط/فبراير، أي بعد ثلاثة أيام من التجمّع الحاشد، أعلن وليد المعلّم، نائب وزير الخارجية السورية، على غير رِضى بأن سوريا ستُعيد الانتشار إلى وادي البقاع طِبقاًَ لاتفاق الطائف. وبُثّت إشاعاتٌ في وسائل الإعلام العربية حول خطة انسحابٍ سورية من ست نقاط تقوم دمشق بموجبها بسحب كل جنودها باستثناء 2,000 عنصر يتمّ نشرهم في البقاع الشرقي. ولم يُذكر جهاز المخابرات المنتشر.

وتذمّرت الأمم المتحدة والولايات المتحدة من الخطوة السورية واصفَين إياها بغير الكافية، ومطالبَين بانسحابٍ كاملٍ لا لُبس فيه وفقاً للقرار 1559. وكانت المعارضة اللبنانية متشكّكةً أيضاً حيال التزام سوريا الغامض بانسحابٍ جزئي.

"هي إعادة الانتشار السورية السادسة في غضون خمس سنوات. كم سيتطلّبها الأمر للمغادرة بشكلٍ نهائي؟ 50 سنة أخرى؟" قال جنبلاط للكاتب هازئاً.

وفي الأيام التالية، ارتفعت وتيرة انتفاضة الاستقلال الناشئة بقيام المحتجّين بنصب خِيَمٍ على هضبةٍ صغيرة مُعشَوشبة مُحيطة بالتمثال في ساحة الشهداء، وهي مقدّمة لما سيصبح مدينة الخِيَم، ولُقِّبت بمخيّم الحرية، وهو رمزٌ لانتفاضة الاستقلال. وبعد يومَين، نظّمت المعارضة أكبر

تجمّعٍ حاشد حتى حينه بالتزامن مع نقاشٍ برلماني حول اغتيال الحريري. وكان هناك فرقٌ واحد بين هذا التجمّع الحاشد والتجمّع السابق الذي جرى قبل أسبوع أمام السان جورج - لم يُشاهَد أي علمٍ حزبي. ووجدت المعارضة أن التظاهرة الأولى بدت كأنها "معركة أعلام"، وفقاً لغطاس خوري. واتُخذ قرار بأن العلم الوطني سيكون العلم الوحيد في التظاهرات، واللونان الأحمر والأبيض شعار "انتفاضة الاستقلال".

هذا، وأقام الجيش نقاط تفتيش وحواجز على الطريق العام الرئيسي المؤدّي إلى المنطقة المسيحية شمال بيروت لمنع المحتجّين من بلوغ المدينة. ولكنهم قدِموا بالرغم من ذلك. وتدفّق مقدارٌ هائل من المتظاهرين على امتداد شوارع بيروت الشرقية الضيّقة رافعين الأعلام الوطنية الحمراء والبيضاء وتتوسّطها الأرزة، وتجمّعوا أمام جدار شرطة مكافحة الشغب وجنود القوى الخاصة ذوي القبّعات الخضراء والنظرات الحازمة، وقد مدّوا لفائف من الأسلاك الشائكة وسط المعابر الشرقية إلى ساحة الشهداء. وبدأ حشدٌ من عدة آلافٍ من الأشخاص بالاستفحال، ولكنه بقي حدثاً ودّيّاً بالرغم من بعض التدافع والعدوانية. وكان بعض المحتجّين يُنشدون النشيد الوطني ويمازحون الجنود. ورمى آخرون بِتَلات الورود على الجنود هاتفين "الجنود أخوتنا وهم بجانبنا لا ضدّنا". ومن حينٍ لآخر، كانت مجموعاتٌ صغيرة من المحتجّين تُحدث ثغرةً في الشريط الشائك وتتسلّل عبره مُطلِقةً هتافاتٍ ملؤها البهجة والسرور، فيما يجهد الجنود لسدّ الثغرة مُطلقين الشتائم. ولكن الحشد بات كبيراً جداً في النهاية بحيث إن الجنود لم يعودوا قادرين على صدّه. وقامت مجموعةٌ صغيرة من المتظاهرين يربطون على رؤوسهم مناديل حمراء وبيضاء باختراق صف الجنود وأزاحت لفائف الأسلاك الشائكة عن الطريق قبل أن يتمكّن الجنود المذهولون من القيام بأي ردة فعل. وصاح الحشد القائم على الجانب الآخر من الأسلاك احتفاءً بالنجاح، واندفعوا عبر الثغرة تحت أنظار الجنود العاجزين وغير الراغبين باستخدام القوة كما كان يبدو.

"ماذا سيفعلون؟" سأل فادي رومانوس، أحد المحتجّين. "يقتلوننا كلّنا أم يضعوننا في السجن؟ لقد نزعنا قناع الخوف. لم نعُد خائفين بعد الآن".

وراقب المحتجّون المناقشة البرلمانية لطرح الثقة بالحكومة على شاشات تلفزيونية عملاقة نُصبت في ساحة الشهداء. وكلٌّ بدوره، صعد نواب المعارضة إلى المنصة العالية منتقدين الحكومة ونظام لحود. وبدا عمر كرامي مُضنىً وتعِباً بسبب الانهيال على حكومته بالاتهامات والانتقاد.

"كل اللبنانيين يريدون معرفة عدوّهم، عدوّ لبنان الذي قتل الشهيد رفيق الحريري، أولئك الذين اتخذوا القرار وخطّطوا ونفّذوا، أولئك الذين تجاهلوا ومنعوا الحقيقة من الظهور"، قالت بهية الحريري دامعةً.

كان العبء ثقيلاً على كرامي. ودون إعلام أحد بقراره، وقف وأعلن بسأمٍ استقالة حكومته، مضيفاً "ليحفظ الله لبنان".

وقُطعت لحظةٌ من الصمت والذهول بهتافات نواب المعارضة المهلّلين وبصياحٍ في ساحة الشهداء ابتهاجاً، وكان بالإمكان سماعه داخل قاعة البرلمان. وحدّق نبيه برّي بكرامي مُجفَلاً من مقعد رئاسة مجلس النواب وقال "ألا تظن أنني أستحق أن أكون على عِلمٍ بالقرار الأكثر أهمية في البلد؟"

كانت لحظةً استثنائية. فقد كان كرامي يتوقّع الفوز بعملية الاقتراع على الثقة بحكومته نظراً إلى أن ثلاثة أرباع البرلمان هم من الموالين. ولكن الضغط الذي مورِس عليه أثبت جدواه. وكان يتمّ اجتنابه في مدينته الأم طرابلس في الشمال حيث تتمتّع عائلته تقليدياً بكل اعتبارٍ واحترام، وهُزم أخيراً من قِبَل الحشد الكثيف من المحتجّين في ساحة الشهداء، والازدراء المدمِّر والاتهامات اللاذعة التي طالته وحكومته، عِلماً أنه لم يكن يتمتّع بمصداقيةٍ كبيرة في أوساط معظم اللبنانيين.

ومستغلّةً نجاحها في إحراج الحكومة وإخراجها، أصدرت المعارضة قائمة مطالب من سبع نقاط تضمّ استقالة المسؤولين الأمنيين السبعة الأعلى رُتبةً في البلد، ومن بينهم جميل السيّد، وريمون عازار، رئيس المخابرات العسكرية، وعلي الحاج، المدير العام لقوى الأمن الداخلي، ومصطفى حمدان، قائد الحرس الجمهوري.

وأثبت انهيار الحكومة أن انتفاضة الاستقلال متمكّنة وقادرة، وحظيت بالاهتمام الدولي بسرعة. والتظاهرات الشعبية المنظَّمة ضد أنظمةٍ لا تتمتّع بثقة مواطنيها هي حدثٌ نادر في أي مكان ولا يُسمَع بها تقريباً في العالم العربي المعاصر. وإن مشهد عشرات آلاف اللبنانيين يسيرون في شوارع بيروت مطالِبين بالحرية والسيادة تستحضر في الأذهان صوراً لا تقاوَم عن "الثورة البرتقالية" الأخيرة في أوكرانيا و"الثورة الوردية" في جورجيا. وأدركت واشنطن وجود فرصةٍ لدعم التظاهرات في الشارع اللبناني ضد سوريا ونظامه اللبناني "الدُمية". وأطلقت إدارة بوش على الانتفاضة اسم "ثورة الأرز"، وهو لقبٌ وُضع لتصحيح كلمة "الانتفاضة" التي يفضّلها اللبنانيون ولا يستسيغها الجمهور الغربي لأنها توحي بالانتفاضة الفلسطينية

المرتبطة بالمقاومين الفلسطينيين. وتكشّف عن عبارة "ثورة الأرز"، التي أطلقتها باولا دوبريانسكي في بادئ الأمر، مساعدة وزير الخارجية الأميركية للشؤون العالمية (7) ، فهماً محدوداً للحساسيات التي يثيرها الرمز الوطني للبنان. فقد تبنّت الميليشيات المسيحية الوطنية الأرزة خلال الحرب الأهلية، كحزب الكتائب اللبنانية الذي يتمثّل شعاره بشجرة أرز مثلَّثة الزوايا، وحراس الأرز، وهي مجموعة تُغالي بوطنيّتها وقد أعلن قائدها إتيان صقر ذات مرة أنه من واجب كل لبناني قتل فلسطيني واحد على الأقل.

ولم يكن اعتناق عبارة "ثورة الأرز" المتعلّقة بلبنان وسيلةً مفيدة لمواصلة الضغط على سوريا فحسب، بل هي اتفقت أيضاً مع سياسة بوش المترنّحة القائمة على تعزيز الديمقراطية في العالم العربي. وكان من المفترَض أن يكون اجتياح العراق والإطاحة بصدام حسين الحافز لحدوث ثورةٍ ديمقراطية في الشرق الأوسط، وفقاً لبرنامج عمل المحافظين الجدد في إدارة بوش. وكان طموحاً جديراً بالثناء، وإن ساذجاً، يسعى إلى تبديل مسار عقودٍ من الزمن كان يُنظر إلى العالم العربي فيها من خلال عدسات السياسة الواقعية، والتسامح حيال الدكتاتوريات الفاسدة والوحشية وحكومات رجال الدين القمعية شريطة أن تبقى ودودةً للولايات المتحدة. والعراق خير مثالٍ على ذلك، وقد كان صديق أميركا عندما دخل في حربه الدموية التي دامت ثماني سنوات مع إيران في الثمانينيات. وجادل بوش قائلاً إنه من الآن فصاعداً، ستُصان المصالح الأمنية لأميركا من خلال تشجيع الديمقراطية في العالم العربي. ولكن التطبيق الفاتر وغير المُتقَن للبرنامج أوحى بأن إدارة بوش استهانت بالتعقيدات التي يواجهها الوسط العربي وبالغت في تبسيطها. حتى إن الدور الذي لعبه العراق كمثالٍ لديموقراطيةٍ عربية يُحتذى قوّضته سوء إدارة العراق في مرحلة ما بعد صدام. وعندما تسرّب خبر مبادرة الشرق الأوسط الكبير بشكلٍ سابق لأوانه في أوائل العام 2004، وهي السياسة الرئيسية التي اتّبعها بوش للترويج لإصلاحٍ سياسي واقتصادي واجتماعي في العالم العربي، استُقبلت بازدراءٍ وسخرية في البلدان العربية بسبب عدم الإشارة إلى أن الاحتلال الإسرائيلي غير الشرعي للأرض العربية قد يكون له تأثير على الاستقرار في الشرق الأوسط. وأُطلقت نسخةٌ معدَّلة عن المبادرة في قمّة الدول الثماني الأكبر في العالم في حزيران/يونيو، وغابت من ثمّ عن بساط التداول كلّيّاً وبسرعة بعد أن أحبطها ارتياب الليبراليين العرب المناهضين للولايات المتحدة تقليدياً، وعدوانية الأنظمة العربية، وانشغال الولايات المتحدة بالانتخابات الرئاسية الوشيكة.

ولكن إدارة بوش أدركت أن انتفاضة الاستقلال في لبنان قد تكون حقنةً ضرورية من الأدرينالين في مبادرة الديموقراطية العربية المحتضرة. وبخلاف معظم البلدان العربية، يتمتّع لبنان بتقليدٍ ديمقراطي حقيقي، وإن تشوبه العيوب، قام البلد على أساسه. والعالم، قال بوش، "يتكلّم بصوتٍ واحد عندما يتعلّق الأمر بالتأكد من أن للديمقراطية فرصةً للازدهار في لبنان".

حتى إن المبالغة أوقعت وليد جنبلاط المتقلّب باستمرار في الشرَك إذ إنه، وعلى عكس عدائيّته التقليدية لسياسة الولايات المتحدة في العالم العربي، بدأ حواراً مع بول ولفويتز الذي كان أحد المؤيّدين الرائدين لاستخدام العضلات العسكرية الأميركية لنشر الديمقراطية في العالم العربي، وذلك بوصفه نائب وزير الدفاع. وممّا يدعو للسخرية أن وزارة الخارجية الأميركية كانت قد جرّدت فيزا زيارة جنبلاط من جواز سفره الدبلوماسي قبل 18 شهراً فقط، وذلك بعد أن أطلق على ولفويتز علانيةً اسم "فيروس" يتوجب تدميره، ورثا واقع أن المسؤول الأميركي كان قد نجا من الإصابة بهجومٍ صاروخي على فندقه أثناء زيارةٍ إلى بغداد.

وفيما رحّب المسؤولون الأميركيون بانتفاضة الاستقلال التي تعبّر عن سعي الشعب إلى الاستقلال، اعتبر القادة اللبنانيون أن الانتفاضة وحّدت الأمّة.

"كان 28 شباط/فبراير احتفالاً بالوحدة الوطنية والديمقراطية والإرادة الحرّة"، كتب جبران تويني في النهار . "الوحدة اللبنانية أقوى من كافة أشكال الوصاية والأسلحة والإرهاب والاحتلال. الوحدة اللبنانية هي السلاح الأقوى. هي أقوى من اتفاق الطائف، والقرار 1559 الصادر عن الأمم المتحدة، وكافة القرارات العربية والدولية".

وفي حين أن انتفاضة الاستقلال حدثٌ تاريخي حقّاً، لم تكن تظاهرة الوحدة الوطنية كما دعاها منظّموها أكثر من تقاربٍ للمصالح الدينية توحّدت تحت شعار معارضة السيطرة السورية على لبنان. وبالرغم من أن السنّة هم من لبّى الدعوة لتشييع الحريري، فإن معظم التجمّعات الحاشدة التي تلت ذلك كانت مؤلَّفة من مسيحيين ودروز، وهم العمود الفقري للمعارضة. ومع ذلك، فقد كانت انتفاضة الاستقلال تفتقر إلى مكوّنٍ أساسي للمجتمع اللبناني - الشيعة.

هذا، ولم يكن الكثير من الشيعة يشعرون بولعٍ كبير حيال سوريا لأنهم دفعوا الثمن الاقتصادي اليومي للسيطرة السورية على لبنان أكثر من

معظم اللبنانيين. فقد كان العمّال السوريون الذين قُدِّر عددهم بمليون شخص يشكّلون منافسةً لهم في العمل، وكان المزارعون الشيعة في المناطق القروية من الجنوب والبقاع مضطرّين للتنافس في سوقٍ مُغرَقةٍ بالواردات الزراعية السورية، ممّا ولّد لديهم امتعاضاً كبيراً. وقليلون هم الشيعة الذين سيذرفون الدمع إذا أجبرت انتفاضة الاستقلال سوريا على الخروج من لبنان. ولكن أولئك الشيعة المؤيّدين لحزب الله وأمل - الغالبية العظمى من المجتمع الشيعي - اشتبهوا بأن نهاية النفوذ السوري تعني حلول النفوذ الأميركي. وبالنسبة إليهم، لا يُفترَض استبدال الهتافات الداعية إلى خروج سوريا بهتافاتٍ تدعو إلى دخول أميركا.

وفي أعقاب اغتيال الحريري مباشَرةً، تبنّى حزب الله موقفاً معتدلاً. فزار نصر الله قريطم وقدّم التعازي لعائلة الحريري، وأصدر الحزب مناشداتٍ للتهدئة والحوار بين الموالين ومعسكرات المعارضة. وكان حزب الله يراهن على الوقت ليرى كيف سينتهي الصراع السياسي. وشكّل مقتل الحريري وانتفاضة الاستقلال معضلةً جدّية لحزب الله. فإذا أُجبرت دمشق على الانسحاب من لبنان، يخسر الحزب الغطاء السياسي الذي كان قد نعم به منذ نهاية الحرب اللبنانية، ممّا يعرّض استقلاليّته الذاتية في جنوب لبنان للخطر. واعتبر حزب الله الأزمة صراعاً حول مستقبل لبنان مجسّد بين أقطاب القرار 1559 وأقطاب اتفاق الطائف. وبالنسبة إلى حزب الله، فإن الإيفاء بمتطلّبات 1559 يستلزم التخلّي عن المحور المعادي لإسرائيل في لبنان وسوريا وإيران، والوقوع تحت تأثير النفوذ السياسي الغربي. أما اتفاق الطائف فهو مبادرة عربية، ويسمح بإقامة صِلاتٍ وثيقة مع سوريا تاركاً الخيار مفتوحاً لحزب الله للاحتفاظ بجناحه العسكري.

"يتناقض القرار 1559 مع المبادئ الرئيسية للّبنانيين"، أخبر محمود الحج علي، وهو عضو المجلس السياسي لحزب الله، الكاتب في آذار/مارس. "تتمثّل الحاجة الآن بالتمسّك بالطائف ورفض 1559 لأن 1559 يريد انتقال لبنان من ضفّةٍ [معادية لإسرائيل، معادية لأميركا] إلى ضفةٍ أخرى [موالية لأميركا، موالية لإسرائيل]".

ولم يكن حزب الله الوحيد الذي شعر بالضغط. ففي أوائل آذار/مارس، استهلّ المسؤولون السوريون جولةً إلى الدول العربية الرائدة، باحثين عن حلٍّ دبلوماسي للأزمة. وقوبل بشار باستقبالٍ بارد في المملكة العربية السعودية حيث كانت العائلة المالكة ما تزال مضطربةً بسبب مقتل الحريري. ووفقاً لمصدرٍ لبناني ذي صلاتٍ وثيقة بالعائلة السعودية المالكة،

سأل ولي العهد عبد الله الرئيس السوري بشار عن سبب قيام سوريا باغتيال الحريري، فأجاب الرئيس السوري قائلاً إنه إذا كانت أيادٍ سورية مسؤولة "فمن المحتمَل أن تكون إحدى جيوب المخابرات تلك التي نملك". ومن غير الواضح ما إذا صدّق السعوديون ذلك أم لا، ولكنهم "نصحوا" بشار بأنه يُفترَض به الانسحاب بشكلٍ كامل وفوري من لبنان؛ وعنى ذلك كل الجنود وعملاء المخابرات. وعندما قال بشار إن الأمر "ليس وقفاً عليه بالكامل" وإن الأمر يتطلّب أشهراً عدة للانسحاب، أخبره عبد الله بأن عليه المغادرة في غضون أسابيع أو المجازفة بإفساد العلاقات السورية - السعودية.

وفي 5 آذار/مارس، أي في اليوم التالي للقائه المتوتّر بعبد الله، ألقى بشار كلمةً في البرلمان السوري بُثَّت مباشَرةً على شاشات التلفزيون وشاهدها حشدٌ من الجماهير في ساحة الشهداء على شاشاتٍ عملاقة. وكان المحتجون اللبنانيون يُطلقون أصوات استهجانٍ عالية كلما قاطع نواب مجلس الشعب السوري رئيسهم بالتصفيق. وعندما ضحك بشار بينه وبين نفسه لدى المرور على نقطتَين في كلمته، سخر منه اللبنانيون منشدين "ها ها، سوريا".

وبالرغم من قيام بشار بالتقليل من أهمية ما بلغ إليه الشعور المعادي لسوريا في لبنان، فقد كانت "نصيحة" عبد الله جديرةً بالاهتمام. فأعلن "أننا سنسحب قواتنا التي جعلناها تتمركز في لبنان إلى منطقة البقاع بشكلٍ كامل ومن ثمّ إلى منطقة الحدود السورية - اللبنانية".

والتقى لحود وبشار في دمشق بعد يومَين لإضفاء طابعٍ رسمي على المرحلة الأولى من الانسحاب التي بدأت في اليوم نفسه. وفي ضهر البيدر، وهو الممرّ الجبلي المرتفع والمخطَّط بالثلوج على الطريق الرئيسية بين بيروت والبقاع، توقّفت شاحنة سورية قديمة وسط سحابةٍ من دخان المازوت الأسود والسميك بعد التقدم بصعوبة إلى منحدرٍ بجانب الطريق. وقفز جندي خارج الشاحنة ووضع حجراً كالإسفين تحت أحد الإطارات الخلفية لمنع العربة من السّير نزولاً على منحدر التلّ، في حين خلع جندي آخر قلنسوّته لمعاينة المحرّك الذي يُصدر دخاناً. لم تكن بداية إعادة انتشار مبشّرة بالنجاح.

وكان هناك شعورٌ بتحرّكاتٍ قليلة في المعسكرات السورية المنتشرة على المنحدرات الخفيفة والمُعشَوشبة وراء مدن البقاع، شتورا وزحلة. وكان الجنود يمارسون لعبة كرة القدم أو يستمتعون بأشعة الشمس بينما الحرّاس يقفون عند المداخل المزيَّنة بصورٍ لحافظ الأسد وبالألوان الوطنية السورية

التي غدت باهتة. وكانت عدة دبابات من طراز تي - 55 مخبّأةً وراء تلالٍ من التراب ومغطّاةً بملاءاتٍ من قماش القنّب. وكانت شاحنات نقل الوقود والماء الملوَّنة بالأخضر والبنّي للتمويه متوقّفةً في مخيّماتٍ منتشرة بشكلٍ غير منظَّم.

وخارج المقرّ الرئيسي للمخابرات العسكرية السورية في عنجر، كان هناك جنودٌ في حالةٍ من الاسترخاء حول البوّابة الدوّارة لمدخل المجمّع المؤلَّف من منازل صغيرة مربّعة الشكل بناها الفرنسيون في الأصل لإيواء اللاجئين الأرمن عام 1939. ووسط خرائب البلدة التي تعود للقرن الثامن والتي بنتها السلالة الأموية الإسلامية الحاكمة آنذاك، استُخدم العديد من المنازل الحجرية لإيواء عملاء المخابرات السورية الذي يرتدون ثياباً عادية. وهناك لافتاتٌ مبعثرة حول إحدى زوايا الموقع تشير إلى أماكن إقامتهم، وعلبٌ فارغة، وقناني مياه بلاستيكية، وغسيلٌ منشورٌ تحت أشعة شمس الربيع الدافئة. وجثم ضابطا مخابرات لم يحلقا ذقنهما بعد ويرتديان سترتَين جلديّتَين سوداوَين وسروالَين من القطن الخفيف وخفَّين - اللباس الرسمي للمخابرات السورية – بجانب وعاءٍ من الشاي تضطرم تحته النار، وبندقيّتاهما مُسندتان إلى الجدار. ويتباين وجودهما بشكلٍ غريبٍ ومتضارب مع العواميد والقناطر الجميلة والرشيقة للقصر القريب الذي بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

وحتى مع قيام جنودٍ سوريين بجمع حقائبهم والبدء بإجراءات المغادرة، تجمّع حوالى 30,000 لبناني للقيام بمسيرةٍ أخرى في وسط بيروت تنطلق من ساحة الشهداء وصولاً إلى فندق سان جورج. ولكن انتفاضة الاستقلال كانت على وشك نشوء منافسٍ لها. فبعد شهرٍ تقريباً من الوقوف موقف المتفرّج، أعلن السيد حسن نصر الله في 6 آذار/مارس أن المعسكر الموالي سيُعدّ لتجمّعٍ حاشد في غضون يومَين ويكون تظاهرة دعمٍ وشكرٍ لسوريا عن "كل التضحيات" التي بذلتها لتحقيق "وحدة اللبنانيين وسلامتهم".

والحشد الذي تجمّع في وسط بيروت في 8 آذار/مارس ملأ موقف السيارات قُبالة مبنى الأمم المتحدة الزجاجي، وانتشر في الشوارع المحيطة وتحت الجسور وفوق الجادّات والممرات كدفقٍ بشري من الحمم الزاحفة. وقدّرت الحكومة اللبنانية عدد المتظاهرين بـ 1,5 مليون شخص، ولكن وسائل الإعلام قدّرت العدد بـ 500,000 شخص فقط. وتألّفت غالبية الحشد من الشيعة، ولكن بعض المسيحيين وأفراد من الأحزاب الموالية لسوريا حضروا أيضاً. وكان هناك أيضاً عدّة آلافٍ من السوريين نُقل معظمهم

بحافلاتٍ من سوريا وعبر الحدود مع لبنان في الليلة السابقة.

"نحن هنا دعماً للرئيس الأسد وأشقائنا اللبنانيين"، قال سوريٌّ مبتهجاً ويحمل لافتةً كُتب عليها بالإنكليزية، ورأساً على عقِب، "لا للتدخل الأجنبي".

ويعود الفضل في حجم التظاهرة، وإلى حدٍّ بعيد، إلى مهارات حزب الله التنظيمية. وكان العديدون قد ساروا من الضواحي الجنوبية لبيروت، معقل حزب الله. وكانت النساء تدفعَن عربات الأطفال أمامهنّ أو تحملنَ الأطفال بين أذرعتهنّ. وكان الازدحام شديداً في ساحة رياض الصلح لدرجة أنه كان يصعب التحرّك. وكانت الطرقات المؤدّية إلى داخل بيروت من الجنوب ملأى بالحافلات الصغيرة والسيارات التي تُقلّ مؤيّدي حزب الله من مدن وقرى جنوب لبنان. وعلى غرار التجمّعات الحاشدة التي نظّمتها المعارضة، أصدر حزب الله تعليماتٍ بترك كل الأعلام الحزبية في المنازل؛ يجب ألا يكون في التظاهرة سوى العلم اللبناني. وكان خطاب نصر الله نموذجياً. فقد ظهر على شرفةٍ صغيرة مكسوّة بأعلامٍ لبنانية بالأحمر والأبيض بدلاً من شعار الحزب المألوف باللون الأصفر، واستهلّ خُطبةً طويلة جمعت بين اللغة المنمَّقة النارية ولحظاتٍ من الفكاهة وومضات مصالحة. ومعتذراً عن "الشتائم" التي أُغدقت على سوريا من قِبَل بعض المواطنين الزملاء، قال نصر الله "أنتِ موجودةٌ في الأرواح، في القلوب، في العقول، في الماضي، في الحاضر والمستقبل، ولا يمكن لأحدٍ إخراج سوريا من لبنان أو من عقل لبنان، أو من قلب لبنان، أو من مستقبل لبنان".

وأطلق الحشد أصوات استهجان عندما ذكر اسم جاك شيراك، وعلت أصوات الاستهجان وطالت عندما ذكر جورج دبليو بوش.

"لبنان سيبقى بلد العروبة، بلد القومية، بلد المقاومة. لبنان هو الأمّة بحدّ ذاته"، قال بصوتٍ هادر.

كانت لغةً منمَّقة وقوية. وحجبت كلمة نصر الله والتجمّع الحاشد الضخم للموالين أجواء التفاؤل والتحدّي التي حقّقتها انتفاضة الاستقلال المعادية لسوريا. وسخر منتقدو حزب الله ومناوئو الحملة المعادية لسوريا من التظاهرة الموالية لأن الغالبية العظمى من المشاركين فيها كانوا من الشيعة، ولأنهم حاولوا زيادة أعداد المتظاهرين من خلال نقل سوريين إلى بيروت وإشراك لاجئين فلسطينيين. ولكن لم يكن بإمكان أحد إنكار الواقع الأليم بأن لبنان كان بلداً مقسَّماً، غير موحَّد، حول المسألة الأوسع المتمثّلة بالنفوذ الدولي في لبنان، سواءٌ كان سورياً أم غربياً. ولم يؤدِّ الانقسام

الطائفي - الشيعة في مقابل الآخرين إجمالاً - إلا إلى تفاقم حالة التوتر والشعور بالقلق والاضطراب.

ووعد حزب الله بإقامة مزيدٍ من التجمعات الحاشدة "التكريمية" لسوريا في الأيام القادمة. وتلقّت المعارضة ضربةً أخرى بعد يومَين عندما أعاد لحود تعيين كرامي القليل الحظ رئيساً للوزراء، وذلك بتشجيعٍ من تظاهرة حزب الله، وهي خطوةٌ وصفها جبران التويني بـ "الإهانة الكبرى". ودعا كرامي إلى تشكيل حكومة وحدةٍ وطنية، قائلاً إن المبادرة "تواجه عقبات"، ولكن المعارضة رفضت التعاطي معه.

ونظّم حزب الله تجمّعاً حاشداً ثانياً في مدينة النبطية الجنوبية، قلب مِعقل الحزب، استقطب حوالى 200,000 شخص. ولكن بدلاً من أن يُروَّعوا بقوة تظاهرات الموالين، قبِل منظّمو انتفاضة الاستقلال التحدّي ودعوا إلى تظاهرةٍ ضخمة في 14 آذار/مارس. وللمرة الأولى، انضمّ السنّة بأعدادٍ كبيرة إلى المسيحيين والدروز في ما كان أكبر تظاهرة في تاريخ لبنان، إذ بلغ عدد المشاركين فيها مليون شخص تقريباً، أي حوالى ربع سكان لبنان. وكان التجمّع الحاشد في 14 آذار/مارس ذُروة انتفاضة الاستقلال التي قامت منذ شهرٍ من تاريخه، وأُريد منها توجيه رسالةٍ إلى الشيعة مفادها أن معظم اللبنانيين أرادوا خروج السوريين وتشكيل حكومةٍ مستقلّة جديدة.

وقام الجيش مرةً أخرى بوضع عقباتٍ وسط الطرقات الرئيسية المؤدّية إلى العاصمة، وأصرّ على تفتيش المحتجّين لتأخير وصولهم إلى ساحة الشهداء. ولكن هذه التدابير لم تُحدث فَرقاً كبيراً. فقد استحالت كل منطقة وسط بيروت بحراً من الأعلام الحمراء والبيضاء، ولم يكن بالإمكان تحديد مدى انتشار التظاهرة إلا من خلال كاميرات تلفزيونية محمولة على متن الحوّامات، مصوّرةً المشهد من الجوّ.

ومتّخذاً قراراً حكيماً، قرّر حزب الله التخلّي عن خططه لتنظيم احتجاجاتٍ أخرى، مُدركاً أنه غير قادرٍ على التفوّق على المدى الاستثنائي الذي بلغته تظاهرة 14 آذار/مارس وإن بالاعتماد على مهاراته الهائلة بالتحكّم بأنصاره.

وبعد التراجع عن التظاهرة الموالية بتنظيمٍ من حزب الله، بدا أن الأمور مالت لصالح المعارضة مرةً أخرى. وقبل يومَين، حصل تيري رود لارسن، مبعوث الأمم المتحدة، على ضمانةٍ من السلطات السورية بإخراج جنودها وعناصر جهاز المخابرات من لبنان في موعدٍ لا يتجاوز نهاية نيسان/أبريل.

وفيما رحّبت المعارضة، وعلى نطاقٍ واسع، بالإعلان عن أن السوريين يخطّطون في الواقع للمغادرة في غضون أسابيع، لُطِّخ بريق الانتصار بشبح العنف المتجدّد على صورة هجماتٍ ليلية عدّة بالمتفجّرات في المناطق المسيحية. وتردّد صدى الانفجار الأول الذي وقع في 19 آذار/مارس في الجدَيدة، إحدى ضواحي بيروت، في النصف الشرقي من المدينة، فاهتزّت النوافذ واعتبره لبنانيون متمرّسون بالحرب انفجار عبوةٍ ناسفة. وجُرح أحد عشر شخصاً في الانفجار الذي دمّر عدة مخازن ومعامل. وكانت هناك ثلاث هجماتٍ إضافية بالعبوات الناسفة في الأسبوعَين التاليَين، وقعت في ساعةٍ متأخرة من الليل بصفةٍ رئيسية وفي مواقع مكتظّة بالسكان وأماكن متفرّقة. ومن الواضح أنه كان يُراد بها الترويع لا إيقاع إصاباتٍ بالغة، وقد نجحت في ذلك. وبقيت المطاعم والمقاهي والمتاجر القائمة على امتداد شوارع وسط بيروت فارغة بسبب بقاء الناس في منازلهم. وبات الحراس الأمنيون المحصَّنون داخل نقاط التفتيش عند مداخل مواقف السيارات التابعة للمراكز التجارية مشهداً مألوفاً. وأقامت مجموعاتٌ صغيرة من اللجان الأهلية في مناطق بيروت الشرقية نقاط تفتيش خاصة بهم، مراقبين حركة المرور طوال الليل وموقِفين الغرباء وطارحين الأسئلة عليهم. وظهرت مُلصقاتٌ مرسومة باليد بشكلٍ غير مُتقَن على الجدران، طالبةً بروحٍ من الفكاهة تجنيب سياراتهم التعرّض للانفجارات. ولكن الهجمات استمرّت، وبدأ بعض المسيحيين بالتساؤل سرّاً عن سبب عدم استهداف المناطق المسلمة أيضاً.

وفي أوائل نيسان/أبريل، تقدّمت الولايات المتحدة وفرنسا بمسوّدة قرار إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يقضي بالقيام بتحقيقٍ دولي حول اغتيال الحريري. وقد واجهته معارضةٌ شديدة من قِبَل ممثّلي الحكومة اللبنانية والمتعاطفين معها في المجلس، ولا سيّما الجزائر، وقد نجحوا في تخفيض مدة تفويض اللجنة من ستة أشهر إلى ثلاثة. ودعا القرار 1595 الذي أُقرّ بالإجماع في 7 نيسان/أبريل إلى إنشاء لجنة تحقيق دولية مركزها لبنان، على أن تباشر عملها في أسرع وقتٍ ممكن.

وفي هذه الأثناء، وباقتراب الحدّ الزمني الأقصى للمرحلة النهائية لسحب الجنود السوريين، فُكِّكت آخر المواقع العسكرية في البقاع وجُرفت. وكانت الدبابات على ظهر ناقلاتٍ طويلة تعبر الطريق العام في البقاع في اتجاه نقطة العبور الحدودية، المصنع، برفقة حافلاتٍ عسكرية خضراء تتدلّى منها أعلامٌ سورية وصورٌ لبشار. وكانت شاحناتٌ أخرى محمَّلةٌ بشكلٍ مفرط بمعداتٍ مغطاةٍ بمشمّعاتٍ مربوطة بحبال تتمايل بشكلٍ خطر في اتجاه

الحدود. وكان ضابطٌ في الجيش السوري، وعلى كتفه كاميرا تلفزيونية، واقفاً على حافة الطريق الرئيسية أمام مبنى الجمارك اللبنانية في المصنع يصوّر كل شاحنةٍ تمرّ به، ملتقطاً للأجيال القادمة ما يعتبره العديد من السوريين انسحاباً مُذِلاًّ.

"آسف للمغادرة بهذه الطريقة لأن الشعب السوري واللبناني أشقّاء"، قال الضابط. "كنا نرغب بالبقاء".

ولم يكن رأياً يشاطره إياه العديد من اللبنانيين. ففي مجموعةٍ من البلدات والقرى السنّية حول المصنع، جرى الانسحاب السوري النهائي تحت أنظار الحريري الذي كان يحدّق نزولاً بملامح مبتهجة في مئات الملصقات على الجدران، وواجهات المتاجر، وعواميد التلغراف، ولوحات الإعلانات الضخمة، والنوافذ الخلفية للسيارات والشاحنات. ماذا كان ليستنتج من هذه اللحظات الأخيرة المُخزية للسيطرة العسكرية السورية على لبنان؟ فقد رغب الحريري على الدوام بأن يكون صديق سوريا وحليفها، حتى إنه كان مستعداً للموافقة على وجودٍ محدود للجنود السوريين شرقي لبنان. ولكن اغتياله حوّله إلى رئيسٍ صوَري للنضال المعادي لسوريا والحافز الذي أدّى إلى هذا الانسحاب الأخير الكئيب.

ومن الصعب استخلاص أي مفخرةٍ أو كرامة من انسحابٍ عسكري، ولكنّ قيادتَي الجيشَين اللبناني والسوري حاولت تمويه الإذلال الذي أُصيبتا به من خلال إقامة احتفالٍ وداعي في 26 نيسان/أبريل في قاعدةٍ عسكرية في الرياق بالبقاع. وذلك الصباح، انتشر الجنود السوريون على الطريق بين الحدود والرياق متباعدين عن بعضهم بعضاً مسافة 50 متراً، وحاملين قاذفات قنابل يدوية أو بنادق بحِراب. وكان يُفترَض بهم أن يكونوا حرَس الشرف للعمداء السوريين الزائرين، ولكن ما بدوا عليه كان هزلياً إلى حدٍّ ما وهم يضعون خوذاتٍ زائفة. وكان رستم غزالة قد أخلى مركزه الرئيسي في عنجر في اليوم السابق وأمضى ليلته في دمشق التي تبعد بالسيارة أقل من ساعة. ولكنه عاد إلى لبنان في اليوم التالي لأجل ما كان يجب أن يكون اختباراً مُحرجاً إلى حدٍّ كبير. ومُرتدياً لباساً رسمياً بلونٍ رمادي داكن، وقميصاً بيضاء، ونظاراتٍ قاتمة اللون لمقاومة أشعة شمس الربيع الساطعة، جلس غزالة في المدرّج المسقوف، وجهه خالٍ من التعبير، وقد بدا أنه غريبٌ عن محيطه إلى حدٍّ ما بين العمداء السوريين البدينين والمتعرِّقين في ملابسهم الرسمية الصوفية البنّية المزيَّنة بالضفائر الذهبية وصفوف الشرائط الملوَّنة. وحرص على تجاهل المصوّرين الذين احتشدوا أمامه في فرصةٍ نادرة

لالتقاط صورٍ له. ترى، بمَ كان يفكّر غزالة بينما كانت تنقضي هذه اللحظات الأخيرة للهيمنة العسكرية السورية على لبنان؟ كم كان انهيار هذه المغامرة سريعاً. وقد يكون إقرار القرار 1559 إشارةً إلى بداية نهاية الوصاية السورية على لبنان، ولكن لم يكن أحد يتوقّع انسحاب سوريا من لبنان في غضون سبعة أشهر حتى المؤيّدين الأكثر تفاؤلاً للقرار. وأين كان أولئك المسؤولون اللبنانيون الذين دافعوا بحماسة منذ أشهرٍ قليلة عن الوجود السوري الشرعي في لبنان، وهاجموا القرار 1559 بإخلاصٍ شديد كونه تدخّلاً غير مبرَّر في الشؤون اللبنانية؟ في الحقيقة، لم يظهروا في الرياق صبيحة ذلك اليوم الربيعي. فمعظم الزعماء أداروا ظهورهم لأسيادهم السوريين السابقين، منخرطين في أجواء الاستقلال الجديدة، ومتكيّفين مع وقائع مرحلة ما بعد السلام السوري في لبنان لضمان استمرارهم السياسي الخاص. وبقي المسؤولون اللبنانيون بمنأى عن هذا الاحتفال الوداعي، ولكن أعداء سوريا المتمثّلين بالمُلحقين العسكريين الغربيين، بمن فيهم الأميركيون والفرنسيون، كانوا هناك مرتدين ملابس رسمية متموّجة ومنشّاة، وجالسين بهدوء بالقرب من العمداء اللبنانيين والسوريين.

ونُقل بعض الجنود السوريين الممتازين بالحافلات عبر الحدود في ظل هتافات تأييد توديعية للمرة الأخيرة. وكان المظليون ذوو القامات الطويلة والنحيلة، والذين يرتدون قلنسواتٍ مستديرة ومسطّحة حمراء، أحسن هنداماً من المجنَّدين الإلزاميين البسطاء وغير المثقَّفين الذين اعتاد معظم اللبنانيين رؤيتهم عند حواجز التفتيش التابعة للجيش السوري. وكان الجنود يسيرون برفقٍ في طريقٍ ضيّقة تحدّها أشجار الصنوبر من جانبَيها إلى مكان الاستعراض وبنادقهم على صدورهم، وصورٌ صغيرةٌ لبشار وشقيقه باسل ووالدهما حافظ الأسد مثبَّتةٌ فوق الجيوب اليمنى على الصدر.

ومصطفّين أمام فرقة موسيقية من الجنود اللبنانيين، تعهّد المظليون السوريون بالتضحية بأرواحهم ودمائهم في سبيل بشار، لاكمين الهواء بقبضاتهم وهم يُنشدون.

"بسحب كل قواتها من الأراضي اللبنانية، تكون سوريا قد أوفت بكل التزاماتها حيال القرار 1559"، قال العميد السوري علي حبيب في كلمةٍ للجنود. "هذا الاحتفال التوديعي هو برهانٌ على أن العلاقات بين سوريا ولبنان مميَّزة جداً وستستمرّ بشكلٍ متزايد أكثر فأكثر".

"إخوتنا في السلاح، وداعاً".

"وداعاً"، أجاب الجنود، هادرين.

وعندها انتهى كل شيء.

وصعد الجنود السوريون إلى متن الشاحنات، مبتسمين وملوّحين .الأم بلدهم إلى الأخيرة برحلتهم يقومون وهم v النصر بإشارات

وكان الجنود اللبنانيون قد انتشروا في المركز الرئيسي للمخابرات السورية. وفي "معمل البصل"، مركز الاستجواب الشهير التابع للمخابرات، كان عددٌ من الجنود جالسين في فناء المركز، مُسترخين تحت أشعة الشمس. وكانت قد طُليت رسومٌ عسكرية سورية موجودة على جدران مباني المزرعة بالدهان، عِلماً أن عملاء المخابرات المغادرين وضعوا شعاراتٍ وآياتٍ من القرآن على أحد الجدران بواسطة طلاءٍ مرذّذ (مرشوش).

ويقول أحد الشعارات "لن تموت الأمّة العربية".

وفي الأيام التالية، قام الفريق التابع للأمم المتحدة المكلَّف مهمّة التحقّق من انسحاب الجنود السوريين بزيارة المواقع السورية السابقة للتأكد من عدم تخلّف أي جنديٍّ عن المغادرة. وكان من الواضح أن الجنود قد غادروا، ولكن ما كان يستحيل التحقّق منه ما إذا فكّك السوريون جهازهم المخابراتي في لبنان. وشك القليل من اللبنانيين في إمكانية استمرار دمشق بممارسة نفوذٍ حاقد في لبنان من خلال شبكاتها المتقَنة والواسعة من عملاء ومُخبِرين. وقد يكون الجنود غادروا، ولكن الجهاز المدني - العسكري الذي أُنشئ لضمان السيطرة على لبنان بقي في مكانه، وإلى حدٍّ كبير، ببقاء لحود رئيساً ودون إدخال تغييراتٍ أساسية على الإدارات العسكرية والأمنية والقضائية. وطالت التبديلات الهامة الوحيدة المواقع الأمنية العليا. فقد أعلن جميل السيّد، المدير العام للأمن العام، وعلي الحاج، المدير العام لقوى الأمن الداخلي، تقديم استقالتهما عشية الانسحاب الأخير للجنود السوريين. وطار ريمون عازار، رئيس المخابرات العسكرية الذي أخذ في أوائل نيسان/أبريل إجازةً لمدة شهر، إلى فرنسا مع عائلته قبل أربعة أيام من موعد عودته إلى العمل مع مخصّصاتٍ يومية، ومفتوحة، تبلغ مليون ليرة لبنانية (660 دولاراً) أقرّها وزير الدفاع المنصرف عبد الرحيم مراد. وقد أبطل وزير الدفاع الجديد، الياس المر، المخصّصات اليومية في وقتٍ لاحق، ومن ثمّ صُرف عازار في أوائل أيار/مايو مع غسان الطُفَيلي، قائد سلاح الإشارة في جهاز المخابرات، وإدوار منصور، رئيس أمن الدولة، وعدنان عضوم، وزير العدل. ومصطفى حمدان هو المسؤول الأمني الوحيد العالي الرتبة الذي احتفظ بمنصبه كقائدٍ للحرس الجمهوري والمساعد الرئيسي للحود.

وبالرغم من المخاوف من استمرار وجود عناصر من المخابرات

السورية، فإن صرف القادة الأمنيين الذين كانوا كلّيي النفوذ ذات مرة، ومغادرة الجيش السوري من لبنان كان "إنجازاً ضخماً"، وفقاً لسمير قصير، المحرر الصحافي في النهار ومروّجٌ للديمقراطية.

"حتى مع وجود عناصر مخابرات سرّيين، لا يمكنهم احتجاز الناس، ولا يمكنهم تعذيب الناس، ولا يمكنهم خطف الناس. يمكنهم القيام ببعض الأعمال التخريبية ليس إلاّ"، أخبر الكاتب إثر الانسحاب السوري.

وليست اليد الخفية لسوريا في لبنان التي سبّبت بعض القلق فقط، بل المخيّمات العسكرية الصغيرة أيضاً التابعة لمجموعاتٍ فلسطينية موالية لسوريا التي كان بالإمكان العثور عليها بين التلال والجبال الوعِرة على امتداد الحدود الشرقية البعيدة للبنان مع سوريا. وكانت القواعد الفلسطينية موجودةً في ظل حماية القوات العسكرية السورية المسلَّحة، ويعود تاريخ العديد منها إلى 30 عاماً خلت. وبرفع ذلك الغطاء، نشأت مطالبةٌ متزايدة في لبنان بإغلاق القواعد وعودة المقاتلين إلى سوريا أو إلى مخيمات اللاجئين في لبنان. وكانت هناك ربما اختلافاتٌ كثيرة في الرأي، وعميقة، في لبنان حول تفكيك الجناح العسكري لحزب الله أم لا، ولكن عدداً قليلاً من اللبنانيين كانوا مستعدّين للتساهل حيال وجود مجموعاتٍ فلسطينية مسلَّحة. ومع ذلك، لم يكن ينوي الفلسطينيون التخلّي عن مواقعهم بسرعة كما كانت حال حُماتهم السوريين السابقين.

وتتألف أكبر القواعد الفلسطينية شرقي البقاع من أكواخٍ وخيَمٍ متناثرة فوق أرضٍ جبلية منبسطة على علوّ 1,000 متر تقريباً من وادي البقاع، وتُديرها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، وهي مجموعةٌ راديكالية صغيرة، مقرّها الرئيسي دمشق. ولم يكن بالإمكان الوصول إليها إلا عبر طريقٍ حجرية كثيرة الانعطافات تؤدّي إلى بوّابةٍ دوّارة تسدّ المدخل. وكانت أعلامٌ فلسطينية ترفرف بقرب كوخٍ صغيرٍ جداً، وقد مزّقها الهواء الجليدي وبات لونها باهتاً بسبب الشمس. وفي الداخل، جلس أبو عبد الله، وهو الاسم الحرَكي لأحد الضباط، وستةٌ من رفاقه على أسرّةٍ مصنوعة من كتلٍ خشبية غير محترقة بالكامل مغطّاةٍ بفُرشٍ رقيقة وملاءاتٍ رمادية. وتتدلّى بندقيةٌ من طراز أي كاي - 47 من السقف مع مخزنَين للذخائر موصولَين ببعضهما بعضاً بشريطٍ لاصقٍ أصفر اللون. ووُضع جهاز لاسلكي عسكري موصول ببطاريات سيارة على الطاولة بجانب جهاز تلفزة محمول أحمر اللون.

"لدينا مراكز عديدة في البقاع ولكننا لن نغادر أيّاً منها لأن

القضية الفلسطينية لم تُحَلّ بعد"، قال أبو عبد الله.

وادّعى المقيمون في قرية قوصايا المسيحية في الوادي أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة كانت تستخدم العديد من الشاحنات مجتازةً الحدود ذهاباً وإياباً لنقل الأسلحة والتجهيزات. ولكن أبو عبد الله ادّعى أن الوضع القائم إداريٌّ محض. "لا ننقل أسلحة ولا نرتدي لباساً رسمياً عسكرياً"، قال.

وكان القائد الفلسطيني مهذَّباً ولكن متكتّماً وغير معتادٍ، كما يبدو، على الضيوف غير المدعوّين. وبعد يومٍ من زيارة الكاتب القصيرة، أطلق المسلّحون الفلسطينيون نيران أسلحتهم فوق رؤوس فريق مفتّشي الأمم المتحدة الزائر الذي عاد أدراجه بسرعة على سفح الجبل. وأثار حادث إطلاق النار هذا مزيداً من الدعوات لوضع الفلسطينيين تحت سيطرة الدولة. ولكن الحكومة اللبنانية لم تكن راغبةً بالخروج عن مسارها المتمثّل بمهمّةٍ وحيدة ألا وهي ضمان إجراء الانتخابات البرلمانية في الموعد المحدَّد. وكان عمر كرامي قد استقال للمرة الثانية في نيسان/أبريل بعد التسليم بعجزه عن تشكيل حكومة. وعُيِّن نجيب ميقاتي، وهو رجل أعمال سنّي من طرابلس، رئيساً للوزراء وكشف النقاب عن حكومته بعد أربعة أيام.

وبالنسبة إلى المعارضة التي باتت تُعرَف بـ "تحالف 14 آذار/مارس" بعد تظاهرة المليون شخص التي جرت في ذلك التاريخ، كانت الخطوة التالية بعد انسحاب القوات السورية إسقاط الغالبية البرلمانية الموالية لسوريا ممّا سيؤدّي إلى تشكيل حكومةٍ أكثر تمثيلاً. وكان قد نما لدى بعض ناشطي المعارضة الشبّان مَيلٌ إلى سياسات الشارع غذّوه بإمكانية ترجمة ما قد بدأوه تحرّكاً أوسع لإشراك الجيل الأصغر سنّاً في سياسات الاتجاه السائد.

وفي الانتخابات البرلمانية اللبنانية، فإن الإعلان عن البرامج السياسية والنقاش الجادّ حول القضايا السياسية الأساسية حجبه تخمينٌ متحمّس حول أي مرشَّحٍ سيُضاف إلى أي لائحة انتخابية. وتمثّل المعيار الرئيسي الذي تبنّاه زعماء الكتل السياسية لاختيار مرشَّحين للانضمام إلى لوائحهم بعدد الأصوات التي يمكن لهؤلاء تأمينها. وبالنتيجة، كان هناك مَيلٌ إلى اختيار رؤساء العائلات الكبيرة أو رجال الأعمال البارزين على حساب الإيديولوجيين أو النساء الصغار في السنّ، ما لم يكونوا متحدّرين من عائلاتٍ سياسية لبنانية. وستُثبت هذه الانتخابات أنها لن تكون مختلفةً عن سابقاتها عندما بدأت المعركة الانتخابية بشكلٍ جادّ في أوائل أيار/مايو، وأصبح من الواضح أن لا مكان لأبطال انتفاضة الاستقلال الصغار السنّ أولئك الذين سعوا إلى مقايضة

النشاط السياسي في الشارع بمقعدٍ في البرلمان.

وإن مشهد أمراء الحرب السابقين المألوفين، ورجال الأعمال المقتدرين، وسليلي العائلات السياسية اللبنانية يتشاحنون ويقايضون لضمان استمراريّتهم السياسية جعلت العديد من اللبنانيين منهَكين، مخيَّبي الآمال، وفي نفوسهم مرارةٌ وأسى.

"هي خيانة لكل التظاهرات التي كانت بمثابة لحظة غضبٍ شعبي حقيقي حيال النظام"، أخبر كريم مقدسي الكاتب، وهو أستاذٌ شاب في السياسة في الجامعة الأميركية في بيروت. "كان بالإمكان أن تأخذ الأمور مساراً إيجابياً مختلفاً ولكن الغلبة كانت في النهاية للمبتزّين السياسيين الذين استخدموا تلك المثالية لخدمة أغراضهم الخاصة".

ومن بين تلك الوجوه القديمة المتنافسة على حصةٍ في السلطة ميشال عون الذي أنهى 14 عاماً من المنفى المفروض ذاتياً في فرنسا، وذلك بالعودة إلى بيروت بعد أسبوعٍ واحد من الانسحاب السوري النهائي (8) . ولم يكَد العماد الناريّ الطبع يطأ أرض مطار بيروت حتى بدأ يتصرّف بطريقةٍ مثيرة للنزاعات، فأغضب تحالف 14 آذار/مارس عندما أوحى بأن سوريا قامت بسحب جنودها من لبنان نتيجةً للجهود التي بذلها في واشنطن لا بسبب مقتل الحريري.

وأجاب وليد جنبلاط بحدّة أن "دم الحريري" كان المسؤول عن الانسحاب السوري وليس عون العائد الذي وصفه بـ "موجة المد البحري (تسونامي)". واعتبرت كُتلتا الحريري وجنبلاط التقليل من أهمية أثر اغتيال الحريري على مجرى الأحداث الاستثنائية في الأشهر الثلاثة السابقة أمراً مرادفاً لتدنيس المقدّسات، وأشاروا إلى أن عون السريع الغضب يخطط لمساره السياسي الخاص بمعزلٍ عن تحالف 14 آذار/مارس.

وكان سعد الحريري، الابن الثاني لرفيق، الوجه الجديد الذي سيلعب دوراً أساسياً في الانتخابات. ففي أواسط نيسان/أبريل، وفي نهاية فترة الحداد التقليدية التي دامت 40 يوماً، أعلنت عائلة الحريري سعد الوريث السياسي لرفيق بعد أن اختار بهاء، الابن البكر، التزام ميدان الأعمال.

"كنت الشخص السيّئ الحظ"، قال سعد للكاتب في وقتٍ لاحق ممازحاً.

طويل القامة وذو شعرٍ أسود مالس وشارب ثخين ولحيةٌ صغيرة مدبَّبة "سكسوكة" في أسفل الذَقن، يملك سعد البالغ من العمر 35 عاماً مظهراً خارجياً مشابهاً، وإلى حدٍّ بعيد، لمظهر والده المغدور، وكان لهذا

الأمر أثرٌ بالغ في نفوس الناس. وبالإمكان تكوين رأيٍ خاطئ عن سعد فيُعتبر غير واثقٍ بنفسه، وذلك بسبب طباعه غير الحادّة والخجولة تقريباً، وصوته اللطيف والهادئ، وأسلوبه في تحاشي الأمور بتهذيب، ولكنه لم يكن مبتدئاً. وربما كان غير معتادٍ على الضغط المتواصل الذي تمارسه السياسة اللبنانية، ولكنه كان رجل أعمالٍ بارع إذ تولّى إدارة أوجيه لأكثر من عقدٍ من الزمن. ومشاطراً والده شهرته في إدمانه على العمل، جمع سعد ثروةً خاصة واحتلّ المرتبة الـ 548 في قائمة أصحاب البلايين السنوية التي تنشرها مجلة فوربس ماغازين سنوياً، إذ قُدِّرت ثروته بـ 1,2 بليون دولار. وورث عن والده ولعه بالانتقال في أرجاء العالم، وكوّن علاقاتٍ طيّبة مع العديد من قادة العالم. واعتاد الحريري إخبار أصدقائه بأن "سعد يُشبهني" أكثر من كل أولاده.

وحتى مع هذه الميزات، كان سعد عاجزاً عن منع تحالف المعارضة الواسع من الاصطفاف طائفياً، وبالتدريج، لأن المصالح السياسية الضيّقة تطغى على هدف إنشاء لبنانٍ "جديد". وبالفعل، وعشية الانتخابات، كان لبنان الجديد يشبه لبنان القديم إلى حدٍّ كبير إذ أُقيمت تحالفات انتخابية غريبة حتى عن المعايير اللبنانية. فقد ضمّت اللائحة التي رئسها سعد الحريري في بيروت بعض الرفاق غير المريحين، ومن بينهم صولانج الجميّل، أرملة الرئيس المنتخَب السابق بشير الجميّل الذي ساعد على تنظيم الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، وعضوٌ في حزب الله، وهي منظمة وُلدت لمقاومة ذلك الاجتياح نفسه.

وفي جنوب لبنان والبقاع ذات الغالبية الشيعية، أقام حزب الله تحالفاً مع حركة أمل المنافسة. وكان قد افتُرِض أنه، مع رحيل سوريا، سيدخل حزب الله وأمل في صراعٍ للهيمنة على المجتمع الشيعي في أول فرصة متوافرة. ولكن المجموعتَين أدركتا أن متطلّباتهما المشترَكة أكبر من اختلافاتهما. وبتحالفه مع أمل، كان حزب الله يدعّم موقعه المحلّي في مواجهة الضغط الذي يمارَس لحلّ جناحه العسكري، محوِّلاً بذلك مصير سلاحه إلى مسالةٍ طائفية. فغدت الدعوات المطالِبة بنزع سلاح حزب الله تعني نزع سلاح الشيعة. وبدوره، كان نبيه برّي بحاجةٍ إلى مساعدة حزب الله لدعم موقعه السياسي الخاص بعد رحيل المُحسنين السوريين.

ومن ثمّ كانت هناك سخرية القدر التي جمعت كتلتَي الحريري وجنبلاط، راعيَي تظاهرة 14 آذار/مارس المعادية لسوريا، اللذين عقدا اتفاقاتٍ انتخابية مع حزب الله وأمل وهما القوتان الدافعتان لتظاهرة 8

آذار/مارس الموالية لسوريا.

ولعل التحالف الانتخابي الأكثر غرابةً ذلك الذي أقامه ميشال عون. فعون الذي كان ذات مرة المنتقد الأكثر مواظبةً وقسوةً للنفوذ السوري في لبنان، شعر بأنه يتعرّض لضغوطات حلفائه المعارضين السابقين في تحالف 14 آذار/مارس، فبدأ فجأةً بعقد اتفاقاتٍ مع بعض الداعمين التقليديين لسوريا والأكثر ولاءً لها. وكانت خطوةً غير عادية ولكن ذكية. وكان انهيار سيطرة دمشق على لبنان قد أزال، إلى حدٍّ بعيد، الانقسام السياسي السابق الذي لا معنى له والذي وضع الموالين لسوريا في مواجهة المعادين لها، وكانت هذه المواجهة قد أساءت إلى التعايش الديني الراسخ. وإن هيمنة سوريا على لبنان سمحت لها بضبط الحالة الطائفية اللبنانية، والتحكّم بها، واستعمالها بمهارة بما يتلاءم مع مصالحها الشخصية. ونتيجةً لذلك، أدّى زوال هذا العامل الكابح إلى عمليات إعادة اصطفاف سياسية جديدة مرتكزة على انبعاث الحالة الطائفية مجدَّداً بشكلٍ عفوي وغير مضبوط.

وكان انسجام المشهد السياسي مع الاعتبارات الطائفية جليّاً كما كان متوقَّعاً. فقد ضمن التحالف المسلم الواسع النطاق والمؤلّف من حزب الله وأمل وتيار المستقبل التابع للحريري وكتلة التجمّع الديموقراطي التابع لجنبلاط، مترافقاً مع ضغطٍ من فرنسا والولايات المتحدة، إجراء انتخابات العام 2005 وفقاً لقانون العام 2000 الانتخابي (الذي وضعه غازي كنعان لإغاظة لحود)، متغلّباً بذلك على الاعتراض المسيحي القوي. وبالفعل، غدا المسيحيون مخيَّبي الآمال، ممتعضين، وقلقين من أن تؤدّي التكتيكات الجارفة للتحالف السنّي - الدرزي - الشيعي إلى إفشال نهضتهم السياسية بعد عقدٍ ونصف من التهميش في ظل الحكم السوري. حتى إن ذلك الاستقطاب الطائفي أدّى إلى موجةٍ غير مرغوبٍ فيها من الدعم المسيحي للحود الذي كان يسعى جنبلاط والحريري بشكلٍ ناشط على إزاحته من قصر بعبدا. وبقي مصير الرئاسة امتيازاً للموارنة. وبالرغم من افتقار لحود إلى المصداقية في الأوساط المسيحية، لم يكن ينوي الموارنة الوقوف موقف المتفرّج على قيام السنّة والدروز بإزاحته.

وظهرت التوترات بين السنّة والمسيحيين في الجولة الأولى من الاقتراع في بيروت. ففي بيروت الغربية، عُلِّقت فوق الشوارع رايات ضخمة تُظهر سعد الحريري مبتهجاً وتحمل شعار حملة الحريري الانتخابية، "معك". وفي العديد من الملصقات، ظهر سعد فوق صورةٍ لوالده، وكُتب على إحداها "الأبناء على خطى الآباء". وكانت الشرطة الشبه عسكرية بملابسها

المموَّهة باللون الأزرق تحرس مراكز الاقتراع المكتظّة بالناس، في حين تجوب السيارات الشوارع الخالية من حركة المرور على غير عادة صعوداً ونزولاً، حاملةً ملصقاتٍ انتخابية وصوراً للمرشحين. ودعا سعد إلى مشاركةٍ واسعة في الاقتراع، قائلاً "كل صوت هو رصاصة تُطلَق على قتلَة رفيق الحريري".

ولكن المشاركة في النصف الشرقي ذات الغالبية المسيحية كانت منخفضة بسبب مقاطعة مؤيّدي عون الانتخابات احتجاجاً على القانون الانتخابي.

وعجز الاستياء المسيحي عن إيقاف تحقيق سعد الحريري فوزاً شاملاً في بيروت. وبعد أسبوع، ضَمِن التحالف الشيعي المؤلَّف من حزب الله وأمل كل المقاعد في جنوب لبنان. ولكن الدورة الثالثة في جبل لبنان شهدت هزيمةً غير متوقَّعة عندما انحاز المسيحيون المحبَطون إلى ميشال عون بشكلٍ كامل ضد تحالف 14 آذار/مارس. وكان عون علمانياً بشكلٍ علَني، ولكن المسيحيين كانوا قد وجدوا في العماد البالغ من العمر 70 عاماً قائدهم الشعبي الأول والفعّال منذ نهاية الحرب عام 1990.

وكان منزل عون المؤقَّت فيلاّ ذات حراسة مشدَّدة أقرضه إياها أحد مؤيّديه، وتقع بين التلال وأشجار الصنوبر في ضاحيةٍ مُشرفة على بيروت يقطنها نُخبةٌ من أفراد المجتمع. وكان محيط المنزل الذي اتُخذت الإجراءات الوقائية لعزله ملاءةً خضراء مخرَّمة، في حين يقوم حراسٌ شخصيون مسلَّحون، وكاميرات المراقبة، وأضواء كاشفة، ولفائف من الأسلاك الشائكة، بتوفير الأمن. من هنا، كان العماد قد شنّ حملةً انتخابية مركَّزة وبارعة، معتمداً اللون البرتقالي والحرف اليوناني أوميغا (رمز الجهاز الذي يحول دون مرور التيار الكهربائي، وذلك وفقاً للمصطلَح الكهربائي) شعارَين له. وكان الزعيم السياسي الوحيد الذي يضع برنامجاً انتخابياً، وهو عبارة عن بيانٍ بالأهداف ووجهات النظر من 43 صفحة باللغة الإنكليزية، والعربية، والفرنسية، موجِزاً برنامجاً إصلاحياً سياسياً واقتصادياً وإدارياً شاملاً.

وكان عون في محيطه الملائم مغموراً بأضواء كاميرات التلفزيونات ومُحاطاً بالمؤيّدين والصحافيين. فطلب الانتباه وارتسمت على وجهه أمارات التصميم والثقة والاستقامة. واتّهمه منتقدوه بأنه ضابطٌ صارم و"نابوليون صغير" ذو طموحاتٍ رئاسية واضحة. وكانت هناك بعض ميزات نابوليون في هذا العماد العسكري المتبجّح والقصير القامة. ولكن بعيداً عن أضواء الإعلام، كان متكتّماً وغير مدَّعٍ، ولا يشعر بالراحة بين الغرباء وفي محيطٍ غير مألوف. ومدعوّاً إلى حفلة عشاء في السفارة الأميركية، لم يقل عون

المتضايق أي كلمة تقريباً، تاركاً بعض الضيوف الأجانب يتساءلون عمّا يرى فيه مؤيّدوه.

وعندما التقى المؤلف الجنرال عون في الفيلاّ الخاصة به لإجراء لقاءٍ معه في أواسط حزيران/يونيو بعد تحقيقه انتصاراً في انتخابات جبل لبنان، كان شخصاً خجولاً بطريقةٍ من الطرق ولكن مهذَّباً بأسلوب الجَدّ حيال الأحفاد، ودخل غرفة الاستقبال بخطى متثاقلة مبتسماً بحياء. وبدا عون بشعره المتناقص وفكّه الأسفل وبطنه المتراخيَين أنه يرتاح أكثر بتشذيب الورود في الحديقة أو ملاحقة أحفاده على ركبتَيه من التّوق إلى الرئاسة. ولكن في كلامه تصميمٌ عندما اتهم سعد الحريري بشراء الأصوات على نطاقٍ شعبي واسع في شمال لبنان حيث جرت الجولة النهائية للانتخابات وتحوّلت إلى معركة حسم بين السنّة الذين يمثّلهم تيار المستقبل وبين الموارنة الذين يمثّلهم التيار الوطني الحر التابع لعون (9) . واستمرّ بالدفاع بشكلٍ عازم عن تحالفه مع بعض حلفاء سوريا الأكثر وفاءً لها.

"لا أهتمّ إذا دعمتني سوريا"، قال بالإنكليزية بلهجةٍ فرنسية. "هم يحترمونني لأنني خصمٌ صادق. لا يحترمون أولئك الذين ادّعوا أنهم حلفاؤهم طيلة 15 عاماً وهم الآن يشتمونهم كالحيوانات. ومنذ العام 1988، قلت إن على السوريين الانسحاب من لبنان وسنصبح بعد ذلك أصدقاء مخلصين. وما قلته عام 1988 أقوله عام 2005".

ولكن منتقدي عون يتهمون العماد بأنه مرتدّ يخون رفاقه السابقين في المعارضة المعادية لسوريا، وذلك في مقابل عودةٍ مسهَّلة إلى لبنان لا تعترضها عراقيل بعد 14 عاماً قضاها في المنفى، وتولّي منصب الرئاسة في المستقبل.

وإذا كان بعض أعضاء تحالف 14 آذار/مارس مخيَّبي الآمال وغاضبين من خروج عون من صفوفهم، فقد كان هناك تحذيرٌ صريح في التقارير الإعلامية من أن ضباطاً في المخابرات العسكرية السورية عادوا إلى لبنان ويعقدون لقاءاتٍ سرّية لإقامة تحالفاتٍ انتخابية بين أصدقائهم اللبنانيين القدماء.

وجاء في أحد التقارير أن محمد خلوف، الرئيس السابق للمخابرات السورية في شمال لبنان، التقى جميل السيّد وسليمان فرنجية على مائدة عشاء، ونجم عن ذلك إعادة خلط أسماء المرشحين لانتخابات الشمال وإقامة تحالفٍ بين عون وفرنجية الذي كانت قاعدة نفوذه شمالي مدينة زغرتا.

واتّهم جنبلاط رستم غزالة في مقابلة تلفزيونية بأنه كان قد

شوهد يتناول طعام الغداء في مطعمٍ في البقاع وقام بإفشال اتفاقٍ انتخابي بين تيار المستقبل التابع للحريري وسياسي مسيحي محلّي. وشوهد ضباط مخابرات عسكرية من ذوي المراتب العليا في الشوف وقد طرح أحدهم أسئلةً حول التدابير الأمنية التي يتّخذها جنبلاط.

وتوحي التقارير الإخبارية أن قوىً شرّيرة كانت منهمكة بالعمل في لبنان. وتمّ التثبّت من هذا الأمر في الحادث المروِّع صباح الثاني من حزيران/يونيو الذي حوّل سيارة ألفا روميو إلى بقايا متغضّنة ومحترقة في منطقة الأشرفية المسيحية في إحدى ضواحي بيروت. ولم يتسنَّ لسمير قصير معرفة ما الذي صعقه عندما انفجرت العبوة الناسفة الموضوعة تحت مقعده بينما كان يُدير محرّك سيارته قاصداً مكتبه في النهار . وهذا الصحافي البالغ من العمر 45 عاماً منتقدٌ بليغٌ وصريح للسيطرة السورية على لبنان ومروّجٌ متّقد للديمقراطية، وقد عادت كتاباته في النهار عليه ببعض الأعداء الأقوياء.

وتحلّق حشدٌ مصعوق حول السيارة إلى أن قام جنودٌ بإبعادهم عنها من خلال وضع شرائط صفراء على امتداد الطريق لعزل مسرح الجريمة.

"كان سمير متفائلاً جداً"، قال مالك مروّة بعينَين دامعتَين، وهو رجل أعمال لبناني وصديقٌ لقصير كان قد تناول طعام العشاء معه في الليلة التي سبقت عملية الاغتيال. "قال "برحيل السوريين بات بإمكاننا قول ما نريد. سيكون لبنان النموذج الديمقراطي للمنطقة".

هل أن تفاؤل قصير أعماه عن التهديدات التي ما زالت قائمةً وكامنة في زوايا لبنان الحالكة؟ ما الذي قاله للكاتب قبل شهرٍ تقريباً عن الوجود المخابراتي السوري المتواري في لبنان؟

"حتى مع وجود عناصر مخابرات سرّيين، لا يمكنهم احتجاز الناس، لا يمكنهم تعذيب الناس، لا يمكنهم خطف الناس. يمكنهم القيام ببعض الأعمال التخريبية ليس إلاّ". كانت لتلك الكلمات صدى مثير للقشعريرة لدى سحب جثّة قصير التي أتلف الانفجار أحشاءها من بقايا السيارة الملتوية.

وفي ظل اغتيال قصير، جرت الجولة الأخيرة من الانتخابات في 19 حزيران/يونيو في أجواءٍ طائفية مشحونة لم يتمكّن المحور المسيحي المؤلَّف من سليمان فرنجية وميشال عون من الصمود في وجه التحالف السنّي وحلفاء الحريري المسيحيين في الدائرة الانتخابية الشمالية ذات الغالبية المسلمة. وقام عمر كرامي الذي رفض المشاركة بالانتخابات بمهاجمة سعد

الحريري بسبب شراء الأصوات واتهم مفتي الجمهورية اللبنانية السنّي الشيخ محمد قبّاني بإصدار تعليماتٍ للشيوخ السنّة في طرابلس لتسييس خُطَبهم لصالح تحالف 14 آذار/مارس. وأعلن فرنجية الذي فقد مقعده البرلماني في الانتخابات أن الحريري "استخدم أبشع التكتيكات وأكثرها تحريضاً على الطائفية"، مُثيراً المسلمين ضد المسيحيين، وكانت نتيجة ذلك "انقسام شمال لبنان على أسسٍ طائفية".

وأبدت صحيفة السفير رأيها في صباح اليوم التالي قائلةً إن "لا أحد يعرف كيفية التغلّب على التوتر الطائفي الذي طبع الانتخابات في كافة أنحاء لبنان".

فقد كان سعد الحريري يناضل للحصول على غالبية مقاعد البرلمان الـ 128 من خلال تأمين أكثر من ثلثَي هذا العدد للتمكّن من البدء بالعملية الدستورية المعقَّدة وغير المختبَرَة لإزاحة لحود من منصبه. وكان يُعتبَر إسقاط لحود شرطاً أساسياً لتطهير مؤسسات الدولة بشكلٍ كامل ممّا تبقّى من آثار السيطرة السورية. ولكن فوز ميشال عون في المرحلة الثالثة من الانتخابات أفقد تحالف 14 آذار/مارس 14 مقعداً، ممّا جنّب لحود تقاعداً مُبكراً. وبتثبيت لحود أقدامه في قصر بعبدا على المدى المنظور، أحجم سعد الحريري عن خوض سباق رئاسة الحكومة. كيف يكون بإمكانه الجلوس حول الطاولة نفسها مع الرجل الذي يعتقد أنه كان مسؤولاً، أقلّه جزئياً، عن اغتيال والده؟ ولم يكن لحود الشخصية الرائدة الوحيدة العائدة للنظام السابق الموالي لسوريا في الاحتفاظ بمنصبها. حتى إن نبيه بري، المستمرّ في موقعه السياسي والأكثر مَكراً وانتهازيةً، عاد إلى رئاسة مجلس النواب بعد قيام حزب الله، حليفه الجديد القوي، بدعمه وتعويمه.

ومع ذلك، وبالرغم من حُرمان الحريري من الفوز التام الذي كان يسعى إلى تحقيقه، وارتفاع وتيرة الطائفية التي واكبت عملية الاقتراع، فقد أدّت الانتخابات إلى البرلمان الأكثر تمثيلاً منذ نهاية الحرب عام 1990.

وفي اليوم التالي لجولة الانتخابات الشمالية، أقام سعد الحريري مؤتمراً صحافياً في القاعة الواقعة تحت الأرض في قريطم، ووعد بمتابعة "مشروع رفيق الحريري" المتمثّل بالتعايش، والتطور الاجتماعي والاقتصادي، والإصلاح الإداري.

وبينما كان سعد الحريري يتلو كلمةً مُعَدَّة سلَفاً، كان رفيق الحريري يحدّق نزولاً بابنه وبإرثه السياسي من أكثر من عشر صورٍ معلَّقة على الجدران أو موضوعة على منصات. وقال إن كل اللبنانيين كانوا يعرفون

من كان قد أعاق هدف والده المتمثّل بتحقيق "ازدهار لبنان وصون كرامة اللبنانيين".

"عطّلوا مشروع رفيق الحريري عَمداً، ولكن اللبنانيين لن يوافقوا من الآن فصاعداً على أي سياسة توقف التقدّم الاقتصادي والاجتماعي والتطويري"، قال سعد بصوته اللطيف والهادئ والذي كان يمكن بالكاد سماعه أحياناً. "نؤكّد اليوم أن الانتخابات أصبحت وراءنا. لا نرى سوى مستقبل لبنان، وحرّيّته، وسيادته، واستقلاله، ونظامه الديمقراطي، وازدهاره الاقتصادي، وتماسكه الاجتماعي".

ولكن تلك القوى الشرّيرة التي اغتالت سمير قصير كانت ما تزال ناشطةً في لبنان، مصمِّمةً كما يبدو على ضمان عدم حدوث انتقالٍ سهلٍ من مرحلة الهيمنة السورية إلى مرحلة السيادة التامّة.

وفي صباح اليوم التالي من المؤتمر الصحافي المتفائل لسعد، قُتِل جورج حاوي، وهو زعيمٌ سابق للحزب الشيوعي اللبناني، بانفجار عبوةٍ ناسفة تحت سيارته المرسيدس بلون الأزرق الداكن بعد لحظاتٍ من مغادرته المنزل في بيروت الغربية.

وجاء مقتل حاوي ليؤكّد هوية المشتبَه الأول باغتيال قصير - شُنّت حملة تشويه للسُمعة ضد مناوئي النفوذ السوري الطويل الأمد في لبنان. والعنف الذي كان قد بدأ بالهجوم التفجيري ضد مروان حمادة في تشرين الأول/أكتوبر السابق (العام 2004) وبلغ أوجه باغتيال رفيق الحريري بصورةٍ وحشية واستمرّ بعمليّتَي قتل قصير وحاوي، كان ما يزال يُرخي بظلاله القاتمة على لبنان.

الفصل السابع: لبنان جديد؟

بتوالي سحابات العاصفة عبر البحر المتوسط، فارشةً الخط الساحلي اللبناني بملاءاتٍ من حُبَيبات المطر الجليدي، استمرّت أشباح انتفاضة الاستقلال بمراقبة ساحة الشهداء. وفي أواخر العام، كان على العشب النموّ مجدَّداً في الهضبة القائمة بالقرب من تمثال الشهداء حيث نُصِبت خيام مخيّم الحرّية تحت أشعة شمس الربيع. وانتُزعت الكتابات التي غصّت بها ذات مرة جدران الرخام الأبيض المحيطة بتمثال الشهداء البرونزي، ومع ذلك، كان بالإمكان تبيان الآثار الباهتة للشتائم المعادية لسوريا، والشعارات الوطنية، والتأبينات العاطفية للحريري المغدور. واستمرّ المحزونون والفضوليون بالوفود إلى المقبرة المغطاة بالأزهار والتي تقع على بُعد 100 متر من تمثال الشهداء. وتشير ساعةٌ رقمية عملاقة إلى عدد الأيام التي انقضت منذ 14 شباط/فبراير بلونٍ أحمر متوهّج. وكُتب على قنطرةٍ خشبية مؤدّية إلى القبر "الحلم" بحروفٍ عربية مذهَّبة.

واستمر طيف رفيق الحريري يلوح على نطاقٍ واسع فوق لبنان الذي بدأ بالانقسام عام 2006 بعمق بسبب طائفيةٍ منبعثة غذّاها الجدل القائم حول أسلحة حزب الله، وشكّل نشوء إسلامٍ سنّي مقاتل أحكم سيطرته على المناطق الفقيرة في الشمال تهديداً لها، وتنازعتها وجهات نظر متنافسة حول الاتجاه المستقبلي للبلد. وحلّ النزاع المسلم الداخلي بين الشيعة والسنّة مكان الصدع المسيحي - المسلم التقليدي في لبنان، عاكساً الانقسامات الأوسع التي تمزّق الشرق الأوسط. وبدا أن لبنان الذي قُدِّر له أن يكون رهينة صراعٍ أوسع للهيمنة على الشرق الأوسط يُثير محور إيران - سوريا - حزب الله الذي يزداد قوّةً ضد نفوذ الغرب المتمثّل في الدرجة الأولى بالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا.

"سيكون لبنان مجدَّداً ساحةً لصراعٍ كبير على النفوذ يدوم وقتاً طويلاًَ. هذا هو القدر المأساوي للبنان". هكذا كان التكهّن الكئيب لوليد جنبلاط الذي أصبح منذ كانون الأول/ديسمبر سجيناً فعلياً في قصره في جبال الشوف لتجنّب المصير نفسه الذي لقيَه الحريري، وسمير قصير، وجورج حاوي، وآخرون (1) . وبالنسبة إلى حملة الاغتيالات والهجمات بالعبوات الناسفة التي بدأت بمحاولة اغتيال مروان حمادة في تشرين الأول/أكتوبر 2004، فقد استمرّت بالمطالبة بضحايا في عملية ثأرٍ عديمة الرحمة، كما يبدو، ضد بعض الأصوات البارزة في انتفاضة الاستقلال.

ومنحت عمليات القتل لجنة التحقيق الدولية المستقلة التابعة للأمم المتحدة المكلَّفة بالتحقيق باغتيال الحريري شعوراً إضافياً بالحاجة الماسّة إلى البدء بالعمل في أواسط حزيران/يونيو. وكان على رأس اللجنة في بادئ الأمر دتليف مليس، وهو مدّعي عام ألماني، قاد فريقاً من أكثر من 100 محقّق، وتقني، ومترجم، وموظفين أمنيين. واختير مليس لرئاسة التحقيق بسبب خبرته التي دامت 25 عاماً في التعاطي مع حالات الإرهاب الدولية، ولا سيّما انفجار لا بيل ديسكو في برلين عام 1986. ومُنحت اللجنة تفويضاً من مجلس الأمن الدولي لمدّة ثلاثة أشهر مع إمكانية الحصول على أشهرٍ ثلاثة إضافية إذا دعت الحاجة. وكان مليس مُدركاً تماماً للمهمة الضخمة التي تنتظره، وهو محقّقٌ معسول اللسان ومنهجي، وعلّق على الأمر في أيار/مايو قائلاً "آمل في أن يتمكّن أحدٌ ما من كشف النقاب عن الجريمة في ثلاثة أشهر؛ وإلا فإن الأمر سيتطلّب 10 سنوات".

وكان ينتظر المساعدة الكاملة للحكومة الجديدة التي شُكّلت في نهاية تموز/يوليو برئاسة فؤاد السنيورة، الساعد الأيمن للحريري منذ مدةٍ طويلة في الشؤون المالية. وكان الإجماع الحكومي الجديد يتطلّب للمرة الأولى موافقة عضوٍ من حزب الله، إذ إن الحزب أدرك الحاجة إلى الدفاع عن مصالحه من خلال المشاركة الكاملة في الحياة السياسية اللبنانية بعد رحيل سوريا.

ولكن هذه الأشهر لم تكن سهلةً على حكومة السنيورة أو أولئك الذين كانوا رأس الحربة في الجهود التي بُذِلت لإخراج سوريا من لبنان. وفي آب/أغسطس، كشف جبران التويني، وهو المحرر الصحافي المناضل ومدير عام النهار الذي كان قد انتُخب عضواً في البرلمان في أيار/مايو، أن اللجنة التابعة للأمم المتحدة سلّمت الحكومة اللبنانية "لائحة بأشخاصٍ يُراد تصفيتهم" وهم لبنانيون بارزون معادون لسوريا كانت قد جمَّعتهم من خلال استجواب الشهود والمشتبَه بهم.

"هناك قائمة اغتيالات واسمي على رأسها"، قال تويني في فرنسا حيث كان يسعى إلى ملاذٍ آمن مع عددٍ من اللبنانيين الآخرين. وكانت التدابير الوقائية مكثَّفة وشديدة. وتحقّق تكهن الياس المر في تشرين الأول/أكتوبر 2004 لمروان حمادة بأنه [المر] سيكون هدف محاولة اغتيال، وذلك في تموز/يوليو عندما انفجرت سيارة مفخَّخة بالقرب من موكبه لدى مروره في ضاحيةٍ شرقية لبيروت يقطنها الأثرياء. ونجا المر الذي كان يتنقّل بسيارة بورش مصفّحة ذات دفعٍ رُباعي من الانفجار، وقد عانى من جروحٍ

في وجهه وكسرٍ في يده. وحمّل لاحقاً رستم غزالة مسؤولية الهجوم المفخَّخ، كاشفاً للمرة الأولى في برنامج مقابلات على تلفزيونٍ لبناني أن العميد السوري كان قد هدّده إثر اكتشاف مؤامرة تفجير السفارة الإيطالية.

أما لحود الذي بات شخصاً معزولاً أكثر فأكثر، متمسّكاً بقصر بعبدا، فأصدر بياناً بعد ما باح به زوج ابنته، مُغدقاً بالمديح على "الشقيقة" سوريا ومستأهلاً العنوان الرئيسي في صحيفة البلد اليومية الصادرة في بيروت والذي جاء فيه "لحود يُزيل شظايا القنبلة التي فجّرها صهره".

واستمرّت التفجيرات العشوائية في المناطق المسيحية من شهر تموز/يوليو وحتى أيلول/سبتمبر. وانفجرت عبوة ناسفة صغيرة مزروعة تحت سيارةٍ متوقّفة في زقاقٍ ضيّق مساء يوم جمعةٍ على بُعد 50 متراً فقط من شارع مونو في بيروت الشرقية، وهو أحد الأماكن التي تكثر فيها النوادي الليلية الأكثر نشاطاً في المدينة. واستهدف تفجيرٌ آخر مكتب المعلومات الكويتي، قاتلاً شخصاً واحداً. وكان الإعلام الكويتي بصفةٍ خاصة ينتقد سوريا، ولا سيّما صحيفة السياسة التي دأبت على نشر أخبارٍ هي بمثابة "سبقٍ صحافي" معادية للنظام السوري، وبصورةٍ يومية تقريبا، بهدف التسلية دون توخّي الدقة.

وفي نهاية أيلول/سبتمبر، أُصيبت مي شدياق، وهي مقدّمة برنامج سياسي على تلفزيون الـ أل بي سي، بجروحٍ خطِرة عندما انفجرت عبوةٌ ناسفة تحت مقعد سيارتها المتوقّفة بعد الانتهاء من بثّ برنامجها التلفزيوني الصباحي. ونجت، ولكنها فقدت في الانفجار ذراعها اليسرى وقدمها اليسرى.

ومن الواضح أن الهجمات التفجيرية كانت جزءاً من محاولةٍ محسوبة لتقويض الاستقرار السياسي وإعاقة الازدهار الاقتصادي في لبنان. ولكن، من كان أولئك القاتلون المأجورون العديمو الشفقة الذين يطوفون البلد بحثاً عن أهداف، ويقتلون ضحاياهم بهذه الدقة بدون عناء وبدمٍ بارد؟ وافترضت إحدى الشائعات أنهم رجال ميليشيا مسيحيون سابقون من الحزب القومي السوري الاجتماعي المتحالف مع دمشق أعدّوا سياراتهم المفخَّخة في موقف سياراتٍ تحت الأرض في منطقة جان دارك في شارع الحمراء ببيروت الغربية، وهي منطقة يسيطر عليها الحزب تقليدياً. وإذا كانت سوريا مسؤولةً عن الهجمات كما يعتقد معظم اللبنانيين بشكلٍ راسخ، فليس هناك نقصٌ إذاً بالمرتكبين المستعدّين لتنفيذها. وكانت المخابرات العسكرية السورية قد أعدّت منذ سنوات العديد من المجموعات الصغيرة والشبكات التي يمكن استخدامها لإثارة المشاكل. وبعض هذه المجموعات

موجودةٌ ضمن منظماتٍ سياسية أوسع كالحزب القومي السوري الاجتماعي وحزب البعث؛ وتعمل مجموعاتٌ أخرى على صورة زُمرٍ صغيرة من المرتزَقة تزوّدها مراكز محلّية للمخابرات العسكرية السورية بالمال النقدي والعربات والأسلحة.

ومع أن السلطات اللبنانية بدت عاجزةً عن القبض على القتلَة بالرغم من المساعدة التقنية التي وفّرتها وكالات فرض القانون الأوروبية والأميركية، فقد اكتشفت العديد من مخابئ الأسلحة التي لم توحِ فقط بأن أعمال العنف كانت حملةً إرهابية منهجية مُعَدّةً مُسبَقاً، بل أشارت أيضاً وبوضوح إلى مشاركة أفرادٍ وجماعات مرتبطة بلحود والنظام السوري. وفي أواخر تموز/يوليو، أوقفت الشرطة الشيخ أحمد عبد العال، وهو ضابط أمني في جماعة الأحباش الإسلامية الموالية لسوريا، مع شقيقه محمود بعد اكتشاف مخبأٍ للأسلحة في منزل الأخير في المنطقة الجنوبية الشرقية من بيروت. وكانت المخابرات السورية قد شجّعت الأحباش المعتدلين دينياً في لبنان في التسعينيات على إضعاف الجماعات السنّية الإسلامية المتطرّفة، ولا سيّما الجماعة الإسلامية، وهي الفرع اللبناني للإخوان المسلمين الذين قاموا بتمرّدٍ دموي في سوريا في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات.

وفي تموز/يوليو أيضاً، كشفت غارةٌ شنّها رجال الشرطة النقاب عن مخزونٍ احتياطي من الأسلحة الجديدة وغير المستخدَمة في منزل أحد موظَّفي ماجد حمدان في بيروت، شقيق مصطفى حمدان، قائد الحرس الجمهوري والساعد الأيمن للحود. وكان ماجد حمدان يملك شركةً أمنية بمشاركة رالف لحود، ابن الرئيس، من مهامّها الحفاظ على الأمن في منطقة فندق سان جورج - مسرح اغتيال الحريري. وادّعى الموظَّف حمدان أنه عضوٌ في المرابطون، الميليشيا السنّية التي طردتها ميليشيات موالية لسوريا خارج بيروت في أواسط الثمانينيات، ولم تعُد إلا عام 2001 بتحريضٍ من أجهزة المخابرات اللبنانية والسورية في محاولةٍ غير مُجدِية لتحقيق توازنٍ مع نفوذ الحريري على المجتمع السنّي. وكان لمصطفى حمدان أيضاً علاقاتٌ مع المرابطون كونه ابن شقيقة الزعيم السابق لهذه الجماعة إبراهيم قليلات، وكان قد قاتل في صفوف الميليشيا في المراحل الأولى من الحرب اللبنانية في السبعينيات.

وكانت نشاطات الإخوة حمدان وعبد العال تلفت انتباه لجنة التحقيق الدولية. وممارساً مهامّه انطلاقاً من فندقٍ معزولٍ ومتمتّعٍ بحماية كبيرة يقع في ضاحية بيروت الشرقية الحُرجية مونتيفيردي، أصدر مليس

أوامره بالقيام بالاعتقالات الأولى في أواخر آب/أغسطس. واقتحم محققون برفقة الشرطة اللبنانية شبه العسكرية منازل العديد من المسؤولين الأمنيين السابقين من ذوي المراتب العليا في غارة جرت قبل بزوغ الفجر قُطِع خلالها التيار الكهربائي في المدينة بصورةٍ مؤقَّتة. ومن بين أولئك المعتقَلين جميل السيّد، وريمون عازار، الرئيس السابق للمخابرات العسكرية، وعلي الحاج، المدير العام السابق لقوى الأمن الداخلي. وكان الثلاثة قد طُردوا من مناصبهم في أيار/مايو. وسلّم مصطفى حمدان نفسه لمزيدٍ من الاستجواب بعد استدعاء الشرطة له. وكان المسؤول الأمني الكبير الذي استجوبته اللجنة واعتُبر رسمياً "مشتبَهاً به" قبل شهر من الاعتقالات.

"نظن... أنهم كانوا إلى حدٍّ ما جزءاً من التخطيط الذي أدّى إلى الاغتيال"، قال مليس، مضيفاً أن الرجال الأربعة كانوا فقط "جزءاً من الصورة التي كوّناها... نظنّ بالفعل بوجود مزيدٍ من الأشخاص المتورّطين".

وأثارت عمليات اعتقال البارونات الأمنيين السابقين اللبنانيين بشدة. فمنذ عامٍ واحدٍ فقط، كانوا الرجال الأكثر اقتداراً في لبنان، قادة الأجهزة الأمنية والمخابراتية العليا الذين كانوا حراساً أوفياء للهيمنة السورية على لبنان. أما وقد باتوا واهنون في زنزاناتهم الإفرادية تحت الأرض، فهم يملكون متَّسعاً من الوقت للتفكير بما ارتكبوه من أخطاء. وإن هم قُدِّموا للمحاكمة وأُدينوا، فقد يواجهون حكماً بالإعدام شنقاً أو رمياً بالرصاص.

وكان التحقيق في اغتيال الحريري يميل إلى تورّط أجهزة المخابرات اللبنانية والسورية، بمن فيهم الضباط الأمنيون المعتبَرون مقرَّبين من لحود. واستمرّ الرابط المثير للاهتمام بين اعتقال المسؤولين الأمنيين، واكتشاف مخزونات الأسلحة، ولحود، وحمدان، والنظام السوري، بتغذية الدعوات المطالبة باستقالة الرئيس.

ولكن لحود بدا مصمّماً على عدم المبالاة بانخفاض مستوى شعبيّته. وقد أغضب تحالف 14 آذار/مارس من خلال وصف مساعده الموقوف حمدان بالضابط العسكري "الأكثر صدقاً وولاءً وإخلاصاً". ومن ثمّ، تجاهل لحود نصيحة أصدقائه وأخصامه على حدٍّ سواء بألا يحضر الاجتماع السنوي للجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في أيلول/سبتمبر. وبدلاً من ذلك، غادر إلى نيويورك على رأس وفدٍ من 80 عضواً من بينهم أفراد العائلة وعددٌ كبير من ضباط الحرس الجمهوري. وفيما كان قادة العالم يكرّمون سعد الحريري في نيويورك، ويناقش فؤاد السنيورة الاستعدادات لمؤتمر المانحين الخاص بلبنان الذي حُدِّد موعد عقده مبدئيّاً في تشرين

الثاني/نوفمبر، بقي لحود مُحتجباً في فندقه من الدرجة الأولى ومجتنباً الاستقبالات الدبلوماسية بما فيها مأدبة طعام استضافها الرئيس بوش على شرف رؤساء الدول الزائرين.

واستمرّ النظام السوري بإنكار تورّطه باغتيال الحريري، مجادلاً أن الاغتيال كان قد ارتدّ على سوريا أكثر من أي شخصٍ آخر. وكانت اللجنة الدولية التابعة للأمم المتحدة قد طالبت بإجراء لقاءاتٍ مع حوالى 15 سورياً، بمن فيهم ضباط مخابرات عسكرية كانوا مسؤولين في السابق عن الأمن في لبنان، ولكن النظام السوري كان أقل من مستعدّ للتعاون مع التحقيق. وأصرّ على المحافظة على سيادته، مُعرباً عن شكّه بنزاهة لجنةٍ كان تشكيلها بالذات سببه ما تتمتّع به الولايات المتحدة وفرنسا من نفوذ في مجلس الأمن.

"ما تزال سوريا تتعاطى مع المسألة وكأنها المشبوهة"، كتبت سحر بعاصيري في النهار في أواخر آب/أغسطس. "ماذا يعني تكرار المسؤولين السوريين بأن اكتشاف الحقيقة هو لمصلحة سوريا، في حين أنها تتصرف في المقابل بطريقةٍ تؤذي مصالحها في الواقع؟ لماذا تُرجئ سوريا عمل اللجنة؟"

وفي 20 تشرين الأول/أكتوبر، أصدر مليس تقريره المرحلي الأول الذي استنتج "وجود دليلٍ يشير إلى تورّطٍ لبناني وسوري في العمل الإرهابي".

"نظراً لتسلّل أجهزة المخابرات السورية واللبنانية العاملة بشكلٍ ترادفي إلى المؤسسات اللبنانية، سيكون من الصعب تخيّل سيناريو تنفَّذ فيه مؤامرة اغتيال معقَّدة مماثلة دون معرفتها"، قال التقرير.

ولكنه أضاف أن التحقيق لم يكتمل، وأوصى بالاستمرار به "لبعض الوقت".

واستنتج الكاتب أن نسخةً غير معدَّلة من التقرير التي وصلت إلى الصحافيين حملت أسماء العديد من المسؤولين اللبنانيين والسوريين الكبار، وقد ادُّعي أنهم متورّطون في مؤامرة اغتيال الحريري. وكانوا ماهر الأسد، شقيق بشار الأصغر؛ آصف شوكت، صهر الرئيس ونائب رئيس المخابرات العسكرية في ذلك الوقت؛ حسن خليل، رئيس المخابرات العسكرية السورية آنذاك؛ بهجت سليمان، رئيس قسم الشؤون الداخلية في مديرية الأمن العام آنذاك؛ وجميل السيد (2) .

وانتقد التقرير قلّة تعاون سوريا مع لجنة الأمم المتحدة، قائلاً إنها وبالرغم من تعاونها "بدرجةٍ محدودة"، حاول بعض المسؤولين السوريين الذين أُجريت مقابلاتٌ معهم "تضليل التحقيق من خلال إعطاء إفاداتٍ

كاذبة أو غير دقيقة"، ومن بينهم فاروق الشرع.

وذهب التقرير إلى أبعد من مجرّد وضع مجلس الأمن في أجواء التقدّم الحاصل حتى ذلك الوقت. وبقيام مليس بإضافة ما يكفي من المعلومات المُدينة، وبصورةٍ حكيمة، للإشارة بشكلٍ واضح إلى سوريا - ممّا يوحي بأنه ما زال لديه كثيرٌ من المعلومات التي لم تُنشَر بعد - أمل كما يبدو في تزويد مجلس الأمن بمعلوماتٍ كافية لإصدار قرارٍ يُجبر دمشق على أن تكون أكثر تعاوناً. وإذا كان الأمر كذلك، فهو قد نجح. وطالب القرار 1636 الذي تبنّاه مجلس الأمن في 31 تشرين الأول/أكتوبر سوريا باعتقال أي مواطنٍ سوري اشتبهت اللجنة بتورّطه باغتيال الحريري، وحذّر من "تدابير إضافية" إذا استمرّت دمشق بالمماطلة، وهو تهديدٌ صريح بفرض عقوبات.

ولكن دمشق شجبت تقرير مليس كونه يفتقر إلى "المصداقية، والجدّية، والاحترافية" ولم تُبدِ إلا القليل من المِطواعية في مواجهة الضغوط المكثّفة، إضافةً إلى أنها أعلنت عن إنشاء لجنة تحقيقٍ خاصة بها في اغتيال الحريري عشية تبنّي القرار 1636. وفي خطابٍ له في جامعة دمشق في 10 تشرين الثاني/نوفمبر، كان بشار عدوانياً بتحدٍّ، متّهماً لبنان بأنه "طريقٌ، منتجٌ، وممّول... للمؤامرات [ضد سوريا]" وواصفاً فؤاد السنيورة بـ "عبد" أسياده الأميركيين. وفي خطابٍ عابقٍ بلغةٍ عربية قومية منمَّقة، هاجم بعنف تحالف 14 آذار/مارس، داعياً إياهم "متّجرين بالدم أنشأوا بورصة بواسطة دماء الحريري؛ وهذه البورصة تعود بالمال والمناصب".

وإن ضراوة تعليقات بشار حول لبنان حثّت جبران التويني على التعبير عن رأيه بأنها مرادفة لـ "إعلان الحرب على لبنان". وبالطبع، فقد كانت مثالاً واضحاً على عمق انعدام الثقة والكراهية بين بيروت ودمشق، والميراث المسموم نتيجةً للهيمنة الطويلة والمُذلّة لسوريا على جارها. وكانت قد أخفقت محاولات التقريب بين الجانبَين حتى قبل تشكيل فؤاد السنيورة حكومته. ولم تؤدِّ النقاشات المؤقَّتة لترسيم الحدود بين لبنان وسوريا إلى أي نتيجة. ولم تلتزم سوريا باتفاقٍ يقضي بتزويد المحطات اللبنانية المولّدة للكهرباء بالغاز الطبيعي. حتى إن العضوِ الإضافي الجديد عن حزب الله في الحكومة، وهو محمد فنيش، وزير الطاقة، كان عاجزاً عن إقناع دمشق باحترام الاتفاق، عِلماً أن حزبه بقي مؤيّداً لسوريا.

وفي تموز/يوليو، أغلقت سوريا حدودها أمام الشاحنات القادمة من لبنان والتي تحمل سِلَعاً، ممّا أدّى إلى حبلٍ من مئات الشاحنات المتوقفة

بشكلٍ متراص على امتداد 10 كيلومترات من الطريق العام الذي يمتدّ متلوّياً عبر الجبال بين مركزي الحدود اللبنانية والسورية. وقالت سوريا إن التواني الحاصل والذي كان يكلّف لبنان خسائر تبلغ حوالى 300,000 دولار يومياً، هو بسبب عمليات تفتيشٍ متزايدة لمنع تهريب الأسلحة والمتفجّرات إلى سوريا، وهو جزءٌ من إجراءاتٍ أمنية صارمة على مستوى الوطن ككل. ولكن معظم اللبنانيين اعتبروا أن السوريين يتصرّفون بهذه الطريقة بدافع الحقد.

ومن جهةٍ ثانية، فإن الأكثر مدعاةً للتنبّه إلى خطرٍ مُحدِق هي التقارير الصادرة ابتداءً من أيلول/سبتمبر حول أسلحةٍ يتمّ تهريبها إلى لبنان عبر طرقٍ جبلية نائية على امتداد الحدود مع سوريا من خلال مقاتلين فلسطينيين موالين لسوريا ينتمون إلى منظمة فتح الانتفاضة. وأثارت التقارير احتجاجاتٍ عنيفة ودعواتٍ متجدّدة لإقفال المواقع العسكرية الفلسطينية الصغيرة شرقي البقاع، إضافةً إلى توجيه تحذيراتٍ دولية لسوريا للكف عن زعزعة استقرار لبنان. ولكن إذا كان يتمّ تهريب أسلحةٍ إلى لبنان، فليس من خلال مقاتلي فتح الانتفاضة المتمرّسين وبملابسهم المرقَّطة باللون الرمادي.

وكانت مواقع فتح الانتفاضة القليلة والمعزولة في أماكن نائية ومتناثرة في الوديان على امتداد الحدود أشبه بمنازل معزولة للمتقاعدين يشغلها مقاتلو الثورة الفلسطينية القدماء. ومرتدين ملابس بلون زيت الزيتون أو بذلاتٍ مموَّهة للتمرين مع ستراتٍ صوفية وصنادل، كانوا يقضون أيامهم مستغرقين في ذكريات الأمجاد السابقة، مدخّنين السجائر ومرتشفين أعداداً لا تُحصى ولا تُعَدّ من أكواب الشاي الساخن الحلو المذاق.

وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة المتّهم الأكثر احتماليةً بارتكاب الجرائم، وهي مجموعة أكثر ضراوةً وأفضل تسلّحاً من فتح الانتفاضة، وقد ثبتت في مواقعها عندما أحاط الجيش اللبناني بها في تشرين الأول/أكتوبر. وعند مدخل قاعدةٍ لها في وادٍ قليل العمق بالقرب من قرية السلطان يعقوب، تحصّن جنودٌ لبنانيون يرتدون ستراتٍ سميكة مموَّهة وقبّعاتٍ صوفية تقيهم الهواء البارد عند نقطة تفتيش، متنقّلين وراء ناقلات جندٍ مصفّحة. وتمتدّ طريقٌ ترابية متلوّية عبر قعر الوادي وصولاً إلى القاعدة الفلسطينية المؤلَّفة من حُفَرٍ مموَّهة وشبكةٍ من الأنفاق الضيّقة الغائرة في جوانب الوادي. وبقرب بوّابةٍ دوّارة تؤدّي إلى داخل القاعدة، كان الفلسطينيون قد أعدّوا جهازاً تفجيرياً مصنوعاً من هيكل دبابةٍ طُمر نصفه تقريباً في التراب، وموصولاً بسلكٍ أسود يمتدّ بشكلٍ متعرّج على امتداد

الدرب صعوداً إلى داخل سفح التلّة الصخري.

"ابتعد، هذه المنطقة محظَّرة"، صرخ مقاتلٌ فلسطيني وقد خرج من وراء صخرةٍ فوق الدرب، ملوّحاً ببندقيّته فوق رأسه.

بعد الهجوم التفجيري على مي شدياق في أواخر أيلول/سبتمبر، كان هناك خمودٌ مؤقَّت للعنف، وبدا للوهلة الأولى أن عمليات القتل البارعة على نحوٍ تهديدي قد انتهت. ولكن ذلك التوهّم تبدّد في صباح أحد أيام كانون الأول/ديسمبر المشمسة على مجازٍ ضيّق في سفح وادٍ شاهق فوق مجرى نهر بيروت الجاف. عندها، لم يكن يملك جبران تويني فرصةً للنجاة بما أن الاغتيال كان الأكثر احترافيةً منذ مقتل الحريري قبل عشرة أشهر. فقد انفجرت عبوةٌ ناسفة قُدِّرت زنتها بـ 40 كيلوغراماً، ومخبّأة في سيارة رينو رابيد، بسيارة تويني المصفّحة ذات الدفع الرُباعي قاذفةً الحطام المشتعل إلى الأسفل على بُعد 100 متر في اتجاه الوادي. وأشعل الانفجار النار في العشب وحطّم زجاج النوافذ على بُعد مئات الأمتار في ممتلكاتٍ صناعية قريبة، مُلحقةً إصاباتٍ خفيفة بعشرة أشخاص على الأقل. وقُتل شخصان آخران مع التويني، أحدهما سائقه.

وكانت براعة الاغتيال مثيرةً للاشمئزاز. وكان تويني قد عاد إلى لبنان في الليلة السابقة من باريس حيث كان يقضي معظم وقته، على غرار العديد من منتقدي سوريا اللبنانيين، وذلك بسبب تهديداتٍ بالقتل. ولا بدّ أن قاتليه كانوا يتقفّون أثره منذ أن وطأت قدماه أرض مطار بيروت مساء الأحد، وتبعوه إلى منزله في القرية الجبلية بيت مري القائمة على تلّةٍ مُشرفةٍ على بيروت. وسجّلت كاميرا أمنية مشاهد عن سيارة الرينو التي تحمل المتفجّرة وهي تعبر الطريق نزولاً قبل قليلٍ من الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، وتتوقّف بجانب سيارة بي إم دبليو. وخرج رجلان من السيارة واستقلاّ الـ بي إم دبليو وانطلقا بسرعةٍ قصوى. وكان السكان المحليون يستخدمون الطريق المختصَر لتفادي حركة السير في ساعات الذُروة على الطريق الرئيسية القريبة المؤدّية إلى داخل النصف الشرقي من المدينة. ولا بد أن القاتلين قد علموا أن تويني يستخدم بانتظام الطريق المختصر. وقد اختير هذا الموقع بعناية. وكان بإمكان المفجِّر رؤية الطريق بصورةٍ واضحة من الجانب الآخر من الوادي الضيّق إضافةً إلى سيارة التويني وهي تقترب، وذلك بعد دقيقتَين فقط من توقف السيارة المفخَّخة، ضاغطاً على جهاز التحكّم من بُعد في لحظة تراصف السيارتَين، وبشكلٍ دقيق. ووجَّهت العبوة الناسفة الانفجار في اتجاهٍ واحد، وكانت مُعَدّة لإصابة جوانب

السيارات المصفّحة. وتلقّى تويني الجالس في مقعد الركاب قوة الصَدم التي أحدثها الانفجار وتحوّل أشلاء.

لا ’ وقال بيروت، إلى عودتي حول تويني مع حديث لي "كان
كان الذي الحريري سعد يقول ،" ‘ بالموضوع التفكير حتى عليك يجب
كان" .تموز/يوليو منذ وباريس السعودية العربية المملكة في جدّة بين يتنقّل
. (3) "حدث ماذا وانظر .يعود ألا على مُصرّاً وكنت ،أعود ألا على مُصرّاً

وكان تويني العنيد وغير المساوِم قد عاد إلى بيروت بأي حال، مُخبراً أحد أصدقائه أثناء الرحلة من باريس بأنه يشعر بالتشجيع بسبب فترة الهدوء. فقد خدعه التوقف المؤقَّت للهجمات التفجيرية في لبنان وحمله على الشعور خطأً بالثقة والأمان.

وبعد يومَين من اغتياله، توجّه عشرات الآلاف من المشيّعين إلى وسط بيروت وأقاموا الصلوات بقرب مبنى النهار الزجاجي، مالئين الشوارع المرصوفة خارج كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس حيث أُقيمت جنازة تويني. وفي مبنى البرلمان المقابل للكاتدرائية، عُقدت جلسةٌ خاصة قبل مراسم الدفن إجلالاً وتقديراً لزميلهم المغدور. وزُيِّن مقعد تويني الشاغر بالعلم اللبناني ووُضعت وردةٌ حمراء على مكتبه. وغطّت صورةٌ كبيرة لتويني يضع حول عنقه وشاح انتفاضة الاستقلال باللونَين الأحمر والأبيض خمسة طوابق من مبنى النهار ، ويده مرفوعةٌ محيية. وبدت أمسية وداع تويني في الكاتدرائية التي تعود للثلاثينيات مُشعّةً وقد احتشد المشيّعون أمام هذا المعبد الذي كان مخصَّصاً لآلهة الوثن في ما مضى.

وتبع غسان التويني النحيل والكئيب النعش الملفوف بالعلم اللبناني فيما كان المشيّعون يعبرون بأعدادهم الكبيرة وسط بيروت في اتجاه مقبرة الروم الأرثوذكس في الأشرفية. وتويني هو ناشر النهار وسفيرٌ سابق إلى الأمم المتحدة، وكان قد ساعد سفينة المعونة الإنسانية التابعة للحريري على الإبحار تحت راية الأمم المتحدة إلى مدينة صيدا القابعة آنذاك في ظل الاحتلال الإسرائيلي منذ سنواتٍ عدة. ولم تكن المآسي العائلية غريبةً عن تويني الأب الذي دفن زوجته الأولى وابنته الوحيدة وابنَيه ولمّا يبلغ بعد عامه الثمانين. وورث الوالد منصب ابنه في النهار ، إضافةً إلى دوره السياسي بعد أسابيع وقد انتُخب بالتزكية نائباً عن منطقة الأشرفية في بيروت.

وكان سعد الحريري يعلم أيضاً مستلزمات الوراثة السياسية. فقد كان رئيس التكتّل السياسي الأكبر في البرلمان اللبناني، وحركة تيار المستقبل،

وكان يعتبره العديدون رئيس وزراءٍ منتظَر فيما يشغل فؤاد السنيورة الكفؤ هذا المنصب حتى نهاية ولاية إميل لحود، خصم والده، أو طرده من قصر بعبدا. ولكن سعد كان زعيماً سياسياً يعيش في منفى فرضه على نفسه، مفصولاً بشكلٍ قاهر عن ناخبيه بسبب القتَلة المتربّصين له في لبنان.

"سبب عدم ذهابي إلى لبنان ليس لأنني مروَّع"، يقول بصوته الهادئ والمتردّد قليلاً، "بل كي لا أقدّم لهم هدية متعة قتلي لأننا لم نُكمل بعد ما أردنا إنجازه" (4) .

وكان سعد مُرتدياً ملابس غير رسمية ومسترخياً في كرسيٍّ بذراعَين وسط غنى اللون الأرجواني وأبّهة اللون الذهبي للجناح الملَكي في الطابق الخامس للبلازا أثيني، وهو أحد فنادق باريس الأكثر رفاهية. وكان مُحاطاً ببعض مستشاري وموظّفي والده المقرَّبين، وكان الجناح قد تحوّل إلى نسخةٍ مصغَّرة عن قريطم ما وراء البحار.

وكان قد وصل قبل يومَين لإجراء محادثاتٍ مع الرئيس شيراك في ظل محاولةٍ للمملكة العربية السعودية ومصر للترويج لوثيقةٍ سورية تقضي بالتخفيف من حدة التوتر بين بيروت ودمشق في مقابل تخفيف الضغط الغربي على سوريا.

وأظهرت الحكومة اللبنانية حماسةً قليلة حيال المبادرة التي قالت عنها وسائل الإعلام إنها صيغت بلغةٍ مُثيرة للغضب، وتقضي بتأسيس لجنةٍ لإشعار السلطات اللبنانية والسورية مُسبَقاً بالخروقات الأمنية المحتمَلة. ووصف وليد جنبلاط الخطة بـ "المحاولة الشرَك لعودة النظام السوري إلى لبنان" في حين قال السنيورة إنه " يُفترَض بالأولوية أن تكون تعاون سوريا مع التحقيق الذي تُجريه الأمم المتحدة".

وتوقّع اللبنانيون أكثر من مجرّد دعمٍ متملّق من دولتَين عربيّتَين قويّتَين عندما يتعلّق الأمر بالصعوبات التي يواجهها لبنان مع سوريا. والمملكة العربية السعودية ومصر متمسّكتان بعقيدة عدم المواجهة وتنظران إلى الأزمة من زاوية مصالحهما الخاصة. فإذا خضع النظام البعثي في سوريا للضغط، قد يؤدّي هذا الأمر إلى إحياء الفرع السوري للإخوان المسلمين المقموعين منذ مدةٍ طويلة، وهو احتمالٌ لا يرحّب به الرئيس المصري حسني مبارك سيّما وأن النفوذ المتنامي للإخوان المسلمين في مصر حقّق نجاحاً كبيراً في الانتخابات البرلمانية في تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر. وعلاوةً على ذلك، فإن فشل التجربة السورية مع "الجمهورية الموروثة" قد تحكم بالإخفاق على طموح مبارك بتسليم الرئاسة لابنه جمال.

وبصورةٍ مماثلة، كانت المملكة العربية السعودية قلقة من أن انهيار بشار قد يُنذر باضطرابٍ وفقاً للنموذج العراقي، ممّا يؤدّي إلى زعزعة الاستقرار أكثر فأكثر في الشرق الأوسط، وربما تعزيز الإسلام المقاتل الذي تعتمده القاعدة التي كانت قد أقسمت على الإطاحة بالملَكية السعودية.

ونتيجةً لذلك، أذكت المبادرة السعودية - المصرية شعوراً متنامياً بالقلق لدى العديد من اللبنانيين الذين اشتبهوا بأنه قد يتمّ التضحية بمصالحهم كجزءٍ من صفقةٍ أوسع يُعدّها المجتمع الدولي لضمان استقرار المنطقة. وكانت زيارة سعد إلى باريس تهدف إلى الحصول على إعادة طمأنةٍ من شيراك بعدم وجود صفقةٍ تكون على حساب التحقيق الذي تُجريه الأمم المتحدة حول مقتل والده. وحصل على إعادة الطمأنة تلك من شيراك، وأكّدت عليها كوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأميركية التي أصرّت على أن واشنطن ترفض "أي صفقات أو تسويات من شأنها تقويض مهمة لجنة التحقيق الدولية المستقلّة أو إعفاء سوريا من التزاماتها".

"ممارسة السياسة هي حياةٌ صعبة جداً"، يقول سعد بعد يومٍ من لقاء شيراك. "أجتاز مرحلة تعلّم، دورة سريعة بالسياسة في لبنان. كان من الصعب مواصلة المسيرة بعد والدي. حاولت التفكير بما كان قد قام به. أفكّر بالأمر وكأنه إعادة لمباراة في الملاكمة. تعرف النتائج ولكن عليك المرور بالجولات الاثنتي عشرة. عليك المرور ببعض اللكمات العنيفة وكسر بعض عظامك ربما، ولكنك تحصل على الحزام في نهاية المطاف".

ولم يكن ينوي الحريري أبداً حمل أولاده على خوض غمار العمل السياسي مثله، مزدرياً استئثار حفنةٍ من العائلات الحاكمة بالعمل السياسي في لبنان. ومن جهةٍ ثانية، فإن هول اغتيال الحريري وحجم الأسى الشعبي حمل العائلة على تعيين خلف. وكان سعد الخيار الوحيد المؤهَّل بعد شقيقه الأكبر بهاء الذي قرّر خوض غمار الأعمال. ولكن في كانون الثاني/يناير 2006، بدا أنه ميراثٌ يُلقي بثقله على كاهل الشاب.

"كنت رجل أعمال"، يقول سعد وركبتاه تهتزان صعوداً ونزولاً بعصبية أثناء تكلّمه. "كنت أملك الحرّية المطلَقة. كان بإمكاني السفر إلى حيث أشاء، والقيام بما أريد، والسير بمفردي. أما الآن فيتعيّن عليَّ توفير الحماية لنفسي، والعيش حيث أكون خائفاً على عائلتي وسلامتها. كان ابني حسام يشاهد التلفزيون ورأى مشهداً عن حدوث انفجارٍ في لبنان، فركض إلى والدته وقال "أين بابا؟" فقالت، "إنه في باريس". وقال حسام "أشكر الله على أنه ليس في لبنان". وهو في السادسة من عمره فقط".

وكان شتاءً مُثبِطاً للعزيمة بالنسبة إلى الحكومة اللبنانية وتحالف 14 آذار/مارس. فبعد صدور التقرير الأول للجنة التحقيق الدولية التابعة للأمم المتحدة في تشرين الأول/أكتوبر حول مقتل الحريري وتبنّي القرار 1636، بدأت سوريا بالمعركة المقابلة. وفازت بحملة دعائية قيّمة في تشرين الثاني/نوفمبر عندما تراجع هسام هسام، وهو شاهدٌ أساسي في التقرير الأول للجنة التحقيق الدولية، علانيةً عن شهادته التي أدلى بها للمحققين، قائلاً إن سعد الحريري وقادة آخرين في تحالف 14 آذار/مارس أكرهوه على الإدلاء بها. وجاء تراجعه بعد أيامٍ من زعم شاهدٍ آخر، هو زهير ابن محمد سعيد الصدّيق، بأن رفعت الأسد، عمّ بشار الذي ما زال يسعى لتولّي منصب الرئاسة، دفع له لقاء الإدلاء بشهادته (5) .

ومارست سوريا أيضاً سياسة حافة الهاوية مع اللجنة الدولية في تشرين الثاني/نوفمبر، مُعيقةً طلباً للّجنة بإجراء مقابلةٍ مع ستة مسؤولين سوريين في بيروت، من بينهم آصف شوكت، رئيس المخابرات العسكرية السورية، وبالتمكّن من الاطّلاع على سجلات المخابرات المتعلّقة بلبنان. وأُخبرت اللجنة بأن كافة وثائق المخابرات العسكرية المرتبطة بلبنان كانت قد أُحرقت. وتنازل مليس عن مطلبه في النهاية، ووافق على مطالب سوريا بإجراء المقابلات في فيينا، وهو مكانٌ محايد، ضامناً عودة المسؤولين السوريين إلى دمشق بعد ذلك. وفي النهاية، لم يسافر إلى فيينا سوى خمسة سوريين، وبقي شوكت في دمشق.

وأوضح مليس في تقريره المرحلي الثاني وفي إفادته أمام مجلس الأمن في 12 كانون الأول/ديسمبر أن سوريا ما تزال تراوغ. ولكن مجلس الأمن تجنّب فرض عقوبات، وأصدر بدلاًَ من ذلك قراراً فاتراً مدّد بموجبه ستة أشهرٍ للّجنة و"أخذ عِلماً" فحسب بمطلب لبنان إضافة عمليات قتل أخرى إلى التحقيق وإنشاء محكمة دولية.

وكان السوريون قد فازوا بفترةٍ لالتقاط الأنفاس بمساعدة الدول المتعاطفة معهم في مجلس الأمن الدولي، وهي روسيا والصين والجزائر. وواجه أعضاء مجلس الأمن الذين أرادوا ممارسة مزيدٍ من الضغط على سوريا مأزقاً يتمثّل بأن العقوبات سيفٌ ذو حدَّين. ففرض العقوبات الذي يؤدّي إلى مزيدٍ من الضغط على دمشق يضع حدّاً أيضاً للتعاون السوري مع لجنة التحقيق الدولية، ممّا يوقف التحقيق ويحدّ أكثر فأكثر من قدرة لبنان على التخلّص من آثار السلام السوري.

وبالنسبة إلى وليد جنبلاط، قد يعني ذلك إفراجاً غير وشيك عن

سجنه الذي فرضه على نفسه في مأواه الجبلي في الشوف. ووجد الزعيم الدرزي المحنَّك نفسه عالقاً في مبارزة حتى الموت مع النظام السوري، وتتوقّف فرصته الوحيدة للنجاة على سقوط أعدائه في دمشق. ولكن الأرجحية لم تكن لصالحه. فقبل أيامٍ من قيام الكاتب بلقاء جنبلاط في أواسط كانون الأول/ديسمبر، كانت قد اكتُشفت رزمة من القنابل اليدوية الصاروخية على جانب طريقٍ بالقرب من قصره في المختارة. ولم تكن الصواريخ معَدَّة للانفجار، ولكن الأمر فُسِّر على أنه تهديدٌ بالقتل (6) .

"لا يمكنني عمل شيء. يمكنني الانتظار. يمكنني الاعتماد على القدر. هذا كل شيء"، يقول جنبلاط ببسمةٍ حزينة، وجسمه النحيف والقوي منحنٍ إلى الأمام، وساقاه النحيفتان متصالبتان على مسندٍ للقدمَين في حجرة انتظارٍ صغيرة (7) . "لا يوجد طريقة للحماية من نظامٍ إرهابي يملك وسائل تقنية متقدّمة للقتل".

ومنزل جنبلاط شاهدٌ على ماضي عائلته العنيف. ففي مكتبه، تنحني بندقيةٌ بمزلاج قديمة الطراز معلّقة على جدارٍ في مقابل بندقيةٍ هجومية حديثة. وعلى مكتبه، هناك أربعة مسدسات آلية متماثلة بجانب حاسوبٍ محمول، وكلها في متناول اليد. وعلى أحد جدران غرفة استقبالٍ صغيرة، هناك صورةٌ فوتوغرافية لوالده كمال جنبلاط، ربطة عنقه مَرخية والزرّ الأعلى مفكوك ويبدو إلى حدٍّ ما كجورج أورويل المُضنى. وتحيط بصورته صورتان فوتوغرافيّتان لحارسَين شخصيَّين قُتلا معه عام 1977. وبالقرب منها صورةٌ ضبابية لجدّ وليد جنبلاط ملتقطاً بندقيّته وجالساً منفرج الساقَين على حصان، وهي الصورة النموذجية لمقاتلٍ درزي تقليدي وزعيمٍ فخور. وتفشل أشعة الشمس المتدفّقة عبر النوافذ الصغيرة في تبديد القشعريرة في غرفة ذكريات الموت هذه.

في جنبلاط عائلة من فردٌ يموت لا ’ دائماً القول والدي "اعتاد
سريره أبداً ‘ "، يقول، مكرّراً قولاً مأثوراً مفضَّلاً لديه.

وكانت هناك سخرية القدر الأكيدة والواضحة بالنسبة إلى جنبلاط. وكان قد اكتسب سمعة أحد أكبر المحافظين على مواقعهم في لبنان، مبدّلاً ولاءاته غرائزياً وبلا خجل ليستبق رصاصة القاتل أو لكي لا يبقى في الخط السياسي الخاسر. ولكن عدائيّته الصريحة للنظام السوري التي كانت قد ازدادت باطّراد منذ محاولة اغتيال صديقه مروان حمادة حرمته من أي وسيلة للهرب. وكان قد اعتاد دعوة بشار تكراراً بـ "الطاغية الإرهابي"، وانقلب على حزب الله، حليفه السابق في الانتخابات البرلمانية في الربيع

الماضي. وبعد أن كان يدافع عن حق حزب الله بالاحتفاظ بأسلحته، أصبح الآن يطالب بنزع أسلحة الحزب حتى إنه اقترح في شباط/فبراير أن الحزب قد يكون يخطط لقتله.

وفي كانون الثاني/يناير، قطع جنبلاط ربما "الخط الأحمر" النهائي مع السوريين. فلدى سؤاله في مقابلة مع واشنطن بوست عمّا يمكن لأميركا القيام به لأجل لبنان، أجاب "أتيتم إلى العراق باسم حكم الغالبية. يمكنكم القيام بالشيء نفسه في سوريا". لقد هزأ جنبلاط بمحرَّمات تبديل النظام في دمشق وبوضع الأقلية العلوية في سوريا. فلا عجب من أنه قليلاً ما يغادر المختارة الآمنة.

"هذا التوتر [مع سوريا] سيستمر"، يقول بحَسرة. "هدفهم تغيير الغالبية [البرلمانية] سواءٌ باغتيال مزيدٍ من النواب أو بإجراء انتخاباتٍ جديدة يكون لهم فيها الغالبية التي تمكّنهم مجدَّداً من منع لبنان من أن تكون له الكلمة الأخيرة بصفته بلداً مستقلاً".

وقرأ جنبلاط المخاضات التي يمرّ بها لبنان في إطار سياقٍ أوسع لتبديل الديناميات (القوى المحرِّكة) الإقليمية حيث حزب الله الشيعي هو "طليعة" النظام السوري وجزءٌ من المحور الممتدّ من "سواحل المتوسط" إلى طهران، العاصمة الإيرانية.

"نحن مُحاطون ببُعدٍ جديد في الشرق الأوسط. المحيط الإقليمي ليس لصالح لبنان"، يقول بكآبة.

فهل كان كل شيء للاشيء؟ انتفاضة الاستقلال، إخراج القوات السورية، إسقاط الغالبية الموالية لسوريا في البرلمان؟

ويتوقّف جنبلاط عن الكلام لثوانٍ عديدة ومن ثمّ يقول بتعبيرٍ كئيب لم ألحظه من قَبل.

"لا، كان علينا القيام بذلك. كنا مقتنعين بأنه علينا القيام بذلك. ظننّا أننا قادرون على تحقيق حالةٍ ما من الاستقرار، أو بعض الإرادة الحرّة، ولكننا الآن خائفون من أن السوريين قد يعودون. لم يغادروا أبداً إذ إن مآثرهم الإجرامية مستمرة. إذا أحدثوا حالةً من الفوضى، سيقولون نحن .أنفسهم حكم على قادرين غير اللبنانيون ،انظروا ' العالم لبقية ." ' الاستقرار ضمان يمكنه الذي الوحيد الشعب

"هل قرأت كتاب برنارد لويس عن الإسماعيليين؟" يسأل.

وكان جنبلاط يشير إلى تاريخ المذهب الإسماعيلي في الإسلام الشيعي الذي وضعه لويس، واكتسب هذا المذهب في ظل قيادة رشيد

الدين، "رجل الجبل القديم"، سمعةً سيّئة في القرن الثاني عشر كقتلَة أسطوريين. فالقتلَة الذين أدخلوا فن الاغتيال السياسي إلى العالم وخشيهم الصليبيون والمسلمون على حدٍّ سواء، كانوا يعيشون في سلسلة الجبال نفسها في سوريا التي يقطنها العلويون، حكام سوريا في العصر الحديث.

"لدينا القصة نفسها اليوم"، علّق جنبلاط بأسلوبٍ جاف. "التاريخ يُعيد نفسه".

تمرّ الطريق الضيّقة المليئة بالحُفر، والممتدة شرقاً من قرية النبي شيت البقاعية، بقمّةٍ شديدة الانحدار تؤدّي إلى وادٍ ضيّقٍ مُحاطٍ بقممٍ كلسية مثلَّمة. وفي أواخر الربيع، يكون المكان جميلاً بشكلٍ مؤثّر. ويتدفّق نهرٌ ضحِل على امتداد قعر الوادي، وتتوهّج مياهه الزّبدة تحت أشعة الشمس بين أشجار الحَور المتمايلة وأشجار الجوز التي تمتد على جانبَيه. ويعبر الطريق جسراً صغيراً في جَنطا ويمتدّ مسافة كيلومترٍ آخر معانقاً النهر قبل التلاشي في خرائب محطة سكة الحديد العثمانية القديمة في يحفوفا، وهي قرية صغيرة مؤلَّفة من منازل حجرية صغيرة مجمّعة كالعناقيد على منحدر التل. وما يزال بالإمكان تبيان آثار طريق السكّة الحديدية مارّةً بالقرب من المحطة لتختفي نزولاً في ممرٍّ ضيّقٍ تحجبه الأشجار عن النظر وصولاً إلى الحدود مع سوريا على بُعد كيلومترَين.

وبالرغم من بيئته الريفية البسيطة، فالوادي هو في الواقع منطقة عسكرية يسيطر عليها حزب الله. ففي هذه الجبال المليئة بالصخور والأجراف المنحدِرة، وفي قريتَي النّبي شيت وجَنطا القائمتَين على تلالٍ ترابية، انبثقت المنظمة للمرة الأولى في صيف العام 1982، منتشرةً في البقاع، ومجنّدةً ومدرّبةً فيالق من مقاتلي المقاومة لمواجهة الجنود الإسرائيليين في ميادين القتال في جنوب لبنان.

"نحن موجودون فوق كل هذه التلال. ولو كنت قد قدِمت إلى هنا في الظلام لكان قد أوقفك مقاتلون مسلَّحون"، يقول عنصرٌ شاب من حزب الله جالسٌ في ظل منزله الصغير القائم في أعلى التلّة من النهر. ومفتقراً بشكلٍ غير عادي إلى التكتّم الذي يمتاز به حزب الله عادةً، أقرّ أن التدريب مستمرٌّ في التلال المُحيطة، عِلماً أن وتيرته انخفضت منذ انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان عام 2000.

"انخفض مستوى التدريب إلى النصف مقارنةً مع ما كانت عليه الحال"، يقول، ساكباً الشاي في أكوابٍ زجاجية صغيرة، ومقدّماً الجوز في طاسة. "ما يزال المجنَّدون الجدد يتدرّبون ويتلقّى المقاتلون الأقدم دوراتٍ

تذكيرية لإبقائهم في حالة الجهوزية".

وما لم يناقشه هي الشائعات حول ترسانة الصواريخ التي يملكها حزب الله، وقد ادّعت إسرائيل عام 2005 أن عددها بلغ 13,000 ومعظمها طويل المدى من أنواعٍ مختلفة قادرة على ضرب أهدافٍ في عمق إسرائيل (8) . ويميل حزب الله تقليدياً إلى عدم مناقشة التفاصيل المتعلّقة بمخزونه من الأسلحة أو بتكتيكاته العسكرية، مفضّلاً ترك هذا الأمر لعدوّه الإسرائيلي ليحزر (9) . وإذا صُدّقت الشائعات، فمن المحتمَل إذاً أن تكون مخبَّأةً في هذه الجبال الصخرية النائية في كهوفٍ طبيعية أو في مستودعاتٍ تحت الأرض محصَّنة مشيَّدة خصّيصاً لها.

والمؤيّدون اللبنانيون لنزع سلاح حزب الله قلقون بصفةٍ خاصة من التواجد المستمر للمقاومة الإسلامية نفسها - وهي قوة عسكرية منظَّمة ومجهَّزة ومنضبطة بشكلٍ جيّد وتملك خبرةً قتالية عالية - لا من ترسانة صواريخ الحزب البعيدة المدى. ويعتبر اللبنانيون غير الشيعة أن حزب الله المضفى عليه الطابع الحربي يمنح الشيعة قوةً غير عادلة في ظل التهديد الضمني بحدوث أعمال عنف في إطار الصراع على النفوذ السياسي. وفي السياق السياسي المحلّي، لا علاقة للصواريخ البعيدة المدى بالموضوع. ومن جهةٍ ثانية، تُدرك إسرائيل والولايات المتحدة أن الصواريخ هي مصدر قوة استراتيجي لحزب الله كونها قادرةً على إلحاق ضررٍ جدّي بإسرائيل. وبرأي بعض المحلّلين العسكريين الأميركيين والإسرائيليين، يمكن لإسرائيل التعايش بانتظار السلام في الشرق الأوسط مع وجودٍ مسلَّح لحزب الله على امتداد الحدود الشمالية وحتى مع استهداف دوري للمواقع العسكرية الإسرائيلية بقصفٍ مدفعي في مزارع شبعا، وذلك شريطة قيام حزب الله بتسليم صواريخه للجيش اللبناني أو لطرفٍ ثالثٍ حياديّ.

ومنذ بداية الحملة على مزارع شبعا في تشرين الأول/أكتوبر 2000 وخطف ثلاثة جنودٍ إسرائيليين، طوّر حزب الله استراتيجيةً معقَّدة، متعدّدة الأبعاد، ومُعَدَّة بشكلٍ جيّد لشنّ عملياتٍ ضد القوات الإسرائيلية على امتداد الخط الأزرق. ويصلح الخط الأزرق كموقعٍ لقيام حزب الله بالرّد على العمليات التي تستهلّها إسرائيل، كاغتيال قادة المقاومة وانتهاك حرمة الأجواء والأراضي اللبنانية من قِبَل طائراتٍ إسرائيلية أو قواتٍ أرضية (10) . ويمكن لحزب الله التصرّف في ظل حصانةٍ نسبية لأن ترسانة الصواريخ الطويلة المدى تمنح المنظمة تكافؤاً استراتيجياً مع إسرائيل، "توازن رعبٍ" يَحدّ من حرّية إسرائيل التقليدية بالقيام بأعمالٍ ضد أعدائها في لبنان. وإذا لجأت

إسرائيل إلى شنّ غاراتٍ جوّية عقابية ضد البنية التحتية اللبنانية، كمحطات توليد الطاقة الكهربائية والجسور، رداً على هجماتٍ لحزب الله على مزارع شبعا، يردّ حزب الله بقصفٍ صاروخي يستهدف شمالي إسرائيل.

ومن جهةٍ ثانية، فإن الأهمية الرادعة لصواريخ حزب الله غير محدودة بديناميات النزاع الحدودي بين لبنان وإسرائيل. وتصلح الصواريخ أيضاً وبصورةٍ ضمنية، كجزءٍ من الردع الإيراني في مواجهة احتمال توجيه الولايات المتحدة وإسرائيل ضربةً إلى صناعتها النووية الناشئة، وهو توقعٌ ازدادت إمكانية تحقّقه منذ انتخاب محمود أحمدي نجاد التصادمي رئيساً لإيران في آب/أغسطس 2005، والذي كان خطابه السياسي المُلهِب وتهديداته ضد إسرائيل في أوائل العام 2006 قد وضعه في مسار التصادم مع الولايات المتحدة وأوروبا.

وعلى المخططين العسكريين الأميركيين والإسرائيليين الأخذ بعين الاعتبار إمكانية قيام حزب الله، ووفقاً لأوامر طهران، بإطلاق صواريخه على شمالي إسرائيل في حالة حدوث هجومٍ ضد المواقع النووية الإيرانية. ومع ذلك، وفيما يُراد بالصواريخ إبلاغ وجود ذلك التهديد، من غير المحدَّد ما إذا كانت ستُستخدَم على الفور ضد إسرائيل في ردّ فعلٍ آلي إذا ما هوجمت إيران. وستتعرّض مصالح حزب الله المحلّية لخطرٍ جدّي إذا نفّذ الأوامر الإيرانية بشكلٍ أعمى بمهاجمة إسرائيل. ويدعم شيعة لبنان دور حزب الله الذي أعلن نفسه كمدافعٍ عن السيادة اللبنانية في مواجهة العدوان الإسرائيلي، ولكن ذلك الدعم قد يتضاءل تدريجياً إذا جرّ حزب الله لبنان إلى حربٍ ضد إسرائيل لصالح الطموحات النووية لإيران. وحاول حزب الله طمأنة المشكّكين بأنه واعٍ لمسؤولياته كقوةٍ مسلَّحة. وفي 25 أيار/مايو 2005، وفي خطابٍ له في الذكرى الخامسة لانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، قال السيّد حسن نصر الله "لا نرغب بمهاجمة أحد ولن نسمح لأحدٍ بأن يهاجم لبنان... لا نريد جرّ المنطقة إلى حرب... نريد حماية بلدنا".

ويناضل حزب الله بثبات لإيجاد توازنٍ مع برامج عمل الصمود المثيرة للنزاع في غالب الأحيان من خلال طموحاته الإيديولوجية الأوسع، وذلك بأن يكون للشعوب العربية والإسلامية مثالاً لـ "المقاومة" في مواجهة إسرائيل، إضافةً إلى واجباته ومصالحه كلاعبٍ على المسرح السياسي الضيّق في لبنان. وكان قادراً على احتواء كلتا الرؤيتَين في التسعينيات عندما كان بإمكانه شنّ حملته المقاومة بحرّية، وتحت مظلّة السلام السوري، ضد الإسرائيليين في جنوب لبنان والحفاظ، في الوقت نفسه، على موطئ قدم في

البرلمان اللبناني وتعزيز حضوره السياسي. وكان قادراً على تحمّل التحدّي الذي يواجه الوجود المستمرّ للمقاومة الإسلامية بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان في أيار/مايو 2000 ممّا هدّد بتجريد الجناح العسكري للحزب من مبرّر وجوده. حتى إن الخطر الذي شكّله القرار 1559 بدّده حوار نصر الله مع الحريري، إلى حدٍّ ما، في الأشهر التي سبقت اغتيال الأخير.

ويعتبر حزب الله القرار 1559 محاولةً وقحة من قِبَل الولايات المتحدة للحدّ من قوة عدوٍّ متّقد ومرِن في مواجهة إسرائيل. وهي حجةٌ أكسبته بعض التعاطف. فقد كان القرار 1559 يهدف في الدرجة الأولى إلى تآكل السيطرة السورية على لبنان من خلال معارضة التمديد لولاية لحود الرئاسية والضغط على دمشق لسحب قواتها من لبنان. ولكن الولايات المتحدة بالغت بتضمين القرار فقراتٍ لا صلة لها بالموضوع تدعو إلى نشر الجيش اللبناني على امتداد الحدود الجنوبية للبنان مع إسرائيل، ونزع سلاح حزب الله والمجموعات الفلسطينية في لبنان. وفي الأساس، بدا أن حوار الحريري - نصر الله قد أوجد حلاًّ للنتائج المحتمَلة التي تُخلّ بالاستقرار والناجمة عن دعوة القرار 1559 إلى نزع سلاح حزب الله. وفهم الحريري أن إجبار حزب الله على نزع سلاحه سيكون له عواقب خطِرة على استقرار لبنان. وبدلاً من ذلك، قام باتّباع منحىً تدريجي تتلاشى خلاله، ومع الوقت، ذريعة حزب الله بالاحتفاظ بأسلحته بعد أن يصبح الحزب أكثر انخراطاً، وبعمق، بالإطار السياسي اللبناني. واتُّبع هذا الإجراء منذ العام 1992 عندما عكس حزب الله معارضته الأصلية للنظام السياسي الطائفي الذي يعتمده لبنان، ودخل البرلمان للمرة الأولى. ويرفض بعض المنتقدين اعتبار عملية "إضفاء الطابع اللبناني" على حزب الله سراباً أو ورقة تين للتنكّر لبرنامجه الإسلامي المقاتل المعادي لإسرائيل الذي لم يتمّ المساس به منذ الثمانينيات. ولكن هذا الانتقاد يُغفل النقطة الأساسية. فبالرغم من استمرار حزب الله بالالتزام، أقلّه على الورق، بدعاماته الإيديولوجية الرئيسية (تدمير إسرائيل، تحرير القدس، دولة إسلامية في لبنان)، فقد "أُضفي الطابع اللبناني" على الحزب لأنه بات يلعب دوراً سياسياً محلّيّاً هامّاً ويملك جمهوراً من الناخبين يستجيبون له. ولا يمكنه التغاضي عن هذا الجمهور إذا رغب في البقاء على صلةٍ بالميدان السياسي في لبنان. وقد تتّبع حركة المقاومة الإسلامية، حماس، نمطاً براغماتياً مماثلاً بعد تحقيق فوزٍ في الانتخابات التشريعية الفلسطينية في كانون الثاني/يناير 2006. وستكتشف

حماس أن لا مكان للمبدأ الإيديولوجي الصارم لدى مواجهة المسؤوليات اليومية الصعبة في إدارة شؤون الأراضي الفلسطينية.

وغالباً ما يُعتبر حزب الله عموداً حجرياً من قطعةٍ واحدة، وآلة حزبية منضبطة ومغذّاة بشكلٍ جيّد مع سلسلةٍ قيادية نادرة في انسجامها. ولكن وراء ذلك الإجماع الظاهري تكمن مناقشة متطوّرة باستمرار لتشكيلةٍ واسعة من الآراء. ويفهم بعض المنتسبين إلى حزب الله أن دور المقاومة الإسلامية محدَّد وهم أكثر انفتاحاً على مستقبلٍ سياسي مَحض للحزب. وأخبر أحد مسؤولي حزب الله الكاتب بأن هناك وسائل غير عنفية لإكمال الصراع المعادي لإسرائيل.

وفي كانون الأول/ديسمبر 2004، ألمح محمد رعد، عضو البرلمان اللبناني عن حزب الله، إلى أن الحزب قد يقايض المقاومة الإسلامية يوماً ما بنفوذٍ سياسي أكبر يفيد منه حزب الله لجهة التفوّق العددي للشيعة مقارنةً مع الطوائف الأخرى. وأخبر رعد الكاتب في مقابلةٍ معه أن غالبية السكان ستدعم استمرار المقاومة إذا أُجري استفتاءٌ في لبنان.

هل كان يدعو إلى استفتاءٍ مماثل؟

"لا، ولكن إذا قمتَ بذلك، سيكون عليك طرح أسئلةٍ أخرى أيضاً"، قال.

ما كانت تلك الأسئلة؟

"يُفترَض بك طرح سؤالٍ حول ما إذا كان يُفترَض بقاء الرئاسة حِكراً على الموارنة"، أجاب ببسمةٍ ماكرة.

وهذا يعني أن أولوية حزب الله المحافظة على المقاومة الإسلامية، القلب النابض للحزب، أطول وقتٍ ممكن، ومن غير المرجَّح قيامه بالمقايضة إلى أن يُطرَح أمامه خيارٌ آخر.

وفي النهاية، فإن عقد معاهدة سلام في الشرق الأوسط هو المفتاح الذي سيفتح الباب على نزع سلاح حزب الله. والسلام بين إسرائيل وجارَيها الشماليَّين، لبنان وسوريا، لن تفسح في المجال أمام حالةٍ قتالية مستمرة لحزب الله، وهو الوسيلة الأكثر أمناً وإرضاءً لنزع سلاح الحزب. وفي ذلك السياق، انتُقدت إدارة بوش بسبب تجاهل المسار الإسرائيلي - السوري لعملية السلام المحتضِرة. وفي كانون الأول/ديسمبر 2003 وفي مناسباتٍ عدة عام 2004، أعلن بشار أنه مستعدٌّ لاستئناف محادثات السلام مع إسرائيل دون شروطٍ مُسبَقة. وربما كان الرئيس السوري غير صادقٍ يبحث عن وسيلةٍ للهرب من الضغط الدولي المتعاظم، ولكن الولايات المتحدة تجنّبت

حثّ أرييل شارون على تلبية رغبة بشار بهدف استئناف المحادثات (11) .

وأدرك الحريري أن الحل النهائي لنزع سلاح حزب الله هو معاهدة سلام إقليمية. ونتيجةً لذلك، وخلال محادثاته مع نصر الله في الأشهر التي سبقت مقتله، توصّل الحريري إلى تسويةٍ يُسمح لحزب الله بموجبها بالاحتفاظ بأسلحته إلى أن يتمّ التوصّل إلى سلامٍ في الشرق الأوسط على أن يتصرّف الحزب الشيعي بحكمة دون أن يلجأ إلى أعمالٍ تعرّض المصلحة الوطنية إلى الخطر بشكلٍ جدّي. وألغى اغتيال الحريري ذلك التفاهم وأعاد إحياء الجهود الدولية والمحلية لنزع سلاح حزب الله. وهكذا، وفي أوائل العام 2006، أدّى ضغطٌ دولي لا يكلّ ولا يلين للإيفاء ببنود القرار 1559 المتعلّقة بنزع السلاح إلى تحفيز درجةٍ معيَّنة من الاستقطاب السياسي والطائفي لم يشهد له لبنان مثيل منذ الحرب التي قامت بين عامَي 1975 و1990، وغير مسبوقٍ كذلك على المستوى الإقليمي، والذي قد ساعد على تعزيز محورٍ معادٍ للغرب يضمّ إيران، وسوريا، وحزب الله، ومجموعاتٍ فلسطينية معادية لإسرائيل، وبعض العناصر الشيعية في العراق.

وفي الفترة التي تلت مقتل الحريري، وفيما كان لبنان يشهد اضطراباً كبيراً وتتعرّض سوريا لضغطٍ هائل لإتمام عملية الانسحاب، كان حزب الله يخطو بحذَر مقيّماً في الوقت نفسه مدّخرات الحزب المستقبلية. فاختار لاعبين سياسيين آخرين زملاء جدداً له واسترضاهم خلال فترة الاستعداد للانتخابات البرلمانية، عاقداً حلفاً تكتيكياً مع تحالف 14 آذار/مارس، وحلفاً استراتيجياً مع خصمه السابق، حركة أمل، لإبقائهم حلفاء له ومدافعين عن المقاومة، وذلك بدلاً من جعلهم أخصاماً له في صناديق الاقتراع. وحوّل تحالف حزب الله - أمل الجدال القائم حول نزع السلاح من كونه مستهدِفاً لحزب الله إلى جدالٍ يستهدف المجتمع الشيعي ككلّ. وقوّى التحالف موقع حزب الله ولكن على حساب تفاقم مناخٍ طائفي يشهد توتّراً متزايداً.

وكانت مشاركة حزب الله في حكومة فؤاد السنيورة أيضاً فرصةً للدفاع عن جناحه المسلَّح أمام مؤيّدي القرار 1559، ومقاومة النفوذ المتنامي للغرب في الشؤون اللبنانية التي كان يعتبرها الحزب تهديداً لمصالحه.

ومما لا شك فيه أن مستوى التدخل الدولي في لبنان منذ الانسحاب السوري بلغ مستوياتٍ غير مسبوقة، بما في ذلك مجموعة كبيرة من القرارات الصادرة عن مجلس الأمن الدولي وتأثير ثلاثة مسؤولين كبار

في الأمم المتحدة في الشؤون اللبنانية (12) . وشاركت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا في عملية فحصٍ دقيق للوكالات الأمنية المُربِكة وغير المتطوّرة في لبنان، في حين وفّر الـ إف بي آي والمحقّقون الفرنسيون مساعدةً تقنية للتحقيق ببعض عمليات التفجير في لبنان. وأُنشئت "مجموعة أساسية" في أيلول/سبتمبر 2005 ضمّت الولايات المتحدة والأمم المتحدة والبنك الدولي وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا والاتحاد الأوروبي وروسيا ومصر والمملكة العربية السعودية لتفحّص ومساعدة جهود الإصلاح السياسي والاقتصادي والإداري في لبنان. وحُدِّد آخر تشرين الثاني/نوفمبر موعداً لإقامة مؤتمرٍ للمانحين تنظّمه "المجموعة الأساسية" بهدف اجتذاب أموالٍ دولية لتمويل برنامج الإصلاح في لبنان. وأدّت حالة الاضطراب السياسي إلى تأجيل الموعد إلى كانون الأول/ديسمبر ومن ثمّ إلى كانون الثاني/يناير. ولم يكن قد حُدِّد موعدٌ بعد للمؤتمر المُلحّ أثناء وضع هذا الكتاب في أواخر شباط/فبراير 2006، ممّا غذّى الاعتقاد بأن عقد المؤتمر مشروطٌ بالإيفاء ببنود القرار 1559 المتبقّية.

"الأميركيون"، قال نصر الله في أيلول/سبتمبر 2005، "أصدروا تعليماتٍ لدول العالم بعدم التدخّل في شؤون لبنان الداخلية، ولكنهم سمحوا لأنفسهم، بدءاً بالرئيس الأميركي ومروراً بوزيرة الخارجية والسفير الأميركي إلى لبنان، بالتدخل في كل تفصيلٍ في لبنان. نحن نرفض ذلك بما أننا لسنا بحاجةٍ إلى أي وصاية. نريد أن نكون دولة ذات سيادة".

وفي أواخر تشرين الأول/أكتوبر، بدأ حزب الله بثني عضلاته السياسية بتشجيعٍ غامر من الشيعة، وهم الطائفة الأكبر في لبنان، وبشكلٍ ترادفي مع الهجوم المعاكس الذي شنّته سوريا ضد لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة بعد صدور تقريرها المرحلي الأول في شأن اغتيال الحريري. وتجاهل نصر الله طلباً من السنيورة بإلغاء الاستعراض العسكري السنوي الذي يُقيمه حزب الله في ذكرى "يوم القدس" في الضواحي الجنوبية لبيروت، مُقيماً بصورةٍ تنطوي على تحدٍّ مسيرة الحزب الأكبر على الإطلاق. وفي تشرين الثاني/نوفمبر، انسحب خمسة وزراء شيعة من اجتماعٍ للحكومة كانت على وشك مناقشة خطابٍ ناري لبشار في وقتٍ مُبكر من ذلك اليوم دعا فيه السنيورة "عبداً". وفي 21 تشرين الثاني/نوفمبر عشية عيد الاستقلال، شنّ مقاتلو حزب الله الهجوم الأكثر طموحاً ضد مواقع على الحدود الإسرائيلية منذ الانسحاب الإسرائيلي عام 2000. وتحت غطاء وابلٍ من نيران المدفعية طالت المواقع الإسرائيلية الأمامية، حاولت جماعةٌ من حزب الله

اختطاف جنودٍ إسرائيليين من موقعٍ قريب من الخط الأزرق. وأُحبط الهجوم عندما قام قنّاصٌ إسرائيلي بقتل أربعة عناصر من فريق حزب الله.

وفي كانون الأول/ديسمبر، قاطع الوزراء الشيعة جلسات الحكومة طيلة ستة أسابيع لانتزاع بيانٍ لا لُبس فيه يُقرّ بأن الجناح العسكري لحزب الله منظمة "مقاوِمة" لا "ميليشيا" كما يرِد وصفه في القرار 1559. ووافق السنيورة المحصَّن في النهاية على بيان تسوية، معلناً أن حزب الله "مقاومة وطنية" دون الإشارة إلى كلمة "ميليشيا" بأي شكلٍ من الأشكال.

وعُزّز الموقع المحلّي لحزب الله في شباط/فبراير عندما عقد اتفاقاً بَعيد الاحتمال مع ميشال عون الذي كان منذ مدةٍ غير بعيدة بطل نزع سلاح الحزب. والعلاقة التي وُطِّدت بمذكرة تفاهم، جعلت بلوغ عون هدفه بالفوز بالرئاسة أكثر احتمالية من خلال ضمان دعم الشيعة له، فيما كان حزب الله يوسّع القاعدة المسيحية الداعمة له.

والشعور المتنامي لحزب الله بالثقة بالنفس في أواخر العام 2005 حثّه نشوء محورٍ معادٍ للغرب مركزه دمشق وطهران، وهو تحالفٌ عزّزته إلى حدٍّ ما تداعيات اغتيال الحريري. ولم يبدّل مقتل الحريري المعالم السياسية في لبنان فحسب، بل تردّد صداه في أماكن بعيدة إذ بلغت الموجات الصدمية لانفجارٍ وقع على الواجهة البحرية لبيروت دمشق والقدس وطهران والخليج مؤثّرةً في الاضطراب الحاصل في العراق، والتوترات السنّية - الشيعية، والنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني.

وأنعش انتخاب محمود أحمدي نجاد مجدَّداً التحالف القائم منذ زمنٍ طويل بين دمشق وطهران. وحدث تقاربٌ بين البلدَين بسبب الضغط الذي واجهاه من المجتمع الدولي بسبب طموحات إيران النووية وتعاون سوريا المتردّد في التحقيق بمقتل الحريري. وكانت سوريا الدولة الجيواستراتيجية الرئيسية التي لا غنى عنها لأنها تربط طهران بحزب الله، وكونها القناة لنقل الأسلحة من إيران إلى المقاومة الإسلامية. وكانت تعتبرها إيران وحزب الله الحلقة الأضعف في السلسلة التي تحتاج إلى الدعم.

وفي 20 كانون الثاني/يناير 2006، استضاف بشار قمةً في دمشق مع أحمدي نجاد، وهي زيارته الأولى إلى دولةٍ أخرى. ومن الحاضرين أيضاً نصر الله، ونبيه برّي، وقادة مجموعاتٍ فلسطينية عدة معادية لإسرائيل، ومنهم خالد مشعل عن حماس وأحمد جبريل عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة. وكانت القمة تأكيداً واضحاً على محور "الرفض" المعادي للغرب وتفضيل تحدّي الغرب بدلاً من تسوية الخلافات معه.

"اللقاء بين أحمدي نجاد والأسد"، علّق ساطع نور الدين من صحيفة السفير اللبنانية، "لم يكن إشارة تحدّي بل تحذيراً مشترَكاً للعالم. تحذيرٌ من أن التحالف بين الجارَين سيصبح أكثر قوة".

وفي الشهر التالي، وقّعت إيران وسوريا اتفاقاتٍ اقتصادية وتجارية شاملة تتناول إقامة روابط ثابتة في مجال الغاز والنفط والسكك الحديدية والكهرباء بين سوريا وإيران عبر العراق. وإن فوز حماس في الانتخابات في كانون الثاني/يناير منح سوريا وإيران نفوذاً أكبر في النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني، وقد تعهّدت طهران بتزويدها بالمال التي باتت تفتقر إليه بعد إعلان واشنطن عدم دعم الحكومة بقيادة حماس. وامتدّ المحور إلى داخل العراق حيث هيمنت الفصائل الشيعية المقرَّبة من طهران على الانتخابات في كانون الأول/ديسمبر.

وتعزيز هذا التحالف الذي يغلب عليه الطابع الشيعي ساهم في تنامي حالة القلق في البلدان العربية ذات الغالبية السنّية، ولا سيما الأردن ومصر والمملكة العربية السعودية. وفي كانون الأول/ديسمبر 2004، حذّر العاهل الأردني الملك عبد الله من "هلالٍ شيعي" جديد مؤلَّفٍ من الحركات الشيعية والبلدان الممتدّة بين إيران ولبنان بإمكانه إفساد التوازن التقليدي في النفوذ بين الشيعة والسنّة، وتشكيل تحدّياتٍ جدّية لسياسات واشنطن في الشرق الأوسط. وتعاظمت العصبية السنّية بسبب وجود مجتمعاتٍ شيعية كبيرة نوعاً ما حول حافة الخليج العربي - في الكويت حيث يشكّلون ثلث السكان ولكنهم لا يتمتّعون بالامتيازات نفسها التي يتمتّع بها الحكام السنّة في هذا البلد، وفي المنطقة الشرقية الغنية بالنفط من المملكة العربية السعودية، وفي البحرين حيث الشيعة يشكّلون نسبة 70 في المئة من السكان. وفكرة إيرانٍ تمتلك أسلحةً نووية تؤثّر في المجتمعات الشيعية الساخطة في الخليج، وتنعم بسلسلةٍ ممتدّة ومتواصلة من الحلفاء حتى البحر المتوسط، هو مشهدٌ لا يتلاءم مع المنطقة السنّية.

وبالنسبة إلى البعض، يعود مقتل الحريري بالفائدة على هذه الدينامية الناشئة. فقد كان الحريري سنّيّاً مقتدراً امتدّ نفوذه إلى أبعد من لبنان، وهو حصنٌ محتمَل في وجه النشوء الحديث العهد للنفوذ الشيعي، كما أنه بالنسبة إلى الأقلية العلوية التي تهيمن على النظام السوري نموذجٌ إيحائي خطِر للسنّة الذين يشكّلون غالبية السكان في سوريا.

وبالرغم من أن لقب "الهلال الشيعي" قد أصبح عبارةً مألوفة لدى العديدين في الشرق الأوسط وواقعاً ملموساً بالنسبة إليهم، فهو يبالغ

في تبسيط الطبيعة الطائفية والسياسية الممتدّة لتحالف طهران - دمشق - حزب الله - حماس، وهو ربما انعكاسٌ أكبر لمخاوف سنّية لا لنوايا شيعية.

"هل الفلسطينيون شيعة؟ هل المسألة الفلسطينية مسألة شيعية؟" يسأل الشيخ نعيم قاسم، نائب الأمين العام لحزب الله (13) . "علاقتنا مع سوريا غير قائمة على الدين بل على السياسة لمواجهة العدوان الإسرائيلي. في العراق، قلنا بوضوحٍ شديد إننا ضد العدوان الأميركي [هناك]، عِلماً أن الأميركيين يقولون إن احتلالهم ساعد الشيعة على الحصول على السلطة السياسية. وكل من يحاول رسم صورةٍ شيعية كبيرة ستختلط عليه الأمور بسبب كل التناقضات".

وسواءٌ كان الأمر مرتكزاً على فكرةٍ خاطئة أم لا، فالتوترات بين السنّة والشيعة في المنطقة هي في ازدياد يسرّعها الطابع الراديكالي التطرّفي لجيلٍ من السنّة الشبّان المحبَطين بسبب ما يواجهونه من حرمانٍ وظلم في ظل أنظمةٍ دكتاتورية، والممتلئين غضباً بسبب التدخل الغربي في العالم العربي والإسلامي، ولا سيّما اجتياح العراق واحتلاله، ومُلهَبين بتحدّي أسامة بن لادن ومتانة المقاومة العراقية. وتعاظم الخلاف الشيعي - السنّي بسبب هجماتٍ تفجيرية طالت الشيعة العراقيين الذين تعاملهم القاعدة برئاسة المقاتل الأردني أبو مصعب الزرقاوي بطريقةٍ رديئة، وذلك حتى مقتله في حزيران/يونيو 2006، في ما بدا أنه محاولة لتعزيز ظروف نشوب حربٍ أهلية.

ولم يكن لبنان مستَثنىً من نشوء نموذجٍ مقاتل وفقاً لطابع الإسلام الجهادي الذي تجذّر بهدوء في محيط المناطق السنّية الأكثر فقراً كالضنّية وعكار في أقصى الشمال، وفي نواحٍ من وادي البقاع والمدن ذات الغالبية السنّية كطرابلس وصيدا. وتجلّت الظاهرة في بادئ الأمر بطريقةٍ دراماتيكية ودموية في كانون الثاني/يناير عام 2000 عندما قامت مجموعةٌ صغيرة من المقاتلين العنيدين المنتمين إلى جماعة التكفير والهجرة بحركة تمرّدٍ وجيزة، ولكن ضارية، ضد الجيش اللبناني في جبال الضنّية الشديدة البرودة. وتدفّق آلاف الجنود اللبنانيين تدعمهم الدبابات والطوّافات إلى داخل الجبال شرق طرابلس بعد أن هاجم المقاتلون دوريةً من الجيش بالقرب من ملجئهم الجبلي. ومحقونين بالمورفين لمقاومة البرد القارس وما لحق بهم من أذى، أبدى بعض المقاتلين مقاومةً أخيرة في منزلَين قاما باجتياحهما في قريةٍ مسيحية. ومحاطين بمغاوير الجيش اللبناني، ذبح المقاتلون رهائنهم، وهما أمٌّ وابنتها، واستعدّوا للموت وهم يقاتلون. ومع حلول الغسق، توجهت دباباتٌ

عبر بساتين الزيتون الموحِلة على بُعد 50 متراً من المنزلَين وقصفت المبنيَين ودمّرتهما، في حين أطلق الجنود نيران رشاشاتهم بغزارة على الخرائب المشتعلة.

"لقد نكّلوا بالنساء بواسطة السكاكين"، قال جندي مُرهَق ووجهه مضاءٌ بألسنة اللهب المستعرة فيما يراقب مسعفي الصليب الأحمر ينقلون الجثث المشوَّهة من تحت الأنقاض. "لم أشهد قتالاً مماثلاً من قَبل. تطلق النار على هؤلاء الإرهابيين ولا يموتون. فهم يستمرون بتبادل إطلاق النار".

وكان لعصيان الضنّية، حرب لبنان الصغيرة ضد الإرهاب، صدى تحذيرياً مشؤوماً. ولكن هيمنة الحريري على الساحة السياسية السنّية وسيطرة سوريا على المسائل الأمنية في لبنان ساعدت على عدم تسليط الأضواء على المقاتلين. ومن وقتٍ لآخر، كانت السلطات اللبنانية تعلن عن تفكيك "خليةٍ للقاعدة" بالرغم من إشارة المتشكّكين إلى أن الاعتقالات كانت تحدث على الدوام خلال فترات التوتر المتزايد بين واشنطن ودمشق. ولكن الطائفية التي ازدادت حدّتها في لبنان منذ مقتل الحريري في ظل حكومةٍ ضعيفة وجهاز أمن دولة غير منظَّم تُحيي قلقاً وتخوّفاً من أن تكون القاعدة تجد لبنان ملائماً لتأسيس حضورٍ لها فيه. وفي تموز/يوليو 2005، نُشر بيانٌ فُهم منه أنه صادرٌ عن منظمة جند الشام التابعة للقاعدة على موقعٍ جهادي على الإنترنت، وقد هدّد بقتل العديد من رجال الدين الشيعة البارزين، والسياسيين، وأعضاء من حزب الله. واستنكر رجال الدين السنّة البيان معتبرين إياه ملفَّقاً. وفي 29 كانون الأول/ديسمبر، أعلنت منظمة القاعدة برئاسة الزرقاوي في العراق مسؤوليتها عن إطلاق أربعة صواريخ كاتيوشا قبل يومَين من ذلك التاريخ على شمال إسرائيل من جنوب لبنان. وهذا الهجوم تكرارٌ لإطلاقٍ مماثلٍ للصواريخ في السنوات الثلاث الأخيرة، وقد حُمِّل المقاتلون الفلسطينيون مسؤولية هذه الأعمال (14) . وبعد أيام، اعتقلت السلطات اللبنانية 13 مشتبهاً بهم من مقاتلي القاعدة اتُهموا بإنشاء "عصابة للقيام بأعمالٍ إرهابية". وبعد ذلك، أعلنت القاعدة في لبنان مسؤوليتها عن الهجوم التفجيري الذي استهدف ثكناتٍ للجيش اللبناني في بيروت، وقالت إنها جاءت ردّاً على الاعتقالات.

وكان حزب الله يراقب نشوء الراديكاليين السنّة في لبنان بتنبّهٍ لخطرٍ داهم لم يكن بالإمكان غضّ الطرف عنه. واعتبر حزب الله إطلاق صواريخ الكاتيوشا من جنوب لبنان بصفةٍ خاصة تحدّياً مباشَراً لمراقبته المُحكَمة للخط الأزرق.

"من المستحيل تأمين الاستقرار مع حركة التكفير هذه"، يقول قاسم عن حزب الله، مشيراً إلى فرع المتطرّفين السنّة الذين يعتبرون المسلمين الآخرين مرتدّين. "هناك البعض منهم في لبنان، ولكننا لسنا على علمٍ بمخططاتهم وما إذا كانوا يريدون القيام بعملياتٍ هنا. من المهم الاحتراس من قيام البعض بجعل لبنان منطقةً لتسجيل أهداف".

وتفاقَم الخلاف بسبب احتفاظ حزب الله بجناحٍ مسلّح قد يكون المسيحيون قد أبدوا تساهلاً حياله أكثر من السنّة. ودأب القادة الدينيون المسلمون، وبشكلٍ روتيني، على التعبير عن رأيهم بوضوح منتقدين القتالية الجهادية ومشجّعين التعايش في ما بين المسلمين. ولكن التوترات بين المجتمعَين محسوسة، حتى إنها تحجب الانقسام المسيحي - المسلم التقليدي.

وكتب داود الشريان، وهو محرر صحافي في صحيفة الحياة ، في كانون الثاني/يناير، قائلاً إنها المرة الأولى في تاريخ لبنان التي تنشأ فيها أزمة بين سنّة وشيعة لبنان.

"دفع لبنان ثمن حربٍ أهلية بين المسلمين والمسيحيين، وهو الآن يستعدّ لحربٍ أخرى بين السنّة والشيعة"، كتب.

وتبدّدت كل الشكوك حول مدى القتالية السنّية التي كانت قد ترسّخت في بعض مناطق لبنان، وذلك في 5 شباط/فبراير عندما اندفع آلاف المتظاهرين السنّة عبر شوارع ضاحيةٍ مسيحية هادئة في وسط بيروت، محطّمين زجاج السيارات وواجهات المتاجر، ومهاجمين كنيسة، وحارقين مبنى يأوي السفارة الدانماركية. وجاء العنف وسط موجةٍ من التظاهرات في العالم الإسلامي احتجاجاً على نشر صورٍ كاريكاتورية في صحفٍ دانماركية وأوروبية أخرى للنبي محمد. وانسحبت أعدادٌ فائضة من الجنود ورجال الشرطة من أمام مثيري الشغب، في حين نفض المسيحيون المروَّعون الغبار عن أسلحةٍ لم تُستخدَم منذ 16 عاماً واستعدّوا للدفاع عن منازلهم. ودعا رجال الدين الإسلاميون إلى الهدوء عَبَثاً بينما كان الحشد يرمي الحجارة على كنيسةٍ مارونية ويقتلع صليباً معدنياً عن مدخل مقرّ مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت.

"ما لم يرغب القادة السنّة اللبنانيون بإطلاعنا عليه هو أن سلطتهم رمزية في أفضل الأحوال (إذا كانوا يتمتّعون بأي سلطة) على عصابةٍ من الجماعات الإسلامية السنّية الراديكالية"، كتب المحرر الصحافي مايكل يونغ في صحيفة دايلي ستار اللبنانية الصادرة باللغة الإنكليزية. "فيما توافق غالبيةٌ واسعة من السنّة على قواعد اللعبة... هناك في المقابل

مجموعاتٌ صغيرة وافرة تدعم إيديولوجيةً حصرية وأكثر عدوانية وتؤيّد إنشاء دولةٍ إسلامية".

وسارع المسؤولون اللبنانيون إلى إدانة عملية الشغب وأشاروا بالبنان إلى "منتمين إلى طابورٍ خامس". وبالنسبة إلى العديد من اللبنانيين، كان الشغب يحمل بصمات سوريا، سيّما وأنه حدث بعد يومٍ واحد من تظاهرةٍ مماثلة في دمشق هاجم خلالها المحتجّون مبنى يأوي السفارات الدانماركية والسويدية والتشيلية والنروجية.

وبالرغم من أن التظاهرة السورية بدت أنها صبّ جام الغضب المعادي للغرب بطريقةٍ متهوّرة وغير مخطَّط لها، غير أن الاحتجاجات الفورية لم تحدث في دمشق فقط. وبالفعل، لاحظ شهودٌ أن محرِّضين بثيابٍ عادية مزوَّدين بأجهزة اتصالٍ لاسلكية كانوا يوجّهون الحشد فيما كان رجال الشرطة يقفون جانباً يدخّنون السجائر. وأعاد الاحتجاج التأكيد على أن بشار مثابرٌ على مجابهة الغرب.

قد يكون بشار الأسد القائد الأكثر غموضاً في الشرق الأوسط، لغزٌ أربك المحلّلين والدبلوماسيين والصحافيين منذ تسلّمه مقاليد الحكم عام 2000. فقد اعتُبر في بادئ الأمر نفحة نسيمٍ عليل، طبيبٌ شاب حصّل علومه في بريطانيا، متزوّجٌ من سنّيةٍ سورية جذّابة تتكلم الإنكليزية، تكنوقراطي من أنصار الحداثة يسعى إلى إصلاح الدولة البعثية المتقادمة والمتحجّرة وإدخال أمّته في الاقتصاد العالمي للقرن الحادي والعشرين. وعندما اتخذت الإصلاحات السياسية والاقتصادية وقتاً أطول من المتوقَّع لتتحقّق، نُسِب العيب إلى "الحرس القديم"، وهم الأصدقاء الحميمون لحافظ الأسد الذين كانوا يقاومون التغيير. ومن ثمّ، بدأت الشكوك بالظهور تدريجياً. وربما كان بشار سرّ أبيه، ابن أبيه الذي آمن بإيديولوجية حزب البعث القومية العربية، واعتبر إسرائيل بدون تحفّظ عدوّاً والولايات المتحدة بلداً لا يمكن الوثوق به.

ولام المتعاطفون مع بشار إدارة بوش بسبب اتخاذها موقفاً متشدّداً من سوريا، محذّرين من أن الكثير من العصيّ والقليل من الجزر قد تدفع بالرئيس الشاب إلى الجثوم وثني عضلاته القومية العربية. وجادل منتقدوه قائلين إن بشار عاجز أو غير راغب بإصلاح بلده، وهو ضعيفٌ أمام المصالح التي تحمل طابع الفساد داخل نظامه، هاوٍ يتخبّط بين كارثة دبلوماسية وأخرى.

وتبنّى مراقبو سوريا مشابَهة "العرّاب" لتحليل النظام. فإذا كان

حافظ الأسد فيتو كورليون، هل يكون بشار فريدو المتردّد والمحكوم عليه بالإخفاق في النهاية، أو سوني الحاد الطبع والمتهوّر (دورٌ يُنسَب في غالب الأحيان إلى شقيقه الأكبر باسل)، أم مايكل المتواضع الذي لا تظهر صفاته القيادية القاسية إلا مع الوقت وفي الشدائد؟

لم يكن من المفترَض أن يكون بشار رئيساً على الإطلاق - كان هذا المصير الذي اختير لباسل - وكان يجب عليه أن يكون مُدركاً لواقع أنه وريثٌ يصعب تبرير اختياره أمام الناس عندما هيّأه والده لتسلّم السلطة بعد موت شقيقه الأكبر. فقد كان هناك منافسون محتمَلون مقتدرون ويتمتّعون بالخبرة، ومطالباتٌ أكثر قوة بمنصب الرئاسة من فرقاء كامنين وأبرزهم عبد الحليم خدام الذي كان يغلي بصمتٍ لرؤية طموحاته الرئاسية تتلاشى أمام إصرار الأسد على تسليم مقاليد الحكم لابنه.

ولم يكن على بشار التباري فقط مع أصحاب النفوذ المستائين الموجودين في النظام، بل كان الموقع الاستراتيجي لسوريا قد بدأ بالتآكل أيضاً لدى تولّيه السلطة في تموز/يوليو 2000 بسبب انهيار عملية السلام والانسحاب الإسرائيلي من لبنان. وتخلّت إدارة كلينتون في أشهرها الأخيرة عن المسار السوري لتركّز على صياغة الشكل النهائي لاتفاق سلامٍ بين الفلسطينيين والإسرائيليين. ولم تُعِر إدارة بوش إلا اهتماماً قليلاً للنزاع العربي - الإسرائيلي في بادئ الأمر، وبعد 9/11 بات يُنظَر إلى سياستها تجاه سوريا من منظار "الحرب على الإرهاب".

ونتيجةً لذلك، وفيما يُحتمَل أن تكون الغرائز الإصلاحية لبشار حقيقية، فقد كُبحت تحت وطأة الضغوطات الخارجية والداخلية التي ازدادت بسبب حاجةٍ غرائزية إلى إثبات، للمتشكّكين به ومنافسيه، أنه قائدٌ قوي وقادر يستحق الرئاسة.

"بشار غير آمن"، يقول أحد أصدقاء الطفولة، "يريد على الدوام إثبات أنه شخصٌ صارم يمكنه اتخاذ قراراتٍ حازمة. هو نقيض والده. كان بإمكان والده أن يكون حازماً دون أن يكون بالإمكان التكهن بذلك. أما بشار، فتارةً تقول كم هو لطيف ومهذّب، وطَوراً يصبح عنيفاً بشكلٍ غير منطقي".

وبالفعل، كانت حركة الالتفافات الكاملة الدبلوماسية والسياسية علامةً مميَّزة لرئاسة بشار، وكانت أعماله تناقض التزاماته السابقة، فأربكت محادثيه وأثارتهم، وأكسبته سمعة الشخص غير الموثوق به.

"يميل إلى التحدّث على نحوٍ غير مترابط ودون إيجاز، وبشكلٍ

رديء"، قال باتريك سيل، الكاتب البريطاني لسيرة حافظ الأسد، في حديثٍ مع الكاتب في حزيران/يونيو 2002. "من المحتمَل أن يكون له رأيٌ مبالَغٌ فيه بنفسه. لا أظن أنه يملك الكثير من الخبرة في شؤون الحكم وكيفية التعاطي معها، وكيفية تسيير الأمور ووضع مؤيّديه في مناصب رئيسية".

وفي البيئة الشرق أوسطية الغادرة وغير المتسامحة، تميل هذه الميزات إلى اجتذاب الانتهازيين للإفادة من الفُرَص المتوافرة.

وألقى فارس بويز، وهو وزيرٌ لبناني سابق، نظرةً خاطفة على الموقف العقلي لبشار والارتباكات التي يعاني منها خلال لقاءٍ مع الرئيس السوري عام 2002 (15) .

كان بويز يشرح لبشار أن العديد من اللبنانيين مستاؤون من وطأة السيطرة السورية والفساد الملازم لها الذي "كان يدمّر مبدأ العلاقات الأخوية الجيّدة".

"أخبرته بأنني أخشى من أن الأوضاع قد تسوء ولن يكون بإمكان بعض الأشخاص المعتدلين منع تدهورها"، يقول بويز. "بعد ذلك قال بشار يقومون الذين حلفائنا من العديد حيال قلقٌ أيضاً أنني تعلم ' الأسد الجيش بسحب بدأت أنني تعلم .فاسدون وهم السيّئة الأعمال من بالكثير وليس ،فقط والمسؤولين الحكومة مع علاقاتٍ إقامة أريد .[لبنان من] على قادرٍ غير ولكنني .كامل بشكلٍ بلبنان علاقتنا إصلاح أريد .الأحزاب سيّما ولا ،والتظاهرات التهديدات تأثير تحت أو الضغط تأثير تحت ذلك وإذا ،المجتمعات من كبير عددٌ سوريا في لدينا .طائفياً طابعاً اتخذت إذا في نفسه الأمر على الموافقة عليَّ سيكون ،لبنان في الضغط على وافقت سوريا ' ".

"وألمح إلى أنه يواجه وضعاً حساساً جداً في سوريا ولا يمكنه الظهور بمظهر الضعيف في لبنان بالرغم من قدرته على إصلاح العلاقة"، قال بويز.

واتفق الرجلان على أن يقوم بويز بنقل رسالةٍ من بشار إلى الكاردينال صفير، البطريرك الماروني، وإذا خفّفت المعارضة اللبنانية لهجتها سيُعاد النظر بالعلاقة الثنائية.

"تأثّر البطريرك واستخدم سلطته لتهدئة الأمور"، يقول بويز. "لذا، صُدمت لرؤية بشار يتصرّف بعكس ما أخبرني به عندما مدّد ولاية لحود. وكنا قد انتظرنا سنتَين. ولكن لحود كان رمز السياسة نفسها ولم تكن ترغب سوريا بتبديله".

والضغط الأميركي المكثَّف على سوريا في السنتَين الواقعتَين بين لقاء بويز ببشار وبين التمديد الرئاسي للحود ترك الرئيس السوري مع هامشٍ ضيّق للمناورة على الجبهتَين الداخلية واللبنانية. وتلقّى النظام السوري وابلاً من الخطابات السياسية العدائية من الولايات المتحدة وتهديداتٍ بـ "تغيير النظام"، وقد استهدفته "الحرب على الإرهاب" ووُضع في المرتبة الثانية في الدول التي لُقِّبت بـ "محور الشر" وزُعم أنها تحاول الحصول على أسلحة الدمار الشامل. وسوّت أبحاثٌ تتّسع لها معوناتٌ من أوراق الصحف صادرة عن المؤسسات الاستشارية الأميركية والمخططين السياسيين بين البعثية والفاشية والستالينية، وبشّرت بأن الإطاحة بصدام حسين ستكون لها تأثيراتٌ في أماكن أخرى، فتتداعى الدكتاتوريات وحكومات رجال الدين واحدةً تلوَ الأخرى.

ووفقاً للموقف الفكري البعثي المصاب بالذُّهان الارتيابي، فإن الاستسلام للضغط الخارجي هو علامة ضعف وخللٌ مميت قد يستغلّه أعداء النظام الداخليين والخارجيين. وتبنّى بشار القول المأثور لبوش في تعاطيه مع اللبنانيين: إما أن يكونوا مع سوريا أو أن يكونوا ضدها. والتسوية القائمة على التنازل للالتقاء في منتصف الطريق والتي كان يفضّلها الحريري، كانت غير مقبولة عندما واجه النظام السوري تهديداتٍ مصيرية مماثلة من الولايات المتحدة.

ويعتقد المسؤولون اللبنانيون والسوريون الذين عرفوا بشار شخصياً أو تعاطوا معه على الصعيد المهني بأنه بات مسؤولاً عن سوريا ويتّخذ قراراتٍ حاسمة. ولكن غالباً ما تكون تلك القرارات متأثّرةً بالآراء والنصائح التي يتلقاها من الأوساط القريبة من السلطة والمتمثّلة بـ "الحكومة المنزلية" المقرَّبة من عائلة الأسد، "النواة العلوية" كما وصفها دبلوماسي عربي سابق (16) ، وهي المصدر الحقيقي للسلطة في سوريا اليوم. فهي تضمّ بالإضافة إلى آخرين، شقيقه ماهر الذي يرأس الحرس الجمهوري، وبشرى، الابنة البكر التي ذاع صيتها بأنها الأفضل في عائلة الأسد، وزوجها آصف شوكت، رئيس المخابرات العسكرية السورية الطموح والعنيف، والشقيقين مخلوف، رامي وإيهاب، قريبي بشار لجهة الوالدة.

وإن خسارة لبنان بعد اغتيال الحريري أثار توقعاتٍ بأن بشار قد يفيد من الصدمة لإدخال إصلاحاتٍ شاملة على مؤتمر حزب البعث في حزيران/يونيو 2005. وأعطى إشارةً مشجّعة في خطابه أمام البرلمان السوري في 5 آذار/مارس عندما قال إنه يؤمَل بأن "يكون المؤتمر قفزةً في اتجاه تطور هذا البلد". ومن التدابير المتّخَذة مُسبقاً إلغاء الفقرة 8 من الدستور

السوري الذي يكرّس حزب البعث الحزب الحاكم، وعفوٌ عام للسجناء السياسيين، وإنشاء نظامٍ متعدد الأحزاب. ولكن بشار أربك المتفائلين مرةً أخرى. فقد اقتصرت التدابير على تقاعد العديد من شخصيات "الحرس القديم"، ومن بينهم عبد الحليم خدام، ووزير الدفاع السابق مصطفى طلاس، ورئيس الوزراء السابق مصطفى ميرو، وتبنّي قانونٍ يُجيز إنشاء أحزابٍ سياسية مستقلة. وأُرفق القرار الأخير بتوضيحٍ يشترط قيام الحزب على أسسٍ طائفية أو إثنية، مُحبِطاً بذلك أي فرصةٍ لإحياء الإخوان المسلمين أو الأحزاب القومية الكردية.

"الرسالة التي انبثقت من المؤتمر"، كتب المحلل السياسي السوري سامي مبيّض، "هي أن البعث سيقوم بكل ما يلزم للاستمرار، وهو وُجد ليبقى".

حتى إن التقرير الأوّلي المُدين الذي أصدرته لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة حول مقتل الحريري فشل في ترويع بشار، وكان له بالفعل تأثيرٌ معاكس إذ دعّم مكانته في نظر العرب بصفته "المعادي لبوش"، وفقاً للخبير في الشؤون السورية جوشوا لنديس.

"المقاومة والثبات أو الفوضى. لا خيار ثالث"، قال بشار في خطابه في جامعة دمشق بتاريخ 10 تشرين الثاني/نوفمبر. "إذا كانت الأمم الغربية تعتقد أنها قادرةٌ على ابتزاز سوريا عن طريق التهديد، نقول لهم إنهم أخطأوا بالعنوان".

وأكمل الخطاب استراتيجيةً كانت قد بدأت قبل اجتياح العراق عام 2003 تكون فيها سوريا المتراس الأخير للفخر العربي، وفقاً لبشار، وعنوان تحدٍّ لضراوة الغرب العدائية. وأوحى المعنى الضمني بأن النظام السوري يكيّف نفسه للعقوبات التي باتت حتميةً تقريباً والتي قد تفرضها الأمم المتحدة، محتكماًَ إلى القومية الغرائزية للشعب السوري ومحوّلاً غضبه في اتجاه الغرب بدلاً من قيادته.

ولكن موقف بشار غير قابلٍ للحياة في النهاية لأنه ربط بشكلٍ يائس الإصلاحات الاقتصادية والإدارية المطلوبة بحرب الإرادات مع الولايات المتحدة. فالسوريون يغدون أكثر فقراً مع ارتفاع أسعار السلع الأساسية، والاقتصاد في انحدار، وتبقى الوعود التي قطعتها مؤسساتٌ خليجية خاصة باستثماراتٍ بعدة بلايين من الدولارات مجرّد وعود. ولكن لا يبدو أن هناك نهاية وشيكة للمواجهة إذا استمرّ بشار على عناده ولم تتخذ الإدارة الأميركية قراراً في شأن ما سيؤول إليه الحال في سوريا.

وبالرغم من أن شبح تبديل النظام الذي هدّدت الولايات المتحدة بفرضه حوّم فوق دمشق منذ اجتياح العراق عام 2003، تستمر واشنطن بالإصرار على أنها تسعى إلى "تبديل السلوك" بدلاً من تبديل النظام.

"كنا واضحين جداً في أن ما يقلقنا هو سلوك النظام السوري"، قالت كوندوليزا رايس في شباط/فبراير 2006. "يحتاج النظام السوري إلى تبديل سلوكه. هو قوة سلبية في الشرق الأوسط ويحتاج إلى أن يصبح قوةً إيجابية في الشرق الأوسط".

والآص في تضاؤل فُرَص بشار بالاستمرار وفي ورق اللعب الدبلوماسي بشكلٍ متزايد هو الافتقار إلى معارضةٍ منظَّمة وجديرة بالثقة يمكنها تسلّم بسهولة إذا ما أُطيح بحزب البعث الحاكم. فالمزيج الطائفي والإثني في سوريا متشابكٌ بقدر ما هو مضطربٌ في العراق المجاور، والسيطرة القاسية لحزب البعث هي التي ضبطت الأمور فيه. وتتألف المعارضة في سوريا من مجموعةٍ متقادمة وغير منظَّمة من ناشطين ليبراليين في المجتمع المدني ومفكّرين ينقصهم الدعم الشعبي، وأفراد هذه المجموعة هم الإخوان المسلمون المحظورة الذي يُقيم زعيمها في المنفى، والأكراد المهمَّشون في شمال شرق سوريا الذين يفتقرون إلى تقاطعٍ إثني يحتكمون إليه. وبالرغم من أن السوريين غير سعداء من نسبة التقدّم الفاتر للإصلاح ومن الشدائد الاقتصادية التي يجب عليهم تحمّلها، فلا أحد يرغب في أن ينتقل الاضطراب الطائفي والإثني الدموي الذي يشهده العراق إلى سوريا إذا تمّت الإطاحة بحزب البعث. وبالرغم من أن سوريا بلدٌ علماني بالاسم فقط، فالشعور الإسلامي يتعاظم باطّرادٍ منذ سنوات وقد تُرجم حضوراً أكبر في المساجد، وتزايد مراكز الدراسات الإسلامية وعدد النساء اللواتي ترتدين الحجاب أو غطاء الرأس. وقامت الدولة بمراقبة هذه الظاهرة عن كثب، واضعةً بعناية خطاً بين السماح بدرجةٍ من الحرية الدينية وبين إخماد مظاهره الأكثر نَزعاً إلى القتالية. وفي عامَي 2003 و2004، غضّت السلطات السورية الطَرف عن سنّةٍ شبّان تسلّلوا عبر الحدود إلى العراق الممتدّة مسافة 600 كيلومتر للانضمام إلى التمرّد. وبالرغم من كل شيء، أليس من الأفضل ترك الإسلاميين الشبان المتهوّرين يقتلون أنفسهم وهم يقاتلون الجنود الأميركيين في العراق من أن يُحيكوا مؤامرة ضد النظام البعثي؟ وانتقدت واشنطن تكراراً، وبقسوة، قلّة تعاون دمشق في ما يتعلّق بضمان الحدود من المتسلّلين وإيواءٍ مزعوم لما تبقّى من أفراد نظام صدام حسين في سوريا.

ولكن في أواسط العام 2005، شدّد النظام السوري تدابيره الأمنية على امتداد الحدود، والأهم من ذلك أنه نشر كلمة السر بين المهرِّبين القبليين بأنه لم يعُد من المسموح بعد الآن كسب العيش من نقل المقاتلين إلى العراق. وأُوقف العديد من رجال الدين المسلمين بسبب تحريض الشبّان على السفر إلى العراق، واعتُقل أنسباء سوريون يقاتلون في العراق لثني متطوّعين محتمَلين آخرين عن التمثّل بهم. ووفقاً لتقريرٍ صادرٍ عن المخابرات السورية تلقّاه الكاتب، زيد من ارتفاع الحاجز الرملي الضيّق القائم على امتداد الحدود من مترَين إلى أربعة أمتار، وارتفع عدد المراكز الحدودية إلى 557 مركزاً مع ما بين 4,500 و5,000 جندي يقومون بدوريّاتٍ على امتداد الحدود.

ومن جهةٍ ثانية، قد تكون سياسة السماح للسوريين بالقتال في العراق ارتدّت على الحكم السوري. فمنذ العام 2004، جرى عددٌ من الاشتباكات بين قوات الأمن السورية ومقاتلين ستّة مسلَّحين كان البعض منهم قد قاتل في العراق، وبدا أنهم يؤسّسون شبكةً من الخلايا في المناطق السنّية الموالية لهم في البلد. ويُشتبَه بأن بعض هذه الأحداث أعدّتها السلطات عَمداً لتذكير الغرب بما قد يحدث إذا أدّى الضغط الخارجي إلى انهيار نظام بشار. ولكن هذا الأمر لم يبدّل واقع إمكانية انبثاق الإسلاميين المقاتلين كمستفيدين رئيسيين من سقوط بشار إن لم يكن هناك بديلٌ متين وجدير بالثقة.

وفي مواجهة خياراتٍ غير مُستساغَة، بدت الولايات المتحدة متردّدة في تحديد مدى الضغط الذي يجب ممارسته على سوريا، ممّا عزّز بشكلٍ فعّال موقع بشار في مواجهة واشنطن. ودعا بعض الأميركيين إلى اتخاذ تدابير صارمة كإقامة "منطقة عازلة" على امتداد عدة كيلومترات في العمق السوري المجاور للحدود مع العراق، وشنّ غاراتٍ جوّية وبرّية على قواعد للمتمرّدين مُشتبَه بها في سوريا، وتحويل الأموال إلى جماعات المعارَضة الخارجية الصديقة للولايات المتحدة. وفضّل آخرون الخيار الأكثر اعتدالاً والمتمثّل بالضغط دون الكسر أملاً في تمكّن الولايات المتحدة وسوريا من التوصل إلى تفاهمٍ للمساعدة على إرساء الاستقرار في العراق. وفي أواسط تشرين الأول/أكتوبر، جاء في تقريرٍ لـ التايمز اللندنية أن واشنطن كانت قد اقترحت اتفاقاً على الطراز الليبي يوضَع من خلاله حدٌّ للعزلة الدبلوماسية المفروضة على سوريا إذا وافقت على أربعة مطالب أساسية على الأقل (17) ، وهي شملت تعاوناً كاملاً مع التحقيق في اغتيال الحريري، والكفّ عن

التدخل في الشؤون اللبنانية، وإنهاء دعمها للمتمرّدين العراقيين وحزب الله. وبدا أن المعلومات التي أتت من مسؤولٍ كبير في إدارة بوش سُرِّبت عَمداً لـ التايمز لمنع أي فرصةٍ لبلوغ تسوية، ممّا يوضح عدم وجود إجماع في واشنطن حول سوريا.

ومن ثمّ، وفي أوائل تشرين الأول/أكتوبر، كانت بيروت ودمشق تضجّان بهمسات مسؤولٍ سوري ذي مرتبة عالية يشكو إلى مجلس الأمن القومي وفي أماكن أخرى في واشنطن من الحالة الكارثية للأوضاع في دمشق. وأشارت الشائعات إلى أن البحث كان جارياً في واشنطن لبديلٍ مناسبٍ عن بشار قد يتمّ اختياره من صفوف الجيش أو أجهزة المخابرات، أي مرادفٍ سوري لبرفيز مشرَّف في باكستان، وهو عميدٌ في الجيش استولى على السلطة عام 1999 وكان حليفاً للولايات المتحدة.

وبلغت التوقعات الذُروة صباح 12 تشرين الأول/أكتوبر عندما أعلنت دمشق انتحار غازي كنعان في مكتبه، وهو وزير الداخلية والحاكم في لبنان لمدةٍ طويلة.

وفي المساء الذي سبق موت كنعان، كانت محطة التلفزيون الجديد اللبنانية قد بثّت تقريراً يدّعي أن المسؤول السوري زوّد لجنة التحقيق الدولية بتفاصيل عن الرشوات التي تلقّاها من الحريري خلال ولايته في لبنان. وفي صباح اليوم التالي، قرأ كنعان بياناً عبر الهاتف لإذاعة صوت لبنان أكد فيه أن ادّعاءات محطة التلفزيون الجديد "لا أساس لها". وكان بيانه الطويل الذي برّر فيه دور سوريا في لبنان بمثابة شهادةٍ قاطعة أنهاها بتشاؤمٍ قائلاً "أعتقد أنه البيان الأخير الذي قد أُدلي به".

وبعد العاشرة صباحاً بقليل، سُمعت طلقة نارية في مكتب كنعان في وزارة الداخلية. ووجده حارسٌ شخصي ممدَّداً على الأرض مختلِجاً بعد أن أطلق رصاصةً، كما يبدو، من مسدسه سميث إند ويسون عيار 38 في فمه. وأُعلنت وفاة كنعان في المستشفى. وألقت السلطات السورية اللوم في انتحاره على الضغوط التي كان يواجهها بسبب التحقيق الدولي والحملة المعادية لسوريا في وسائل الإعلام اللبنانية. ومع ذلك، فإن قليلين اقتنعوا بأن العميد المروِّع قتل نفسه بسبب بعض الأخبار الصحافية السيّئة.

"كان من رجال الأمن الأقوياء، والناس الأقوياء لا ينتحرون عادةً في هذه الظروف"، كتبت سحر بعاصيري في النهار اللبنانية.

إذاً، هل كان كنعان "مشرَّف" السوري كما أُشيع؟ هل "انتحر" بعد أن اكتشف النظام أنه كان يتآمر لحدوث انقلابٍ بدعمٍ أميركي؟

وقد عُرف كنعان بصلاته بالولايات المتحدة عندما كان مسؤولاً عن لبنان، وكان ابناه قد درسا في جامعة جورج تاون في واشنطن. ومنذ عودته من لبنان إلى دمشق عام 2002 عندما أصبح رئيس دائرة الأمن السياسي، قام بوساطاتٍ بين الدولة وأكراد سوريا الساخطين، ولعب دوراً أساسياً في إقامة روابط بين سوريا وتركيا المجاورة. ولكن محاولته إعادة تنظيم فروع المخابرات غير المنظَّمة أدخلته في نزاعٍ مع آصف شوكت، نائب رئيس المخابرات العسكرية القوي آنذاك. وعُيِّن وزيراً للداخلية في عملية تعديلٍ للحكومة عام 2004، وقد اعتُبر الأمر على نطاقٍ واسع تخفيضاً لرتبته بهدف عزله عن مركز النفوذ في الجيش وأجهزة المخابرات. وكان كنعان قد نصح بعدم تمديد ولاية لحود، ولا بد أنه وقف مشدوهاً أمام وضع سوريا المنهار في لبنان بعد مقتل الحريري، وهو الذي أمضى سنواتٍ عدة فيه.

هل اختار كنعان معالجة المسائل بنفسه لمنع سوريا من الانزلاق إلى الهاوية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فقد كان عليه ضمان تعاون الحلفاء الأقوياء في سوريا لأن الدعم الأميركي وحده لا يسهّل حدوث انقلابٍ ناجح. تُرى، من كان شركاؤه السوريون؟

فالأسماء التي تطرأ على ذهن معظم الناس هي عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي. فالرجال الثلاثة كانوا جزءاً من المجموعة الموالية للحريري التي أشرفت على لبنان في التسعينيات. وكان شهابي قد أمضى معظم وقته بين الولايات المتحدة وبريطانيا منذ مغادرة سوريا عام 2004. وبعد تقاعده كنائبٍ للرئيس في حزيران/يونيو، كان قد انتقل خدام إلى باريس لكتابة مذكّراته كما ادّعى.

ووفقاً لمصدرٍ لبناني مقرَّب من القيادة السورية، كان كنعان قبل وفاته بيومَين قد حاول ترتيب لقاءٍ مع بشار دون جدوى (19) . وصباح 12 تشرين الأول/أكتوبر، كان خارج مكتبه لفترةٍ وجيزة، وقالت السلطات السورية إنه كان في منزله. ومن جهةٍ ثانية، ووفقاً للمصدر نفسه، قصد كنعان السفارة الفرنسية بدلاً من ذلك وأجرى اتصالين هاتفيين، الأول بخدام في باريس والثاني بالشهابي في لوس أنجلس. وبعد عدم تمكّنه من التحدّث مع أيٍّ منهما، عاد إلى مكتبه في وزارة الداخلية، ومات بعد ذلك بقليل.

أما منزل عبد الحليم خدام في باريس فيقع في مجموعةٍ من المباني السكنية بالقرب من جادة فوش وعلى بُعد عشر دقائق سَيراً على الأقدام من قوس النصر. وكانت شاحنة صغيرة مقفَلة للشرطة متوقّفةً أمام البوّابة السوداء المدعَّمة بقضبانٍ فولاذية عند مدخل المجمّعات السكنية،

ويجوب شرطيان بلباسهما الرسمي العسكري الأسود في الظلال حاملَين مدافع يدوية رشاشة على أكتافهما، ومتجاهلَين الرذاذ المتواصل في أمسية الشتاء البارد. وكانت الحراسة الأمنية مقدَّمة من الحكومة الفرنسية، وكان القليلون يشكّون في أن نائب الرئيس السابق بحاجةٍ إلى حماية بعد موجةٍ من المقابلات التي أجراها مع وسائل الإعلام بمناسبة رأس السنة، وأكد فيها أن بشار كان قد هدّد الحريري وأنه كان يستحيل على المخابرات السورية اغتيال الحريري دون معرفة بشار بالأمر.

ولعدة أيامٍ من أوائل كانون الثاني/يناير 2006، اصطفّ الصحافيون العرب والغربيون لتسجيل ادّعاءات خدام المُدينة بشكلٍ متزايد، ويُعتقَد على نطاقٍ واسع أن السعوديين والفرنسيين شجّعوه على ذلك لإجبار بشار على إبداء مزيدٍ من التعاون في التحقيق الدولي.

ولقّبت السلطات السورية خدام بالخائن واتهمته بأنه وراء الفساد المتفشّي، ولكن بشار توسّل إلى السعوديين سرّاً استخدام نفوذهم لوقف حملة الادّعاءات المُضرّة. ولقي التماس بشار آذاناً صاغية إذ أُلغيت في الدقيقة الأخيرة ثلاث مقابلاتٍ محدَّدة مُسبَقاً لوسائل الإعلام السعودية، وحاولت السلطات الفرنسية بفتور منع خدام من استقبال مراسلين.

"لا تُخبر الشرطة بأنك صحافي"، نصح جمال خدام، الابن البكر لعبد الحليم، الكاتب على الهاتف. "قُل فقط إنك صديقي".

ولكن الشرطيَّين اللذين يحرسان الباب الأمامي لمنزل خدام لم يُخدَعا. ففيما كانا يدقّقان بجواز سفر الكاتب، ابتسم أحدهما ابتسامةً متكلّفة وقال لزميله مدمدِماً "صحافي" بينما كان جمال واقفاً يحرّك قدمَيه بطريقةٍ تُظهر الشعور بالذَنب.

وقاد جمال الكاتب إلى غرفة استقبالٍ طويلة ومشعّة بالأضواء ذات جدرانٍ بيضاء اصفرّت مع مرور الزمن ومغطاة بلوحاتٍ زيتية. وكان المنزل ذات مرة مُلكاً لقُطب الشحن اليوناني أريستوتل أوناسيس، وزُعم أن الحريري اشتراه وقدّمه لخدام هدية. وكانت الغرفة مليئةً بالأرائك الطرية كالهلام، وكراسٍ بذراعَين باهظة الثمن مصمَّمة وفقاً لطراز لويس الخامس عشر، وطاولاتٍ من خشب الماهوغاني مغطاةٍ بالرخام وعليها آنياتٍ معدنية برّاقة أو مصابيح رخامية، وتماثيل صغيرة مصنوعة وفقاً للفن الحديث، وباليرينا (راقصة الباليه) من الخزَف. وكان هناك في أحد الجدران بيت سلّم واسع يؤدّي إلى شرفةٍ مُطلّة على غرفة الجلوس كان يستخدمها خدام مكتباً له لمتابعة التطورات على حواسيب وأجهزة فاكس تُصدر طنيناً متواصلاً. ومن

مقرّه الرئيسي المُترَف، كان خدام يخطط لحملة الانتقام من بشار.

ومرتدياً ثياباً عادية هي عبارة عن بنطالٍ أزرق وسترةٍ ملائمة له، نزل خدام درجات السلّم المفروشة بالسجاد دون إصدار أي صوت ورمقني بابتسامةٍ وجيزة وبعيدة قبل الجلوس في كرسيٍّ صلبة الظَهر. وجمال، وهو شخصٌ أنيس المعشر مجعَّد البشرة مع كتلة شعرٍ كثيفة رمادية، أضاء سيجارة مالبورو ثانية وجلس على أريكةٍ بجانب شقيقه جهاد الأكثر أناقة.

"لا يمكن للنظام الاستمرار لأنه ضد مصالح الشعب، وبشار يعمل وكأنه يعيش في القرن الماضي"، يقول خدام وابناه ينظران إليه. "لا مستقبل للنظام. أنا مقتنعٌ 100 في المئة من أنه سينهار".

وكان هناك التزامٌ ما بالشكليات في جلسة خدام المستقيمة. والمرة الوحيدة التي بدّل فيها وِضعته في كرسيّه كانت لوضع وسادةٍ صغيرة وراء ظهره. وكانت يداه تغطّيان أطراف متّكأ ذراعَيه، وقدماه موضوعتان على الأرض بإتقان أمامه. كانت وِضعةً غير مألوفة كثيراً. واتّضح من ثمّ أن حافظ الأسد اعتاد الجلوس بهذه الطريقة في صور القائد السوري المتمرّس تلك ملتقياً أصحاب المقامات الرفيعة الزائرين في القصر الرئاسي في دمشق.

وكان الشعور بالمرارة لدى رجل الدولة البالغ من العمر 77 عاماً بادياً بوضوح في كلماته، ولكن لم يبدُ على وجهه الكئيب والمخطَّط أي أثرٍ للتعابير عندما كان يهاجم بعنفٍ الشاب الذي أحبط أحلامه الرئاسية.

"لا يملك بشار أي معرفة أو خبرة"، يقول. "ورث منصب والده وكانت هذه الخطوة أحد أخطاء حافظ الأسد. تصرّف بشار بالطريقة نفسها كشابٍّ ورث شركة والده ومن ثمّ بذّرها شيئاً فشيئاً وخسرها كلها. هو لا يفهم السياسة الدولية... لا يعرف شيئاً عن السياسة العربية. اتفق مع دولٍ عربية أخرى وكأنه مميَّز ويُفترَض بها قبول أفكاره بجدّية. حتى إنه لا يعرف الشعب السوري... والآن بات أفراد عائلته وأصدقاؤه معروفين بفسادهم على نطاقٍ واسع... لذلك، وجدنا سوريا كما كانت بعد خمس سنوات، بالرغم من نصائح السوريين والعرب والأجانب العديدة. كان معميّاً ولا يرى الوقائع. لم يسمع أصوات الشعب".

ولكن لم يكن يُعرَف عن خدام استماعه لأصوات الشعب أيضاً لأنه كان رأس الحربة في اتخاذ إجراءاتٍ صارمة حيال اجتماعات مناقشة الأمور السياسية التي ازدهرت في ربيع دمشق عام 2001، منهياً الآمال بأن تؤدّي رئاسة بشار إلى إصلاحاتٍ سريعة.

ويكمن وراء ابتسامات خدام المهذَّبة ولكن سريعة الزوال، ونظرته

السريعة الباردة والخالية من أي عاطفة إيمان ذاتي لا يلين بصحة قناعاته. فلم يكن رجلاً معتاداً على أن تتمّ الإشارة إلى عيوبه أو التسليم بتناقضاته الخاصة.

وفي إحدى نقاط المحادثة لدى مناقشة كيف أن فشل قمة جنيف بين الأسد وكلينتون في آذار/مارس 2000 بدّل المشهد السياسي في الشرق الأوسط، ممّا أدّى إلى انطلاق انتفاضة الأقصى في أيلول/سبتمبر من ذلك العام إضافةً إلى أمورٍ أخرى، قاطع خدام قائلاً إن "الانتفاضة بدأت قبل جنيف".

قبل جنيف؟ ألم يتذكّر خدام كيف أن الانتفاضة اندلعت في أيلول/سبتمبر 2000 عندما سار أرييل شارون داخل الحرم الشريف، وهو المكان المسلم المقدّس في القدس؟

"لا"، يجيب بصوتٍ ملؤه اليقين إلى أقصى الحدود. "كانت انتفاضة الأقصى في أيلول/سبتمبر 1999".

وحدّق جمال وجهاد بحَيرة إلى الكاتب من الأريكة المقابلة.

حدثت العام 2000 بالتأكيد.

"زار شارون الأقصى عام 1999"، يقول خدام ثانيةً بتلك النظرة المحدّقة الباردة والواثقة.

توقّفٌ وجيز.

حسناً، لنتابع.

كان يأمل خدام في تشكيل حكومة في المنفى متّصلاً بأعضاء من المعارضة يُقيمون في المنفى، وبدا أنه يسعى إلى اتحادٍ مع علي صدر الدين البايايوني، رئيس الإخوان المسلمين، يدعمه ربما انتماؤهما السنّي المشترك. ومع ذلك، لم تكن المعارضة المحلية تُبالي بخدام، مشكّكةً بالتحوّل الجليّ لنائب الرئيس السابق إلى الديمقراطية والإصلاح. وكان يعتقد بأن الشرارة الأولى لانهيار النظام ستكون استنتاجات التحقيق الدولي في مقتل الحريري. ولكن هل يظنّ فعلاً أن بشار كان قد أصدر الأمر لاغتيال الحريري؟

"أنا مقتنع بأنه، نعم، اتخذ القرار"، يقول خدام. "لِمَ قد يقتل رستم غزالة رفيق الحريري؟ هل كان هناك أي صراع سياسي بين الحريري وغزالة؟ هي مسألة واضحة لأن لا أحد في الجهاز الأمني في سوريا يمكنه اتخاذ هذا القرار إلا الرئيس. وتتطلّب هذه العملية 1,000 كيلوغرام من المتفجرات. كيف يمكن لغزالة الحصول عليها بنفسه؟ العملية تحتاج إلى عدة

أشخاصٍ لتنفيذها. هل يمكن لغزالة إصدار الأمر لأحد عمدائه لتنفيذ خطةٍ مماثلة لو لم يكن مدعوماً من الرئيس؟ المسألة بحاجة إلى تجهيزاتٍ لإبطال الإشارات الإلكترونية، ومن أين يحصل غزالة عليها؟ كانت عمايةً كبيرة لم يكن بإمكان أحدٍ إنجازها باستثناء منظمة مخابراتية، وأنا على ثقة بأن التحقيق الدولي سيُثبت ذلك".

وقال خدام إنه كان يتحدث بصراحة لأن وفاة كنعان أغلقت الباب تماماً أمام عودته إلى سوريا.

"لو أنني في سوريا الآن للقيت المصير نفسه الذي لقيه الحريري"، يقول.

أو غازي كنعان؟

"نعم. أي شخص متّهَم بالتآمر على الرئيس يتمّ التخلّص منه على الفور".

هل تآمر مع كنعان على النظام؟

"لا. عندما كنت ألتقيه ونتحدث عن بعض أخطاء بشار، كان يدافع عن بشار. ربما كان يشاطرني مشاعري، ولكننا لم نناقش أبداً هذه الأمور معاً".

وبالنسبة إلى بشار، أصرّ خدام على أن أيام الرئيس السوري "قصيرة جداً".

"لا يمكن لسوريا تحمّل نظامٍ مركزي في الحكم"، يقول. "لا تحتاج سوريا إلى رئيسٍ يعتبر البلد مزرعته الخاصة. هي بحاجةٍ إلى رئيسٍ يثق بأن الشعب هو مصدر السلطات".

شخصٌ مثله؟

"هدفي النهائي ببساطة نقل سوريا من حكمٍ مركزي إلى نظامٍ ديمقراطي"، يقول خدام. "الرئاسة غير هامّة، وهي ليست أولوية بالنسبة إليَّ. المهم بالنسبة إليَّ إنقاذ سوريا".

قد يكون خدام خجولاً في شأن طموحاته الرئاسية الخاصة المتأخرة، ولكن شبلي ملاط، المحامي اللبناني وأحد المروّجين للديمقراطية، كان شخصاً يُبدي شفافيةً مفرَطة حيال طموحاته في أن يصبح رئيساً للبنان.

فقد تلاشت القوة الدافعة لخلع لحود، وهو أحد أهداف تظاهرات ربيع بيروت المعادية لسوريا، بعد الانسحاب السوري في نيسان/أبريل وما تلاه من انتخاباتٍ برلمانية. والقلق المسيحي على الرئاسة المارونية التي تعرّضت لهجوم تحالفٍ سنّي - درزي بصفةٍ رئيسية ضمن للحود، وبشكلٍ

فعّال، البقاء في قصر بعبدا بالرغم من حطّ معظم اللبنانيين من قدْره وتجنّب الشخصيات الأجنبية المرموقة زيارته.

ولكن ملاط يعتقد بأن ترك لحود في بعبدا هو أمرٌ خاطئ لطّخ إنجازات انتفاضة الاستقلال. ولتعجيل رحيل لحود وإضفاء طابعٍ ديمقراطي على النزاع، أعلن ملاط في تشرين الأول/أكتوبر أنه يستعدّ لخوض المعركة الرئاسية، وأطلق حملةً على نطاقٍ ضيّق ولكن بارعة لبلوغ هدفٍ بدا وهميّاً بطريقةٍ من الطرق.

"نجحنا في ثورتنا لتحقيق السيادة ولكننا فشلنا في ثورتنا لتحقيق الديمقراطية"، يقول. "لو أننا نجحنا في خلع لحود لكان للأمر أثرٌ أكبر بعشر مرات على العالم العربي. لهذا السبب أخوض المعركة الرئاسية".

وبدأ ملاط، وهو خبيرٌ ماروني في القانون الإسلامي يبلغ من العمر 44 عاماً ويضع نظاراتٍ، سعيه وراء الرئاسة متسلّحاً ببعض المصداقية المؤثّرة كونه ناشطاً في حقوق الإنسان ومروّجاً للديمقراطية. فقد كان عضواً مؤسساً لحملة المقاضاة التي استهدفت تقديم صدام حسين للعدالة عن الجرائم التي ارتكبها ضد الإنسانية. وكان أيضاً أحد المحامين الثلاثة الذين عملوا لصالح الناجين من مجزرة العام 1982 التي حدثت في مخيّم صبرا/شاتيلا للاّجئين الفلسطينيين في بيروت، وقد تقدّموا بطلبٍ في العام 2001 أمام محكمةٍ بلجيكية لمقاضاة أرييل شارون على تُهمٍ بارتكاب جرائم حرب (20) .

وبالرغم من أن فرصه لبلوغ قصر بعبدا كانت محدودةً جداً، نجح تحرّكه في إعطاء زخمٍ جديد لإسقاط لحود. وبينما كان البلد يقترب من السنوية الأولى لاغتيال الحريري، أعلنت الغالبية البرلمانية برئاسة سعد الحريري إطلاق انتفاضة استقلالٍ جديدة تعهّدت بإزاحة لحود عن منصبه قبل حلول 14 آذار/مارس، الذكرى السنوية الأولى لمسيرة المليون شخص التي أطلقت شرارة انسحاب الجنود السوريين من لبنان.

وفي 14 شباط/فبراير 2006، عاد "ثوار الأرز" في لبنان إلى ساحة الشهداء، محوّلين وسط المدينة مرةً أخرى إلى بحرٍ مائج من الرايات الحمراء والبيضاء في مسعى لاسترداد الروح المعنوية المندفعة لربيع بيروت بعد أشهرٍ من التوترات السياسية والعنف وخيبة الأمل. فملأوا الساحة ملوّحين بالرايات وصور الحريري، ومنتشرين في الشوارع المحيطة كأخطبوطٍ أحمر وأبيض. وكانت أشعة الشمس تتلألأ على قمم المئذنات الأربع لمسجد محمد الأمين الضخم المُشرفة على قبر الحريري المزيَّن بالزهور. وقام جنودٌ بتفتيش المشاركين عند مدخل الساحة والبحث في الحقائب عن متفجراتٍ

وأسلحة. ولكنها كانت مسيرةً مسالمة وودّية، واستفادت العائلات من تشغيل الحافلات اللبنانية طوال النهار لنقل الناس من كافة أنحاء البلد إلى بيروت.

وكان وليد جنبلاط هناك في إحدى غزواته النادرة بعيداً عن قصره الآمن في المختارة. وواقفاً على منصةٍ عالية ومحمياً بستارٍ زجاجي واقٍ من الرصاص، أطلق الزعيم الدرزي سَيلاً نموذجياً من القدح والذم القاسي ضد "الطاغية الإرهابي" في دمشق، مطالباً بشار بـ "سحب عميله إميل لحود". وصرخ الحشد مبتهجاً، وتغضّن فم جنبلاط بابتسامةٍ ماكرة.

وكان هناك أيضاً سعد الحريري. وكان غيابه عن لبنان قد أصبح عائقاً سياسياً له. كيف يمكن لقائد أكبر كتلةٍ برلمانية الاستمرار بالعيش في منفى فرضه على نفسه، ولبنان في موقفٍ سياسيٍّ معقَّد؟ لذا، عاد سعد ليظهر للّبنانيين بأنه ما يزال عالماً بواجباته المُلزَم بها بصفته الوريث السياسي لرفيق الحريري. وحمله الحشد عالياً وأوصلوه إلى المنصة فوق موجةٍ عارمة من الأيدي، تماماً كما كان نعش والده قد نُقل مسافة أمتارٍ قليلة قبل بلوغ المقبرة، وذلك قبل عامٍ تقريباً.

قال ،" ' أولاً لبنان ' لنصرخ ومسلمين، مسيحيين لا لبنانيين، "بصفتنا اليوم هذا في الوحدة عن يعبّر موقفٍ لتبنّي اللبنانيين كل أدعو" .للحشد "آخر شيء أي فوق هي الوطنية وحدتنا أن لنُظهر.

ولكنه كان يتوجّه بكلامه إلى حاضرين لا وجود للشيعة في صفوفهم كما كانت حال مسيرات ربيع بيروت. حتى إن أتباع ميشال عون لم يكونوا موجودين. فقد أرسل حزب والله وعون وفدَين رسميَّين إلى المسيرة احتراماً لذكرى رفيق الحريري فقط لا لتأييد آراءٍ محمومة بشكلٍ متزايد عُبِّر عنها في المنصّة.

وهكذا، هذا ما هو عليه الوضع في لبنان منذ عامٍ وحتى اليوم بعد قصف الرعد ذلك الذي أصمّ الآذان، وحجابٍ كثيف من الدخان الأسود أشار إلى نهاية حقبةٍ من الوصاية السورية وبدء فصلٍ جديدٍ غامض من تاريخ لبنان المعذَّب.

كان رفيق الحريري شخصيةً فريدة في السياسة اللبنانية، شخصاً ذا نفوذٍ عظيم تدعمه موارد مالية ضخمة وقدرة دبلوماسية واسعة مكّنته في بادئ الأمر من استمالة أو شراء حكام سوريا في لبنان وشبكاتهم سعياً وراء رؤيته المحبّة للغير للبنان هادئ ومزدهر. وأعطى الحريري زخماً جديداً للأمّة السنّية التي أضعفتها الحرب في وقتٍ بدأ فيه الشيعة الأكثر قوةً وعدداً بإضعاف القيادة السنّية التقليدية للمجتمعات المسلمة في لبنان.

وبالرغم من كونه زعيم السنّة في لبنان بلا منازع، فقد طالت موهبته وسحره وقوّته مختلف الطوائف، ممّا جعله شخصيةً وطنية قادرةً على تجاوز العقبات الطائفية في لبنان بهدف قيادة البلد بصورةٍ مستقلّة عن السيطرة السورية. وفي حين كان يعتبر العديدون هذه الميزات حسنات، كان يرى فيها آخرون تهديداً.

ومقتل الحريري هو أحد تلك الزلازل السياسية التي تطال تأثيراتها الشرق الأوسط بشكلٍ دَوري، مُحدثةً تبدّلاتٍ سياسية في المنطقة. ووضع الاغتيال حدّاً للسيطرة السورية على لبنان، واختارت دمشق المحاصَرة الجثوم ومواجهة الضغط الخارجي المتزايد من خلال علاقة تحدٍّ مع إيران والحلفاء الشيعة في لبنان والعراق أُعيد تنشيطها. ومفهوم "الهلال الشيعي" الذي أطلقه الملك عبد الله مبالَغٌ فيه ولكنه غير توهّمي بالكامل. وأدّى التحالف المعزَّز بين إيران وسوريا إلى التخفيف أكثر فأكثر من حدّة التوترات الإقليمية الحادّة بين السنّة والشيعة، ورفع مستوى مخاطر المواجهة التي تلوح في الأفق بين الغرب وطهران بسبب طموحاتها النووية الأخيرة. وساعد مقتل الحريري على بلورة الانقسامات الإقليمية، واضعاً تلك الدول والفصائل المعادية لإسرائيل والتدخل الغربي في مواجهة هدف إدارة بوش المتمثّل بجعل الشرق الأوسط هادئاً ومِطواعاً من خلال قدرتها العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية الهائلة، وإضفاء مظهرٍ خادع عليه من القيَم الديمقراطية.

ويدور الصراع للسيطرة على الشرق الأوسط، وبشكلٍ مصغَّر، في لبنان الذي قُدِّر كما يبدو لمكامن ضعفه المتوارَثة وانقساماته الطائفية أن تكون رهينة مصالح أوسع وأكثر قوة. وبالفعل، وبعد إظهار تلك المزايا المُلهمة في ربيع بيروت وإثارة كل هذا الأمل بالتغيير، عاد لبنان للخضوع بسرعة إلى عاداته القديمة. وجمرات الطائفية التي أخمد السلام السوري وهجها اتّقدت ثانيةً بسبب مخاوف وشكوك قادة الطوائف في لبنان الذين يستمرّون بالتآمر والمخادعة، مُقيمين تحالفاتٍ جديدة وواضعين حدّاً لأخرى، ساعين وراء دعمٍ متقلّب لأسيادٍ أجانب.

فما هو الموقف الذي قد يتّخذه رفيق الحريري من لبنان الذي غادر بهذه الطريقة المُريعة قبل عام؟ هل يلوي يدَيه المتشابكتَين مُحبَطاً وقد ملأه اليأس من عجز زملائه اللبنانيين عن التصرّف كأمّةٍ واحدة لا كمجموعةٍ من الطوائف المتخاصمة؟ ويخالج القليلين شعورٌ بأنه بعد 12 شهراً من وفاة الحريري، يفتقد اللبنانيون "سيد لبنان" بحضوره المطمئن

والأوسع من الحياة سواءٌ أحبّوه أو كرهوه.

وغادر آخر المتكلّمين المنصة، وابتعدت الحشود رويداً رويداً عن ساحة الشهداء وقد توقّف بعضهم للحظاتٍ قليلة أمام قبر الحريري احتراماً وإجلالاً لذكراه. وفي مهبّ الغبار والهواء البارد بقي مُلصَقٌ إعلاني يحمل صورةً مألوفة لرفيق الحريري المبتسم، عيناه تتلألآن تحت ذلك الحاجبَين السميكَين. وتحت صورته كتابةٌ باليد لتساؤلٍ يائس "وَيْنَك؟"

الخاتمة: عودة الحرب

الاثنين، 24 تموز/يوليو 2006 - صور، جنوب لبنان

كانت النعوش المصنوعة حديثاً مكدَّسةً فوق بعضها في مجموعاتٍ من ستة ومنشورةً في باحة المستشفى بينما يُنهي النجار العمل تحت شمس الظُهر المتسبّبة بتعرّقٍ شديد لإتمام مهمّته الكئيبة.

ومغطّين وجوههم بأقنعةٍ خاصة بالعمليات الجراحية مع رجلَين حاملَين رذّاذاتٍ كيميائية، فتح العاملون في المستشفى الأبواب الخلفية لشاحنةٍ مبرَّدة، كاشفين عن كومةٍ غير مرتَّبة من الجثث الملفوفة في ملاءاتٍ وأكياسٍ بلاستيكية موثَقة بإحكام بشريطٍ لاصق.

وكانت الضحايا الأولى لهجوم إسرائيل على لبنان مخزَّنة في مشرحةٍ بديلة - شاحنة نقلٍ مبرَّدة للّحومات نُقلت من طرابلس إلى جنوب لبنان مع بداية النزاع توقّعاً لسقوط العديد من الضحايا. ولكن الجثث كانت قد بدأت بالتحلّل، ولم يعُد مولّد الكهرباء الذي يُحدث قرقعةً وهو يُطلق الهواء البارد داخل المقصورة الخلفية يُجدي نفعاً، وبدأ السكان المحليون بالتذمّر. وبصورةٍ أكثر مدعاةً للتشاؤم، خشي المسؤولون في المستشفى التي تُديرها الحكومة من أنهم سوف يكونون بحاجةٍ في وقتٍ قريب إلى مكانٍ يتّسع لما قد يفِد بعد ذلك من جثث.

ويعود سبب ذلك إلى أن مقاتلي حزب الله المتمرّسين بخوض المعارك كانوا يُبدون مقاومةً وعناداً أكبر من المنتظَر بالرغم من مرور 11 يوماً من الغارات الجوّية والقصف المدفعي على لبنان الذي لم يشهد مثيلاً لهما منذ اجتياح إسرائيل له عام 1982. وبمقتل جنودٍ إسرائيليين وتدمير دبّاباتٍ إسرائيلية بواسطة صواريخ مضادّة للدروع، كانت إسرائيل قد قرّرت رفع مستوى عدوانها تدريجياًَ. ووجّهت القوات الإسرائيلية المسلَّحة تحذيراتٍ من خلال محطّات الإذاعة ورسائل مسجَّلة عبر اتصالاتٍ هاتفية للمسؤولين اللبنانيين المحلّيين، داعيةً كل المقيمين في جنوب لبنان إلى إخلاء منازلهم والاتجاه إلى شمال نهر الليطاني الذي يفصل معظم جنوب لبنان عن الحدود على امتداد مسافة 40 كيلومتراً.

وكان العدوان قد أوقع 300 قتيل، ودمّر الضاحية الجنوبية لبيروت، وتسبّب بكارثةٍ إنسانية في الجنوب مع حوالى 500,000 لاجئ فرّوا من القتال وعشرات الآلاف ممّن علقوا بسبب الطرقات التي أحدث فيها القصف فجواتٍ كبيرة في القرى التي كانت تتعرّض لغاراتٍ جوّية وقصفٍ

مدفعي. ومع ذلك، فقد كانت التطورات تعِد بالأسوأ.

ولإسرائيل تاريخٌ طويل ودموي في استخدام القوة غير المتكافئة ضد أعدائها، ولا سيما لبنان في غالب الأحيان. وعندما كنت أضع الكتاب، لم يكن من الواضح ما إذا كان حزب الله قادراً على توقّع ما سيحلّ بلبنان عندما أرسل فرقةً من المقاتلين لاختطاف جنودٍ إسرائيليين على امتداد الحدود مع لبنان.

وكانت عمليةً منسَّقة بشكلٍ جيّد، ومن الواضح أنها دُرِست ونُقِّحت لأشهرٍ عدة. وهاجمت الفرقة انطلاقاً من منطقةٍ حدودية نائية جنوب قرية عيتا الشعب المكسوّةِ بالآجام، وهي معقلٌ حصين لحزب الله. واخترق المقاتلون السياج الحدودي البالغ ارتفاعه 3 أمتار، مُصيبين سيارة جيب إسرائيلية بصاروخ بينما كانت بطاريات صواريخٍ منصوبة إلى الشمال تشنّ هجوماً تضليلياً بالكاتيوشا على المنطقة القائمة بين بلدتَي شِتولا وزاريت الإسرائيليّتَين. واختطفت فرقة حزب الله جنديَّين وعبرت الحدود متواريةً بين نبتات الأحراج الكثيفة. وخلال عملية الكَمن والاشتباكات التالية، قُتِل ثمانية جنود، أربعة منهم عندما دمّر صاروخ مضاد للدبّابات دبّابة ميركافا، وهي النسبة الأعلى من الخسائر التي يتكبّدها الجيش الإسرائيلي في مواجهةٍ مع حزب الله منذ العام 1997.

وفي الساعات التالية، جاب مؤيّدو حزب الله بقوافل من السيارات ترفع أعلاماً صفراء شوارع قرى جنوب لبنان الجبلية المليئة بالغبار، احتفاءً بالأخبار الواردة. ووقف آخرون وسط الطرقات الرئيسية مقدّمين قطع حلوى لسائقي السيارات، وهو رمزٌ تقليدي للاحتفال.

وكان رد فعل إسرائيل الأوّلي تدمير ثلاثة جسورٍ تمرّ فوق نهر الليطاني، عازلةً قسماً كبيراً من جنوب لبنان عن بيروت. وقام جنودٌ لبنانيون مُرهَقون بقطع الطرقات المؤدّية إلى الجسور، مُصدرين تعليماتٍ لسائقي السيارات بالعودة إلى الشمال بعيداً عن المنطقة.

ومن مرجعيون، وهي مدينة مسيحية ذات منازل حجرية وأسطحٍ من الطين قائمة على قمّة وادٍ مُشرفٍ على الحدود مع إسرائيل، كان يُسمَع الدويّ البعيد للمدفعية الإسرائيلية تنطلق على جولاتٍ في وادٍ يقع عند أقدام تلال مزارع شبعا إلى الشرق. وبعد لحظاتٍ من سماع هدير طائرةٍ إسرائيلية مقاتلة، تردّد صدى انفجارٍ كبير بين التلال وعبر الوادي فيما تصاعد عمودٌ من الغبار والدخان في كبد السماء من الجانب الأقصى لمدينة الخيام، جارة مرجعيون الشيعية.

وفي ذلك المساء، وعندما كانت الشمس تغوص في المتوسط بحُمرتها الدامية، التقط لبنان أنفاسه. وكانت لحظة اتخاذ قرارٍ بالنسبة إلى إسرائيل. فمنذ انسحابها من جنوب لبنان في أيار/مايو 2000، كانت قد أدارت خدّها لكل الهجمات الاستفزازية التي شنّها حزب الله على امتداد الخط الأزرق. وحرص حزب الله أيضاً على عدم تخطّي حدٍّ معيَّن قد يُجبر الحكومة الإسرائيلية على الردّ بقوة. ومع ذلك، فقد كانت على الدوام معادلةً مشكوكاً فيها إذ إن كلا الفريقَين كان يعلم منذ البداية بأنها ستنتهي بحسمٍ ما.

"هذا الأمر سيحدث ونستعدّ له باستمرار"، أخبر مسؤولٌ في حزب الله المؤلف في شباط/فبراير 2002. وأضاف أن "كل الشرق الأوسط سيتبدّل" عندما تحدث المواجهة الأخيرة.

وكانت عملية الاختطاف التي قام بها حزب الله مؤقَّتةً بعناية بحيث تتزامن مع أزمة خطفٍ أخرى حدثت هذه المرة في غزّة حيث تسلّل مقاتلون فلسطينيون قبل أسبوعَين إلى خارج قطاع غزة، وهاجموا موقعاً إسرائيلياً، واختطفوا جندياً. وأرسل إيهود أولمرت، رئيس الوزراء الإسرائيلي، دبّاباتٍ وجنوداً إلى غزة لاستعادة الجنود المفقودين ولكن دون جدوى. وقالت حماس التي كانت إحدى المجموعات الثلاث التي نفّذت العملية العسكرية إن الجندي لن يُطلَق سراحه إلا في مقابل الإفراج عن آلاف الفلسطينيين المعتقَلين. ووقع أولمرت في مأزق وهو الذي يفتقر إلى ثقة القائد الإسرائيلي التقليدية بالنفس دون أن يكون متمتّعاً بأي خلفية عسكرية، محاولاً إظهار قدراته القيادية لشعبٍ إسرائيلي يريد نتائج في موقفٍ عسكري صعب.

وفي إطار مضاعفة الضغط على أولمرت، جاءت عملية الاختطاف التي قام بها حزب الله في وقتٍ مناسب، حتى إنها فاقت عملية حماس في ممارسة الضغوط إذ أضافت إلى رصيد الحركة الفلسطينية جنديَّين إضافيَّين إلى الجندي الآخر.

ولم يكن بإمكان أولمرت الظهور بمظهر الضعيف وغير القادر على اتخاذ قرارٍ قبل هذا الاستفزاز الفاضح. والتقت حكومته الأمنية المصغَّرة ذلك المساء لاتخاذ قرارٍ في شأن الإجراءات المناسبة. وحثّت القوات الإسرائيلية المسلَّحة على ردٍّ قوي "لتلقين حزب الله درساً مرةً واحدة وأخيرة". ووافق أولمرت وقال إن الاختطاف "عملٌ حربي". وسيتمّ "كبح جماح" الردّ الإسرائيلي ولكن "بطريقةٍ مؤلمة جداً".

ومع ذلك، لم يكن هناك ما يشير إلى تقييد التحرّك العسكري الإسرائيلي في ما سيلي. فشنّت الطائرات الإسرائيلية المقاتلة عدواناً من خلال قصف مدرج مطار بيروت الذي أُعيدت تسميته بمطار رفيق الحريري الدولي. وبملء المدارج بالحُفر الكبيرة، توقف المطار عن العمل وحُوِّلت وجهة الرحلات الجوّية إلى قبرص. وبعد ذلك، قصفت الطائرات الضاحية الجنوبية لبيروت نفسها بواسطة صواريخ قوية موجَّهة حوّلت المجمعات السكنية إلى رُكامٍ وغبار واحدة تلوَ الأخرى. ودُمِّر بالكامل المقرّ الرئيسي لحزب الله في المنطقة المُحكَمة الإغلاق في حارة حريك، وذلك بعد قيام الطائرات الإسرائيلية بإسقاط أطنانٍ من القنابل في المنطقة يوماً بعد يوم. وفرّ السكان الشيعة من المنطقة باحثين عن ملجأٍ لهم لدى الأنسباء، وفي المدارس، وفي منازل مهجورة.

وتحوّلت بيروت إلى مدينة أشباح وقد أُقفلت متاجرها واتّجه سكانها إلى منازل في قرى جبلية نائية. ووضع الأجانب خططاً لإجلاء المدينة. وبعد أسبوع، عاد جنود البحرية الأميركية، المارينز، إلى بيروت للمرة الأولى منذ قيام جيلٍ أقدم عَهداً من المقاتلين الشيعة بإخراجهم من لبنان بعد عملية تفجيرٍ انتحاري قبل 20 عاماً.

وبلغت الغارات الجوية بلدة القبيّات في الشمال القائمة على تلّةٍ بالقرب من الحدود مع سوريا حيث تعرّضت مدارج مطارٍ عسكري مهجور للقصف. وقُصفت معظم الطرق والجسور الرئيسية أو جُعلت غير قابلة للمرور عليها، بما في ذلك الجسر الشاهق الأعلى في الشرق الأوسط الذي يجتاز ممرّ ضهر البيدر الجبلي الواقع على الطريق العام الرئيسي ويربط بيروت بوادي البقاع. ودُمِّرت الجسور المتبقّية فوق الليطاني ممّا زاد من عُزلة الجنوب.

وكان دمار الضاحية الجنوبية مثيراً بحجمه، ولكن ما كان يحدث في جنوب لبنان كان أمراً مختلفاً تماماً. وتحدّث السياسيون والجنرالات في إسرائيل عن "القضاء" على تأثير قيادة حزب الله و"تدمير" بنيته التحتية العسكرية من خلال "ضرباتٍ بالغة الدقة" و"غزواتٍ" مؤقَّتة. ولكن التلال الكلسية ذات الشكل الدائري والوديان ذات الانحدار الشديد تحوّلت إلى منطقةٍ قاتلة حيث دمّرت الطائرات الإسرائيلية مئات المنازل المدنية والمجمّعات السكنية، قاتلةً عائلاتٍ بأكملها في وقتٍ واحد. وهاجمت الطائرات والطوّافات الإسرائيلية السيارات المكتظَّة بالمدنيين الفارّين من قراهم، محوّلةً ركّابها إلى أشلاء أو إلى رمادٍ حيث هم جالسون. وتحلّل الأموات

تحت ركام منازلهم المدمَّرة في حين مات الجرحى في الشوارع بعد أن عجزوا عن بلوغ المستشفى بسبب الطرقات التي أحدث فيها القصف فجوات. وفي أواخر الأسبوع الأول من العدوان، قال مُسعفو الصليب الأحمر في صور إنهم شاهدوا كلاباً هائمة تأكل الجثث المُلقاة على الطرقات أو الناتئة من بين الأنقاض.

ولم يكن الأمر توجيه ضربةٍ لحزب الله فحسب، بل انتقاماً إسرائيلياً بدمٍ بارد للذلّ الذي تعرّضوا له على أيدي الأعداء الشيعة في لبنان طيلة أكثر من عقدَين من الزمن.

ومُطلقين صيحاتٍ مطالبين الناس بالتنحّي، اندفع المسعفون إلى داخل غرفة الطوارئ في مستشفى جبل عامل في صور حاملين امرأةً يتأرجح رأسها من جانبٍ إلى آخر وجسمها ملطَّخٌ بالدماء. "الله أكبر"، قالت بأنين. كانت أحد خمسة أشخاص - أربع نساء وشاب - استهدفت طائرة إسرائيلية سيارتهم على طريقٍ بالقرب من البرغلية، وهي قرية صغيرة متداعية تقع على الطريق الساحلي شمال صور.

"سقطت قنبلتان بالقرب من بعضهما بعضاً على بُعد 15 متراً أمام السيارة"، قال جهاد داود المرتعش وهو يراقب بقلق أنسبائه الذين يقوم الأطباء بمعالجتهم.

وفي وحدة العناية المركَّزة في المستشفى اضطجعت عليا علي الدين، 30 عاماً، وهي أحد شخصَين مصابان تمكّنا من بلوغ المستشفى من قرية صريفا الواقعة إلى الشرق من صور على بُعد 16 كيلومتراً. وكانت الطائرات الإسرائيلية قد سوّت بالأرض جوار منزلها في القرية. وانتشل المقيمون في بادئ الأمر 10 جثثٍ، ولكن عندما كنت أضع الكتاب كان هناك اعتقادٌ بأنه من الممكن أن يكون هناك ما بين 60 و80 شخصاً مدفونين تحت الركام.

وموصولةً بأنابيب للتنفس ورأسها ملفوفٌ بضمادات، كانت عينا علي الدين المفتوحتان جزئياً والمصابتان برضوض تحدقان بوهن في السقف.

"تعاني من إصاباتٍ بالغة في الرأس، وذراعها مكسورة وفقدت الكثير من الدماء"، قال الطبيب عبد الله عباس. "فرصها في النجاة محدودة. هي بين أيدي الله".

وكان الطابق السفلي للمستشفى مليئاً بالأشخاص المصابين وبأنسبائهم القلقين الذين كانوا قد فرّوا من منازلهم في القرى المجاورة للنوم على أفرشةٍ رقيقة في الممرات.

وسلّمت قوات الطوارئ الدولية لحفظ السلام، اليونيفيل، بأن إسرائيل كانت تعامل الجنوب كمنطقةٍ مستباحَة حيث تكون أي سيارة تعبر الطرقات معرَّضةً للقصف. وفي اليوم الثاني من العدوان، قُتِل 21 شخصاً عندما أطلقت طوّافة حربية صواريخ على موكبٍ من ثلاث سيارات ينقل سكاناً من مِروحين، وهي قرية حدودية صغيرة، إلى صور الآمنة نسبياً. وكان هناك حوالى 25 شخصاً في مؤخرة الشاحنة المكشوفة بين سيارتَين. وكان مكبّرٌ للصوت في موقعٍ عسكري إسرائيلي على بُعد مئاتٍ قليلة من الأمتار من الجانب الآخر من الحدود قد دعا السكان إلى إخلاء منازلهم على الفور. ولبّى العديدون النداء. وكان الموكب يسير على طريقٍ مفتوحة على امتداد قمة جبل بين قريتَي البيّاضة وشمعة عندما فتحت الطوّافة النار التي لا بدّ من أن قائدها رأى أن من كان في مؤخّرة السيارة المكشوفة هم نساءٌ وأطفال. وأصاب الصاروخ الأول الشاحنة، قاتلاً كل الركاب باستثناء أربعة. وأصاب الصاروخ الثاني السيارة الخلفية، قاتلاً شخصاً واحداً وجارحاً ثلاثة آخرين.

وفي اليوم التالي، تعرّض رتلٌ مُسعف تابع لقوات الطوارئ الدولية، يحاول إنقاذ سكان مروحين وقرى مجاورة محاصرين، للقذائف الإسرائيلية إذ انفجرت 12 قذيفة من عيار 155 ميليمتراً بالقرب منه. وقال أحد عناصر قوة حفظ السلام كان في الموكب إن جنود الأمم المتحدة الذين يرتدون الدروع الواقية ارتموا على القرويين لحمايتهم من الشظايا المتطايرة.

ولكن ما حدث في مروحين تكرّر على امتداد جنوب لبنان في الأيام التي تلت.

كانت الحافلة الصغيرة قد توقفت عند جانب طريقٍ شديد الانحدار بين قريتَي صدّيقين وياطر. وقبل دقائق، كانت طوّافة إسرائيلية حربية قد أطلقت صاروخاً اخترق سقف الحافلة، مدمّراً إياها. وكان رجلٌ انتُزع النصف الأيسر من رأسه يجلس بشكلٍ مستقيمٍ تقريباً ويده المصفرَّة ممدودةٌ خارج النافذة بلامبالاة واضحة. وكانت جثّتا شخصَين آخرين بثيابٍ مُشبَعة بالدماء مُلقاتَين فوق بعضهما البعض. وبالقرب من الرجل المتوفّي، كانت تجلس امرأةٌ مغطاةٌ بمحتويات جمجمته وقد انهارت تحت وطأة الصدمة وتتحرك ببطء إلى الوراء والأمام.

"هل يمكنك الوقوف؟" سأل متطوّعٌ في الصليب الأحمر اللبناني.

وأجابت المرأة متمتمةً بطريقةٍ مشوَّشة. وعلى بُعد أمتارٍ قليلة، كان بعض الناجين ممدَّدين على الأرض يصرخون ويئنّون من الألم. وكان السائق

نحيلاً ذا لحيةٍ تغطي وجهه بطريقةٍ غير منتظمة، وهو ممدَّدٌ على الأرض يستنجد بالله. وتلوّت امرأةٌ ببطء بينما كان أحد المسعفين يعالجها وقد انتقعت ملابسها السوداء بالدماء ووجهها ملطَّخٌ بالدم.

وكان هناك 19 شخصاً على متن الشاحنة معظمهم نساءٌ وأطفال كانوا في الطرف الخلفي من موكبٍ فارٍّ من قرية طيري الواقعة إلى الجنوب الشرق على بُعد 10 كيلومترات.

وقال عباس شايطر، وهو فتى في الثانية عشرة من عمره كان جذع جسده العاري يحمل بقع دماءٍ جاف، إن الإسرائيليين طلبوا من القرية المغادرة وإن عائلته كانت تنتظر من يُقلّها.

"قدِم أحدهم إلينا وخرجنا بسياراتٍ أخرى من القرية"، قال. "كنا نحاول اللحاق بالآخرين عندما تعرّضنا للقصف".

وكان جدّته وعمّه من بين القتلى. وكان شقيقه الأكبر، علي، ينشج بالبكاء بجانب والداته المنبطحة التي كانت ذراعها اليسرى المضمَّدة تحمل آثار دماء. فرفعت يدها اليمنى وأمسكت بذراع ابنها مواساةً له.

وردّ حزب الله على الغارات الجوية الإسرائيلية التي تزداد حدةً وكثافة بهجمته الصاروخية الأولى على الإطلاق ضد حَيفا، وهي المدينة الثالثة في إسرائيل لجهة الحجم والواقعة على بُعد 40 كيلومتراً جنوب الحدود. وحسم ذلك الهجوم بشكلٍ نهائي النقاش الدائر حول ما إذا كان حزب الله يملك أسلحةً بعيدة المدى أم لا. ومساء اليوم الثالث، وبعد تعرّض الضاحية الجنوبية للقصف، وجّه نصر الله كلمةً متلفَزة قال فيها إن إسرائيل أرادت حرباً مفتوحة وستحصل على حربٍ مفتوحة. وأضاف أن حزب الله يملك مفاجآتٍ عديدة أخرى، وإذا نظر سكان بيروت في اتجاه البحر في تلك الدقيقة لرأوا سفينةً إسرائيلية تحترق وتغرق. وبعد كلمته، أُطلقت نيران المدفعية من الضواحي الجنوبية ابتهاجاً واتخذت رصاصاتٌ خطاطة مساراً قوسيّ الشكل في السماء.

وكان ادّعاء نصر الله صحيحاً. فمن بين كل الصواريخ التي أشارت تخميناتٌ إلى أن حزب الله يمتلكها، لم يظنّ أحدٌ بأنه قد يمتلك صواريخ مضادة للسفن يوجّهها الرادار. وأصاب أحدها سفينة دورية للبحرية على بُعد 10 كيلومترات من الساحل، قاتلاً أربعة من الطاقم وجاعلاً المركب عاجزاً عن الحركة، وكان لا بدّ من قطره إلى إسرائيل.

وردّت إسرائيل في اليوم التالي مستهدفةً مواقع الرادار العسكرية على امتداد الساحل اللبناني، مستنتجةً أن الجيش ساعد حزب الله على

مهاجمة السفينة.

وأشارت سلسلة من الأصوات المدوّية بين أشجارٍ قريبة من الشاطئ شمال صور إلى إطلاق آخر وابلٍ من الصواريخ الطويلة المدى وقد بلغت لفافات الدخان كبد السماء الزرقاء مُشيرةً إلى مسار الصواريخ في اتجاه الجنوب. وبعد وقتٍ قليل، أوردت تقاريرٌ لمحطات تلفزيون عربية أن حيفا كانت قد تعرّضت للقصف مجدَّداً. وكان الأمر يتطلّب إسرائيل كثيراً من الوقت لشلّ قدرة بطاريات صواريخ حزب الله، وبدأت الصحافة الإسرائيلية تطرح تساؤلات حول سبب عدم تحقيق مزيدٍ من الأهداف بعد أسبوعٍ ونصف من القصف.

وأشار صوتٌ غير رنّان وسحابة دخانٍ في السماء فوق الحيّ المسيحي القائم في رأس صور إلى نشرةٍ أخرى أسقطها الإسرائيليون من الجوّ. وتساقطت مجموعةٌ من الأوراق الصفراء في سحابةٍ متموّجة كالنِثار ودفعها هواء البحر إلى الداخل شرقي صور وقد تحطّم البرميل البلاستيكي الذي كان يحتوي على قصاصات التحذير بالقرب من مقرّ مطرانية الروم الكاثوليك في صور.

وبعد ساعةٍ من الزمن، أقفلت الكنائس المارونية والكاثوليكية أبوابها وانطلق موكبٌ مؤلَّف من أكثر 20 سيارة، يرفع معظمها ملاءاتٍ بيضاء ترفرف خارج النوافذ، من الحيّ المسيحي واتجه إلى خارج المدينة. وكانت العائلات تجرّ حقائب سفرٍ على امتداد أزقّة الحيّ الضيّقة إلى سياراتهم. ومع ذلك، لم يكن الجميع راغبين بالمغادرة. وناشد رجلٌ ساخط والدته المسنّة الدخول إلى السيارة مع بقية أفراد العائلة، ولكنها رفضت.

"كيف يمكنني مغادرة منزلي؟" سألت.

ورفض بعض السكان الآخرين المغادرة ولا سيّما المسنّين الذين جلسوا خارج الأبواب الأمامية لمنازلهم مرتشفين أكواباً صغيرة من القهوة يشاهدون بكآبة جيرانهم يغادرون.

وبدأ الطعام والنفط بالنفاد، وأُصيب المسؤولون في مجلس بلدية صور باليأس بعد أن وجدوا أنفسهم مُحاطين بهول الكارثة الإنسانية التي بدأت تتبدّى من حولهم.

وملأ حشدٌ من الناس القلقين مساحات الاستقبال في مكاتب البلدية، مستجدين الطعام وقناني المياه.

"لا يوجد شيءٌ لهم. لا مؤن لدينا"، قال بمرارة حسن الحسيني، رئيس البلدية.

وانتقد موظفو البلدية بقسوة الحكومة لأنها تخلّت عنهم في أوقات الحاجة، سائلين عن سبب قيام مؤسسة خيرية مسيحية بإرسال حمولات شاحناتٍ عدة من المؤن على الطريق الساحلية المحفوفة بالمخاطر من بيروت إلى صور في حين أن الحكومة لم ترسل شيئاً. وإبّان الغارات الإسرائيلية الجوية والقصف المدفعي على جنوب لبنان عام 1996 والتي دامت 16 يوماً، انتقلت قوافل المساعدات الإنسانية من بيروت إلى الجنوب، ولكن الأمر مختلف هذه المرة.

"هذا لأنه في العام 1996 كان هناك رجلٌ يُدعى رفيق الحريري"، قال محمد الحسيني، ابن رئيس البلدية الذي كان يعمل في البلدية. "كان رجلاً عظيماً جداً في العلاقات الدولية. رجلٌ عظيم. ولكن رفيق الحريري لم يعُد موجوداً".

ولم يعُد رفيق الحريري موجوداً للدفاع عن قضية لبنان أمام العالم. وكان بالإمكان الشعور بفقدانه. وكان فؤاد السنيورة، وهو رجلٌ جديرٌ بالاحترام مع مهمّةٍ مستحيلة، يشاهد بكربٍ جهود 14 عاماً من الإعمار وإعادة البناء تنهار من حوله في أيام. فسافر إلى نيويورك ليتقدّم بالتماسٍ عاطفي صادرٍ من القلب إلى الأمم المتحدة لتحقيق وقفٍ فوري لإطلاق النار، قائلاً إن بلده "تحوّل إلى أشلاء".

وتجاهله المجتمع الدولي. وإدارة بوش التي كانت قد تبنّت بسرعة "انتفاضة الاستقلال" تخلّت عن لبنان كقرميدةٍ ساخنة عندما يتعلّق الأمر بحرب إسرائيل ضد حزب الله. وبينما كانت القوة الجوية الإسرائيلية تقصف المدنيين دون وازع ضمير محوّلةً إياهم إلى أشلاء في جنوب لبنان، شكا المسؤولون الأميركيون من إرهابٍ إيراني وسوري، معبّرين عن ضرورة قيام حزب الله بوقف إطلاق الصواريخ على إسرائيل. وكرّرت الدول العربية الرائدة، وهي المملكة العربية السعودية والأردن ومصر، ملاحظاتها حول العدوان الإسرائيلي، ولكنها لم تكن تميل كثيراً إلى حزب الله. وكان لبنان وحيداً ضحية مكامن ضعفه والاستغلال الدولي له مرةً أخرى. وكان قد خشي الحريري على الدوام من أن تودي عدائية حزب الله لإسرائيل بلبنان إلى هذا النوع من المجازر والدمار. وكم ساوم وفاوض وناور لتجنّب كارثةٍ مماثلة. ومع ذلك، فقد ذهبت جهوده سُدىً. وكانت وفاته وسلسلة الأحداث التي تلت - الاستقطاب الحاصل في لبنان حول سلاح حزب الله، والطائفية المنبعثة، وضعف الحكومة، والتدخل السوري، والمعالجة الدولية - قد أدّت إلى هذه الكارثة.

ولكن، سيُعاد إعمار لبنان، وطالما كان الأمر كذلك على الدوام. فشعبه العنيد، الواسع الحيلة، المغامر، المرن والذي عانى طويلاً، سيهزّ أكتافه بشكلٍ جماعي لا مبالياً ويكمل حياته، عاملاً بكدّ لتربية وتعليم أبنائه بينما يراقب بشكلٍ غير متحيِّز، وبتسليةٍ إلى حدٍّ ما، الشجارات المتواصلة بين السياسيين اللبنانيين حول أمورٍ تافهة.

وفيما تترقّب صور المرحلة التالية من هذه الحرب الوحشية، يتلاشى تقريباً هدير طائرةٍ إسرائيلية تخرق الأجواء اللبنانية على علوٍّ مرتفع، وقد حجبها صوت تكسّر الأمواج المطمئنة، والتي لا بدّ منها، للمتوسط الخالد والمُزبِد على صخورٍ نما عليها الطُحلب الأخضر، وغمرت عواميدَ حجريةٍ قديمة على شاطئٍ صقلته التقلّبات.

المراجع

الفصل الأول

(1) الرواية التالية عن صباح 14 شباط/فبراير 2006 مرتكزة على المقابلات التي أجراها الكاتب مع عدنان البابا، كارول فرحات، فادي فواز، نجيب فريجي، مروان حمادة، رشيد حمّود، فادي خوري، غطاس خوري، سامر رضا، وعامر شحادة.

(2) انظر تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلة، 19 تشرين الأول/أكتوبر 2005، المقطع 144.

الفصل الثاني

(1) مقابلة مع الكاتب - 3 آب/أغسطس 2005.

(2) مقابلة مع الكاتب - 3 آب/أغسطس 2005.

(3) مقابلة مع الكاتب - 3 آب/أغسطس 2005.

(4) مقابلة مع الكاتب - 27 كانون الثاني/يناير 2006.

(5) مقابلة مع الكاتب - 3 آب/أغسطس 2005

(6) مقابلة مع الكاتب - 5 تموز/يوليو 2005.

(7) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.

(8) مقابلة مع الكاتب - 5 تموز/يوليو 2005.

(9) مقابلة مع الكاتب - 27 كانون الثاني/يناير 2006.

(10) مقابلة مع الكاتب - 3 آب/أغسطس 2005.

(11) مقابلة مع الكاتب - 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.

(12) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.

(13) مقابلة مع الكاتب - 17 كانون الثاني/يناير 2006.

(14) مقابلة مع الكاتب - 23 حزيران/يونيو 2005.

(15) مقابلة مع الكاتب - 4 آب/أغسطس 2005.

(16) المصدر نفسه.

(17) مقابلة مع الكاتب - 23 حزيران/يونيو 2005.

(18) المصدر نفسه.

(19) مقابلة مع الكاتب - 20 تشرين الأول/أكتوبر 2005.

(20) مقابلة مع الكاتب - 23 حزيران/يونيو 2005.

(21) مقابلة مع الكاتب - 27 كانون الثاني/يناير 2006.

(22) مقابلة مع الكاتب - 18 أيلول/سبتمبر 2005.
(23) مقابلة مع الكاتب - 22 آب/أغسطس 2005.
(24) مقابلة مع الكاتب - 17 كانون الثاني/يناير 2006.
(25) مقابلة مع الكاتب - 18 أيلول/سبتمبر 2005.
(26) مقابلة مع الكاتب.
(27) مقابلة مع الكاتب.
(28) مقابلة مع الكاتب - 16 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(29) مقابلة مع الكاتب - 4 آب/أغسطس 2005.
(30) المصدر نفسه.
(31) مقابلة مع الكاتب - 23 حزيران/يونيو 2005.
(32) مقابلة مع الكاتب - 22 آب/أغسطس 2005.
(33) مقابلة مع الكاتب.
(34) مقابلة مع الكاتب - 17 كانون الثاني/يناير 2006.
(35) مقابلة مع الكاتب - 27 كانون الثاني/يناير 2006.
(36) مقابلة مع الكاتب - 4 آب/أغسطس 2005.
(37) مقابلة مع الكاتب - 22 آب/أغسطس 2005.
(38) مقابلة مع الكاتب - 17 كانون الثاني/يناير 2006.
(39) ضوئي الأصفر: السياسة الأميركية تجاه لبنان. بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1991.
(40) مقابلة مع الكاتب - 22 آب/أغسطس 2005.
(41) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.

الفصل الثالث

(1) كمال فغالي. العزل في لبنان: استراتيجية العودة والتنمية. بيروت، المركز اللبناني للدراسات السياسية، 1997.

(2) لبكي. بطرس "The Postwar Economy: A Miracle That Didn't Happen" "اقتصاد ما بعد الحرب: عجيبة لم تحدث". In Limbo: Postwar Society and State in an Uncertain Regional Environment" في ليمبو: المجتمع والدولة ما بعد الحرب في بيئةٍ إقليمية متقلّبة". الناشرون: ثيودور هانف ونوّاف سلام. بادن - بادن، نوموس، 2003.

(3) مقابلة مع الكاتب - 16 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(4) مقابلة مع الكاتب - 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.
(5) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.
(6) مقابلة مع الكاتب - 20 أيلول/سبتمبر 2005.
(7) مقابلة مع الكاتب - 29 آب/أغسطس 2005.
(8) مقابلة مع الكاتب - 19 أيلول/سبتمبر 2005.
(9) مقابلة مع الكاتب - 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.
(10) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.
(11) مقابلة مع الكاتب - 18 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(12) مقابلة مع جنرالٍ متقاعد في الجيش اللبناني.
(13) مقابلة مع الكاتب.
(14) مقابلة مع الكاتب - 27 كانون الثاني/يناير 2006.
(15) مقابلة مع الكاتب - 16 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(16) مقابلة مع الكاتب - 14 كانون الثاني/يناير 2006.
(17) المصدر نفسه.
(18) مقابلة مع الكاتب - 16 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(19) مقابلة مع الكاتب - 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.
(20) مقابلة مع الكاتب.
(21) مقابلة مع الكاتب - 18 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.
(22) قيل إن عضواً بارزاً وذا نفوذ في البرلمان حصل على 15 مليون دولار لتأييده.
(23) مقابلة مع الكاتب - 29 آب/أغسطس 2005.
(24) مقابلة مع الكاتب - 9 كانون الثاني/يناير 2006.
(25) مقابلة مع الكاتب.
(26) مقابلة مع الكاتب - 11 تموز/يوليو 2005.
(27) مقابلة مع جو فضول - 11 تموز/يوليو 2005. وردت في وسائل الإعلام اللبنانية تكراراً مزاعم بحدوث فسادٍ واحتيال في الكازينو، واستشهد بها سياسيون لبنانيون. في شباط/فبراير 2006، وفي معرض الدفاع عن سجلّه الرئاسي، ادّعى الرئيس إميل لحود أنه أصرّ على تعيين شخصٍ "شريف" لإدارة شؤون كازينو لبنان "بهدف تجنّب اتخاذ السيولة النقدية وجهةً محدَّدة، وهو أمرٌ غير شرعي".
(28) مقابلة مع الكاتب - 11 تموز/يوليو 2005.

(29) مقابلة مع الكاتب - 29 آب/أغسطس 2005.

(30) غالباً ما يوصَف فضل الله خطأً بالزعيم الروحي لحزب الله، ولكنه لم يتسلّم أبداً منصباً رسمياً في الحزب بالرغم من كونه مرجِعاً بالنسبة إلى العديدين من الشيعة، بمن فيهم عناصر حزب الله.

(31) مقابلة مع الكاتب.

(32) مقابلة مع الكاتب - 20 تموز/يوليو 2005.

(33) مقابلة مع الكاتب.

(34) مقابلة مع الكاتب - 20 تشرين الأول/أكتوبر 2005.

(35) مقابلة مع الكاتب - 16 كانون الأول/ديسمبر 2005. وقع المشنوق ضحية الضغط الذي مارسه بشار ولحود على الحريري في خريف العام 1998 لدى فتح المخابرات العسكرية السورية "ملفاً" متعلّقاً به. واتُهم المشنوق بأنه جاسوسٌ إسرائيلي، وهو ادّعاءٌ كاذب أدرك هو والحريري أنه قرارٌ سوري بضرورة مغادرة المشنوق لبنان. وغادر المشنوق إلى باريس في تشرين الثاني/نوفمبر 1998 وتمكّن من العودة بعد ثلاث سنوات بعد توسُّط طه ميقاتي، وهو رجل أعمال سنّي بارز وشقيق رئيس الوزراء السابق نجيب ميقاتي، وهو صديقٌ حميم لبشار. وتمثّلت نقطة ضغطٍ أخرى ضد الحريري بمنح الإذن لعضو البرلمان نجاح واكيم لنشر كتابه الذي يفصّل مزاعم بالفساد تطال الحريري ومعاونيه. شهد كتاب الأيادي السود (بيروت، 1978) رواجاً كبيراً وحقّق مبيعاتٍ قياسية.

(36) مقابلة مع الكاتب - 9 شباط/فبراير 2006.

(37) مقابلة مع الكاتب - 10 تشرين الأول/أكتوبر 2005.

الفصل الرابع

(1) مقابلة مع الكاتب - 20 كانون الثاني/يناير 2006.

(2) هزم إيهود باراك بنيامين نتنياهو في الانتخابات الإسرائيلية العامّة في أيار/مايو 1999 واستلم منصبه كرئيسٍ للوزراء في تموز/يوليو. وكان قد وعد بسحب الجنود الإسرائيليين من جنوب لبنان إذا تمّ انتخابه، مضيفاً أن هذا الأمر سيحدث في إطار مفاوضات السلام مع سوريا. وبعد أشهرٍ من انتخابه، رفض البوح بما سيحدث إن لم يكن أي اتفاق سلام مع سوريا وشيكاً، ولكن ما استُنتج من تعهّده الانتخابي هو أن الأولوية ستكون

لسحب الجنود.

(3) مقابلة مع الكاتب - 14 كانون الثاني/يناير 2006.

(4) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.

(5) مقابلة مع الكاتب.

(6) مقابلات مع الدبلوماسيين الحاليين والسابقين في بيروت.

(7) مقابلات مع ضباطٍ كبارٍ في الجيش اللبناني متقاعدين وقيد الخدمة - نيسان/أبريل - كانون الأول/ديسمبر 2005.

(8) مقابلة مع الكاتب. وفقاً لقانصوه، اتصل لحود بعد ذلك ببشار قائلاً إنه لم يعُد بإمكانه العمل بعد الآن مع كنعان، وطلب نقله. وبالرغم من أن بشار اختار عدم تلبية طلب لحود، كانت أيام كنعان في لبنان معدودة، وغادر عنجر بعد عامَين. وجرى حدثٌ آخر ألقى الضوء على العلاقات الضعيفة بين لحود وكنعان عندما قام بشار بزيارة لحود في قصر بعبدا برفقة كنعان. ووفقاً لضابطٍ كبير في الجيش اللبناني، اقترح مصطفى حمدان المعاون الأكثر تقرّباً من لحود، على كنعان الانتظار خارجاً بينما يقوم الرئيسان بالتشاور. ولكن بشار قال لحمدان إن كنعان "هو أنا وأنا هو". وبدلاً من ذلك، كان على حمدان الانتظار خارجاً بينما جلس كنعان مع لحود وبشار كـ "رئيسٍ ثالث"، وفقاً للضابط في الجيش اللبناني. وأخبرت عدة مصادر موالية ومناهضة لسوريا الكاتب بأن لحود رعى حملة تشهيرٍ ضد كنعان مكلّفاً ابنه إميل لحود الابن، وصهره الياس المر، إخبار مسؤولين كبار في النظام كماهر الأسد، الشقيق الأصغر لبشار، بأن كنعان يشكّل خطراً على الرئيس.

(9) أُشيع أن كنعان حصل على مبالغ طائلة من المال من الحريري ليأتي القانون لمصلحته. وعادت الشائعة إلى الواجهة في تشرين الأول/أكتوبر 2005 عندما ادّعت محطة التلفزيون الجديد (New TV) اللبنانية بأن كنعان أقرّ في مقابلةٍ مع لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة الخاصة بمقتل رئيس الحكومة الحريري بتسلّمه شيكاً بقيمة 10 ملايين دولار من الحريري. "كان الحريري قد أعطاني في ذلك الوقت شيكاً بقيمة 10 ملايين دولار وشيكاً آخر بقيمة 10 ملايين دولار للّواء الركن جميل السيّد"، نقل التلفزيون الجديد ما قاله كنعان لمحقّقي الأمم المتحدة. "كنا نجني المال من رئيس الحكومة الحريري، لذا كيف يُحتمَل أن نقوم بقتله وإيقاف تدفّق الأموال الطائلة؟" وفي الصباح التالي لنشر التقرير، تلا كنعان بياناً عبر إذاعة صوت لبنان شدّد فيه على أن ادّعاءات التلفزيون الجديد "لا أثير

على النار إطلاق بعد كنعان توفّي ،ساعات وبعد ."و"منحازة "لها أساس
.يبدو كما بنفسه رأسه

(10) قال عاصم قانصوه، أمين عام حزب البعث – قطر لبنان، في مناقشةٍ برلمانية تتناول حكومة الحريري إن تعليقات جنبلاط "تخطّت كل حدود"، مضيفاً أن "العملاء الإسرائيليين... لن تتمّ حمايتهم من بنادق مقاتلي المقاومة من خلال أي خطوط حمراء أو البحث عن الملاذ في السفارات". واعتبرت الصحافة اللبنانية تعليقات قانصوه بمثابة تهديدٍ لجنبلاط بالقتل. وبعد يومَين، حضر قانصوه لقاء القيادة القطرية لحزب البعث في دمشق ووبّخه عبد الحليم خدّام، نائب الرئيس السوري، بسب مهاجمة جنبلاط بهذه القـوّة. وأخبر قانصوه الكاتب في مقابلة (8 شباط/فبراير 2006) أنه أجاب بحدّة قائلاً إن جنبلاط ضد سوريا والمقاومة اللبنانية ويستحقّ معاملةً قاسية. ودار جدالٌ حادّ بين الرجلَين إلى أن انحاز فاروق الشرع، وزير الخارجية السورية الذي كان حاضراً، إلى قانصوه ضد خدّام، قائلاً إنه ناقش الحادث مع بشار الأسد في اليوم السابق. وأخبر بشار الشرع بأن قانصوه مُحِقٌّ بمهاجمة جنبلاط. "وصمت خدّام"، يتذكّر قانصوه. وأظهر لقاء حزب البعث بوضوح تراجع نفوذ خدّام في دمشق إضافةً إلى صِلاته المستمرّة بجنبلاط.

(11) منذ تولّيه منصب رئاسة الوزراء في تشرين الثاني/نوفمبر 2000 وحتى أواسط شباط/فبراير 2001، سافر الحريري إلى قطر، والمملكة العربية السعودية مرّتين، والمغرب، ومصر (حيث ناقش مشروعاً بقيمة بليونَي دولار لتزويد لبنان، سوريا وتركيا بالغاز السائل)، وليبيا، والكويت (التي وفّرت 550 مليون دولار للتنمية)، واليابان (حيث حصل على تعهّداتٍ بقروضٍ إضافية وعرضٍ للمساعدة على إصدار سنداتٍ مالية بالين).

(12) مقابلة مع الكاتب.

(13) مقابلات مع وزراء في حكومتَي الحريري لعامَي 2000 و2003.

(14) مقابلة مع الكاتب.

(15) مقابلة مع الكاتب - 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.

(16) مقابلة مع الكاتب.

(17) مقابلات مع وزراء سابقين في حكومتَي الحريري لعامَي 2000 و2003.

(18) مقابلة مع الكاتب - 24 أيار/مايو 2005.

(19) مقابلة مع الكاتب - 24 أيلول/سبتمبر 2005.

(20) مقابلة مع الكاتب - 9 شباط/فبراير 2006.

(21) مقابلة مع الكاتب.

(22) مقابلة مع الكاتب.

(23) مقابلة مع الكاتب - 16 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(24) "اقتفاء أثر المال "القديم"، "US News and World Report" أخبار وتقرير عالمي". أميركية 4 نيسان/أبريل 2005.

(25) مقابلة مع الكاتب - 14 أيلول/سبتمبر 2005.

(26) مقابلة مع مسؤولٍ لبناني مشاركٍ في المفاوضات.

(27) مقابلة مع الكاتب.

(28) مقابلة مع الكاتب.

(29) مقابلة مع الكاتب - 14 كانون الثاني/يناير 2006.

(30) المصدر نفسه.

(31) المصدر نفسه.

(32) مقابلة مع الكاتب.

(33) مقابلة مع الكاتب.

(34) مقابلة مع معاوني الحريري.

(35) مقابلة أجراها الكاتب مع الشيخ نعيم قاسم، نائب الأمين العام لحزب الله.

(36) مقابلة مع الكاتب - 20 تموز/يوليو 2005.

(37) توفِّي الابن الثالث للحريري، حسام، عن عمر 18 عاماً بحادث تحطّم سيارة في الولايات المتحدة عام 1991. استشهد الابن البكر لنصر الله، هادي وكان مقاتلاً في المقاومة، عن عمر 18 عاماً خلال اشتباكٍ مع مغاوير إسرائيليين في منطقة الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان عام 1997.

(38) مقابلات مع الكاتب.

(39) مقابلة أجراها الكاتب مع دبلوماسي أميركي.

(40) مقابلة مع الكاتب - 14 كانون الثاني/يناير 2006.

الفصل الخامس

(1) مقابلة مع الكاتب - 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.

(2) مقابلة مع الكاتب.

(3) مقابلة مع الكاتب.
(4) مقابلة مع الكاتب.
(5) مقابلة مع الكاتب - 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.
(6) مقابلة مع الكاتب - 10 تشرين الأول/أكتوبر 2005.
(7) مقابلة أجراها الكاتب مع وليد جنبلاط - 18 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(8) مقابلة مع الكاتب.
(9) مقابلة أجراها الكاتب مع أحد معاوني الحريري.
(10) مقابلة مع الكاتب - 10 كانون الثاني/يناير 2006.
(11) مقابلة مع الكاتب.
(12) مقابلة مع الكاتب - 17 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(13) مقابلة مع الكاتب - 10 تشرين الأول/أكتوبر 2005.
(14) مقابلة مع الكاتب - 9 شباط/فبراير 2006.
(15) مقابلة مع الكاتب.
(16) مقابلة مع الكاتب - 9 آب/أغسطس 2005.
(17) مقابلات أجراها الكاتب مع أعضاء حاليين وسابقين في البرلمان.
(18) مقابلة مع الكاتب.
(19) مقابلة مع الكاتب.
(20) مقابلة مع الكاتب.
(21) مقابلة مع الكاتب - 27 كانون الثاني/يناير 2006.
(22) مقابلة أجراها الكاتب مع مصدر مقرَّب من الحريري والمر.
(23) ادّعى الياس المر أن القنبلة كانت مؤلَّفة من 300 كيلوغرام من المتفجرات، وذلك بالرغم من أن الحكومة الإيطالية حدّدت الزِّنة بـ 100 كيلوغرام.
(24) خسر المر، أحد حلفاء سوريا الموثوقين بدرجةٍ عالية، مَيل سوريا إليه إثر اكتشاف المؤامرة المزعومة للقاعدة. وأخبر مروان حمادة الكاتب أن المر كان قد تكهن، وبعد شهرٍ من الاعتقالات، بأنه سيكون ضحية محاولة اغتيالٍ مماثلة لتلك التي أصابت حمادة إصاباتٍ خطِرة في 1 تشرين الأول/أكتوبر من العام 2004. وفي 12 تموز/يوليو 2005 تعرّض المر لإصاباتٍ بالغة عندما انفجرت سيارة قرب موكبه في إحدى ضواحي بيروت. وبينما كان يتماثل للشفاء من إصاباته في زوريخ بعد شهرَين، كشف في برنامجٍ تلفزيوني أنه كان قد تعرّض تكراراً لتهديدات غزالة قبل انسحاب الجنود

السوريين في نيسان/أبريل.

(25) مقابلة مع الكاتب - 9 آذار/مارس 2005.

(26) مقابلة مع الكاتب.

(27) مقابلة مع الكاتب - 24 أيلول/سبتمبر 2005.

(28) مقابلة مع الكاتب - 18 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(29) مقابلة أجراها الكاتب مع أحد المشاركين.

(30) مقابلة مع الكاتب.

(31) مقابلة مع الكاتب.

(32) مقابلة مع الكاتب - 9 آب/أغسطس 2005.

(33) مقابلة مع الكاتب.

(34) مقابلة مع الكاتب - 22 تموز/يوليو 2005.

(35) في مقابلة مع محطة تلفزيون المنار في 15 شباط/فبراير 2006، روى نصر الله بالتفصيل المناقشات التي أجراها مع الحريري في الأشهر التي سبقت وفاة رئيس الحكومة السابق. "اتفقنا على أن للمقاومة واجباً بحماية لبنان"، قال نصر الله. "وأوضح أن سلاح المقاومة مرتبطٌ بالتسوية السياسية الإقليمية أكثر منه بمزارع شبعا أو بتحرير السجناء اللبنانيين من السجون الإسرائيلية... وأذكر أيضاً أنه قال لي آنذاك إنه سيجلس معي للتوافق حول كيفية التعاطي مع مسألة سلاح المقاومة إن كان لي أي اعتراضات، حتى وإن كان هناك تسوية سياسية. وأضاف أنه سيستقيل ويتخلّى عن منصبه إذا كان لي أي اعتراضات لأنه غير مستعد لبدء معاناةٍ جديدة على غرار الجزائر. وبالطبع، كانت كلماته بالنسبة إليَّ عظيمة واتخذتها مصدر ضمانةٍ وإعادة طمأنة من قِبَل الحكومة اللبنانية التي كان من المتوقّع أن يشكّلها بعد الانتخابات سواءٌ بقي السوريون في البلاد أم رحلوا. وكان سياق الأحداث السياسية واضحاً. فالحكومة لن تدخل في نزاعٍ مع المقاومة ولن تتصرّف بشكلٍ معادٍ لها. وعلى الصعيد الشخصي، اعتبر زملائي وأنا كلماته وضماناته كافية. حتى إنه أخبرني بأنه كان راغباً في كتابة وثيقةٍ بهذا المعنى وتوقيعها، ولكنني رفضت وقلت له إن هذا الالتزام الكلامي كافٍ لنا".

(36) مقابلة مع الكاتب - 14 كانون الثاني/يناير 2006.

(37) مقابلة مع الكاتب - 24 أيلول/سبتمبر 2005.

(38) مقابلة مع الكاتب - 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.

(39) مقابلة أجراها الكاتب مع أحد مستشاري الحريري.

(40) مقابلة أجراها الكاتب مع أحد مستشاري الحريري.
(41) مقابلة مع الكاتب - 18 كانون الأول/ديسمبر 2005.
(42) سجّل الحريري سرّاً المحادثة التي جرت في قريطم، وأُدرجت التصاريح المذكورة أعلاه في التقرير المرحلي الأول للجنة التحقيق الدولية المستقلّة التابعة للأمم المتحدة الخاصة باغتيال الحريري بتاريخ 19 تشرين الأول/أكتوبر 2005. وقدّرت اللجنة أن المقابلة المسجَّلة "تناقض بوضوح" تصريحاً أدلى به المعلّم للّجنة "يصف فيه بشكلٍ مغلوط لقاء الأول من شباط/فبراير ـب ’ الودّي والبنّاء ‘ ."ومن جهةٍ ثانية، يمكن اعتبار التعليق المسجَّل للمعلّم بأنه متعاطف مع المحنة التي يمرّ بها الحريري أكثر منه تهديداً، ومُجارٍ لوضعه الأقل تأييداً للسوريين في إطار التوترات القائمة بين الحريري والقيادة السورية. وعلاوةً على ذلك، أخبر فؤاد السنيورة الكاتب بأن المعلّم وافق خلال اللقاء على حضور جلسة مصالحة بين بشار والحريري.
(43) مقابلة مع الكاتب - 27 كانون الثاني/يناير 2006.
(44) مقابلة مع الكاتب - 14 كانون الثاني/يناير 2006.
(45) مقابلة مع الكاتب - 26 كانون الثاني/يناير 2006.
(46) مقابلة أجراها الكاتب مع مصادر حسنة الاطّلاع على الحديث الذي جرى بين لارسن وبشار. ورفض لارسن تأكيد أو نفي الاقتراح الذي تقدّم به لبشار.
(47) مقابلة مع الكاتب - 26 كانون الثاني/يناير 2006.
(48) مقابلة أجراها الكاتب مع مصطفى نصر، الوسيط بين الحريري ونصر الله - 20 تموز/يوليو 2005.
(49) مقابلة مع الكاتب - 9 شباط/فبراير 2006.
(50) مقابلات أجراها الكاتب مع سعد الحريري (13 كانون الثاني/يناير 2006) ومع حارسٍ شخصي لرفيق الحريري.
(51) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.

الفصل السادس

(1) الرواية التالية حول ما تلى الانفجار مرتكزة على المقابلات التي أجراها الكاتب مع عبد عرب، عدنان البابا، كارول فرحات، رامي فاروس،

نجيب فريجي، رشيد محمود، أحمد حُصَري، وليد جنبلاط، فادي خوري، غطاس خوري، سامر رضا، وعامر شحادة.

(2) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.

(3) مقابلات أجراها الكاتب مع المشاركين في اللقاء.

(4) مقابلة مع الكاتب - 24 أيلول/سبتمبر 2005.

(5) انظر "تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلة"، 19 تشرين الأول/أكتوبر 2005.

(6) انظر "التقرير الرابع للجنة التحقيق الدولية المستقلة"، 10 حزيران/يونيو 2006.

(7) صاغت باولا دوبريانسكي أيضاً عبارة "الثورة الأرجوانية" لوصف الانتخابات الوطنية الأولى في العراق في مرحلة ما بعد صدام حسين في كانون الثاني/يناير 2005، ويُنسَب اللون الأرجواني إلى الحبر الذي استُخدم لأخذ بصمة إصبع كل ناخب.

(8) كانت المفاوضات لعودة عون إلى لبنان جاريةً منذ بضعة أشهرٍ قام خلالها لبنانيون موالون لسوريا بالسفر إلى فرنسا للتوسط لصالح لحود والسلطات السورية. والمفاوضات التي لم يكن من المحتمَل نجاحها بين دمشق وعون المناهض لسوريا تقليديّاً قطعت شوطاً في ما يتعلّق بشرح الخيار التالي للجنرال المرتبط بتحالفاته السياسية.

(9) سرت ادّعاءاتٌ على نطاقٍ واسع بشراء أصوات الناخبين خلال الحملة الانتخابية، وطالت بصفةٍ رئيسية كتلة الحريري. وشراء الأصوات هي ميزة تقليدية للانتخابات اللبنانية وتتمّ ممارستها على نطاقٍ واسع. وجاء في تقرير بعثة مراقبة الانتخابات التابعة للاتحاد الأوروبي العائد لتاريخ 20 حزيران/يونيو 2005 أن مراقبيها تلقّوا "عدداً كبيراً من الادّعاءات بشراء الأصوات من مرشَّحين ومجموعاتٍ سياسية منافسة. وشهد المراقبون أيضاً محاولاتٍ قليلة لشراء الأصوات".

الفصل السابع

(1) مقابلة مع الكاتب - 18 كانون الأول/ديسمبر 2006.

(2) كُشِفت الأسماء بسبب خطأٍ مُحرِج نجم عن إرسال نسخاتٍ أوّلية من التقرير إلى أعضاء في مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة قبل

إدخال التغييرات على المستند. وتضمّ هذه التغييرات تاريخ كل تغييرٍ أُدخل على النص ومدّته. وكانت معظم التغييرات أخطاءً نَحْوية، ولكن بدا أن بعض أجزاء التقرير حُذِفت بسبب حساسيّتها. وبالرغم من تأكيدات الأمم المتحدة بأن تقرير لجنة التحقيق الدولية المستقلّة التابعة لها لن يتغيّر، حدثت بعض التغييرات الأكثر حساسيةً بعد تسليم القرار إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان صباح 20 تشرين الأول/أكتوبر 2005. وبالتالي، حملت الأمم المتحدة دتليف مليس، وبشكلٍ جائر إلى حدٍّ ما، على تقديم شروحاتٍ للهيئة الصحافية في الأمم المتحدة حول الأخطاء التي ارتُكبت، عِلماً أنه لا يمكن تحميله مسؤولية إصدار الإذن بنشر التقرير غير المُعَدّ للنشر. فأصرّ على أن كوفي أنان لم يضغط عليه لإدخال أي تغييراتٍ على التقرير، ولكنه كان عاجزاً عن تقديم تفسيراتٍ مُقنعة لسبب إدخال التغييراتٍ بعد تسليم التقرير لأنان.

(3) مقابلة مع الكاتب - 13 كانون الثاني/يناير 2006.

(4) المصدر نفسه.

(5) هسام هسام هو سوري كردي ادّعى بأنه عمل لصالح أجهزة المخابرات السورية في لبنان، وذكر التقرير الأوّلي بعض الادّعاءات القوية له. وقد ظهر فجأةً على التلفزيون السوري التابع للدولة في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر معلناً أن سعد الحريري كان قد حاول رشوته بمبلغ 1,3 مليون دولار نقداً لإطلاق تصريحاتٍ مغلوطة. وأضاف أنه كان قد شاهد نخبةً من الشخصياتٍ اللبنانية البارزة المناهضة لسوريا يدخلون في رتلٍ إلى مقرّ قيادة لجنة الأمم المتحدة لإجباره على توريط أسياده السوريين. وادّعى هسام أن آسريه حقنوه بعقاقير جعلته عاجزاً عن الحركة لمدة 12 يوماً، وذلك لمنعه من الهرب. وكانت المقابلة التلفزيونية والمؤتمر الصحافي اللذان أجراهما في اليوم التالي مبتذلَين جداً لدرجة أنهما كانا غير قابلَين للتصديق، ولكنهما نجحا في زرع بذور الشك حيال نزاهة تقرير مليس. إذا كان هسام يكذب في دمشق، أليس من الممكن أن يكذب أيضاً على لجنة الأمم المتحدة؟ وزهير ابن محمد سعيد الصدّيق الذي كان يعمل في المكتب مع حسن خليل، القائد السابق لجهاز المخابرات السورية، أخبر مليس أنه كان قد رأى عربة النقل من طراز ميتسوبيشي التي استُخدمت لاغتيال الحريري تُملأ بالمتفجرات في قاعدة عسكرية سورية بالقرب من الحدود السورية. وادّعى أيضاً ترتيب لقاءاتٍ للتخطيط للاغتيال. وأوردت مجلة الأخبار در شبيغل الألمانية أن الصدّيق كان محتالاً مُداناً لقّنه رفعت الأسد الشهادة الواجب

لجنة أجرتها التي (DNA (النووي الحمض فحوصات وأشارت بها. الإدلاء .شهادته من جزءاً اختلق الصدّيق أن إلى المتحدة الأمم

(6) تسلّمت بهية الحريري، شقيقة رفيق وعضوٌ في البرلمان، تحذيراً مماثلاً في شباط/فبراير 2006 عندما عُثِر على العديد من الرُمّانات اليدوية التي يمكن قذفها صاروخياً في كيسٍ بلاستيكي على جانب الطريق بالقرب من منزلها في صيدا.

(7) مقابلة مع الكاتب - 18 كانون الأول/ديسمبر 2005.

(8) في صيف العام 2005، قالت إسرائيل إن حزب الله كان قد حصل على أكثر من 13,000 صاروخ معظمها من طراز كاتيوشا القياسية عيار 122 مليمتراً. ومن ضمن الصواريخ المزعومة الأخرى الطويلة المدى صواريخ فجر 3 عيار 240 مليمتراً ويبلغ مداها 43 كيلومتراً، وشقيقتها الكبرى فجر 5 عيار 333 مليمتراً التي يبلغ مداها 70 كيلومتراً، وصواريخ سورية عيار 220 مليمتراً مماثلة للكاتيوشا.

(9) في كلمةٍ له في 25 أيار/مايو 2005 بمناسبة السنوية الخامسة لانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان، أشار السيد حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، إلى المزاعم المتعلّقة بالصواريخ، قائلاً: "بعض الأشخاص يعتقدون أننا نملك 12,000 صاروخ. أقول لكم إننا نملك أكثر من 12,000 صاروخ... كل شمال فلسطين المحتلّة، ومستوطناتها، ومطاراتها، ومرافئها، وحقولها، ومصانعها، ومزارعها هي تحت أقدام وأيدي المقاومة الإسلامية". وفي حين أن التعليق مثالٌ نموذجي عن ذلاقة اللسان الخطابية لنصر الله أكثر منه تأكيدٌ جدّي على أعداد الصواريخ، فقد جمع حزب الله، برأي الكاتب، ترسانةً هامّة من الصواريخ القصيرة المدى والطويلة المدى. وبعد ثلاثة أشهر، أُطلقت ثلاثة صواريخ طويلة المدى - سواءٌ كانت من طراز فجر 3 عيار 240 مليمتراً أو كاتيوشا عيار 220 مليمتراً - من جنوب لبنان في اتجاه الحدود مع إسرائيل. وانفجر أحدها داخل إسرائيل؛ وقصّر الآخران عن بلوغ الحدود وانفجرا دون التسبّب بأي أذى. ونفى حزب الله مسؤوليته عن إطلاق الصاروخ. وكانت المرة الأولى التي تُطلَق فيها صواريخ بعيدة المدى على إسرائيل من لبنان.

(10) على سبيل المثال، قام الجنود الإسرائيليون المتمركزون في مزارع شبعا بإطلاق النار على صيّادٍ لبناني وقتلوه في كانون الثاني/يناير 2006، وكان آنذاك في الجانب اللبناني من الخط الأزرق. وردّ حزب الله على هذا الخرق للخط الأزرق بعد يومَين بقصف مواقع الجيش الإسرائيلي في مزارع

شبعا. وحدث مثالٌ آخر عن سياسة حزب الله في الرّد بالمثل على امتداد الخط الأزرق في تموز/يوليو 2004. فبعد يومٍ من مقتل قائدٍ في حزب الله بانفجار سيارة في بيروت، أُطلقت النار على جنديَّين إسرائيليَّين يقومان بتثبيت هوائيٍّ على سطح موقعٍ عسكري على الحدود وقُتلا من قِبَل قنّاصٍ تابعٍ لحزب الله. وأطلق القنّاص النار على ثلاث جولات من مسافة 500 متر تقريباً، مُصيباً أحد الجنديَّين في رأسه والآخر في صدره ورأسه. وأخبرت مصادر أمنية الكاتب في ذلك الوقت أنها تعتقد أن هدّافي حزب الله منتشرون على امتداد الخط الأزرق مزوَّدين بتوجيهاتٍ لانتهاز الفرص المناسبة للانتقام لاغتيال القائد في حزب الله.

(11) حثّ العديد من المسؤولين الإسرائيليين الكبار، بمن فيهم وزير خارجية إسرائيل آنذاك سيلفان شالوم، أرييل شارون على تبنّي العروض التي تقدّم بها بشار، ظنّاً منهم أنه يُفترَض بإسرائيل استغلال حالة العزلة الدبلوماسية التي تمرّ بها سوريا لتحقيق أفضل اتفاقٍ ممكن. وفي كانون الثاني/يناير 2004، قدّر رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية، أهارون زيف فركش، أن يكون للرئيس السوري "نوايا جدّية". وبطريقةٍ أكثر إثارةً للجدل، خرق رئيس الأركان الإسرائيلي، موشيه يالون، حظراً في آب/أغسطس 2004 عندما أعلن أن التفوّق العسكري الإسرائيلي يمكّنه من الدفاع عن البلد دون الحاجة إلى العمق الاستراتيجي التي توفّره مرتفعات الجولان. ومن جهةٍ ثانية، لم يجد شارون أي سببٍ للدخول في مفاوضات مع بشار فيما تتعرّض سوريا للضغط الدولي، سيّما وأنه كان يخطط للانسحاب المثير للجدل من غزة.

(12) تتضمّن القرارات الصادرة عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار 1559، والقرار 1595 الذي أجاز إنشاء اللجنة التابعة للأمم المتحدة للتحقيق بمقتل الحريري، والقرار 1614 الذي دعا الحكومة اللبنانية إلى نشر جنودٍ على امتداد الحدود مع إسرائيل، والقرار 1636 الذي يطالب بتعاون سوريا مع لجنة الأمم المتحدة ووقف التدخل في الشؤون اللبنانية، والقرار 1664 الذي أجاز إنشاء المحكمة الدولية لمحاكمة أولئك الذين تثبت مسؤوليتهم عن مقتل الحريري. وكان مبعوثو الأمم المتحدة الثلاثة الكبار دتليف مليس (تلاه سيرج برامرتز عندما استقال مليس من اللجنة في كانون الأول/ديسمبر)، تيري رود لارسن الذي تولّى مهمة الإشراف على تطبيق القرار 1559، وغير بيدرسن الممثل الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة لشؤون جنوب لبنان ومركزه بيروت.

(13) مقابلة مع الكاتب - 5 كانون الثاني/يناير 2006.

(14) استُقبلت المطالبة في بادئ الأمر ببعض الارتيابية في لبنان سيّما وأن السياسيين المناهضين لسوريا يعتقدون أن سوريا هي التي كانت قد خطّطت للهجمة الصاروخية. ولكن علاقة القاعدة بهذه العملية تعزّزت في 8 كانون الثاني/يناير 2006 بنشر رسالةٍ مسجَّلة نُسبت إلى الزرقاوي على موقع شبكة الإنترنت التي تستخدمه القاعدة في العراق، ويقول فيها: "لم تكن عملية إطلاق الصاروخ على أسلاف القردة والخنازير من جنوب لبنان سوى بداية ضربةٍ مبارَكة في العمق ضد العدوّ الصهيوني... جاء الهجوم وفقاً لتوجيهات شيخ المجاهدين أسامة بن لادن، حماه الله".

(15) مقابلة مع الكاتب - 5 كانون الثاني/يناير 2006.

(16) مقابلة مع الكاتب.

(17) شارك الكاتب بوضع التقرير مع المحرّر الدبلوماسي لـ التايمز ، ريتشارد بيستن.

(18) عزّزت بعض ذلاّت لسان مسؤولين سوريين الشبهات بأن كنعان قُتِل، أو "انتحر". ففي مؤتمرٍ صحافي متلفَز، قال محمد اللوجي، المدّعي العام الأعلى في سوريا، للصحافيين إن "مرسوم القتل والعفو والاغتيال يصدر عن مكتبه في وزارة الداخلية في الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة قبل الظهر". وبعد يومَين، وأثناء تأبينٍ في مراسم دفن كنعان، استخدم فاروق الشرع كلمة "اغتيال" مرّتَين لوصف وفاة وزير الداخلية، وقال في المرة الثانية "عفواً، انتحار".

(19) مقابلة مع الكاتب.

(20) حُفظت القضية ضد أرييل شارون في ملفٍّ في بروكسل عام 2001 وفقاً لقانونٍ صادرٍ عام 1993 يتناول حق النظر في الدعاوى العالمية والفصل فيها، ويسمح بمحاكمة مجرمي الحرب المشتبَه بهم في بلجيكا بصرف النظر عن جنسية المتَّهَم والضحايا، وأيّاً يكن مكان ارتكاب الجريمة. ووفقاً لهذا القانون، جادل المدّعون قائلين إن شارون قد يكون في وضعٍ يسمح بمحاكمته على دوره في مجزرة صبرا/شاتيلا العائدة للعام 1982. وبعد تحقيق تقدّمٍ كبير، تمّ التخلّص من القضية عام 2003 عندما هدّد دونالد رامسفلد، وزير الدفاع الأميركي، بنقل مقر الناتو من بروكسل إذا لم تعمد الحكومة البلجيكية على تغيير القانون مع مفعولٍ رجعي. وبالرغم من أن اعتراضات رامسفلد كانت تهدف إلى منع محاكمة الجنود الأميركيين الذين يرتكبون جرائم حرب، فإن التدخل قرّر نهائياً مصير القضية المرفوعة ضد

شارون.